مكتبة الدراسات الأدبية
١٩

الدكتور شوقي ضيف

الفنّ ومذاهبه
في النثر العربي

دار المعارف

مكتبة الدراسات الأدبية

١٩

الفنّ ومذاهبه

في النثر العربيّ

تأليف

الدكتور شوقي ضيف

الطبعة التاسعة

دار المعارف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

رجعتُ فى هذه الطبعة أنظر فى فصول هذا البحث أصْلح فيها وأنقّح ما يحتاج إلى إصلاح وتنقيح ، ورأيت أن أعيد كتابة الفصل الثانى من الكتاب الأول الخاص بالصنعة فى النثر الإسلامى ، حتّى أضيف إليه زيادات عن الإسلام ومعانيه الروحية ، والقرآن الكريم وهَدْيه وما كان له من آثار بعيدة فى اللغة العربية ، والحديث النبوى وتدوينه وروعة تعبيره . ومضيت أفصِّل القول فى الخطابة بفروعها الثلاثة من سياسية وحَفْلية ودينية ، ولاحظت أنه أتيح للخطابة الأخيرة خطباء مفوهون ، نوعوا معانيها تنويعاً واسعاً، وعُنوا بأساليبها عناية بعيدة ، وقد هَدَتهم فِطَنَهُم إلى نمط جديد من الصيغ الصوتية ، هو نمط الازدواج وما يُطْوَى فيه من ترادف موسيقى ، ودار هذا النمط على ألسنتهم ، ولم يلبث الكُتّاب — وعلى رأسهم سالم وعبد الحميد الكاتب — أن حاكوهم فى هذا النمط الرائع .

ورأيت أن أبْسُطَ الكلام فى الفصل التالى الخاص بالصنعة فى النثر العباسى . حتّى أوضح كيف تطور المترجمون والمتكلمون — وخاصة المعتزلة — بهذا النثر ، فإذا أسلوب مولَّدٌ جديد ينشأ فيه ، وهو أسلوب مبسَّط وسط بين لغة البدو الجافية ولغة العامة المبتذلة ، وفى الوقت نفسه يحتفظ بالجزالة والرصانة والرونق ، مع مرونته وطواعيته لأداء معان ومدلولات لم يكن للعربية بها عهد .

وقد نهض بهذا الأسلوب نُخْبة من المترجمين فى مقدمتهم ابن المقفع الذى طارت شهرته فى أوائل العصر العباسى لما أظهر من مهارة فى صَبّ خير ما كانت تحمله لغته الفارسية من ثقافات مختلفة فى قوالب عربية أصيلة ، لا يشوبها

أى ضرب من ضروب الرطانة الأعجمية ، فالعربية — عنده — تحتفظ بمشخّصاتها وأصولها وأوضاعها فى النحو والصرف والاشتقاق والتركيب ، بينما تتمثّل معانى الثقافات الأجنبية تمثلا دقيقاً فى ألفاظ مألوفة بيّنة واضحة ، مع حرصه على الدقة والإيجاز ، ومع بعده عن التوعر والتعقيد ، ومع النسج المحكم الدقيق .

ووطّد المتكلمون دعائم هذا الأسلوب العباسي المولّد الجديد ، بما ملكوا من أزمّة العربية وكنوز الفلسفة والثقافات الأجنبية . وقد أثاروا مباحث كثيرة فى علم الكلام وفى الطبيعة والأخلاق ، ولم يكونوا يصنّفون فحسب ، بل كانوا أيضاً يناظرون ويجادلون الدهرية والزنادقة والملحدين بهذا الأسلوب الجديد الذى يموج بالألفاظ الجزلة المونقة والمعانى الغزيرة المرتبة فى مقدمات منطقية دقيقة ومقاييس عقلية سَديدة . وكانوا يفحصون مواد تعبيرهم ويمتحنونها ويختبرونها ، حتى يضعوا دقائق معانيهم فى الألفاظ الطليّة التى توائمها ، ودفعهم ذلك إلى أن يسجلوا ملاحظات مختلفة لهم على صحة مخارج الحروف وجمال الألفاظ ووضوح المعانى ومواطن الإيجاز والإطناب ومحاسن التعبير ، وحاولوا الوقوف على ما سبقهم إليه اليونان وغير اليونان من آراء وملاحظات فى هذه الجوانب ، وبذلك كانوا المؤسسين لأصول البلاغة العربية ، وقد انتهى عندهم الأسلوب العباسى المولّد إلى كل ما كان ينتظره من روعة وجمال فى اللفظ والمعنى .

وكل ما زدته فى هذه الطبعة أو صححته أو نقّحته إنما دفعنى إليه تَحَرِّى الدقة ، ومن رأيى دائماً أن يعيد المؤلف النظر فى مؤلفاته حين يعدّها للطبع من جديد . وبذلك تنمو الدراسة الأدبية ، ويستوفى الدارسُ حقوقَها بقدر ما يستطيع ، فتكثُر الفائدة منها ويزداد النفع . والله أسأل أن يلهمنى السَّداد فى القول والإخلاص فى الفكر والعمل ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

القاهرة فى ١٥ من يناير سنة ١٩٦٠ م .

شوقى ضيف

مقدمة الطبعة الأولى

اتخذتُ فى هذا الكتاب السيرة التى اتخذتها فى كتاب (الفن ومذاهبه فى الشعر العربى) فقد درست هناك الشعر فى عصوره المختلفة دراسة أتاحت لى أن أضع للفن فيه — أو بعبارة أخرى لصناعته — ثلاثة مذاهب ، وهى : الصَّنْعة والتصنيع والتصنع . ومذهب الصنعة هو المذهب الذى نجده فى أقدم نماذج الشعر العربى ، إذ كان أصحابه يخضعون لطائفة من الرسوم والتقاليد فى صُنْعه ، وهى تقاليد ورسوم تجعل الإنسان يشعر بأن أدبنا العربى منذ أقدم العصور أدبٌ تقليدىّ ، إذ تتضح فيه عناصر التقليد اتضاحاً تامًّا ، غير أن هذه العناصر لا تطغى على عناصر التحول والتطور فيه . ومن أجل ذلك كنا لا نمضى فى درس الشعر العربى بعد خروجه من البادية إلى المدن المتحضرة حتى نرى مذهباً جديداً يخرج فى صناعته ، هو مذهب التَّصْنيع الذى كان يقوم على طرائف الزخرف المختلفة من بديع وغير بديع . ونتغلغل فى العصر العباسى فإذا الحضارة العربية تتعقد تعقداً شديداً ، وهو تعقدٌ لم يلبث أن انتقل إلى الصناعة والفن فى الشعر فأهَّل لخروج مذهب جديد هو مذهب التصنُّع الذى كان يقوم على تصعيب طرق الأداء . وقد جمد الفن فى الشعر العربى عند هذه المذاهب الثلاثة ولم يتجاوزها إلى مذهب جديد .

وهذه المذاهب التى فسَّرتُ بها الفن فى الشعر العربى ومراحله المتتابعة هى نفسها التى فسرت — على ضوئها — الفن فى النثر العربى ومراحله المتعاقبة ، فقد بدأتْ صناعة النثر فى العصر الجاهلى بصورة فنية لا تأنق فيها ولا تعقيد تبعاً لحياة العرب البسيطة التى لم تكن تعتمد على تصعيب فى الأداء ولا على تنميق . وفزعتُ فى وصف صورة النثر حينئذ إلى نصوص الشعر الجاهلى لأنها أكثر صحة مما يضاف إلى هذا العصر من خطابة وسجع كُهَّان ، ووجدت

فى هذه النصوص ما يصور تصويراً تامًّا طبيعة النثر الجاهلى وما كان يوفر له أصحابه من تحبير وتجويد .

ويدور الزمن دورة ، وإذا الإسلام يفتح صفحة مشرقة فى تاريخ العرب ، فقد أخرجهم من الظلمات إلى النور ومن دائرة الشعوب القبلية إلى دوائر الأمم المتحضرة . وقد رأيت النثر يستمر فى أثناء العصر الإسلامى فى الصورة التى رسمها العصر الجاهلى من حيث نسجه وصوغه ، وإن اختلفت موضوعاته ، وتشعبت معانيه ، فقد اتسعت الخطابة اتساعاً شديداً ، وأخذ يظهر بجانبها نوع جديد من النثر ، لم يكن للعرب عهد به ، وهو الكتابة الفنية ، أو ما يسميه بعض الباحثين باسم النثر الفنى . واستوعبتُ — فى دقة — نشأة هذا النوع ، وأثبتُّ أنه لم ينشأ بفضل العناصر التى تحدَّرت من أصول أجنبية ، وإنما نشأ بفضل العرب أنفسهم وفى ظل نظمهم السياسية الجديدة . وليس معنى ذلك أنى أنكرت تأثير العناصر الأجنبية فى هذا النوع ، بل لقد أخذتْ تشارك فيه مع مرور الزمن ولكنها مشاركة اتصلت بنموه وتطوره لا بوجوده ونشأته . وما زال هذا النوع يتطور فى العصر الإسلامى حتى وصل إلى عبد الحميد الكاتب فأعطاه صورته النهائية ، وهى صورة اندمجت فى صورة المذهب القديم : مذهب الصنعة والصانعين . وقد ذهبت إلى أن عبد الحميد كان يتصل بالثقافة الفارسية مباشرة ، أما الثقافة اليونانية فاتصل بها عن طريق أستاذه سالم الذى كان يعرفها معرفة وثيقة .

ويدور الزمن دورة أخرى ، فإذا بنا نصل إلى العصر العباسى ، ونلتقى بابن المقفع وسهل بن هرون والجاحظ وأضرابهم ممن كانوا يعنون بالكتابات الطويلة ، أو بعبارة أخرى بالرسائل والكتب الأدبية ، وقد حافظتْ هذه الجماعة على إطار النثر الذى تسلمته من عبد الحميد الكاتب ، فلم تخرج به إلى مذهب جديد ، بل عاشت فى إطار مذهب الصنعة القديم ، على الرغم من البون الشاسع بين ثقافتها وثقافة أصحاب المذهب فى العصور السابقة . وقد أوضحت منزلة ابن المقفع وما استطاع أن ينهض به من الملاءمة بين العربية وما نقل إليها

من كنوز الآداب الأجنبية ، إذ استطاع أن يحتفظ لها بخصائصها وبأسلوبها الجزل الرصين. أما الجاحظ فعُنيت ببيان فنه عناية واسعة ، ودرست له (رسالة التربيع والتدوير) دراسة مفصلة ، وذهبتُ فى تعليل تكراره المسرف إلى أنه كان يُملى كثيراً من كتبه ، إذ أملى البيان والتبيين والحيوان والبخلاء ورسالة التربيع والتدوير نفسها ، ومن أجل ذلك اتّسَمَتْ كتاباته – غالباً – بمياسم كتب الإملاء والمحاضرة من حيث التكرار والاستطراد وما يتصل بذلك أحياناً من خلل فى البناء .

ولما تركتُ هذه الجماعة من أصحاب الكتابات الطويلة فى العصر العباسى إلى أصحاب الكتابات الرسمية القصيرة ، أو بعبارة أخرى أصحاب الدواوين والكتابة الديوانية ، وجدت هذه الجماعة الثانية تسعى إلى إحداث مذهب جديد ، هو مذهب التصنيع ، وهو مذهب كان يعبر تعبيراً دقيقاً عن الحضارة العباسية وما يطوى فيها من تأنق وتنميق . وما زالتْ مقدماتُ هذا المذهب تتراءى – من حين إلى حين – فى الدواوين العباسية حتى إذا كان مطلع القرن الرابع للهجرة وجدت السجع يعمُّ فى دواوين المقتدر . وما لبث ابن العميد وزير البويهيين أن وصل بهذا السجع إلى ما كان ينتظَر له من ترصيع بطرائف البديع المعروفة من جناس وطباق وتصوير . وعللتُ لاكتمال المذهب عند ابن العميد بأنه كان يتقن فن التصوير وعلم الحِيَل (الميكانيكا) فذهب يحتال فى نماذجه حيلا أدّته إلى أن يوفر لها كل ما يستطيع من زخارف السجع والبديع . ووقفت بعد ذلك عند أنصار هذا المذهب من مثل الصاحب بن عباد وأبى إسحق الصابى والخوارزمى وبديع الزمان ، ولاحظت أن بذوراً مكتنَّة لمذهب ثالث أخذت تظهر عند الأخيرَيْن ، وقد بدت فى شكل أتم وأوضح عند قابوس بن وشمكير . وما هى إلا أن يدور الزمن دُورة ، فإذا هذا المذهب تتم له صورته عند أبى العلاء ، ونقصد مذهب التصنُّع الذى كان يقوم على تصعيب طرق الأداء وتعقيدها ضروباً من التعقيد ، وإن الإنسان ليشعر كأن التعقيد أصبح غاية فى نفسه ولنفسه ! واستطردت من أبى العلاء إلى الحريرى فى آثاره والحصكفى فى نماذجه ،

وفسَّرت ما نهضبا به من تعقيد فى أدوات فنهما ووسائله .

ويدور الزمن بعد ذلك فى العصور الوسطى دورة بل ما شاء من دورات ، فلا يظهر مذهب جديد فى صناعة النثر العربى وصياغته ، بل يجمد الأدباء عند صورة المذهب الأخير ، ويمكثون فى إطارها حائرين حتى العصر الحديث . وهذه هى المذاهب أو المراحل التى مرّ بها الفن فى النثر العربى ، فقد بدأ بمرحلة الصَّنْعة ، ثم انتقل إلى مرحلة التصنيع ، وما لبث أن انتهى إلى مرحلة التصنُّع ، وتحجَّر فى هذه المرحلة فلم يستطع منها إفلاتاً ولا خلاصاً . وقد ذهبت أدرس هذا النثر فى الأندلس ومصر فتعقَّبت فى الإقليمين نشأته ، وتطوره ، ومناهجه ، وأشهرَ أساتذته وأعلامه ، وانتهيت من هذا التعقب إلى أن الأندلس ومصر جميعاً لم يستحدثا مذهباً يمكن أن نضمه إلى جملة المذاهب التى ظهرت فى المشرق . وإن الباحث ليشعر كأنما كانت أصول المذاهب المشرقية فى صناعة الأدب العربى : شعره ونثره أثبت وأصلب فى تاريخ هذا الأدب من أن يصيبها أىّ إقليم من الأقاليم العربية بضرب واسع من ضروب التحريف والتغيير . وليس معنى ذلك أن مصر والأندلس لم تعبرا عن شخصيتهما أى تعبير فى أدبهما ، بل لقد عبَّرتا ولكن فى طاقة محدودة وداخل المذاهب المشرقية الموضوعة . وسُقْت بعد ذلك خاتمة عرضت فيها بإيجاز لنهضة النثر المصرى الحديث .

وهذه الدراسة المتشعبة للنثر العربى وما مرّ به من أحداث فى عصوره وأقاليمه المختلفة جعلتنى أرجع إلى كل ما استطعت من كتب الأدب والتاريخ والجغرافية عند العرب ، وكذلك رجعت إلى طائفة من كتب المستشرقين . وينبغى أن أشير هنا إلى صعوبة هذا البحث وكثرة ما صادفنى فيه من مشاكل ، كما ينبغى أن أشير إلى أنه كانت غايتى الأساسية — منذ الخطوات الأولى فيه — أن أضع أمام القارئ الصُّوَر الدقيقة للنثر العربى فى مختلف أطواره ومراحله ، وهى صور حاولت أن أحتفظ لها بخصائصها ، فلم أعتمد على حكاية إحساسى وشعورى إزاء نماذجها ؛ وأيضاً فإننى لم أعتمد فى مسألة على الفروض والأوهام ، وإنما

اعتمدت على النصوص الحسية نفسها . وكل ما أرجوه أن أكون قد عرّفت – بعض التعريف – بالنثر العربى فى مختلف مناهجه ومذاهبه ، وهو تعريف قصدت به فى هذا الكتاب – كما قصدت فى كتاب « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » – أن أحبِّب قراءة أدبنا إلى شباب العصر الحديث الذين يؤمنون بفكرة المذاهب والمناهج وتطبيقها فى الدراسات المختلفة . والله ولىّ الهدى والتيسير .

شوقى ضيف

القاهرة فى ١١ من أبريل سنة ١٩٤٦ م

الـكتاب الأول

مذهب الصنعة

الفصل الأول

الصنعة فى النثر الجاهلى

١

النثر الجاهلى

النثر هو الكلام الذى لم يُنْظَمْ فى أوزان وقواف ، وهو على ضربين : أما الضرب الأول فهو النثر العادى الذى يقال فى لغة التخاطب ، وليست لهذا الضرب قيمة أدبية إلا ما يجرى فيه أحياناً من أمثال وحِكَم ، وأما الضرب الثانى فهو النثر الذى يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة ، وهذا الضرب هو الذى يُعنَى النقاد فى اللغات المختلفة ببحثه ودَرْسه وبيان ما مرَّ به من أحداث وأطوار ، وما يمتاز به فى كل طور من صفات وخصائص ، وهو يتفرع إلى جدولين كبيرين ، هما الخطابة والكتابة الفنية — ويسميها بعض الباحثين باسم النثر الفنى — وهى تشمل القَصَص المكتوب كما تشمل الرسائل الأدبية المحبَّرة ، وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة .

ومن يرجع إلى العصر الجاهلى وأخباره يجد هذا الضرب الأخير من النثر يلعب دوراً مهمًّا فى حياة العرب حينئذ ، إذ كان عرب الجاهلية مشغوفين بالتاريخ والقصص عن فرسانهم ووقائعهم وملوكهم ، يقطعون بذلك أوقات سمَرهم فى الليل وحول خيامهم ، وقد دارت بينهم أطراف من أخبار الأمم المجاورة لهم ممتزجة بالخرافات والأساطير ، ففى السيرة النبوية أن النَّضْر بن الحارث المكى كان يقص على قريش أحاديث عن أبطال الفرس أمثال رُسْتَم وإسْفِنْديار(١) وأكثر ما كان يستهويهم من القصص أحاديث قُصَّاصهم عن

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (طبع الحلبى) ٦٩/١ .

أيامهم وحروبهم فى الجاهلية ، مما يصوره لنا كتاب شرح النقائض لأبى عبيدة وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى وقد تلاهما اللغويون والأدباء يعنون بتلك الأيام والحروب عناية واسعة(١) على نحو ما هو معروف عن ابن عبد ربه فى « العقد الفريد » وابن الأثير فى الجزء الأول من كتابه « الكامل » والميدانى فى الفصل التاسع والعشرين من كتابه « مجمع الأمثال » .

وينبغى أن لا نعلّق أهمية تاريخية أو أدبية على هذا القصص ، فإن الرواة حرّفوا فيه كثيراً قبل أن يأخذ شكله النهائى عند أبى عبيدة وغيره من مؤلفى العصر العباسى . وتوضّح ذلك توضيحاً تامًّا قصةُ الزبّاء ملكة تدمر ببادية الشام فى القرن الثالث الميلادى ، وهى تلك القصة التى رويت فى الكتب العربية عن هشام بن محمد الكلبى(٢) ، والتى تزعم أنها بنت عمرو بن الظرب العمليقى وأن حروباً نشبت بينه وبين جَذيمة الأبرش ملك الحيرة وتنوخ انتهت بقتل عمرو ، فاحتالت بنته الزباء على جذيمة ، حتى قدم عليها فقتلته ، وخلَفه ابن أخته عمرو بن عدى ، فاحتال بمساعدة أحد أتباعه — ويسمى قصيراً — حتى انتقم منها فى مدينتها التى بنَتْها على الفُرات ، بأن حَمل إلى حِصْنها رجالا فى جواليق أو صناديق ، وفتحتْ له الحصن ، وهى تظنه يحمل بعض عُروض التجارة ، وخرج الرجال من الجواليق ، فقتلوها واستولوا على المدينة . وهى أسطورة لا تتفق فى شىء ووثائق التاريخ الرومانى الصحيحة عن الزباء أو كما يسمونها زنوبيا Zenobia زوج أذينة الذى قُتل غدراً . وقد نشرت سلطانها على العراق والشام ومصر وآسيا الصغرى ، وصارعت الرومانَ صراعاً عنيفاً ، حتى تصدى لها « أورليان » وانتصر على جيوشها وحاصر حاضرتها تدمر . وطال الحصار ويئست من النصر فحاولت الفرار ولكن جنوده تعقبوها وأسروها ، وأخذها معه أسيرةً إلى روما حيث قضت بقية أيامها(١) .

(١) انظر الفن الأول من المقالة الثالثة فى الفهرست لابن النديم .

(٢) راجع الأغانى ١٦/٧٠ وابن الأثير (طبعة ليدن) ١/٢٤٧ وابن خلدون (طبعة فاس ٢٢/٤٥ .

(٣) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد على (طبع بغداد — ١٩٥٣) ٣/٩٩ وما بعدها .

وكأن لا علاقة بين شخصية زنوبيا التاريخية وشخصية الزباء فى القصة العربية ، فقد غُيِّرتْ فى القصة جميع المعالم التاريخية ، حتى مدينتها تدمر وضع القصاص مكانها مدينتين بنتهما على الفرات ، وحتى اسمها وهو « زنوبيا » حُرِّف إلى الزباء ، وقد جلبوا جذيمة من الحيرة ليحلّ محل زوجها أذينة الذى قُتل غدراً .

وإذا كنا لا نستطيع أن نعتمد على هذا القصص فى حوادث التاريخ فأولى لنا أن لا نعتمد عليه فى وصف صورة النثر الجاهلى وبيان خصائصه الفنية ، لأنه لم يُكْتَبْ فى العصر الجاهلى ولا فى عصر قريب منه ، وإنما كُتب فى العصر العباسى . ومن أجل ذلك كنا لا نستطيع أن نعتدّ — من الوجهة الأدبية — بما يروى عن هذا العصر من عناصر القَصَص والتاريخ ، لأن الرواة حرّفوا لفظه ، بل لقد حرفوا معناه على نحو ما حرفوا قصة زنوبيا أو بنت زباى وأخبارها . ولو أن العرب كتبوا تاريخهم وقصصهم فى العصر الجاهلى لاعتددنا بهذا اللون من نثرهم ، ولكنهم لم يكتبوا منه شيئاً . أما ما يرْوَى عن هشام بن محمد الكلبى من أنه رأى فى بِيَعِ الحيرة بعض مدونات استخرج منها أخبار العرب[١] فإننا لا نستطيع الاعتماد على روايته لأنه متهمٌ فى كثير مما يرويه[٢] ، وحتى لو صحت روايته فأغلب الظن أن ما شاهده من تلك المدوّنات لم يكن مكتوباً بالعربية ، إنما كان مكتوباً بالسريانية التى كانت شائعة فى الحيرة قبل الإسلام[٣] .

والحق أنه لا يوجد تحت أيدينا دليل مادى على أن العرب تركوا فى العصر الجاهلى مدونات تاريخية أو أدبية ، وليس معنى ذلك أن الخطّ العربى لم يكن قد نشأ ، فالنقوش المكتشفة حديثاً تؤكد أنه تمّ تكونه فى الحجاز منذ القرن السادس الميلادى ، ومنها انتشر فى بعض البيئات الصحراوية ، وقد جاء الإسلام

---

(١) انظر الطبرى (طبع ليدن) : القسم الأول ص ٧٧٠ .

١٠/ ٤٠ .

(٢) أغانى (طبع دار الكتب المصرية)

(٣) أصل الخط العربى لخليل نامى ص ٤ .

وفى مكة سبعة عشر كاتباً [١] ، وفى المدينة أحد عشر [٢] ، وكان بين البدو من يعرف الكتابة مثل أكثم بن صيفى [٣] حكيم تميم وخطيبها ، وكان ابن أخيه حنظلة بن الربيع من كُتّاب الرسول صلى الله عليه وسلم [٤] . ومن الشعراء المتبدين الذين اشتهروا بمعرفة الكتابة فى هذا العصر المرقّش الأكبر [٥] وهو من بكر ، ولَبيد [٦] بن ربيعة وهو من بنى عامر بن صعصعة . ولعل من الدليل على شيوع الكتابة بين البدو أننا نجد شعراءهم يصفون الأطلال كثيراً بنقوش الكتابة ، يقول المرقش فى فاتحة قصيدة له معروفة [٧] :

الدارُ قَفْـرٌ والرسـومُ كما ... رَقَّشَ فى ظهر الأديم قلمْ

ويقول لبيد فى مطلع معلقته :

عَفَتِ الديارُ محلُّها فمقامها ... بمنًى تأبَّد غولها فرِجامُها [٨]
فمدافعُ الريّان عُرِّىَ رَسْمُها ... خَلَقاً كما ضَمِنَ الوحىَّ سِلامها [٩]

والوُحِىّ : الكتابة ، والسِّلام : الحجارة البيض والعظام التى كانوا يكتبون عليها ، وكانوا يكتبون أيضاً فى الأدَم أو الأديم الذى مرّ عند المرقش وهو الجلد المدبوغ ، كما كانوا يكتبون فى عُسُب النخل . ويستمر لبيد فى معلقته فيقول :

وجلا السيولُ عن الطلول كأنها ... زُبُرٌ تُجِدّ متونَها أقلامُها

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى (طبعة أوربا) ص ٤٧١ .
(٢) نفس المصدر ص ٤٧٣ .
(٣) مجمع الأمثال للميدانى (طبعة المطبعة الخيرية) ٢/٨٧ وقارن بما جاء فى عيون الأخبار لابن قتيبة (طبعة دار الكتب) ١/٤٢ .
(٤) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى ص ٢١٢) .
(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبع ليدن) ص ١٠٤ .
(٦) أغانى (طبعة الساسى) ١٤/٩٠ .
(٧) المفضليات (طبعة لايل) ص ٤٨٥ .
(٨) عفت : أرست وامحت . تأبد : أقفر وتوحش . محلها ومقامها ومنى وغولها ورجامها : أسماء مواضع .
(٩) مدافع الريان : موضع . خلقا : بلى ودروساً . الرسم : آثار الديار .

والزبر : الكتب . ويقول الأخنس بن شهاب التغلبي [١] :

لإبنة حِطَّانَ بن ِ عَوْفٍ منــازلٌ كما رقَّش العنوان فى الرَّقّ كاتبُ

والرق : الجلد الرقيق ، ويقول سلامة بن جندل الفارس المعروف [٢] :

لمن طللٌ مثل الــكتاب المنمَّــق خلا عَهْدُه بين الصُّلَيْبِ فمُطْرِقِ

وقد ردَّد شعراء البادية هذه الصورة كثيراً فى شعرهم [٣] . وما من ريب فى أن ذلك يؤكد أن الكتابة كانت معروفة فى العصر الجاهلى ، ولكن هذه المعرفة شىء وأن العرب أحدثوا بها آثاراً فنية مكتوبةً شىءٌ آخر. هم عرفوها ، ولكنها معرفة محدودة ، فلم يكتبوا بها كتباً ولا قصصاً ولا رسائل أدبية ، وإنما كتبوا بها بعض أغراض تجارية وأخرى سياسية ، ولذلك لم يكن غريباً أن تشيع فى مكة لأنها كانت مركزاً تجاريـًّا عظيماً . ويحدثنا الجاحظ أنهم كانوا يكتبون بعض عهودهم السياسية ، وكانوا يسمون تلك العهود المكتوبة « مهارق » [٤] وقد جاء ذكر هذه المهارق فى معلقة الحارث بن حِلِّزة مشيراً بها إلى ما كُتب من عهود بين بكر وتغلب ، إذ يقول :

واذكروا حِلْفَ ذى المجـاز وما قُـ دِّمَ فيـه العهودُ والكُفَلاءُ

حذرَ الجورِ والتعدِّى وهــل ينْ قضُ ما فى المهــارق الأهــواءُ

وإذاً فالعرب استخدموا الكتابة فى العصر الجاهلى لأغراض سياسية وتجارية ، ولكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية خالصة تتيح لنا أن نزعم أنه وُجد عندهم لون من ألوان الكتابة الفنية . ومن المؤكد أن الكتابة لم تكن حينئذ تؤدِّى بجانب أغراضها السياسية والتجارية أغراضاً أدبية أو فنية من تجويد وتحبير ، إذ لم تكن أكثر من كتابة ساذجة أدَّتْ أغراضاً خاصة فى عصرها ، وانتهت بانتهاء هذا الغرض .

ومما لاشك فيه أنه لا يوجد تحت أيدينا وثائق نستطيع أن ندَّعى بها أن

---

(١) المفضليات ص ٤١٠ .

(٢) المفضليات ص ٥٦٠ .

(٣) المفضليات ص ٢٦٣ وص ٥٥٩ ومابعدها .

(٤) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ١/ ٦٩.

الجاهليين عرفوا الكتابة الفنية ، إنما الذى نستطيع أن ندعيه لهم حقًا — عن طريق الوثائق الصحيحة — هو الأمثال ، فقد أكثروا من ضَرْبها ، وهناك كتب مشهورة تتخصص ببحثها . وبجانب الأمثال نعرف أنه كان لهم خطابة وخطب كثيرة ، وقد أخذت الخطابة عندهم صورتين : صورة اجتماعية عامة فى منافراتهم ومفاخراتهم ومجامعهم وأسواقهم وحروبهم ، وصورة خاصة فى سجع الكُهـَّان وما كان ينزلق على ألسنتهم أثناء تكهنهم .

وقد سلمتْ لنا طائفة واسعة من الأمثال تناقلتها أجيالهم والأجيال التى تلتها فى الإسلام مما أتاح لها أن تحتفظ بصورتها الجاهلية ، ومعروف أن الأمثال لا تتغير بل تظل طويلا على هيئتها التى صيغت عليها . وأما الخطابة وسجع الكهان فضاعت نصوصهما إلا قليلا جدًّا ، إذ بقيت بعض قطع وبعض صيغ منثورة فى ثنايا الكتب التاريخية والأدبية . وما دمنا بصدد درس النثر الجاهلى فلا بد من تعقب هذه الفروع الثلاثة من الأمثال والخطابة وسجع الكهان ، لنرى — بمقدار ما تُسعفنا النصوص — ما أتيح لكل منها من صناعة فنية وبراعة أدبية .

٢

الأمثال الجاهلية

خـَلَّفَ لنا عربُ الجاهلية تراثًا كبيراً من الأمثال ، وهى عبارات تُضْرَبُ فى حوادث مشبهة للحوادث الأصلية التى جاءت فيها ، وقد عُنى علماء العصر العباسى بدراستها ، وممن سبق إلى ذلك المفضَّل الضبِّى وأبو عبيدة ، ثم خلَفَ من بعدهما خـَلْفٌ أشهرهم أبو هلال العسكرى فى كتابه « جمهرة الأمثال » والميدانى فى كتابه « مجمع الأمثال » وهو يقول فى مقدمته إنه رجع فى تأليفه إلى ما يربو على خمسين كتاباً . وقد دَرَجَ من ألـَّفوا فى الأمثال على أن يرتبوها حسب

حروفها الأولى على نحوما ترتب المعاجم ألفاظها ، ولذلك نراهم يوزعونها عادة على تسعة وعشرين باباً بعدد أبواب الحروف الهجائية . ثم بعد هذا التوزيع يفسرونها ويقصون أحياناً حوادثها التى جاءت فيها معتمدين — غالباً — على الظن والتخمين ، مما جعل نيكلسون يذهب إلى أن قيمة الأمثال محدودة بالنسبة إلى العصر الجاهلى[١] . وحقاً ما يذهب إليه ، فقد طال العهد بين العصر الجاهلى وعصر هؤلاء المفسرين . وإنه لينبغى أن نثنى على صنيعهم ، ولكن مع شيء من الحذر فى الأخذ بتفسيرهم وقصصهم وما يحكونه من أخبار ، مادمنا نتهم القصص الجاهلى وما نسب إلى عرب الجاهلية من أخبار وأحداث.

ومعروف أن المثل لا يتغير ، بل يجرى كما جاء على الألسنة ، وإن خالف النحو وقواعد التصريف ، فقد جاء فى أمثالهم : أعطِ القوس باريها[٢] بتسكين الياء فى باريها ، والأصل فتحها ، وجاء أيضاً فى أمثالهم : « أجناؤها أبناؤها » جمع جان وبان ، والقياس الصرفى : جناتها بناتها لأن فاعلا لا يجمع على أفعال . وتقول : الصيفَ ضيعتِ اللبن[٣] بكسر التاء إذا خوطب بها المذكر والمؤنث والاثنان والجمع . ومعنى ذلك أن المثل لا يغير وأنهم يستجيزون فيه ما لا يستجيزون فى سائر الكلام .

وينبغى أن نلاحظ أن بعض الأمثال مبهم غامض ، لا يفهمه سامعه أو قارئه إلا إذا رجع إلى كتب الأمثال يستعين بها فى شرح المراد منه ، من ذلك قول العرب : « بعَيْنٍ ما أرينَّك » فإن معناه أسرعْ ، وهومعنى لايفهم من اللفظ بتاتاً ، وقد علق عليه أبو هلال العسكرى بقوله : « هو من الكلام الذى قد عُرف معناه سماعاً من غير أن يدلّ عليه لفظه »[٤] . ومن هذه الأمثال الغامضة ما اضطرب الشراح فى تفسيره على نحومانجد فى هذا المثل : « لايعرف

---

(١) Nicholson, A Literary History of the Arabs, 1930, p. 31.

(٢) أى استعن على عملك بأهل الحذق والمهارة

(٣) يضرب هذا المثل فى طلب الحاجة بعد فوت أوانها .

(٤) جمهرة الأمثال للعسكرى على هامش مجمع الأمثال للميدانى ١/١٦٨ .

الهِرَّ من البِر» . فقد ذكر بعضهم أن الهر : السنور ، والبر : الفأرة فى لغة ، وقال بعض علماء الكوفة معنى المثل : لا يعرف من يَهُرُّه عليه (يكرهه) ممن يبره ، وقال آخرون: الهر : دُعاء الغنم ، والبر : سَوْقها[١] . على أن هذه الأمثال الغامضة قليلة ، أما الكثرة فواضحة بينة .

وقد أكثر العرب من صنع الأمثال وضَرْبها فى جميع أحداثهم وشئون حياتهم ، وكثيراً ما كانوا يسوقونها فى خطابتهم ، يقول الجاحظ : « كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدةَ أمثالٍ سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع »[٢] فقد أودعوها تجاربهم ، فاتسمت بالقبول وشاعت بالتداول ، على شاكلة قولهم :

أىُّ الرجل المهذبُ — إياك أعنى واسمعى يا جارة [٣] — تجوع الحرة ولا تأكل بثَدْيَيْها[٤] — رب عجلة تَهَبُ رَيْثاً[٥] — رمتْنى بدائها وانسلَّتْ — لا تعدم الحسناء ذاماً[٦] ، لكل جواد كَبْوة ولكل صارم نَبْوة — مَقْتَلُ الرجل بين فَكَّيْه[٧] — المقدرة تذهب الحَفيظة[٨] — من سلك الجدَد[٩] أمن العِثار — أسمعُ من فرس فى غَلَس[١٠] — إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد — الحرُّ حُرٌّ وإن مسَّه الضر — إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه — أسمع جَعْجَعَةً ولا أرى طحناً[١١] — من أجدبَ انتجع[١٢] — ويل للشجىِّ من الخَلىِّ[١٣] — من استرعى الذئب

---

(١) المزهر للسيوطى (طبعة الحلبى) ١ / ٥٠٠

(٢) البيان والتبيين للجاحظ (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١ / ٢٧١ .

(٣) يضرب فى التعريض بالشىء يبديه الشخص وهو يريد غيره .

(٤) لا تأكل بثدييها : أى بثمن لبن ثدييها . يضرب فى صيانة الرجل الحر نفسه عن المكاسب الخسيسة .

(٥) الريث : البطء . أى رب عجلة تلقى صاحبها فى بطء فتفوته حاجته .

(٦) الذام : العيب .

(٧) بين فكيه : أى فى لسانه وما يأتى به من الكلام .

(٨) الحفيظة : الغضب . يضرب فى العفو عند المقدرة .

(٩) الجدد : الطريق الواضحة .

(١٠) الغلس : الظلام .

(١١) الجعجعة : صوت الرحى ، والطحن : الدقيق .

(١٢) انتجع : طلب الكلأ فى مواضعه .

(١٣) الشجى : المهموم ، والخلى : الخالى من الهموم .

ظلم – لا تلد الحيَّة إلا حية – كل مُجْرٍ فى الخلاء يُسَرّ[1] – قبل الرِّماء تُملأ الكنائن[2] .

وهناك جماعة اشتهرت فى العصر الجاهلى بكثْرة ما انزلق على ألسنتها من هذه الأمثال ، ومن قدمائهم لُقْمان عاد ؛ تلك القبيلة اليمنية البائدة التى كانت تسكن الأحقاف ، فإننا نجد ذكراه واضحة على ألسنة الشعراء[3] ، يقول الجاحظ : « كانت العرب تعظم شأنه فى النباهة والقدر وفى العلم والحُكم وفى اللسان والحلم »[4] ويقول أيضاً : « من القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنَّكراء لقمان »[5] . وهو غير لقمان الحكيم الذى جاء فى القرآن الكريم[6] . ويذهب كاتب مادة لقمان فى دائرة المعارف الإسلامية إلى أن شخصية لقمان مرت بثلاث مراحل : (ا) مرحلة جاهلية وفيها يتراءى لنا لقمان عاد المعمَّر صاحب قصة النسور ، إذ يزعمون أنه عاش عمر سبعة نسور ، كلما هلك نسر خلَفَ من بعده نسر ، وكان آخرها لُبَداً الذى ذكره الشعراء كثيراً فى أشعارهم[7] . (ب) ومرحلة قرآنية ، وفيها يتراءى لنا لقمان صاحب السورة الخاصة به . وقد ربط المفسرون بين لقمان هذا وبين بلعام حكيم بنى إسرائيل ، فقالوا إنه لقمان بن باعور بن ناحور بن تارخ ، وهو نفس نسب بلعام[8] . (حـ) ثم مرحلة متأخرة ، وهى مرحلة نُسج فيها حول لقمان قَصص كثير على نحو ما نجد فى كتاب « أمثال لقمان » وهو مكتوب بأسلوب ركيك ، يغلب عليه الابتذال .

---

(١) المجرى : الذى يجرى فرسه . يضرب مثلا للرجل يحمد بعض خلاله ولا يشعر بفضائل غيره .

(٢) الكنائن : جمع كنانة ، وهى جعبة السهام .

(٣) البيان والتبيين (طبعة الحلبى) ١٨٣/١ – ١٨٩ ، ٣٠٤/٣ .

(٤) البيان والتبيين ١٨٤/١ .

(٥) نفس المصدر ٣٦٥/١ .

(٦) انظر البيان والتبيين ١٨٤/١ وراجع تفسير أبى حيان (طبع مطبعة السعادة) ١٨٦/٧ وقصص الأنبياء للثعلبى (طبعة القاهرة) ٣٤٠ وخزانة الأدب للبغدادى (طبع بولاق) ٧٧/٢ .

(٧) انظر كتاب المعمرين للسجستانى (طبع مطبعة السعادة) ص ٣ وحياة الحيوان للدميرى (طبع المطبعة الخيرية) ٣٠٦/٢ .

(٨) راجع الثعلبى ٣٤٠ وتفسير أبى حيان ١٨٦/٧ .

ولا نستطيع أن نسلم بما تقوله دائرة المعارف الإسلامية إلا إذا سلمنا بأن لقمان عاد هو نفس لقمان المذكور فى القرآن ، وليس بين أيدينا ما يثبت ذلك ، بل على العكس نرى علماء العرب يفرقون بينهما دائماً . وقد روت كتب الأمثال عن الأول بعض أمثاله[١] ، بينما روى الإمام مالك فى كتابه « الموطأ » بعض أمثال لقمان الحكيم .

وممن عُرف بكثرة الحكم والأمثال فى الجاهلية أكثم بن صيفىّ التميمى[٢] ، ومما ينسَب إليه من الحكم : تباعدوا فى الديار تقاربوا فى المودة — ليس من العدل سرعة العَذْل — لو أنصف المظلوم لم يبق فينا ملوم. ومن أشهر حكمائهم عامر بن الظَّرِب[٣] ، وكان حَكَماً للعرب تحتكم إليه[٤] ، وافتخر به ذو الإصبع العَدْوانى فى بعض شعره[٥] ، ولا يكاد يوجد فى العصر الجاهلى سيد مشهور أو خطيب معروف إلا وتضاف إليه جملة من الحكم والأمثال .

٣

الصنعة فى الأمثال الجاهلية

من يُنْعم النظر فى الأمثال الجاهلية يجد طائفة منها تُوفَّر لها ضروب من القيم التصويرية والموسيقية ، ففيها أحياناً تشبيه واستعارة وكناية وتمثيل ، وفيها أحياناً أخرى صقل وسجع وتنميق . ونحن نصطلح على تسمية هذه القيم الفنية التى تقابلنا فى نصوص الأدب الجاهلى نثره وشعره باسم الصَّنْعة . وقد تسربت إلى الأمثال بعضُ هذه القيم التى كانت تشيع فى نثر الجاهليين وشعرهم . وليس معنى ذلك أنهم حققوا لأمثالهم جميعاً ضروباً مختلفة من هذه القيم ، فذلك إنما يظهر فى القلة القليلة ، أما الكثرة فمغسولة من كل فن وبيان ، ومرجع ذلك

---

(١) انظر مجمع الأمثال للميدانى ١/٢٣، ٥٦

(٢) راجع مجمع الأمثال ٢/١٤٥ وجمهرة الأمثال للعسكرى على هامشه ١/١٢٠ وشرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة (طبع مطبعة دار الكتب العربية الكبرى) ٤/١٥٥ .

(٣) انظر مجمع الأمثال ١/٢١١، ٢/١٨٣

(٤) البيان والتبيين ٣/٣٨ .

(٥) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/٩٠ .

إلى أن الأمثال تجرى فى لغة التخاطب وأحاديث الناس اليومية العادية ، وقلما نمَّقَ أصحاب هذه الأحاديث لغتهم أو حاولوا أن يوفروا لها ضروباً من الجمال الفنى البديع . ومن ثَمَّ كان كثير من الأمثال الجاهلية يخلو خلوًّا تامًّا من المهارة البيانية، وقد مر بنا أن طائفة منها تخرج على الأصول الصرفية والنحوية، ومن أجل ذلك قالوا: إنه يجوز فيها من الحذف والضرورات ما لا يجوز فى سائر الكلام[1].

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الأصل فى الأمثال أن لا تكون مصقولة ولا مصنوعة، لأنها من لغة الشعب ، وقلما نمق الشعب فى لغته ، غير أنه كثيراً ما تصدر الأمثال عن الطبقة الراقية فى الأمة: طبقة الشعراء والخطباء ، فتحقَّق لها هذه الطبقة ضروباً من عنايتها العامة بفنِّها . وهذا هو مصدر الاختلاط فى الحُكْم على الأمثال ، فبينما نجد أمثالا غير مصقولة نجد أخرى تفنن أصحابها فى صَوْغها وإخراجها فى أسلوب بليغ على شاكلة تلك الأمثال :

أنْقى من مرآة الغريبة — كالمستجير من الرَّمْضاء[٤] بالنار — إن البغاث بأرضنا يَسْتَنْسِرُ[٣] — وراءَ الأكمة ما وراءها — حلَبَ الدهرَ أشْطُرَه[٤] — يخْبِط خبط عشواء[٥] — تطلب أثراً بعد عَيْن[٦] — فى الجَريرة تشترك العشيرة[٧] عند الصباح يحمد القومُ السُّرَى[٨] — تحت الرَّغْوَةِ اللبن[٩] الصريح — هُدْنة على دَخن[١٠] — حال الجَريض دون القريض[١١] — رُبَّ صَلَف تحت الراعدة[١٢] وقد يأتيك بالأخبار من لم تزوِّد[١٣] — استَنْوَق الجملُ[١٤] — كذى العُرِّ يُكْوَى

(١) المزهر للسيوطى ١/٤٨٧ .

(٢) الرمضاء : الأرض شديدة الحرارة .

(٣) البغاث : ضعاف الطير . يضرب مثلا للشخص يكون ضعيفاً ثم يقوى كالنسور فى عالم الطير .

(٤) الأشطر : جمع شطر ، وهى أخلاف الناقة . يضرب مثلا لمن عرك الدهر .

(٥) العشواء : الناقة ضعيفة البصر . يضرب مثلا فى التعثر .

(٦) يضرب فى فوت الحاجة .

(٧) الجريرة : الجناية .

(٨) السرى : السير ليلا .

(٩) الصريح : الخالص .

(١٠) دخن : حقد .

(١١) الجريض: غصص الموت ، والقريض الشعر .

(١٢) الراعدة : السحابة ، والصلف : قلة الخير والمطر . يضرب مثلا فى البخل مع السعة .

(١٣) تزود : تعطه الزاد .

(١٤) استنوق : أصبح ناقة . يضرب مثلا لمن يظن أن فيه شجاعة ثم يظهر جبنه ، وكذلك لمن يظن أن عنده رأياً ويظهر عجزه .

غيره وهو راتع[١] — لا تكن رَطْباً فتُعْصَرُ ولا يابساً فتُكسر — لا تكن كالعَنْز تبحث عن المُدْية — لو ذات سِوارٍ لطمتنى[٢] — المكثار كحاطب الليل[٣] — المنيَّة ولا الدنيَّة[٤] .

وما من ريب فى أن هذه الأمثال تستحوذ على ضروب من الجمال الفنى يرجع بعضها إلى اختيار ألفاظها وصيغها ويرجع بعضها الآخر إلى ما تعتمد عليه من تصوير أو سجع وتوقيع . وهذا هو معنى ما نذهب إليه من أن الأمثال الجاهلية تحتوى فى بعض جوانبها آثاراً من الصنعة ، ولعل ذلك ما جعل الفارابى يقول إنها من أبلغ الحكمة[٥] ، ويقول ابن المقفع إنها آنق للسمع[٦] ، بينما يقول النظَّام إنها «نهاية البلاغة لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية»[٧] .

وطبيعى أن تظهر الصنعة فى بعض الأمثال الجاهلية ، فقد كان العرب حينئذ مشغوفين بالبيان والبلاغة ، وصوَّر القرآن الكريم فيهم هذا الجانب ، فقال جل شأنه : « ولتعرفنَّهم فى لَحْنِ القول) وقال : (وإن يقولوا تَسْمَعْ لقولهم) وقال : (ومن الناس من يُعْجِبُك قولُه فى الحياة الدنيا) .

وفى جميع آثار نثرهم وشعرهم نجد آثار هذه الرغبة الملحة فى استمالتهم الأسماع بجمال منطقهم وخلابة ألسنتهم ، وقد دفعتهم تلك الرغبة دفعاً إلى تحسين كلامهم وتحبير ألفاظهم حتى فى أمثالهم ، وهيأ لذلك أن كثيراً من بلغائهم وفصحائهم أسهموا فى صناعة هذه الأمثال ، فكان طبيعيًّا أن تظهر فيها خصائصهم الفنية التى يستظهرونها فى بيانهم وتدبيج عباراتهم حين ينظمون أو يخطبون .

---

(١) العر : الجرب ، وكانوا يداوونه فى إبلهم بالكى .

(٢) ذات السوار : المرأة . يضرب به الرجل الشريف فى ظلم الخسيس له .

(٣) المكثار : المكثر من الكلام ، وشبه بحاطب الليل لأنه ربما نهشته حية أو عقرب .

(٤) الدنية : العمل الدنىء .

(٥) المزهر ١/٤٨٦ .

(٦) الأدب الصغير بتحقيق أحمد زكى ص ٢٨ .

(٧) مجمع الأمثال ١/٥ .

٤

الخطابة الجاهلية

كان للخطابة فى العصر الجاهلى شأن عظيم ، إذ كانوا يستخدمونها فى منافراتهم ومفاخراتهم[١] ، وفى النصح والإرشاد[٢] وفى الحث على قتال الأعداء[٣] وفى الدعوة إلى السلم وحقْن الدماء[٤] وفى مناسباتهم الاجتماعية المختلفة كالزواج والإصهار إلى الأشراف[٥] ، وكانوا يخطبون فى الأسواق والمحافل العظام والوفادة على الملوك والأمراء ، متحدثين عن مفاخر قبائلهم ومحامدها ، ونحن نعرف قصة وفد تميم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان من قيام عُطارد بن حاجب بن زُرارة خطيباً بين يديه[٦] . ويقول أوس بن حَجر فى رثاء فَضالة بن كَلَدَة[٧] :

أبا دُلَيْجةَ من يكفى العشــيرة إذ ... أمسوا من الخَطْبِ فى نار وبَلْبالِ
أم من يكون خطيبَ القوم إذ حفَلوا ... لدى الملوك ذوى أَيْدٍ وأفضــال[٨]

ويقول فيه أيضاً[٩] :

ألهفاً عــلى حُسْنِ آلا ئــهِ ... على الجابر الحىّ والحــارِبِ[١٠]

---

(١) انظر البيان والتبيين فى مواضع متفرقة مثل ١٠٩/١ ، ١٩٠/١ ، ٢٧٢/٢ والأغانى ٥١/١٥ .

(٢) البيان والتبيين فى مواضع متفرقة مثل ٤٠١/١ والمزهر للسيوطى ٥٠١/١ .

(٣) انظر الأمالى لأبى على القالى ٩٢/١ الأغانى (طبعة الساسى) ١٣٧/٢٠ .

(٤) البيان والتبيين ٣٤٨/١ .

(٥) انظر البيان والتبيين ٧٧/٢ وراجع ١١٨/١ ، ١٣٤/١ ، ٦/٣ .

(٦) تاريخ الطبرى : القسم الأول ص ١٧١١ والأغانى (طبع دار الكتب) ١٤٦/٤ والبيان والتبيين ٥٣/١ .

(٧) نقد الشعر لقدامة (طبعة الجوائب) ص ٣٥ وديوان أوس (طبع فيينا) ص ٢٢ .

(٨) أيد : قوة .

(٩) البيان والتبيين ١٨١/١ .

(١٠) الحارب : المحارب الغانم .

ورِقبَتِه جُشَماتِ الملـو ك بين السُّرادق والحاجبِ[١]
ويكفى المقالةَ أهلَ الدَّحا ل غيرَ مَعيبٍ ولا عائب[٢]

ورقبته : انتظاره إذن الملوك ، وقد جعله بين السرادق والحاجب ليدل على مكانه من الملك .

ودلائلُ مختلفة تدل على أن منزلة الخطيب فى الجاهلية كانت فوق منزلة الشاعر ، ويقول أبو عمرو بن العلاء : « كان الشاعر فى الجاهلية يقدَّم على الخطيب ، لفَرْط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم ، ويهوِّل على عدوهم ومن غزاهم ، ويهيِّب مَنْ فرسانهم ، ويخوِّف من كثرة عددهم ، ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم . فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مَكْسَبَةً ، ورحلوا إلى السوقة ، وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر »[٣] وتابعه الجاحظ يقول : « كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوجُ لرده مآثرهم عليهم وتذكيرهم بأيامهم . فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر »[٤] .

وواضح أن الجاحظ يجعل كثرة الشعر والشعراء وحدها هى السبب فى تقدم الخطباء ، أما أبو عمرو فيرد ذلك إلى أن هذه الكثرة استتبعت تحول الشعراء إلى التكسب بشعرهم ومسارعتهم إلى الطعن فى الأعراض . ونظن ظنًّا أن تفوق الخطيب على الشاعر فى الجاهلية يرجع إلى طائفة متشابكة من الأسباب منها أن الخطابة كانت من لوازم سادتهم الذين يتكلمون باسمهم فى المواسم والمحافل العظام ، ومن أجل ذلك كانت تقترن بها الحكمةُ والشرف والرياسة[٥] ، كما تقترن بها الشجاعة ، ويتضح ذلك فى مراثيهم ومدائحهم لسادتهم على نحو ماتقدم فى رثاء أوس بن حجر لفضالة بن كلدة ، ويقول الأعشى فى مديح قوم[٦] :

---

(١) جشمات الملوك : كبارهم وعظامهم .
(٢) الدحال : الدهاء والمراوغة .
(٣) البيان والتبيين ١/٢٤١ .
(٤) نفس المصدر ٤/٨٣ .
(٥) نفس المصدر ١/٣٦٢ وفى مواضع متفرقة .
(٦) نفس المصدر ١/١٢٤ والصلاق : جهير الصوت .

فيهم الخصْبُ والسماحــةُ والنجْـدَةُ جَـمْعا والخاطب الصَّــلاقُ

ويقول زَبَّان بن سيَّار الغزارى (١) :

ولسنا كأقــوامٍ أجَدُّوا رياســة يُرَى مالُهـــا ولا يحس فَعالُـها
يُريغون فى الخِصْب الأمور، ونفعُهم قليلٌ إذا الأموالُ طال هُزالها (٢)
وقلنا بلاعِيٍّ وسُنــا بطاقــةٍ إذا النار نارُ الحرب طال اشتعالها

ويقول عامر المحاربى (٣) :

أولئك قــومى إن يَلُذْ ببيوتهم أخو حَدَث يوماً فلن يُتَهَضَّما (٤)
وكم فيهمُ من سَيِّدٍ ذى مهابةٍ يُهَاب إذا ماراثدُ الحرب أضْرما (٥)
وهم يَدْعمون القول فى كل موطن بكل خطيبٍ يترك القوم كُظَّما (٦)
يقوم فلا يَعْيا الكلامَ خطيبُنا إذا الكرْبُ أنسى الجِبْس أن يتكلما

ويضاف إلى هذا السبب فى تفوق الخطيب على الشاعر فى الجاهلية اتساع وظيفته ، إذ كان يفاخر وينافر عن قومه فيشترك بذلك مع الشاعر كما يشترك معه فى الحض على القتال ، ثم ينفرد بمواقف خاصة به كالوفادة على الملوك وكالنصح والإرشاد ، وخطبهم فى الإملاك والزواج مشهورة . ومن أهم المواقف التى كان ينفرد بها أنه كان يدعو إلى السلم وأن تضع الحرب بين القبائل المتخاصمة أوزارها ، أما الشاعر فلم يكن يدعو إلا إلى الأخذ بالثأر وإشعال نار الحرب ، ولعل ذلك ما جعل ربيعة بن مَقْروم الضبى يقول (٨) :

ومتى تقمْ عند اجتماع عشيرةٍ خطباؤنا بين العشيرة يُفْصَلِ

ويقول أبو زُبيْد الطائى (٩) :

وخطيب إذا تمعَّرتِ الأوجهُ يوماً فى مأقِطٍ مشهود

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٤ .
(٢) يريغون : يدبرون ، والأموال هنا: الإبل
(٣) المفضليات ، القصيدة ٩١ البيت ١٨ وما بعده .
(٤) يتهضم : ينتقص .
(٥) أضرم النار : أشعلها ، وكانوا إذا توقعوا حرباً وأرادوا الاجتماع أوقدوا ناراً على جبلهم .
(٦) كظما : جمع كاظم ، وهو الساكت غيظاً .
(٧) الجبس : اللئيم المنقطع .
(٨) أغانى (طبع الساسى) ١٩ / ٩٣ .
(٩) البيان والتبيين ١ / ١٧٦ وتمعرت الوجوه تغيرت واصفرت . والمأقط : موضع القتال .

ويقول بشر بن أبى خازم [١] :

وكنا إذا قُلنا : هَوازنُ أقبلى   إلى الرُّشْد لم يأت السدادَ خطيبُها

وتتردَّد فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغيره من كتب الأدب أسماءُ طائفة كبيرة من خطباء الجاهلية الذين اشتهروا بالفصاحة ووضوح الدلالة والبيان عما فى أنفسهم ، مما جعل الأسماع والقلوب تهش إليهم ، ويعظم فى الناس خطرهم ، ويشيع فى الآفاق ذكرهم ، وكانوا ينتشرون فى الجزيرة بمكة والمدينة وما وراءهما من قبائل البادية ، أما مكة فقد كانت بها دار الندوة ، وهى أشبه بمجلس شيوخ مصغر ، كان يجتمع فيها سادة العشائر القرشية يتشاورون فى أمورهم وفى أثناء ذلك يخطبون ويتحاورون [٢] ،ومن خطبائهم المفوهين عتبة ابن ربيعة ، وهوخطيب قريش يوم بدر ، ومن خطبائها سهيل بن عمرو الأعلم وهو الذى قال فيه عمر للنبى صلى الله عليه وسلم: « يا رسول الله انزَعْ ثَنيَّتَيْه السُّفْلَيَيْن حتى يُدْلَع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً أبداً، فقال الرسول عليه السلام : لا أمثِّل فيمثل الله بى ، وإن كنت نبيًّا ، دَعْه يا عمر فعسى أن يقوم مقاماً تحمده » [٣] . وقد أسلم وحسن إسلامه ، وكانت له مواقف محمودة . ولقريش أيضاً خطباء كان ينفر إليهم العرب أمثال هاشم وأمية [٤] ونُفَيْل ابن عبد العُزَّى جد عمر بن الخطاب وإليه نفر عبد المطلب بن هاشم وحرب ابن أمية [٥] . وأما المدينة فذكر الجاحظ من خطبائها قيس بن الشماس وثابت ابنه خطيب الرسول صلى الله عليه وسلم وسعد بن الربيع وهو الذى اعترضت ابنتُه الرسول صلوات الله عليه ، فقال لها من أنت ؟ فقالت : ابنة الخطيب النقيب الشهيد سعد بن الربيع [٦] .

---

(١) المفضليات ، القصيدة ٩٦ البيت رقم ٩ .

(٢) السيرة النبوية (طبعة الحلبى) ٢/١٢٤

(٣) البيان والتبيين ١/٣١٧ والثنيتان : الأضراس فى مقدم الفم .

(٤) شرح النقائض لأبى عبيدة (طبعة بيفن) ١/٢٢٤ .

(٥) تاريخ الطبرى : القسم الأول ص ١٠٩١ .

(٦) انظر البيان والتبيين ١/٣٥٨ — ٣٦٠

وإذا تركنا مكة والمدينة إلى القبائل المنبطحة فى البادية وجدنا ممن اشتهروا فيها بالخطابة ابن عمار الطائى وهو خطيب مذْحج كلها[١] وهانئ بن قبيصة خطيب شيبان يوم ذى قار[٢] وزهير بن جناب خطيب كلب وقضاعة[٣] وربيعة بن حُذار خطيب بنى أسد[٤] وإليه احتكم الزبرقان بن بدر والمخبَّل السعدى وعبدة بن الطبيب وعمرو بن الأهتم أيهم أشعر[٥] . ومن الخطباء المشهورين فى القبائل أيضاً عامر بن الظرب[٦] أحد حكام العرب فى الجاهلية ، ومن كانوا يقضون بينهم فى خصوماتهم[٧] .

وممن اشتهر باللسن والخطابة والشعر لبيد بن ربيعة العامرى ، ومن قوله[٨] :

وأخلفُ قُساً ليتنى ولو انَّنى ... وأعْيي على لقمان حكمَ التدبُّر

ومن قوله أيضاً[٩] :

وأبيضَ يَجْتابُ الخُروقَ على الوَجَى ... خطيباً إذا التفَّ المجامعُ فَيْصلا

ومن خطبائهم هرم بن قُطْبة الفزارى[١٠] ، وهو صاحب المنافرة المشهورة بين علقمة بن عُلاثة وعامر بن الطُّفَيْل ، وقد رآه عمر بن الخطاب يوماً فى المسجد ، فقال له : « أرأيت لو تنافرا إليك – يعنى علقمة وعامراً – أيهما كنت تنفر ، فقال : يا أمير المؤمنين لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جذعة ، فقال عمر : لهذا العقل تحاكمت إليك العرب »[١١] .

ومن الخطباء البلغاء عمرو بن كلثوم خطيب تغلب[١٢] . وهَيْذان بن شيخ

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٣٤٩ .
(٢) أغانى (طبعة الساسى) ٢٠/ ١٣٧ .
(٣) نفس المصدر ٢١/ ٦٥ .
(٤) نفس المصدر ١٠/ ٦١ والبيان والتبيين ١/ ٣٦٥ .
(٥) أغانى ١٢/ ٤٠ ، ٢١/ ١١٣ .
(٦) أغانى (طبعة دار الكتب) ٣/ ٩٠ وانظر السيرة النبوية ١/ ١٢٩ والبيان والتبيين ١/ ٣٦٥ والمعمرين ٤٤ .
(٧) أغانى ٣/ ٩٠ والسيرة النبوية ١/ ١٢٨
(٨) البيان والتبيين ١/ ١٨٩ .
(٩) نفس المصدر ١/ ٢٦٦ ويجتاب : يقطع ، الخروق : الفلوات ، الوجى : الحفد .
(١٠) البيان والتبيين ١/ ٣٦٥ .
(١١) البيان والتبيين ١/ ٢٣٧ .
(١٢) نفس المصدر ٢/ ١٤١ .

الذى قال فيه الرسول عليه السلام : رب خطيب من عَبْس[١] ، والعُشْراء ابن جابر، وخويلد بن عمرو خطيب يوم الفِجار[٢] وقيس بن خارجة بن سنان ويقال إنه خطب فى حرب داحس والغَبْراء يوماً إلى الليل[٣] وكل هؤلاء من غطفان . ومن الخطباء حنظلة بن ضرار خطيب بنى ضبة ، وقد طال عمره حتى أدرك يوم الجمل[٤] . ولم تشتهر قبيلة بالخطابة كما اشتهرت إياد وتميم ، ومن إياد قُسْ بن ساعدة الذى قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : « رأيته بسوق عكاظ على جبل أحمر ، وهو يخطب فى الناس » [٥] . ومن خطباء تميم المفوَّهين ضمرة بن ضَمْرة[٦] وأكثم بن صيفى [٧] وقيس بن عاصم[٨] وعطارد ابن حاجب بن زرارة خطيب وفد تميم بين يدى الرسول ، وعمرو بن الأهتم المِنْقَرى ، ولم يكن فى بادية العرب فى زمانه أخطب منه[٩] . وما من ريب فى أن هذه الكثرة من الخطباء — ووراءهم كثير لم نذكرهم — تدل دلالة بينة على ما كانت عليه الخطابة الجاهلية من رقى وازدهار .

وكان للخطباء حينئذ سُنَنٌ خاصة فى أداء خطابتهم، منها أنهم كانوا يخطبون على رواحلهم فى المواسم العظام والمجامع الكبار [١٠] ، وكان من عادتهم لَوْثُ العمائم على رءوسهم والإشارة فى أثناء خطابتهم بالعصىّ والمخاصر والقَنا والقُضْبان والقِسىّ [١١] . وفى ذلك يقول لبيد [١٢] :

ما إن أهابُ إذا السُّرادِقُ غَمَّه قَرَعُ القِسىِّ وأرعش الرِّعْديدُ

وقد حملت الشعوبيةُ حملة شَعْواء على العرب لاتخاذهم فى خطابتهم

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٧٣ .
(٢) نفس المصدر ١/٣٥٠ — ٣٥١ .
(٣) نفس المصدر ١/١١٦ وما بعدها .
(٤) نفس المصدر ١/٣٤١ .
(٥) البيان والتبيين ١/٣٠٨ — ٣٠٩ .
(٦) جمهرة الأمثال للعسكرى ١/١٨٦ .
(٧) البيان والتبيين ١/٣٦٥ والأغانى (طبعة الساسى) ١٥/٧٠ .
(٨) البيان والتبيين ١/٥٣ .
(٩) البيان والتبيين ١/٣٥٥ .
(١٠) نفس المصدر ٣/٧ .
(١١) انظر أوائل الجزء الثالث من البيان والتبيين .
(١٢) البيان والتبيين ١/٣٧٢ ، ٣/٩ . وغمه : علاه ، وكثر فيه .

المخاصرَ والعصىّ ووَصْل أيمانهم بالقُضْبان والقِسىّ ، وردّ عليهم الجاحظ ردًّا طويلا مفحماً فى فاتحة الجزء الثالث من كتاب البيان والتبيين . وفى مواضع كثيرة من هذا الكتاب نرى العرب يمدحون جهارة الصوت وشدته و يعيبون ضيقه ودقته كما يعيبون على الخطيب أن يعترضه البُهْر والارتعاش والرعدة أو يعتريه شىء من الحَصر والعِىّ ، يقول أبو العيال الهُذَلى[1] :

ولا حَصِرٌ بخطبته إذا ما عَزَّتِ الخُطَبُ

وكانوا يكرهون أن يمسّ الخطيب ذقنه وسِباله وشواربه ، يقول مَعْن بن أوس المُزَنى فى بعض هجائه[2] :

إذا اجتمع القبائلُ جئت رِدْفاً وراء الماسحين لك السِّبالا
فلا تُعْطى عصًا الخطباءِ فيهم وقد تُكْفَى المقادةَ والمقالا

وإذا كانوا قد عابوا ذلك فى الخطيب فقد مدحوا فيه ــ على نحو ما يلاحظ ذلك الجاحظ فى بيانه ــ شدة العارضة وظهور الحجة وثبات الجَنان وكثرة الرِّيق والعلوّ على الخصوم فى مضايق الكلام ومآزق الخصام .

٥

الصنعة فى الخطابة الجاهلية

من الصفات التى تميِّزُ عرب الجاهلية أنهم كانوا يحبون البيان والطلاقة والتحبير والبلاغة ، ودفعهم ذلك إلى الاحتفال بخطابتهم احتفالا شديداً ، لا من حيث الصقل وتجديد الألفاظ فحسب ، بل أيضاً من حيث مخارج الكلم ، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يتزيدون فى جهارة الأصوات كما كانوا ينتحلون سعة الأشداق وهَدَل الشفاه[3] ، حتى إن فريقاً منهم كانوا يتخلَّلُون كلامهم بألسنتهم تخلل البقرةِ الكلأ بلسانها[4] ، ومن لم يصنع ذلك عمد

---

(١) البيان والتبيين ١/٣ .

(٢) نفس المصدر ١/٣٧٢ والسبال : مقدم اللحية ، وهو يهجو صاحبه بأنه ليس رئيساً ولا خطيباً .

(٣) البيان والتبيين ١/١٣ ــ ١٤ .

(٤) البيان والتبيين ١/٢٧١ .

إلى ضروب من التقعير والتمطيط والجَهْورة والتفخيم[١] .

وليس بين أيدينا نصوص وثيقة نستطيع بها أن نحكم أحكاماً دقيقة على خطابتهم وصناعتهم فيها ، وحقًّا نجد بعض خطب مبثوثة فى الطبرى والأغانى والأمالى والعقد الفريد ، ولكن هذه الخطب جميعاً ينبغى أن نتلقاها بشىء من الاحتراس ، وخاصة ما رواه الكتاب الأخير من خطب طويلة لهم فى وفودهم على كسرى وغير كسرى ، فإن الانتحال ظاهر فيها . أما الخطب الأخرى فأكبر الظن أن الرواة جمعوا بعض شظايا وقطع للقوم ، وزادوا عليها من خيالهم ، ومن ثَمَّ لايصح الاستدلال بهذه الخطب جميعاً على أنها تمثِّل الخطابة الجاهلية تمثيلا صحيحاً . وهذا الجاحظ على كثرة ما رَوَى فى بيانه من خطب لم يستطع الاستشهاد للجاهليين إلا بجمل وصيغ متفرقة لا تكوِّن خطبة كاملة .

ومهما يكن فنحن نؤمن بأن أكثر ما يُرْوَى من الخطابة الجاهلية لايصح الاطمئنان إليه من الوجهة التاريخية لطول المسافة بين روايته وكتابته ، وإن كان ذلك لا يمنعنا من تسجيل بعض الظواهر والخصائص لتلك الخطابة ، فإن من يرجع إلى ما رُوى منها فى كتب الأدب والتاريخ يلاحظ أن أغلب ما رُوى من خطب القوم روى مسجوعاً . ويؤكد الجاحظ أن النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى روى خطبة قُسّ بن ساعدة الإيادى فى سوق عكاظ ، ويقول إنه إسناد تعجز عنه الأمانى وتنقطع دونه الآمال ، ومع ذلك لم يستطع روايتها كاملة إنما روى أجزاء منها ، هى قوله :

« أيها الناس اسمعوا وعوا. من عاش ماتَ ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . آياتٌ محكمات ، مطرٌ ونبات ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآت ، ضوءٌ وظلام ، وبِرٌّ وآثام ، لباسٌ ومركب ، ومطعم ومشرب ، ونجوم تمور[٢] وبحور لا تغور ، وسقفٌ مرفوع ، ومِهاد موضوع ، وليل داجٍ ، وسماء ذات أبراج . مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرَضُوا فأقاموا ، أم حُبِسوا فناموا » .

---

(١) راجع البيان والتبيين فى مواضع متفرقة وانظر ١/١٢٠ وما بعدها .

(٢) تمور : تذهب وتجىء .

وروى له الجاحظ أيضاً قطعة من خطبة أخرى على هذا النحو : « يا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد ، أين المعروف الذى لم يشكر ، والظلم الذى لم يُنكَر »[١] .

وواضح أن هذه القطع من خطابة قس بُنيت على السجع . وقد روى الطبرى كلمة لنُفَيل بن عبد العُزّى فى منافرة عبد المطلب بن هاشم وحرب بن أمية ، وهى مسجوعة[٢] كما روى أبو عبيدة فى النقائض منافرة جرير بن عبد الله البجلى وخالد بن أرطاة الكلبى إلى الأقرع بن حابس ، وهى مسجوعة أيضاً[٣] ، وبُنيت على السجع كذلك منافرة عَلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل[٤] .

ولم نَسُقْ ذلك لنسلّم بصحة هذه المرويات من المنافرات وصحة صياغتها ، ولكنا سُقناه لنتخلص منه إلى أنه ثبت عند من كانوا يروون المنافرات والخطب الجاهلية أنها كانت تعتمد اعتماداً شديداً على السجع . ويؤيد ذلك قول الجاحظ إن « ضَمْرة بن ضمرة وهرم بن قُطْبة والأقرع بن حابس ونُفَيْل بن عبد العُزّى كانوا يحكمون وينفّرون بالأسجاع ، وكذلك ربيعة بن حُذار »[٥] . وقد اشتمل هذا النص على خطباء من تميم وأسد وفزارة وقريش ، وفى ذلك ما يدل على شيوع السجع فى الخطابة الجاهلية . وما من شك فى أن صناعة السجع تحتاج إلى قيم موسيقية كثيرة ، حتى تتم معادلاته الصوتية وموازناته الإيقاعية . وكانوا يدمجون كثيراً من الصور والتشبيهات والاستعارات فى هذا السجع كما كانوا يدمجون كثيراً من التجويد والتحبير ، ويَشْهد لهم الجاحظ بما كانوا يعانونه فى خطبهم وخاصة الطويلة منها إذ يقول : « لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم فى طوال القصائد وفى صنعة طوال الخطب . . . وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأى فى معاظم التدبير ومهمات الأمور ميَّثوه[٦] فى صدورهم ، وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قوّمه

---

(١) انظر هذه القطع من خطابة قس فى البيان والتبيين ١/٣٠٨ — ٣٠٩ .

(٢) الطبرى ، القسم الأول ص ١٠٩١ .

(٣) النقائض لأبى عبيدة ١/١٤١ .

(٤) أغانى (طبعة الساسى) ١٥/١٥ .

(٥) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .

(٦) ميثوه : ذللوه وأعدوه .

الثقاف وأدْخل الكيِر وقام على الخلاص أبرزوه محكّكاً منقّحاً ومصفى من الأدناس مهذباً »[١] وقد عبَّر العرب أنفسهم فى شعرهم بصور مختلفة عن مدى تجويدهم فى خطابتهم . وانظرْ إلى لبيد يقول لهرم بن قـُطْبة فى حكومته بين علقمة بن عـُلاثة وعامر بن الطفيل[٢] :

إنك قد أوتيتَ حكماً معجِبا فطبِّق المَفْصِل واغنَمْ طيِّباً

يقول له : احكم بين الرجلين بكلمة فصل تفصل بها بين الحق والباطل كما يفصل الجزار الحاذق مفصل العظمين .

ويقول لبيد عن نفسه مدلا ببيانه وبراعته وما أوتى من حسن الجدل والعلو على خصومه[٣] :

ومقامٍ ضَيِّقٍ فرَّجتُه ببيانٍ ولسانٍ وجدَلْ

ويقول قيس بن عاصم المنقرى التميمى واصفاً ما فيه وفى قومه من الخطابة والفصاحة وإحسان هذا الجانب من البيان والبلاغة[٤] :

إنى امرؤٌ لا يعتَرى خـُلُقى دَنسٌ يفنِّدُه ولا أفْنُ[٥]
من منْقَرٍ فى بيت مكرمةٍ والأصل ينبت حوله الغصْنُ
خطباءُ حين يقوم قائلهم بيضُ الوجوه مَصاقعٌ لُسْنُ

وعلى نحو ما وصفوا الخطيب بأنه مِصْقع ولَسِنٌ وصفوه بأنه مِدْرَهٌ ، يقول زهير بن أبى سلمى فى مديح هرم بن سنان[٦] :

ومِدْرَهُ حَرْبٍ حَمْيُها يُتَّقَى بِه شديدُ الرِّجام باللسان وباليَدِ

وواضح أنه يشبِّه ما يُلقيه من لسانه كلاماً بما يلقيه من يده سهاماً .

---

(١) البيان والتبيين ٢/ ١٤ .
(٢) نفس المصدر ١/ ١٠٩ .
(٣) البيان والتبيين ١/ ٢٦٥ .
(٤) البيان والتبيين ١/ ٢١٩ .
(٥) يفند : ينقض ويضعف ، والأفن : ضعف الرأى .
(٦) ديوان زهير (طبعة دار الكتب) ص ٢٢٣ . والمدره : الذى يدافع عن قومه، الرجام : المراماة فى القتال .

وقد وصفوا اللسان بأنه عَضْبٌ وقاطع وجارح ، كما وصفوا الخطيب بأنه لوْذَعىّ ، يقول شاعرهم [١] :

هو الشجاعُ والخطيب اللّوْذَعِي والفارسُ الحازمُ والشهمُ الأبِى

ولعل من الطريف أننا نجدهم يصفون خطابتهم بأنها كالوشى المنمق ، ففيها تدبيج وتزيين يشبه ما يجدونه فى الثياب اليمانية الموشاة، يقول أبو قُرْدُودَة الطائى فى رثاء ابن عمّار خطيب طيئ وقد مات مقتولا [٢] :

يا جفنةً كإزاء الحَوْضِ قد هدموا ومنطقاً مثل وَشْى اليَمْنة الحِبَرة [٣]

ويقول فيه أيضاً :

ومنطقٍ خُرِّقَ بالعواسلِ لذٍّ كوَشْى اليَمْنَةِ المَرَاحلِ [٤]

فأبو قردودة يحس فى خطب ابن عمّار ما يحسه فى وشى الحلل المنمقة . وهو إحساس بالغ ، عبّر به هو وأضرابه عن عنايتهم بخطابتهم ومقدار ما كانوا يحققون لها من مهارة وصنعة . وبلغ من جمال بعض خطبهم أن اقترحوا لها أسماء وإنْ كانوا يحفظونها ويتوارثونها، لروعة بيانها وجودة فصاحتها وبلاغتها ، يقول الجاحظ : « ومن خطب العرب العجوز ، وهى خطبة لآل رَقَبة ، ومتى تكلموا فلابد لهم منها أو من بعضها ومنها العذراء ، وهى خطبة قيس بن خارجة فى حرب داحس والغبْرَاء ، سميت بذلك لأنه كان أبا عُذْرها [٥] .

والحق أن خطباء العصر الجاهلى نهضوا بخطابتهم نهضة واسعة ، ولذلك لم يكن غريباً أن يستمع الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بعضهم وهو يخطب ، فيقول : « إن من البيان لسحراً » [٦] . ولم يكن هذا البيان الساحر شيئاً خاصًّا

---

(١) أغانى (طبعة دار الكتب) ١١/١٥٠

(٢) انظر فى البيتين التاليين البيان والتبيين ١/٣٤٩ .

(٣) الإزاء فى البيت : مصب الماء فى الحوض، واليمنة : ضرب من برود اليمن .

(٤) العواسل : الرماح ، المراحل : جمع مرحل وهو ما نقش فيه تصاوير الرحال .

(٥) انظر البيان والتبيين ١/٣٤٨ .

(٦) نفس المصدر ١/٥٣ .

بهذا الخطيب ، بل كان شيئاً عامًّا بين الخطباء ، إذ ذهبوا جميعاً مذهب التجويد والتحبير ، حتى يستميلوا الأسماع ويخلبوا الألباب .

٦

سجع الكهان

كانت عند العرب في العصر الجاهلي طائفة تدّعي التنبؤ ومعرفة المغيبات ، وأنها تنطق عن آلهتهم بما سُخّر لها من الجنّ التي تسترق لها السَّمْع. فتكشف لها الحُجب وما تأتي به ألواح الغد . وكانوا يسمونها الكُهّان ، وواحدهم يسمى كاهناً ، أما تابعه من الجن فيسمى رَئيًّا ، وكانوا يفزعون إليهم لاستشارتهم في الأمور الجُلّى كإعلان حرب[١] أو قعود عن نصرة أحلاف[٢] أو كشف قَتْل إنسان أو ناقة[٣] أو خلال بنذر من النذور لأربابهم لا يستطيعون أداءه[٤]. وقد يلجأون إليهم للحكم بينهم أو للمنافرة[٥] ، ممتثلين لأحكامهم فهي لا تنقض ولا ترد ، وقد يطلبون إليهم تعبير رُؤاهم وأحلامهم[٦] . وهم بدورهم قد يتنبئون لأقوامهم بوقوع كارثة أو حدوث غزو[٧] .

ولعل في ذلك كله ما يدل على أنهم كانوا يتمتعون بنفوذ واسع ، ولم يكن لهذا النفوذ حدود قبلية ، فكثيراً ما يسيطر الكاهن على مجموعة من القبائل بكهانته ، فتصدر عن رأيه ، وقد تتخطى شهرته إقليمه ، فتقصده العرب من أقاليم نائية ، ككثير من كُهّان اليمن . ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن جمهور كهانهم كانوا يمنيين ، وخاصة من يرجع بهم القصاص إلى الحقب الأولى من العصر الجاهلي. ومن أشهرهم سَطيح الذئبي وشِق بن مصعب الأنماري وإليهما

(١) أغاني (طبع دار الكتب) ٩/ ٨٤ .
(٢) أغاني ١١/ ١٤٠ .
(٣) أغاني ١١/ ١١٨ .
(٤) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٦٢ .
(٥) السيرة الحلبية (طبع بولاق) ١/ ٥ .
(٦) السيرة النبوية ١/ ١٥ وما بعدها .
(٧) الأمالي للقالي ١/ ١٢٦ وانظر السيرة النبوية ١/ ١٥ ، ١/ ٤٣ ، ١/ ٢٢١-٢٢٢

فزع نصر بن ربيعة ملك اليمن فى تفسير رؤيا له[١] ، وقد أخرجهما القصّاص ورواة الأخبار من عالم الواقع إلى عالم الخيال ، فقالوا إن سطيحاً لم يكن فيه عظم سوى جمجمته وإن وجهه كان فى صدره ولم يكن له عنق ، ولعله كان أحدب ، أما شق فقالوا إنه كان شِقّ أو نصفَ إنسان له عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة[٢] .

ومن كُهَّانهم المشهورين المأمور الحارثى ، وكان من فرسان مَذْحِج ، وكانت بأمره تتقدم وتتأخر[٣] ، وخنافر الحميرى ، وكان يزعم أنه دخل الإسلام بمشورة رَئِيِّه شصار[٤] ، وعوف بن ربيعة الأسدى ، وهو الذى أشار على قومه بالثورة على حجر بن الحارث الكندى وقَتْله[٥] . وسلمة الخزاعى الذى تنافر إليه هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس فنفّر هاشما[٦] ، وسواد بن قارب الدّوسى وقد أدرك الإسلام[٧] ، وعُزَّى سلمة وهو أكهنهم جميعاً[٨] . ووُجد بجانب هؤلاء الكهنة بعض نُسوة عُرفن بالتكهن من مثل الشعثاء الكاهنة[٩] ، وزبراء[١٠] ، وكاهنة ذى الخُلَصة[١١] ، والكاهنة السعدية[١٢] والزرقاء[١٣] بنت زهير ، والغيطلة القرشية[١٤] .

وروت كتب الأدب والتاريخ طائفة من أقوال هؤلاء الكهان والكاهنات وخطابتهم ، وكلها تلتزم السجع ، وما نشك فى أن أكثر ما رُوى عنهم مصنوع ، وإن من الخطأ أن يعتمد باحث على تلك المرويات ويظنها صحيحة النسبة إلى من قيلت على ألسنتهم ، لسبب طبيعى ، وهو أنها لم تكن مدونة ولا مكتوبة ،

---

(١) الكامل لابن الأثير (طبع ليدن) ٣٠١/١ والسيرة النبوية ١٥/١ .

(٢) انظر عجائب المخلوقات للقزوينى (طبعة وستنفلد) ١٧١/١ .

(٣) الاشتقاق لابن دريد ٢٦٩ وانظر الأمالى ٢٧٦/١ واسمه فيه المأمون .

(٤) الأمالى ١٣٣/١ .

(٥) أغانى ٨٤/٩ .

(٦) السيرة الحلبية ٥/١ .

(٧) السيرة النبوية ٢٢٣/١ .

(٨) البيان والتبيين ٣٥٨/١ .

(٩) مجمع الأمثال للميدانى ٩١/١ .

(١٠) الأمالى ١٢٦/١ .

(١١) مجمع الأمثال ٢٢٣/١ .

(١٢) نفس المصدر ٥٤/٢ .

(١٣) أغانى (طبعة دار الكتب) ٨١/١٣ .

(١٤) سيرة ابن هشام ٢٢١/١ .

ومن الصعب أن تحتفظ بها ذاكرة الرواة نحو قرنين من الزمان أو أكثر ، فلا تبدّل فيها ولا تحرّف ، حتى يخرج العصر العباسى فيدوّنها اللغويون والأخباريون .

على أننا نستطيع بعد أن نرفض مايُرْوَى من أقوالهم وخطبهم أن نعود فنظن ظنًّا أنهم كانوا يسجعون فى خطابتهم ، وإلا لما استقر عند جميع من نحلوهم بعض الأقوال والخطب أنهم كانوا يعتمدون على السجع فى كهانتهم ، ومن ثَمَّ صاغوا ما نسبوه إليهم من كلام سجعاً خالصاً . ولعل هذا السجع فى كلامهم هو الذى دفع بعض المشركين من قريش إلى الظن بأن ما يتلوه الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن إنما هو من كلام الكُهَّان فقال جل وعز ينقض دعواهم الباطلة : (فذكِّرْ ، فما أنت بنعمة ربك بكاهنٍ) وقال : (إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعرٍ قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهنٍ قليلا ما تذكَّرون) . وقد جاء فى الحديث النبوى أن الرسول صلوات الله عليه قَضَى على رجل فى جنين قُتلت أمه بدية ، فقال الرجل : « أ أدى (أأغرم) من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح ولا استهلّ ، أليس مثل ذلك يُطَلّ[1] ؟ فقال رسول الله عليه السلام : إنما هذا من إخوان الكهان ، من أجل سجعه الذى سجع »[2] وفى رواية أنه قال له : أسجعٌ كسجع الكهان[3] ؟ وفى هذا الحديث أكبر الدلالة وأعظمها على أن الكهان كانوا يستخدمون السجع فى كهانتهم ، ويقول الجاحظ : « كان حازى (كاهن) جُهَينة وشِقّ وسطَيح وعُزَّى سَلَمة وأشباههم يتكهنون ويحكمون بالأسجاع ، ويَرْوى من سجع عزى سلمة قوله[4] :

" والأرض والسماء ، والعُقاب والصقْعاء ، واقعةٌ ببَقْعاء ، لقد نفَّر المجدُ بنى العُشَراء ، للمجد والسَّناء " »[5] .

---

(١) يطل : يهدر دمه .

(٢) صحيح مسلم (طبعة الآستانة) ٥ / ١١١ وانظر موطأ مالك (طبع حجر بمصر) ٢ / ١٩٢ .

(٣) البيان والتبيين ١ / ٢٨٧ وإعجاز القرآن للباقلانى (طبع مطبعة الإسلام) ص ٣٢ .

(٤) البيان والتبيين ط ١ / ٢٨٩ — ٢٩٠ .

(٥) الصقعاء : الشمس ، بقعاء : ماء أو موضع ، نفرهم : حكم لهم بالغلبة ، بنو العشراء : عشيرة من فزارة ، السناء : الرفعة .

وإذا صحت هذه الكلمة لعُزَّى سلمة فإنها ترينا أن الكهان كانوا يعتمدون فى كهانتهم على السجع، كما كانوا يعتمدون على مثل هذه الأقسام والأيمان بالأرض والسماء والطير والشمس وما يتصل بذلك من القمر والنجوم والكواكب والأشجار والرياح وكل ما يظنون أنه يحمل قوى خفية . وأيضاً فإنهم كانوا يعتمدون على الإغراب فى ألفاظهم للإيهام والتأثير فى نفوس السامعين .

وهذه هى نفس السمات العامة التى يمكن أن نستنبطها من خلال النصوص الكثيرة التى رُويت من سجعهم ، ونحن نرى هذه السمات واضحة فى هذه القطعة الصغيرة التى رواها الجاحظ لعزى سلمة ، وهى سمات طبيعية ، إذ كانوا يلجأون إلى الإيهام فى أحاديثهم وأقوالهم ، وكانوا يعتمدون فى هذا الإيهام على الأقسام واللفظ الغريب ليتيح لهم ذلك ما يريدون من الوهم فى أساليبهم ومعانى كلامهم. وأكبر الظن أنهم كانوا يبالغون فى ذلك حتى تَنْبهم معانيهم وتغمض دلالاتهم، فيكثر عند السامعين الفهم، ويكثر الاحتمال والتأويل. ولعلنا لا نُبعد إذا زعمنا أن الكهان كانوا يبنون سجعهم فى كثير من جوانبه على الرمز ، فإن كهانتهم كانت تقتضى أن يختاروا ألفاظاً موهمة توعز بما يريدون دون أن تفصح — فى كثير من أحوالها — عن دلالة بينة ومهما يكن فإن حرفة الكهانة فى هذا العصر أثمرت ضرباً طريفاً من السجع كان يتكئ على الأقسام والأيمان الموهمة والألفاظ الغريبة .

وأكبر الظن أن فيما قدمنا من حديث عن سجع الكهان وخطابة الجاهليين وما كان من أمثالهم ما يدل دلالة صريحة على أن ما سلم لنا من بقايا نثرهم ، إنما هو شظايا متناثرة من صناعة بليغة كانت تستنفد من أصحابها آماداً واسعة من التعب والعناء والجهد والنشاط .

الفصل الثانى

الصنعة فى النثر الإسلامى

١

الإسلام

يفتح الإسلام صفحة جديدة فى تاريخ النثر العربى ، هى صفحة دين قويم بُعث به رسول عظيم ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وينقل العرب وغير العرب من حياة الفوضى والهمجية والخرافة والوثنية والعداوة والبغضاء إلى حياةٍ مدنية ، قِوامُها سعادة الجنس البشرى وهناءته .

ولا يَمضى نحوُ عشرين سنة حتى يجمع محمد صلى الله عليه وسلم العربَ على هذا الدين الحنيف ويستأصل ما كان فيهم من جذور همجيةٍ ووثنية وتفكك وتخاصم ، فيصبحوا بنعمة الله أمة واحدة تتعاون على الخير والبر والتقوى ، ويخرُّوا إلى الأذقان سُجَّدًا خشوعاً لربهم ورهبة من عقابه ورغبة فى رحمته التى وسعت كلَّ شىء .

لم يعد العربُ قبائل متنابذة ، كما كانوا فى الجاهلية ، يقتل بعضهم بعضاً معظِّمين للدماء مفاخرين بالأحساب والأنساب ، بل أصبحوا جماعة واحدة رُحَمَاء فيما بينهم ، يسند قويُّهم ضعيفهم ، لا يتحاربون ولا يتخاصمون ، بل يتآزرون ويتعاونون ، فلا نهب ولا سلب ، ولا عصبية قبلية ولا دعوة جنسية ، فالمسلمون جميعاً من كل القبائل ومن عرب وغير عرب إخوة لا فضل لغنى على فقير ولا لقوى على ضعيف ، بل هم جميعاً سواء ، ولا شريف ولا مشروف ، ولا حر ولا عبد . كل منهم يرعى أخاه وحقوقه ، وله حريته ، ولكن بحيث لا تمس حرية الآخرين ، فقد حدد الإسلام هذه الحرية بتكاليفه الدينية بما حرَّم من ضروب الإثم ما ظهر منها وما بَطن .

إنه دين سماوى ، تَعْنُو فيه الوجوهُ للحىّ القيُّوم الذى خلق السموات والأرض وما بينهما ، وسَخَّر الشمس والقمر كلٌّ يجرى إلى أجل مسمى ، ومدَّ الأرض وجعل فيها رَواسىَ وأنهاراً ومن كلّ الثمرات ، فهو باعث كل حياة . قد أحاطت قدرته كما أحاط علمه بكل شىء ، فهو القاهر فوق عباده (وعنده مفاتحُ الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حَبَّة فى ظلمات الأرض ولا رَطْبٍ ولا يابس إلا فى كتاب مبين). وإنه ليعلم خائنةَ الأعين وما تُخفى الصدور ، وقد أعذر رسولُهُ الكريم وأنذر ، فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، فإن وراء هذه الحياة حياة أخرى يحاسَب فيها المرء على ما قدَّمتْ يداه ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره ، فإما الجنة والنعيم وإما النار والجحيم. والله مع سلطانه وعدله رحيم ، وعلى المسلم أن يصدع بأوامره ونواهيه فى سره وعلنه ، وأن يسير على هَدْى نبيه وما شرعه للناس ، وأن يأخذ بتعاليمه ووصاياه التى تحقق له السعادة فى دنياه وأخراه .

وفى هذا الدين الكريم عقائد تتصل بوحدانية الله والإيمان برسله وكتُبه واليوم الآخر ، وأن وراء عالمنا نوعين من الأرواح ، نوعاً خيِّراً هو الملائكة ، ونوعاً شريراً هو الشياطين . وفى الدين أعمال تتصل بعبادة الله وطاعته ، هى الصوم والصلاة والزكاة وحج البيت من استطاع إليه سبيلا ، وإنه ليدعو من آمن به إلى سيرة مستقيمة فلا بغى ولا عدوان ولا فحش ، ولا قتل ولا نهب ، ولا نميمة ولا غيبة ولا كبر ولا فخر ، بل حياة طاهرة نقية ، خلصت من كل الشوائب ، وهى حياة وضع لها الدينُ نظاماً اجتماعيًّا سديداً يكفل للجنس البشرى ما يليق به من كمال . إنها رسالة جليلة ، رسالة لم يؤدها أى دين من الأديان على هذه الصورة المثالية ، ومن ثَمَّ لم تؤثر فى العرب وحدهم ، بل أثرت فى العالم جميعه ، ودانت لها الأمم فى مشارق الأرض ومغاربها مقرة بجلالها وجمالها .

القرآن الكريم

كتابٌ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلْفه ، تنزيلٌ من حكيم حميد ، نزل به الرُّوح الأمين على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم منجَّماً مقسَّطاً فى ثلاث وعشرين سنة ، حتى تستعد القوى البشريةُ لتلقى هذا الفيْض الإلهى ، وهو معجزة الإسلام الكبرى ، إذ لم يبلغ أى كتاب دينى أو دنيوى ما بلغه من روعة البيان والبلاغة ومَسّ المشاعر وأسْرِ القلوب ، سواء حين يتحدث عن عظمة الله وجلاله أو حين يشرِّع للناس ما به صلاحُ معاشهم وآخرتهم أو يصور لهم الثواب والعقاب والفردوس والجحيم ، أو يقص عليهم من أنباء الرسل والأولين ما فيه عبرة ومُزْدَجَرٌ للمؤمنين .

فقد نزل فى أسلوب لا يبارَى فى قوة إقناعه وبلاغة تركيبه ، حتى ليقول الوليد بن المغيرة أحدُ خصوم الرسول وقد سمعه يتلو من آياته : « والله لقد سمعت من محمد كلاماً ، ما هو من كلام الإنس والجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطُلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمُغْدِق »[1] ويلاحظ الوليد ملاحظة صادقة ، هى أن القرآن لا يماثل كلام الإنس ولا كلام الجن الذى كان يجرى على ألسنة كهانهم ، فهو طراز وحده ، له سحره البيانى ، بل له إعجازه الذى انقطعت آمالُ العرب دونه فى محاكاته أو الإتيان بشىء على مثاله فى السيطرة على الألباب والقلوب . وقد تحدَّاهم جل وعز أن يجمعوا أمرهم وكَيْدهم فيأتوا بسورة من مِثْله أو بسور تحاكيه ، فعجزوا وذلوا ، يقول سبحانه : (قل لئن اجتمعت الإنسُ والجِنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) ويقول تبارك وتعالى : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادْعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) . ويشرح ذلك الجاحظ فيقول :

« بعث الله محمداً عليه الصلاة والسلام فى زمن أكثر ما كانت العربُ

---

(١) انظر تفسير الزمخشرى فى سورة المدثر ، ومغدق : كثير المياه .

فيه شاعراً وخطيباً ، وأحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت عُدَّة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته ، دعاهم بالحجة ، فلما قطع العذر وأزال الشبهة ، وصار الذى يمنعهم من الإقرار الهوى والحميَّة دون الجهل والحَيْرة نصبوا له الحرب ونصب لهم . . وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباح مساء إلى معارضته إن كان كاذباً بسورة واحدة أو بآيات يسيرة . فكلما ازداد تحدياً لهم بها وتقريعاً لهم بعجزهم عنها قالوا له أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف ، فلذلك يمكنك ما لا يمكننا ، قال : فهاتوا ولو مفتريات ، فلم يَرُمْ ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر . ولو طمع فيه لتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوُجد من يستجيده ويحامى عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وناقض . فدلَّ ذلك العاقلَ على عجز القوم مع كثرة كلامهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض الشعراءَ من أصحابه والخطباءَ من أمته ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله وأبلغ فى تكذيبه وأسرع فى تفريق أتباعه عن بذل النفوس والخروج عن الأوطان وإنفاق الأموال. وهذا من جليل التدبير الذى لا يخفى على من هو دون قريش والعرب فى الرأى والفضل بطبقات ، ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصائد الموجزة ، ولهم الأسجاع واللفظ المنثور . ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن ظهر عجز أدناهم ، فمحال — أرشدك الله — أن يجتمع هؤلاء كلهم فى الأمر الظاهر والخطاب المكشوف البين مع التقريع بالتقصير والتوقيف على العجز ، وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد أعمالهم وقد احتاجوا إليه ، والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل المنفعة وكما أنه محال أن يطيقوه ثلاثاً وعشرين سنة على الغلط فى الأمر الجليل المنفعة كذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون السبيل وهم يبذلون أكثر منه » .

وكان طبيعيًّا أن يستكين العرب أمام هذه الذروة الرفيعة من البلاغة والبيان، وهى ذروة ليس لها فى اللغة العربية سابقة ولا لاحقة ، ذروة جعلت العرب

حين يستمعون إلى آيه تعنو وجوههم لربهم ويخرون رُكّعاً وسُجّداً مشدوهين بجماله مبهورين ببلاغته، وفى ذلك يقول جل وعز : (الله نَزَّلَ أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مَثانىَ تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) ويقول: (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) . ولا يزال هذا الشعور الذى كان يختلج فى قلوب العرب الأولين تخفق به القلوب فى كل عصر لما يفتح من آفاق العالم العلوى ، ولما يؤثر به فى صميم الوجدان الروحى . وهو يمتاز بأسلوب خاص به ليس شعراً ولا نثراً مسجوعاً ، وإنما هو نظم بديع ، فُصِّلت آياته بفواصل تنتهى بها وتطمئن النفس إلى الوقوف عندها . وتتنوع الفواصل بين طوال وقصار ومتوسطة بتنوع موضوعاته وتنوع المخاطبين ، فقد كان يغلب عليه الإيجاز والإشارة فى بدء الدعوة قبل الهجرة ، حين كان يدعو إلى عبادة الله ونبذ الديانة الوثنية ، والإيمان بالبعث والنشور ، فلما انتقل الرسول عليه السلام إلى المدينة غلب عليه البسط والإطناب لبيان نُظم الشريعة وما ينبغى أن يكون عليه نظام الحياة الاجتماعية، مما تقتضيه مصالح البشر فى حياتهم على اختلاف الأزمنة والأمكنة .

وقد أثَّر هذا الكتابُ العظيم آثاراً بعيدة فى اللغة العربية ، فقد حوَّل أدبها من قصائد فى الغزل والحماسة والأخذ بالثأر والفخر ووصف الإبل والخيل والسيوف والرماح ، ومن حكم متناثرة لا ضابط لها ولا نظام ، إلى أدب عالمى يخوض فى مشاكل الحياة والجماعة ، وينظِّم أمورها الدينية والدنيوية . فارتقى الأدب العربى رقيًّا لم يكن يحلم به العرب ، واتسعت آفاقه . وعادة يشير مؤرخو هذا الأدب إلى بعض ألفاظه التى ابتدأها ابتداء مثل القرآن والفرقان والكافر والمشرك والمنافق والصوم والصلاة والزكاة ، فمدلولات هذه الألفاظ لم تكن حتى كان ، والحق أنه جميعه بألفاظه ومعانيه المختلفة يُعَدُّ ابتداء، بما علَّم العرب من أسس الإسلام ومبادئه وبما بيَّن لهم من ماهية الحياة بعد الموت ومن البعث والنشور ورسالة الرسل وعبادة الله الواحد الأحد ، وبما نظم لهم من حياتهم فى الأسرة والجماعة تنظيما ماديًّا وأدبيًّا وعقليًّا وروحيًّا ، تنظيما يكفل لهم الكمال

البشرى والسعادة فى الدارين. وعلى نحو ما جمع العرب على دين واحد جمعهم على لهجة واحدة من لهجات اللغة العربية ، هى لهجة قريش ، وكانت قد سادت فى الجاهلية على لهجات القبائل العدنانية الشمالية ، فأتمّ لها هذه السيادة على لهجات القبائل اليمنية الجنوبية وكانت هى التى حملها العرب معهم فى فتوحاتهم ، فانتشرت فى العالم الإسلامى جميعه من الصين والهند إلى المحيط الأطلسى وجبال البرانس ، إذ كانت تلاوته فَرْضاً مكتوباً على المسلمين ، قال جل شأنه : (ورَتِّل القرآن ترتيلا) وقال : (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضَنْكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال : رَبِّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتَها وكذلك اليوم تُنْسَى) وبذلك كان للقرآن الكريم الفضلُ العظيم فى حفظ اللغة العربية وذيوعها وانتشارها فى ملايين الناس مدى أجيال متعاقبة بل مدى قرون مترادفة إلى اليوم .

فالقرآن هو الذى حفظ اللغة العربية القرونَ المتطاولة السابقة ، وقد حوّل العربىّ من إنسان جاهل يؤمن بالخرافات إلى إنسان محب للعلم مشغوف بالمعرفة ، يطلبها أينما كانت ، ولم يلبث أن فتح له الأرض ، فدخلت إلى العربية أمم شاركت فى لسانها وأدبها ، وتعاونتْ فى تلك النهضة الروحية والاجتماعية والأدبية والعلمية . ومن الحق أن كل ما كسبته لغتنا من آداب فى الشعر والنثر ومن علوم شرعية ولسانية وعقلية فلسفية ، إنما كان بفضل القرآن ، بل لقد تعدت آثاره لغته العربية إلى لغات الأمم الإسلامية التى لا تنطق بلغته . ولنتصور العرب لم يُرْسَلْ إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ولا نَزَل فيهم الذكر الحكيم إذن لما فارقت لغتهم جزيرتهم ولظلوا وثنيين فى تنابذ وشقاق وحروب طاحنة ، بل لعل لغتهم كانت قد اندثرت كما اندثرت لغات قديمة كثيرة ، فالقرآن هو الذى نفخ فى روحها ، وهو الذى أتاح لها الحياة على توالى القرون ، وهو الذى نقلها من لغة بداوة إلى لغة مدنية ، حتى أصبحت لغة عالمية لأمم كثيرة اتخذتها لسان ثقافتها وآدابها . ولا يوجد فى تاريخ البشرية كتاب له هذه الآثار العظيمة فى لغته وتغيير أحوال من آمنوا به ، بل هو يقف وحده فى هذا الباب ، إنه مفخرة العرب ومعجزة الإسلام وآيته الباهرة .

الحديث النبوى

حديث الرسول صلوات الله عليه هو الأصلُ الثانى للإسلام ، وهو يشمل كل ما جاء عنه من قول أو فعل أو تقرير ، وقد يسمَّى ذلك السنة . وترجع أهميته إلى أنه يتمم القرآن فى بيان أحكام الشريعة الإسلامية ، فالصلاة مثلا ذُكرت فى القرآن مجملة ، فبيَّن الحديث كيفيتها وأوقاتها ، وكذلك الشأن فى الزكاة فإن الحديث هو الذى بين قواعدها التى يجب اتباعها فى جَمْعها وتوزيعها . وهناك آيات فى الذكر الحكيم يحتمل وجوهاً مختلفة من المعانى ، والحديث هو الذى يشرح المرادَ منها . وهذا إلى كثير من شئون الدين التى يستقل الحديث ببيانها .

ومنذ عصر الرسول يهتم المسلمون بالحديث عملا بقوله تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوةٌ حسنة) فكانوا يأتمُّون به كما كانوا يأتمون بالقرآن الكريم وما شرَع لهم . ويدل على ذلك أكبر الدلالة ما يُرْوَى من أن الرسول حين أرسل مُعاذ بن جبل إلى اليمن سأله : بم تحكم ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ، قال : بسنة رسوله[1] . فرواية الحديث كانت معروفة فى حياة الرسول ، وكانت كل قبيلة تأخذ معها معلماً يعلمها القرآن والسنة النبوية . وكثيراً ما كان يعقِّب الرسول على أحاديثه وخطبه بقوله : « ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب »[2] . ولما توفى الرسول ، ودخل الموالى فى الإسلام أخذوا يحاولون معرفة كل شأن من شئون الرسول ، ليقتدوا به ، ولم يكن العرب يقلُّون عنهم شغفاً بتلك السيرة العاطرة .

كل ذلك دفع المسلمين إلى رواية الحديث ، غير أنه لم يدوَّن بصفة عامة إلا على رأس المائة الأولى للهجرة ، أما قبل ذلك فكان هناك من يدونونه ومن لا يدونونه . وتُرْوَى عن الرسول أحاديث مختلفة يدعو بعضها إلى تدوينه ،

---

(١) انظر مختصر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (الطبعة الأولى) ص ١٢٦ .

(٢) راجع مثلا خطبة حجة الوداع فى البيان والتبيين ٢ / ٣٣ .

ويدعو بعض آخر إلى عدم تدوينه[١] ، ولعله كان يخشى إن دُوِّنَ أن يختلط بالقرآن أو أن يشغل المسلمين عنه . وفى الوقت نفسه لم يجد مانعاً فى بعض الأحيان من أن تكتَب عنه بعض الأحاديث التى تتعلق بالأحكام . وإذا انتقلنا إلى عصر الصحابة وجدناهم يكرهون غالباً تدوين الحديث[٢] ، بينما يعنون بروايته ، وأشار نفر منهم على عمر أن يدوّنه ، فلبث شهراً يستخير الله فى ذلك ، ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له ، فقال : إنى كنت قد ذكرت لكم من كتاب السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت ، فإذا أناس من أهل الكتاب قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإنى والله لا ألبس كتاب الله بشىء أبداً[٣] ومضى الصحابة لا يدونون الحديث تدويناً عامًّا مكتفين بروايته ، وظلت هذه هى الفكرة الشائعة فى عصر التابعين[٤] ، ولكن بمضى الزمن تزداد الرغبة فى تدوينه ، حتى إذا كان عهد عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى للهجرة رأيناه يأمر بتدوينه[٥] ، ولا مشاحة فى أن أول من دونه تدويناً عامًّا هو ابن شهاب الزهرى المتوفى سنة ١٢٣ هـ ومنذ هذا التاريخ أخذ تدوين الحديث يتسع ، وأخذ يصنَّف ويبوَّب على الأحكام الفقهية ، حتى يسهل الرجوع إليه فى أمور الدين ، على نحو ما نجد فى كتاب « الموطأ » للإمام مالك إمام أهل المدينة المتوفى سنة ١٧٩ للهجرة ولا نصل إلى أواسط القرن الثالث حتى يضع فيه ابن حنبل مسنده الكبير ، وتتاوء كتب الصحيح الستة ، للبخارى ومسلم وأبى داود والترمذى وابن ماجة والنسائى .

ووُضع حول الحديث منذ العصر الأول فى روايته سياج محكم ، حتى لا يدخل فيه الوضع والانتحال ، وحتى تظل الثقة قائمة به ، وخاصة لأنه

---

(١) انظر تقييد العلم للخطيب البغدادى (طبعة يوسف العش) ص ٢٩ وما بعدها و ص ٦٥ وما بعدها .

(٢) نفس المصدر ص ٣٦ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر ص ٤٩ وما بعدها .

(٤) نفس المصدر ص ٤٥ وما بعدها و ص ٩٩ وما بعدها .

(٥) الزرقانى على موطأ مالك (طبع المطبعة الخيرية) ١/١٠ .

تأخر تدوينه تدويناً عاماً . وقد كُفل له من ذلك ما يملؤنا إعجاباً بعلمائه ورواته ، فقد اشترطوا شروطاً كثيرة فى حملَته ، وأقاموا من أجله علماً برأسه ، يسمى مصطلح الحديث ميزوا فيه بين أنواع صحيحه وضعيفه ، كما ألفوا كثيراً فى رجاله ورواته ، حتى يقفوا على درجة صدقهم . وقد أفردوا لضعيفه كما أفردوا لصحيحه مؤلفات كثيرة على نحو ما صنع ابن حبان وغيره ، وكذلك أفردوا مؤلفات لموضوعاته ومفترياته على نحو ما صنع السيوطى فى كتابه (اللآلئ المصنوعة) .

وبذلك حافظ المسلمون على حديث الرسول صلوات الله عليه ، وإن كانوا قد أجمعوا على أنه فى جملته رُوِىَ بالمعنى ولم يروبا للفظ ، بسبب تأخر تدوينه ، ولعل ذلك ما جعل علماء الكوفة والبصرة وبغداد لا يحتجون به فى إثبات لغة العرب والاستدلال على القواعد النحوية واللغوية التى دونوها ، فقد تداوله الأعاجم والمولدون قبل تدوينه تدويناً عاماً .

والذى لاشك فيه أنه عليه السلام لم يكن ينطق إلا عن ميراث حكمة ، وأنه أوتى جوامع الكلم ، وكان يكره الإغراب فى اللفظ والتعسف والتكلف ، ويكفى فى بيان روعة تعبيره وبلاغة كلامه وتراكيبه ما يقوله الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين من أنه « لم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة وشيد بالتأييد ويُسِّر بالتوفيق ، وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة وغشّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حُسْن الإفهام وقلة عدد الكلام . . لم تسقط له كلمة ولا ذلَّت به قَدَمٌ ولا بارتْ له حجة ، ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب ، بل يَبُذُّ الخطب الطوال بالكلم القصار . . ولا يحتج إلا بالصدق ولا يطلب الفَلْج[1] إلا بالحق ولا يستعين بالخلابة . . ولم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزناً ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أفصح معنى ولا أبين فى فحوى من كلامه

(١) الفلج : الفوز والظفر .

صلى الله عليه وسلم »[١] . وقد تداول العرب والمسلمون من كلماته الجامعة بعض أمثال لم يتقدمه فيها أحد ، من ذلك قوله [٢] :

مات حتْف أنفه[٣] — كل الصيد فى جوف الفَرا[٤] — إذن لا ينتطح فيها عنْزَان — يا خيل الله اركبِى — لا يُلْسَعُ المؤمن من جُحْر مرتين — هُدْنه على دَخَن[٥] وجماعة على أقذاء — الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة[٦] — إن المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى[٧] — إياكم وخضراءَ الدِّمن[٨] — الآن حَمِىَ الوطَيس[٩] .

على أنه ينبغى أن نعرف أن الأمثال لم يعد لها منذ ظهور الإسلام خطورتها فى تاريخ النثر العربى ، فقد تغيرت الحياة العربية من قواعدها ، ولم تعد تحتكرها الأمثال ، إذ أخذ العرب يُشْغَلُون عنها بتلاوة القرآن ورواية الحديث ، واتخذوا منهما عبرتهم وموعظتهم ، وحتى الشعر كفَّ كثيرون من شعرائهم عن نظمه [١٠] .

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٧ .

(٢) نفس المصدر ٢/١٥ وما بعدها والحيوان ١/٣٣٥ وزهر الآداب للحصرى (طبعة المطبعة الرحمانية) ١/٢٣ ومجمع الأمثال للميدانى ١/٧ ، ١/٢١ .

(٣) مات حتف أنفه : أى على فراشه من غير قتل فى الوغى .

(٤) الفرا : حمار الوحش ، يضرب مثلا فى نفاسة الشيء أو الشخص .

(٥) دخن : حقد .

(٦) الراحلة : الصالحة لأن ترحل .

(٧) المنبت : المسرع بناقته حتى عطبت فلم يقض حاجته ولا سفره . والظهر : الناقة التى يركبها .

(٨) الدمن : البعر المتلبد . وهو مثل يضرب تنفيراً من المرأة الحسناء تنشأ فى منبت السوء .

(٩) الوطيس : التنور ، يضرب مثلا على اشتداد الحرب .

(١٠) أغانى (طبعة الساسى) ١٤/٩٤ .

٢

الخطابة فى صدر الإسلام

الرسول صلى الله عليه وسلم أخطبُ العرب قاطبة ، وقد كان يخطب فى قريش كثيراً يدعوها إلى دينه الحنيف[١] والدخول فى طاعة الله ومحبته ، ولما هاجر إلى المدينة أصبحت الخطابة فريضة مكتوبة فى صلاة الجمعة والعيدين . وبذلك عرف العرب ضرباً منظماً من الخطابة الدينية لم يكونوا يعرفونه فى الجاهلية ، إذ كانت خطابتهم — كما أسلفنا — اجتماعية ، وكانت تدور غالباً على المنافرات والمفاخرات ، وقد دعا الإسلام إلى نبذ التفاخر والتكاثر بالأحساب والأنساب ، ومن ثَمَّ اختفى من حياتهم هذا اللون من الخطابة

وتحتفظ كتب الحديث الصحيحة[٢] بتقاليد الرسول صلوات الله عليه فى خطابته سواء فى صلاة الجمعة أو صلاة العيدين ، إذ كان يخطب فى الصلاتين خطبتين يجلس بينهما ، وكانتا تدوران على تبيين ما شرع الله لعباده فى شئون دينهم ودنياهم وما ينبغى أن يسود مجتمعهم من مثالية خلقية رفيعة ومن روابط اجتماعية وثيقة . وبجانب ذلك كان الرسول يخطب فى الأحداث وعند المناسبات . ومن المحقق أنه خلَّف تراثاً ضخماً من الخطب ، غير أن ما احتفظت به كتب الأدب والتاريخ من ذلك قليل ، ولا ترجع قلته إلى قِصَر خطبه ، فقد كان يطيل خطبه أحياناً وفى بعض المناسبات إلى ساعات[٣] يعظ الناس ويدعوهم إلى التفكر فى الكون وخالقه ومدبره . وأكبرُ الظن أن خطبه أصابها ما أصاب خطب الجاهلية ، فإنها لم تدوَّن لحينها ، وبَعُد العهد بين عصرها وعصر تدوينها . ومع ذلك فقد احتفظت ذاكرة الرواة ببقايا منها تحمل لنا خصائصها ، من ذلك

---

(١) السيرة الحلبية ١/٣٧٩ .

(٢) انظر كتاب الجمعة فى صحيحى البخارى ومسلم والتنبيه للشيرازى (طبعة ليدن) ص ٤٠ .

(٣) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٦٤ .

أنه خطب بعشر كلمات : حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال[١] :

« أيها الناس! إن لكم مَعالمَ فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، إن المؤمن بين مخافتين : بين عاجل قد مضى لا يدرى ما الله صانعٌ به ، وبين آجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه . فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشَّيْبَة قبل الكَبْرَة ، ومن الحياة قبل الموت . فوالذى نفسُ محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار » .

والخطبة على قصرها توضح لنا كيف كان الرسول يعظ أصحابه ويدفعهم دفعاً إلى العمل الصالح ، قبل أن يلبوا داعى الموت ، فتبور تجارتهم ويذهب هباءً عملهم ، وإنهم لمعروضون على ربهم ، فموفَّون حسابهم ، فأما من اتبع هدى الإسلام فمصيره الجنة التى وصفها القرآن الكريم فأسهب فى وصفها ، وأما من أعرض وتولى ولم يذكر اسم ربه ولا صَلَّى ، ولا أخلص عمله لوجهه فمصيره النار التى أطنب القرآن فى بيان عذابها .

ولم تكن خطبه مواعظ فحسب ، بل كانت أيضاً تشريعاً وتنظيما لحياة هذه الأمة التى أخرجت للناس فى خير مثال تأمر بالمعروف وتتناهى عن المنكر ، ويتعاون أفرادها على البر والخير مما فيه صلاحهم وصلاح مجتمعهم . ولعل خير خطبة تشريعية تصور كيف كان ينظم هذا المجتمع الروحى ويُرْسى قواعده خطبته فى حجة الوداع ، وهى تمضى على هذا النحو[٢] :

« الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، مَنْ يَهْدِ الله فلا مُضلَّ له ، ومن يضْلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم ، عبادَ الله ، بتقوى الله وأحثُّكم على طاعته ، وأستفتح بالذى هو

---

(١) انظر كتاب البيان والتبيين ١/٣٠٢ .

(٢) نفس المصدر ٢/٣١ وانظر كتاب الجمعة فى صحيح البخارى والسيرة لابن هشام (طبعة الحلبى) ٤/٢٥٠ والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٤/٥٩ .

خير . أما بعد، أيها الناس! اسمعوا مني أبَيِّنْ لكم فإني لا أدرى ، لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ، إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا هل بَلَّغتُ ؟ اللهم اشهد .

فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدِّها إلى الذى ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوعٌ[١] ، وإن أول رباً أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب — وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب — وإن مآثر الجاهلية موضوعة، غير السِّدانة[٢] والسقاية[٣] . والعَمْدُ قَوَدٌ[٤] ، وشِبْهُ العمد ما قتل بالعصا والحجر ، وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس ! إن الشيطان قد يئِسَ أن يُعبد فى أرضكم هذه، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تَحْقرون من أعمالكم. أيها الناس (إنما النَّسِىءُ[٥] زيادةٌ فى الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرِّمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرَّم اللهُ فَيُحِلُّوا ما حرَّم الله) . إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حُرُمٌ : ثلاثة متواليات وواحد فرْد : ذو القِعدة وذو الحجة والمحرَّم ورجب الذى بين جمادى وشعبان ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقًّا ، ولكم عليهن حق . لكم عليهن أن لا يُوطِئْنَ فُرُشَكم غيركم، ولا يُدْخِلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم،

---

(١) موضوع : ساقط ، ومحرم .

(٢) السدانة : خدمة الكعبة .

(٣) السقاية : سقاية قريش للحجاج .

(٤) العمد : القتل المتعمد ، القود : قتل القاتل بقاتله .

(٥) النسىء : شهر المحرم كانوا يحرمونه عاماً ، وعاماً يحلونه إذا أرادوا الإغارة ، فيقولون إنه بعد صفر ويؤجلونه .

ولا يأتين بفاحشة مبيّنة ، فإن فعلْن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلُوهن[١] وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح[٢] ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكُسْوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان[٣] ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فُروجَهن بكلمة الله . فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً ألا هل بَلَّغْتُ ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس! إنما المؤمنون إخوة ولا يَحلُّ لامرئ مسلم مالُ أخيه إلا عن طيب نَفْس منه ، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد . فلا ترجعنَّ بعدى كُفَّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتابَ الله . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد ، أيها الناس ! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير . وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد . قالوا : نعم ، قال : فليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ .

أيها الناس ! إن الله قسمَ لكل وارثٍ نصيبه من الميراث فلا تجوز وصيةٌ لوارث فى أكثر من الثلث . والولد للفراش وللعاهر الحَجَرُ[٤] . من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مَواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يُقْبلَ منه صَرْف[٥] ولا عدلٌ . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وواضح أن الخطبة تبدأ بحمد الله واستغفاره والتوبة إليه والاستعاذة من شرور النفس وسيئات العمل ونقائصه ، وتقترن بالشهادتين ، وتوصية المسلمين بعبادة الله وطاعته ، كما تقترن بكلمة « أما بعد » . ويمضى الرسول عليه السلام

---

(١) تعضلوهن : تضيقوا عليهن .
(٢) الضرب غير المبرح : الضرب الخفيف .
(٣) عوان : جمع عانية ، وهى الأسيرة أى هن عندكم بمنزلة الأسرى .
(٤) للفراش أى لصاحبه ، فهو ينسب إليه ، وللعاهر الحجر ، أى رغم أنفها ، أو لعله يشير إلى رجمها .
(٥) صرف : انصراف ، عدل : عدول . أى لا يقبل منه شىء .

فيبين أن دماء المسلمين حرام كأموالهم ، فلا قتل ولا نهب ولا سلب ، فقد انتهى قتل النفس المحرمة وانتهى قطع الطرق ، وانتهت الخيانات بجميع ضروبها ، فمن كانت عنده أمانة لا يخنها ، بل فليؤدها مستوفاة إلى صاحبها . إنه مجتمع ديني جديد ، تتوثق فيه الروابط ، فلا ربا ولا أخذ بثأر ، وقد تداعتْ مآثر الجاهلية سوى سدانة الكعبة وسقاية الحجيج ، فهما مأثرتان ضروريتان للجماعة ، وهما لذلك باقيتان . أما شريعة الأخذ بالثأر التي كانت قوام حياتهم فى الجاهلية ، فقد قَضَى عليها الإسلام ، إذ جعل حق الدم للدولة ، فالقاتل المتعمد تقتله الدولة بصاحبه ، أما من قتل خطأ فديته مائة ناقة لا تزيد . ويخوفهم الرسول من الشيطان وما يدعو إليه من الشرور فقد انتهت عبادته ، ولكن لم تنته أطماعه فى تضليل الناس عن الجادة . وأيضاً فإنه انتهى عهد التلاعب فى الدين وفى الأشهر الحرم .

ولا ينظّم الرسول العلاقات بين الفرد وجماعته الكبرى من الأمة فحسب ، بل ينظمها أيضاً بينه وبين جماعته الصغرى من الأسرة ، فيدعو إلى رعاية حقوق المرأة ، وأن يعاملها الرجل برفق ورحمة ، وقد رفع الإسلام من شأنها ووضعها فى المكان اللائق بها ، فكفل لها حرية التصرف فى مالها كما كفل لها حق اختيار زوجها .

ويدعو الرسول إلى دعم الروابط بين أفراد الأمة ، فالمسلمون جميعاً إخوة متساوون فى الحقوق والواجبات ، لا غني ولا فقير ولا أسود ولا أبيض ، ولا عربي ولا عجمي ، فالجميع سواء ، ولا فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح . ويشير إلى ما شرعه القرآن من نظام التوريث الجديد ، ويقرر أن المورِّث لا يحق له أن يحرم ورثته من ماله ، ويعطيه شيئاً من الحرية ، فيجعل له الحق أن يوصي لورثته ببعض ماله ، ولكن على أن لا يزيد عن ثلثه . ويعرض لمشكلة كبرى من مشاكلهم ، هى الأبناء غير الشرعيين الذين وُلدوا فى الجاهلية ، فينسبهم إلى أصحاب الفراش ، وكان من عادتهم أن يُنْسَبوا إلى غير آبائهم ، فقضى على تلك العادة السيئة حفظاً للأنساب .

وعلى شاكلة الخطبتين السالفتين كانت خطابة الرسول ، فهى إما موعظة حسنة وترغيب وترهيب وبيان لمسئولية المسلم الخلقية وأنه محاسب بين يدى ربه عن كل ما قدم فى حياته ، وهو يضع ذلك أمام عينيه ليصلحه ويقوِّم نفسه ويسمو به فى مراقى الكمال . وإما تشريع وتنظيم لمجتمعه وما ينبغى أن يسود فيه من عوامل الخير ودواعيه، فالمسلم للمسلم كالبُنْيان يشد بعضه بعضاً، فلا بغى ولا عدوان ، بل تآزر وتعاون فى قيام هذا المجتمع السليم .

ومن المحقق أن الرسول كان فى خطابته ــ كما كان فى حديثه ــ لا يستعين بخلابة ولا تزويق ، وقد برئتْ ألفاظه من الإغراب والتعقيد والاستكراه ، وهى مع ذلك ألفاظ جزلة لها بهاء ورونق ، تعمر بها القلوب والصدور وترتاح إليها الأسماع والأفئدة ، فتجتمع لها النفوس المتباينة الأهواء وتساق إليها بأزمّتها ، إذ تلتحم بمعانيها وما تدعو إليه من سبيل الرشاد ، وهى ــ بلا ريب ــ مثل أعلى فى البراعة والدقة ، ونقصد دقة الحس ولطف الشعور ، ولعل مما يدل على ذلك قوله : « لا يقولنَّ أحدكم خَبُثَتْ نفسى ولكن ليقُلْ لَقِستْ نفسى »[١] فقد كره أن يضيف المسلم الخبث إلى نفسه . ونؤمن بأن هذه العناية بحسن منطقه لم تكن نتاج تحبير أو تفكير إنما كانت نتاج ما خوله الله من نعمته فى بيانه الرائع .

وليس فى خطبتى الرسول السالفتين سجع ، ومن المؤكد أنه لم يكن يستخدم السجع فى خطابته ، بل كان ينفر منه بسبب استخدام الكهان له فى الجاهلية على نحو ما مر بنا فى الفصل السابق ، ولذلك صَدَّ عنه كما صدَّ عنه خلفاؤه . رَوَى الطبرى أن عمر بن الخطاب سأل صحارا العبدىَّ البليغ المشهور عن مكران الفارسية أثناء غزو المسلمين لها ، فقال صحار : « يا أمير المؤمنين ! أرض سَهْلُها جبال ، وماؤها وَشَل[٢] ، وتمرها دَقَل[٣] ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل ، وشرها طويل ، والكثير بها قليل، إن كثُر الجند بها جاعوا، وإن قلُّوا بها

---

(١) الحيوان للجاحظ ١/٣٣٥ ولقست النفس : غثت .

(٢) وشل : قليل .

(٣) دقل : أردأ التمر .

ضاعوا . فقال عمر : أسجّاعٌ أنت أم مخبر؟ فقال صحار : بل مخبر »[١] . وواضح أن عمر أنكر عليه استخدامه للسجع فى كلامه . ويَرْوى الرواة أن عبد الله بن الزبير تكلم بكلام مسجوع عند معاوية ، فقال له : « تعلمت السِّجاعة عند الكبر »[٢] . وفى أخبار معاوية أنه كتب إلى رجل كتاباً ، فأملى على كاتبه : « لهو أهونُ علىَّ من ذرَّة ، أو كلب من كلاب الحرّة » ثم استدرك قائلا لكاتبه : « امْحُ من كلاب الحرة واكتب من الكلاب »[٣] . فالخلفاء كانوا يكرهون السجع لنهى الرسول ، صلوات الله عليه عنه . وليس معنى ذلك أنه انمحى محواً من خطابة هذا العهد ، فالجاحظ يقول : « كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون فى تلك الخطب أسجاع كثيرة »[٤] ومن يرجع إلى حروب الردة يرى بعض المتنبِّئين مثل مسيلمة الكذاب يتكهنون ويسجعون فى كهانتهم ، وكان مسيلمة خاصة « يسجع السجاعات ، ويقولها مضاهاة للقرآن »[٥] ويقول الجاحظ إنه « عـَدا على القرآن فسلبه وأخذ بعضه وتعاطى أن يقارنه »[٦] .

وقد انتهت هذه الموجة من سجع المتنبئين بانتهاء حروب الردة ، ولكن السجع بعامة لم ينته معها تماماً فقد ظلت الخطباء تسجع بين يدى الخلفاء على نحو ما يلاحظ الجاحظ .

وإذا نظرنا فيما أثر من خطب عند أبى بكر الصديق ومن تبعه من الخلفاء الراشدين وجدناهم يقتدون بالرسول فى خطابتهم ، فهم لا يستخدمون السجع فيها ، وهم يفتتحونها بحمد الله وتمجيده والصلاة على رسوله ويوشُونها بآيات من القرآن الكريم وببعض أحاديث نبيه العظيم ، مستمدين من هذين الينبوعين الغزيرين فى وعظهم وفيما يسوقونه من وصايا وتعاليم . وكان الصِّديق فى الذروة

---

(١) الطبرى ، القسم الأول ص ٢٧٠٧ وانظر البيان والتبيين ١/٢٨٥ .

(٢) البيان والتبيين ١/٣٠١ والعقد الفريد ٤/٣٦٨ والسجاعة : مصدر سجع .

(٣) رسائل الجاحظ (طبعة الساسى) ص ١٥٥ .

(٤) البيان والتبيين ١/٢٩٠ .

(٥) الطبرى ، القسم الأول ص ١٧٣٨ ، ١٩٣٤ .

(٦) الحيوان ٤/٨٩ .

من البلاغة ومن البيان والفصاحة ، ومن خطبة له [١] :

« ألا إن أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك . . ألا إن الفقراء هم المرحومون، ألا وإنكم اليوم على خلافة النبوة ومَفْرِق المحَجّة[٢] . وإنكم سترون بعدى مُلكاً عَضُوضاً[٣] ، ومَلْكاً عنوداً[٤] ، وأمة شعاعاً[٥] ، ودما مُفَاحاً[٦] ، فإن كانت للباطل نزوة ، ولأهل الحق جولة ، يعفو لها الأثر ، وتحيا بها الفتن وتموت لها السنن ، فالزموا المساجد واستشيروا القرآن واعتصموا بالطاعة ، ولا تفارقوا الجماعة » .

وكان كثيراً ما يخطب فى الجيوش الخارجة إلى الغزو فيوصيها ويوصى قادتها باتباع هَدْى الإسلام وبالجهاد فى سبيله وله وصية مشهورة يوصى فيها عمر حين استخلفه عند موته بتقوى الله واتباع الحق حتى لا يُلقى بيده إلى التهلكة [٧] وهو فى كل ما أثر عنه يحسن اختيار لفظه ، فى أسلوب مرسل يشفّ عن دقة حسه ومعرفته بمواضع الكلم ، ولعل مما يدل على ذلك أنه مرَّ برجل معه ثوب ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ فقال : لا ، عافاك الله ، فقال أبو بكر : لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قل : لا ، وعافاك الله »[٨] .

وكان عمر بن الخطاب مثل صاحبه فى الأفق الأعلى من روعة البيان والخطابة ، وله خطب تدور فى كتب الأدب والتاريخ نكتفى منها بهذه القطعة[٩] :

« اقْدَعُوا[١٠] هذه النفوس عن شهواتها ، فإنها طُلعَة[١١] ، وإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية ، وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور[١٢] . إن هذا

---

(١) البيان والتبيين ٢/٤٣ وانظر عيون الأخبار ٢/٢٣٣ والعقد الفريد ٤/٥٩ وما بعدها .
(٢) المحجة : الطريق .
(٣) عضوض : شديد فيه عسف .
(٤) عنود : طاغ .
(٥) شعاع : متفرقة .
(٦) مفاح : سائل مهراق .
(٧) انظر الوصية فى البيان والتبيين ٢/٤٥ والعقد الفريد ٣/١٤٨ وراجع وصاياه الحربية لقواد جيوشه فى عيون الأخبار لابن قتيبة ١/١٠٨ وما بعدها .
(٨) البيان والتبيين ١/٢٦١ .
(٩) البيان والتبيين ٣/١٣٨ وقارن ١/٢٩٨
(١٠) اقدعوا : انهوا وكفوا .
(١١) طلعة : تتطلع إلى كل شىء .
(١٢) الدثور : الدروس .

الحق ثقيل مرىء[١] ، وإن الباطل خفيف وبىء[٢] ، وتَرْكُ الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعتْ شهوةً وشهوة ساعةٍ أورثتْ حزناً طويلا » .

وله وصايا كثيرة يوصى فيها قواد الجيوش الفاتحة بجنودهم وبمن يغزونهم من الأمم ، ومن أروع وصاياه وصية للخليفة من بعده ، ونسوق منها بعض نصائحه له ، يقول[٣] :

« أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً : أن تعرف سابقتهم . وأوصيك بالأنصار خيراً ، فاقبَلْ من محسنهم وتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيك بأهل الأمصار خيراً فإنهم رِدْءُ[٤] العدو وجُباة الأموال والفىء[٥] لا تحملْ فَيْئهم إلا عن فضْل منهم . وأوصيك بأهل البادية خيراً . فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام : أن تأخذ من حواشى[٦] أموال أغنيائهم فترد على فقرائهم . وأوصيك بأهل الذمة[٧] خيراً : أن تقاتل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم . وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ومخافة مقته أن يطلع منك على ريبة . وأوصيك أن تخشى الله فى الناس ولا تخشى الناس فى الله . وأوصيك بالعدل فى الرعية والتفرغ لحوائجهم وثغورهم[٨] ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم . . وآمرك أن تشتد فى أمور الله وفى حدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم . . واجعل الناس سواء عندك لا تبالى على من وجب الحق ، ولا تأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاّك الله مما أفاء الله على المؤمنين ، فتجورَ وتظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ما قد وسَّعه الله عليك » .

---

(١) يقصد عمر أنه حميد العاقبة .

(٢) يقصد أنه وخيم العواقب .

(٣) البيان والتبيين ٢/٤٦ وانظر فى وصاياه للجيوش عيون الأخبار ١/١٠٧ .

(٤) رده : معين أى يعينون على العدو .

(٥) الفىء : الغنيمة فى الحرب ، والخراج .

(٦) حواشى الأموال فى البادية : صغار الإبل والغنم .

(٧) أهل الذمة : أهل الكتاب فى البلاد المفتوحة .

(٨) الثغور : جمع ثغر وهو هنا الخلة والحاجة .

والوصية طويلة ، وهى أشبه بدستور قديم ، يضمنه عمر مواد الحكم كما فى شريعة الله وسنة رسوله ، وهى تجرى - شأنها شأن خطبه - فى هذا الأسلوب الناصع البرىء من الفضول ومن التكلف ، والذى يملأ السمع بجزالته ورصانته وقوته ، وكان خطيباً لا يبارى فى مخارج كلامه ، حتى قالوا إنه كان يستطيع أن يخرج الضاد من أى شِدْقيه شاء[1] . ولم يكن عثمان يبلغ من الفصاحة والبيان مبلغ صاحبيه ، ويروى أنه صعد المنبر ذات يوم ، فأرْتِجَ عليه ، فقال : « إن أبا بكر وعمر كان يُعدان لهذا المقام مقالا ، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب »[2] .

أما على بن أبى طالب فإنه لم يكن يقل عن أبى بكر وعمر شأواً فى خطابته ، وقد أثرت عنه خطب كثيرة ، ولا نقصد الخطب التى يحتويها بين دفتيه كتاب « نهج البلاغة » فأكثره مصنوع ومحمول عليه . وقد أشار إلى ذلك كثير من العلماء ، واختلفوا هل هو من عمل الشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ للهجرة أو هو من عمل أخيه الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ للهجرة ، يقول ابن خلكان فى ترجمة أولهما بكتابه وفيات الأعيان : « قد اختلفت الناس فى كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، هل هو جَمْعه أم جمع أخيه الرضى ، وقد قيل إنه ليس من كلام على ، وإنما الذى جمعه ونسبه إليه هو الذى وضعه » . ويردد هذا الكلام اليافعى فى مرآة الجنان[3] وابن العماد فى شذرات الذهب[4] ، ويؤكد الذهبي فى ميزان الاعتدال أن الشريف المرتضى هو الذى وضعه[5] ، ويذهب مذهبه ابن حَجر العسقلانى فى لسان الميزان ، يقول : « من طالع نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، ففيه السبُّ الصراح والحطّ على السيدين :

---

(١) البيان والتبيين ١/٦٢ .

(٢) نفس المصدر ١/٣٤٥ وانظر عيون الأخبار ٢/٢٣٥ والعقد الفريد ٤/٦٦ وزهر الآداب ١/٣٦ .

(٣) مرآة الجنان (طبعة حيدرآباد) ٣/٥٥

(٤) شذرات الذهب (طبعة القاهرة) ٣/٢٥٧ .

(٥) ميزان الاعتدال (طبعة لكهنو) ٢/٢٠١ .

أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وفيه من التناقض والأشياء الركيكة والعبارات التى مَنْ له معرفة بنفس القرشيين الصحابة وبنفس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين جزم بأن الكتاب أكثره باطل»[1] . ويذهب النجاشى المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة فى كتابه « الرجال » إلى أن مؤلف الكتاب هو الشريف الرضى[2] ، وهذا هو الصحيح بشهادة الرضى نفسه وشهادة شراح كتابه ، فقد ذكر فى الجزء الخامس المطبوع من تفسيره أنه هو الذى ألفه ووسمه باسمه نهج البلاغة[3] كما ذكر ذلك فى كتابه « مجازات الآثار النبوية »[4] ونجد ابن أبى الحديد المتوفى سنة ٦٥٥ فى شرحه للكتاب يعترف بأن خطبته من عمل الشريف الرضى ،ويذهب ابن ميثم البحرانى فى شرحه عليه إلى أنه من تأليف الشريف .

وإذن فالكتاب من عمل الشريف الرضى وصنعه ، ويظهر أنه لم يؤلفه جميعاً ، فقد أضاف قبله كثير من أرباب الهوى وفصحاء الشيعة خطباً وأقوالا إلى على بن أبى طالب ، يدل على ذلك ما جاء فى مروج الذهب للمسعودى إذ يقول : « الذى حفظ الناسُ عن على من خطبه فى سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة ، تداول الناس ذلك عنه قولا وعملا »[5] . وكأن الشريف الرضى وجد مادة صاغ منها كتابه ، وهى مادة بُنيت على السجع ، وفى ذلك نفسه مايدل على كذب نسبتها إلى على ، إذ ليس من الطبيعى أن يسجع على فى خطابته ، بينما ينهى الرسول الكريم عن السجع ، ويتحاماه أبو بكر وعمر وعثمان فى خطابتهم .

ومعنى هذا كله أنه لايصح الاعتماد على هذا الكتاب فى تصور خطابة على وأنه ينبغى الرجوع إلى المصادر الأولى ، مثل البيان والتبيين للجاحظ ، وقد روى

---

(١) لسان الميزان (طبعة حيدر آباد) ٢٢٣/٤ .

(٢) كتاب الرجال (طبعة بومباى) ص ١٩٢ ، ٢٨٣ .

(٣) الجزء الخامس من حقائق التنزيل للشريف الرضى (طبعة النجف) ص ١٦٧ .

(٤) مجازات الآثار النبوية (طبع بغداد) ص ٢٢ ، ٤١ .

(٥) مروج الذهب (طبعة باريس) ٤٤١/٤

طرفاً من خطبه وكلامه ومواعظه ، وقد دفعته حروبه مع طلحة والزبير وعائشة ثم مع معاوية إلى أن يكثر من دعوة جنوده إلى جهاد أعدائه وتحميسهم للكفاح والنضال فى سبيل مبدئهم وفكرتهم (١) .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على نهضة الخطابة فى هذا العصر الأول من عصور الإسلام، إذ أتيح لها من نبوة الرسول ورسالته وبيانه وبلاغته ما اتخذه خلفاؤه الراشدون لهم إماماً . وفرق بعيد بين خطب هذا العصر وخطب الجاهلية ، فالأخيرة جمل وصيغ لا رابط بينها تأخذ فى الأكثر شكل حكم متناثرة ، يسردها الخطيب سرداً ، أما فى هذا العصر فقد أصبح للخطبة غاية دينية واضحة تسمو بالعربى فى مراقى الفلاح الروحى ، وقد تخوض فى تنظيمات حربية أو اجتماعية . وكل ذلك معناه أنها أصبحت ذات موضوع تدور عليه وأنها رقيت رقيًّا بعيداً .

٣

الخطابة فى العصر الأموى

ازدهرت الخطابة فى هذا العصر ، وقد عملت فى هذا الازدهار وهيأت له أسباب مختلفة ، منها السياسى ، ومنها الدينى ، ومنها العقلى ، أما من حيث السياسة فقد كثرت الأحزاب السياسية المعارضة لبنى أمية وكثر مشعلو الفتن والحروب الداخلية . ومعروف أن الدولة الأموية قامت على أنقاض فتنة عثمان وما انتهت إليه من حروب صفين بين على ومعاوية . وبمجرد أن قبل علىٌّ التحكيم خرج عليه فريق من جيشه سُمِّى الخوارج ، وشهروا سيوفهم فى وجهه، وعبثاً حاول العودة بهم إلى صفوفه ، فحاربهم وتصدى له أحدهم فقتله . وخلص

---

(١) انظر البيان والتبيين ٥٣/٢ وما بعدها وراجع العقد الفريد ٦٦/٤ وما بعدها والكامل للمبرد وعيون الأخبار والطبرى فى مواضع متفرقة .

الأمر لمعاوية وخلفائه من بنى أمية فظل هؤلاء الخوارج ينازلونهم ، ويعدون دار المسلمين دار حرب ، فيجب أن يجاهدوهم ، إذ جعلوا الخلافة فى قريش وهى ليست حقاً من حقوقها وإنما هى حق لله ، وينبغى أن يليها من يستحقها بمشورة المسلمين ، وأن يكون خيرهم تقوى وزهداً وورعاً ، ولو لم يكن قرشياً ، بل لو كان عبداً حبشياً . وقد تعددت فرقهم ، وأهمها الأزارقة فى فارس ، والنجدات فى اليمامة وحضرموت والبحرين ، والصُّفْرِيَّة فى الموصل وشمالى العراق ، والإباضية فى اليمن وحضرموت .

ولا نتقدم إلى عصر يزيد بن معاوية حتى يرسل شيعة على إلى ابنه الحسين أن يفد عليهم فى الكوفة لمبايعته وإعلان الثورة على بنى أمية وصاحبهم يزيد ، وما يكاد يلم بالعراق حتى يقعدوا عن نصرته ، فيُسْفَكُ دمه . ويندمون على ما كان من تضييعه ، ويتجهون إلى الدعوة السرية لأبناء على ، ومن حين إلى حين تنشب ثوراتهم ، ولعل أهمها ثورة المختار الثقفى لعهد مصعب بن الزبير ، ثم ثورة زيد بن على بن الحسين لعهد هشام بن عبد الملك ، وقضى الأمويون على الثورة الأخيرة بينما قضى مصعب على ثورة المختار . وكان هذا الحزب الشيعى يؤمن بأن الخلافة من حق أبناء على فهم ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم لذلك ورثتها الشرعيون . وقد ذهبوا إلى أن إمامة على نص عليها الرسول ، ومن هنا تأتى عقيدة الوصية التى يدين بها الشيعة جميعاً ، كما يدينون بعقيدة المهدى ، وهو الإمام المنتظر الذى يخلِّص العالم مما فيه من شرور . وأسباب مختلفة جعلت الفرس يدخلون فى هذه العقيدة ، إذ كانوا قبل الإسلام يؤمنون بتوارث الملك فى أسرة بعينها ، على هذا القياس يصبح أحق الأسر القرشية بالملك العربى بنى هاشم وأبناء على خاصة ، فهم أقرب الناس إلى الرسول ، وأيضاً فإن علياً كان يسوِّى بينهم وبين العرب فى الحقوق بينما كان يضطهدهم الأمويون وولاتهم ، ولعل شيئاً من تشيعهم يرجع إلى كرههم لمن غلبوهم على بلادهم ، وكأنما رأوا فيه ضرباً من المقاومة لهؤلاء الغالبين .

وبجانب الحزبين السابقين ، حزبى الشيعة والخوارج ، توالت الثورات على

بني أمية ، فثار عبد الله بن الزبير فى الحجاز أثناء خلافة يزيد ، واستقل بها نحو عشر سنوات ، وتبعته العراق ومصر ، إلا أن عبد الملك بن مروان استطاع القضاء عليه . وثار فى العراق وإيران عبد الرحمن بن الأشعث ، ودوّخ الحجاج طويلا قبل أن يقضى على ثورته . وفى أوائل القرن الثانى للهجرة ثار بالعراق أيضاً يزيد بن المهلب ، وكان مصيره مصير ابن الأشعث . ولا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى يُجمع الشيعة أمرهم فى خراسان ويؤلفوا جيشاً يقضون به على الدولة الأموية قضاء مبرماً .

وهذه الأحزاب والثورات لم تكن تستعين فى انتقاضها على الأمويين بالسيوف فحسب ، بل كانت تستعين بالخطب والخطباء يدعون لها ويحمسون الناس على الانفضاض عن بنى أمية . ومن المهم أن نعرف أن السياسة على ألسنة هؤلاء الخطباء كانت تقترن بالدين لسبب بسيط ، وهو أن الخليفة عند المسلمين يعد إمامهم الذى تنتظم به مصالحهم وقواعد ملتهم على مقتضى الشريعة الإسلامية .

وبجانب هذا السبب السياسى الذى دلع الخطابة وسَعَّرَ بها الفتن والثورات على الأمويين سبب دينى خالص ، إذ أسّست فى كل بلد إسلامى مدرسة دينية تعلم الناس أصول دينهم وفروعه ، وكان العلماء القائمون عليها كثيرا ما يختلفون فيتحاورون فى وجهات نظرهم[1] . ولم تلبث أن انبثقت أبحاث كثيرة ومناقشات طويلة فى القدر وإرادة الإنسان ومدى حريته وفى الإيمان وهل من الضرورى له أن يرافقه العمل ، وفى صفات الله وهل هى عين الذات الإلهية ، وسرعان ما ظهرت فرق الجبرية والقدرية والمرجئة . فكان ذلك باعثاً على ظهور المناظرات ، وهى فرع مهم من فروع الخطابة .

وليس هذا فحسب ما أنتجه الدين فى خطابة القوم ، فقد بقى ركنان مهمان هما القصص والوعظ ، إذ كانت هناك طائفة تُعْرَفُ بالقُصَّاص ، تفسر

---

(١) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ والبيان والتبيين ١ / ٢٤٣ .

القرآن الكريم ، وتمزج تفسيرها بقصص كثيرة تستمدها من موروثات أهل الكتب السماوية ، وكانوا يستغلون ميل الناس إلى الأخبار العجيبة فيتزيدون فى قصصهم ، وكانت الأحزاب السياسية تتخذ نفراً منهم وسيلة للدعوة لها ولتحميس جنودها حين تثور بالدولة[١] ، وكان للأمويين فى كل بلد قاصٌّ يقص على الناس فى المسجد الجامع ويدعو إلى طاعتهم[٢] . واتسعت بجانب ذلك موجة الزهد والعبادة والنسك ، وتبعها ظهور وعاظ كثيرين ، تموج كتب الأدب بمواعظهم وما كانوا يدعون إليه من الزهد فى حطام الدنيا ، ومجاهدة النفس حتى ترفض عرض الحياة ومُتَعَها الزائلة وتطلب ما عند الله من ثواب الآخرة .

ورافق هذا السببَ الدينى فى ازدهار الخطابة سببٌ عقلى مرده إلى عناصر الثقافات الأجنبية التى أخذ يُدْعَمُ بها العقل العربى منذ هذا العصر الأموى ، مما فتق فيه قوة الجدل والحجاج . ومعروف أن الثقافة لهذا العصر لم يكن يضطلع بها العرب وحدهم ، بل كان يشركهم فيها الموالى الذين اتخذوا العربية لسانهم وقد أخذوا يزودونها بمعارفهم وثقافاتهم القديمة . وقد تعود مؤرخو الأدب العربى أن يقفوا فى هذا الجانب من التزاوج بين العرب والموالى فى الفكر والثقافة عند العصر العباسى ، عصر الترجمة المنظمة لما كان عند اليونان والفرس والهند . وينبغى أن نلاحظ أن هذا العصر الذى نُظِّمت فيه الترجمة سبقه عصر ، هو العصر الأموى ، لم تكن تعرب فيه الكتب إلا نادراً ، كما هو معروف عن خالد بن يزيد بن معاوية وطلبه لما عند الأجانب من معارف ، ولكن كان يعرَّب فيه لسان حَملة هذه الكتب ؛ وكانوا سيولا من شعوب الشرق الأوسط وأممه ، دخلوا فى الإسلام ، ودخلت معهم ثقافاتهم . وقد أقبلوا على الدراسات الدينية والعقلية يسهمون فيها بالحظ الأوفر ، فإذا قلنا إنهم ارتقوا بالعقل العربى

---

(١) الطبرى ، القسم الثانى ص ٩٥٠ وابن الأثير (طبعة ليدن) ٣٤١/٤ . للكندى (طبعة جيست) ص ٣١٤ ، وقارن بالهامش فى ص ٣٠٤ .

(٢) خطط المقريزى ٢٥٣/٢ والولاه والقضاة

وكل ما أنتجه فى ذلك العصر من خطابة وغير خطابة لم نكن مبالغين ، فقد كثرت المعرفة وتشعبت المعانى ودقَّت الفطن ، ولم يعد لها حدٌّ تنتهى إليه ، وانسابت من ذلك أسراب كثيرة فى خطابتهم ، فصاروا أقدر على البيان والتصرف فى الألفاظ .

ويخيَّل إلى من يقرأ فى أخبار القوم أنهم أصبحوا جميعاً خطباء ، فهم يخطبون فى نظرياتهم السياسية وفى معتقداتهم الدينية ويتناقشون فيها بكل مكان ، فى المسجد الجامع وفى الطرقات والأسواق ، وفى السلم وحين يتحاربون ، ومن ورائهم القصاص والوعاظ ، وقد جعل ذلك الجاحظ ينبهر انبهاراً شديداً ، فيخص العرب بالخطابة ويرفعهم درجات فوق الفرس واليونان[1] ، وقد يكون مصيباً فيما يختص بالفرس ، أما اليونان فأكبر الظن أنه لم يقرأ شيئاً واضحاً عن خطابتهم ، وإلا ما بالغ فى رأيه وذهب هذا المذهب ، فإن من المعروف أن الخطابة نهضت عند اليونان نهضة واسعة ، إذ كانت لديهم مجالس شورية وقضائية أعدت لازدهار الخطابة عندهم ازدهاراً أتاح لأرسطاليس أن يكتب فيها وفى أنواعها وأغراضها وأساليبها كتاباً كبيراً ، وأكبر الظن أن الجاحظ لم يعرف شيئاً من ذلك كله ، وهو كذلك لم يعرف شيئاً عن خطباء اليونان المشهورين أمثال ديموستين وبركليس .

ومهما يكن فقد ارتقت الخطابة رقيًّا بعيداً فى العصر الأموى ، ونشطت نشاطاً لعل العرب لم يعرفوه فى عصر من عصورهم الوسيطة ، إذ اتخذوها أداتهم للظفر فى آرائهم السياسية والانتصار فى مجادلاتهم المذهبية ، وعولوا عليها فى قصصهم ومواعظهم ، وفى وفادتهم على الخلفاء والولاة ، ومن ثم أينعت فيها فروع ثلاثة ، هى الخطابة السياسية وخطابة المحافل والخطابة الدينية ، ونلم بكل فرع من هذه الفروع إلمامة قصيرة .

---

(١) البيان والتبيين ٣/٢٧ وما بعدها .

الخطابة السياسية

كان كل حزب من الأحزاب السياسية يتخذ الخطابة وسيلة إلى نقد خصومه وبيان نظريته السياسية واستمالة الناس إليها وكذلك كان يصنع الثائرون على بنى أمية من أمثال يزيد بن المهلب فى تحريك الناس إلى الثورة عليهم وكأنما قامت عندهم جميعاً بما تقوم به الصحافة فى عصرنا من الدعاية للآراء السياسية ، فانبرى خطباء كل حزب يدعون إلى نظرية حزبهم وبيان أنهم على الحق وخصومهم على الباطل ، فهم الجديرون بأن يعتنق الناس مبادئهم ويذودوا عنها ذياداً.

وكان الخوارج يصفون بنى أمية بجورهم فى الأحكام وتعطيلهم حدودَ الله ، ويتناولونهم بألسنة حداد وقد يضيفون إلى ذلك مواعظ تصور عمق تدينهم وتمسكهم بالعروة الوثقى ، ومن أشهر خطبائهم قَطَرىُّ بن الفجاءة وتحتفظ كتب الأدب له بموعظة رائعة[١] ، ومن خطبائهم أبو حمزة الخارجى ، وقد روى الجاحظ خطبة طويلة ألقاها فى أهل مكة[٢] ، وهو يفتتحها بالحديث عن رسول الله وهَدْيه واقتداء أبى بكر وعمر به ، أما عثمان فعنده أنه أتى بما أحبط به الأوائل ، وأما على فلم يبلغ — فى رأيه — من الحق قصداً . ثم اقتصَّ خلفاء بنى أمية خليفة خليفة يثلبه ، إلا عمر بن عبد العزيز فإنه أعرض عنه . ونراه ينحى باللائمة على من يتشيعون لآل البيت ، ثم يصف أصحابه ونضالهم دون عقيدتهم وصفاً رائعاً . ومن خطباء الخوارج المشهورين زيد بن جندب خطيب الأزارقة[٣] وابن صُديقة وكان صُفريًّا ناسكاًوشُبَيْل بن عَزْرَه الضُّبَعى وعمران ابن حطان وحبيب بن حُدرة الهلالى والمُقَعْطل وعبيدة بن هلال اليشكرى[٤] ومنهم الضحاك بن قيس ونصر بن مِلحان[٥] وعبد الله بن يحيى طالب

(١) البيان والتبيين ٢/١٢٦ والعقد الفريد ٤/١٤١ وعيون الأخبار ٢/٢٥٠ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١٢٢ وانظر العقد الفريد ٤/١٤٤ والأغانى ٢٠/١٠٤

(٣) البيان والتبيين ١/٤٢ .

(٤) نفس المصدر ١/٣٤٣ — ٣٤٧ .

(٥) انظر فى هؤلاء الخطباء نفس المصدر ٢/٣٦٤ وما بعدها .

الحق(١) والطِّرِمَّاح(٢) وغيرهم كثير .

ولا يقل خطباء الشيعة كثرة عن خطباء الخوارج ، ومن أشهرهم الحسين ابن على بن أبى طالب وعلى بن الحسين وزيد بن على والمختار الثقفى وسليمان بن صُرَدٍ وعبدالله بن مطيع وعبيد الله المرِّىّ ، ومنهم بنو صُوحان : صعصعة وزيد وسَيْحان . وكانوا يكثرون من القدح فى بنى أمية وأنهم اغتصبوا الخلافة من أصحابها الشرعيين ورثة النبوة وحملة الرسالة القدسية الهادين المهديين والأئمة المنتظرين(٣) .

ولم تطل مدة عبد الله بن الزبير ومع ذلك فقد ملأ دفاتر العلماء كلاماً (٤) ، وكان أخوه مصعب واليه على العراق خطيباً مفوهاً وله خطبة جعلها كلها آيات قرآنية(٥) . وكان حول ابن الأشعث كثير من الخطباء(٦) ، وكان يزيد بن المهلب خطيباً مفوهاً ، وقد روى الجاحظ بعض خطبه(٧)

وكان يقف فى الصف المقابل من خطباء الأحزاب والثورات خطباء بنى أمية يدعون الناس إلى التمسك بحبل الجماعة وتأييد الأمويين فى حقوقهم التى اكتسبوها عن آبائهم ، وتقديمهم لهم فروض الطاعة والولاء ، وكثيراً ما يخلطون ذلك بالترهيب والترغيب ، وقد يشيرون إلى مقتل عثمان وأن الأمويين أولياء دمه وورثة خلافته . ولهم مواعظ لا نشك فى أنهم قالوها فى صلاة الجمعة والعيدين ككثير مما روى عن زياد والحجاج ، وعن بعض خلفائهم وخاصة عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد المشهور . وأكثر خلفائهم كان خطيباً ، ولهم خطب تدور فى كتب الأدب والتاريخ . ومن خطبائهم بجانب من قدمنا عتبة بن أبى سفيان والى معاوية على مصر وعبيد الله بن زياد وخالد بن عبد الله القَسْرى ويوسف

---

(١) الأغانى ٢٠/٩٨ .

(٢) البيان والتبيين ١/٤٦ .

(٣) الطبرى ، القسم الثانى ص ١٩٦١ .

(٤) البيان والتبيين ١/٣١٤ وانظر خطبه فى العقد الفريد ٤/١٠٧ .

(٥) البيان والتبيين ٢/٢٩٩ والعقد الفريد ٤/١٣٥ .

(٦) البيان والتبيين ١/٤٨ وانظر ٢/١٥٥ .

(٧) البيان والتبيين ١/٢٩٢ وانظر العقد الفريد ٤/١٢٧ .

ابن عمر الثقفى وسعيد بن العاص وابنه عمرو الأشدق، ومن قوادهم الخطباء موسى ابن نصير وطارق بن زياد اللذان فتحا الأندلس وقتيبة بن مسلم ونصر بن سيار فاتح التركستان .

وعلى هذا النحو كان لكل حزب خطباؤه الذين يذودون عنه وينافحون عن مبادئه ، ولم يكن هناك داع لفكرة أو لنضال فى حرب لا يقف فى الناس خطيباً ، وقد بعث ذلك على نهضة الخطابة السياسية فى هذا العصر نهضة واسعة . ولعل هذه النهضة هى التى جعلت المؤرخين حين يعرضون علينا الآراء السياسية أو المذهبية لزعماء هذا العصر يعرضونها علينا فى شكل خطب ، على نحو ما نجد فى الطبرى وابن الأثير ، فهم إذا أرادوا أن يعرضوا علينا رأياً للحسين ابن على أو لحفيده زيد أو لأى داع شيعى أو خارجى أو أى ثائر زبيرى وغير زبيرى أو لأى وال أموى أو قائد يقود الجيوش عرضوه فى صورة خطبة ، فهم لا يقولون إن فلاناً كان يرى كذا أو كذا ، وإنما يقولون خطب فلان فقال كذا وكذا . فهم لا يتصورون صاحب نحلة سياسية يعرض رأيه فى شكل حديث بل لابد أن يعرضه فى شكل خطبة يقرع بها الأسماع ويجذب القلوب .

خطابة المحافل

نمت الخطابة الحفلية فى هذا العصر بحكم نمو السلطان العربى ، فكانت الرجال والوفود تَقْدُم على الخلفاء والولاة لأغراض مختلفة : للشكوى أو للاستمناح أو للتهنئة أو للتعزية أو للموعظة أو لغير ذلك من الأغراض . وقد رُوى فى كتب الأدب كثير من أخبار هذه الوفادات . وممن وفد على معاوية النخّار ابن أوس العُذْرى[١] وعمرو بن سعيد الأشدق[٢] وزُرْعة بن ضَمرة ، وهو الذى كان يقال فيه « لولا غلوٌّ فيه ما كان كلامه إلا الذهب » وكان ابنه النعمان من أخطب الناس وقد وقع فى يد الحجاج بعد قضائه على ثورة ابن الأشعث

(١) البيان والتبيين ١/٢٣٧، ١/٣٢٣ . (٢) نفس المصدر ١/٣١٥ - ٣١٦ .

فتخلص منه بكلام لطيف[١]. وممن وفد على معاوية رَوْح[٢] بن زنْباع وصحار العبدى ، ويروى أن معاوية قال له : ما هذا الكلام الذى يظهر منك ؟ قال : شىء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا[٣] ومن الوافدين عليه سحبان وائل ، وقد اشتهرت له خطبة خطب بها بين يديه ، وكانت العرب تسميها الشوهاء من حسنها[٤] ، ومنهم الأحنف بن قيس سيد تميم ، ومما نطق به فى حضرته ، معبراً عن شكاة لقومه[٥] :

« إن دافّة دفّتْ[٦] ، ونازلة نزلت ، ونائبة نابتْ ، ونابتة نبتت[٧] ، كلهم به حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبرّه ، فقال معاوية : حسبك يا أبا بحر ، قد كفيت الشاهد والغائب » .

ولما فكر معاوية فى جعل ابنه يزيد وليًّا لعهده استقدم وفود العرب من الأمصار والبادية ، فكانوا يخطبون بين يديه منوهين بيزيد ، ومبايعين له ، سياسة حكيمة منه ، حتى يبرم الأمر من بعده لابنه[٨] . ولما توفى وجلس ابنه يزيد مكانه دخل عليه عطاء بن أبى صيفى الثقفى ، فخطب بين يديه بقوله[٩] :

« يا أمير المؤمنين أصبحتَ قد رُزئتَ خليفة الله ، وأعطيتَ خلافة الله ، وقد قضى معاوية نَحْبه ، فغفر الله ذنبه ، وقد أعطيت بعده الرياسة ، ووَليتَ السياسة ، فاحتسبْ عند الله أعظم الرزيّة ، واشكره على أفضل العطية » .

وكان عبد الملك يجلس للوفود وخطبائها ، وممن وفد عليه سعيد بن عمرو بن

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٥٤ — ٣٥٥ .
(٢) نفس المصدر ١/٣٥٨ .
(٣) البيان والتبيين ١/٩٦ وقارن ٤/٤٦ والعقد الفريد ٤/٣١ .
(٤) نفس المصدر ١/٣٤٨ وانظر زهر الآداب ٤/٣٣ .
(٥) البيان والتبيين ٢/٨٨ .
(٦) دافة دفت : نازلة شديدة نزلت فاستأصلت ما بأيديهم ، ويمكن أن يكون ذلك استعارة لفقراء البادية الذين أجدبوا ونزلوا بهم .
(٧) النابتة هنا : الصغار الناشئون ، أما النائبة فيمكن أن يراد بهم الأضياف ينوبون القوم وينزلون بهم .
(٨) البيان والتبيين ١/٣٠٠ وانظر العقد الفريد ٤/٣٦٩ حيث روى طرفاً من تلك الخطب .
(٩) البيان والتبيين ٢/١٩١ وقارن بزهر الآداب ١/٤٩ .

سعيد [١] والهيثم بن الأسود بن العريان ، وقد سأله عبد الملك كيف تجدك ؟ قال : « أجدنى قد ابيضَّ منى ما كنت أحب أن يسودّ ، واسودَّ منى ما كنت أحب أن يبيضّ ، واشتد منى ما كنت أحب أن يلين ، ولان منى ما كنت أحب أن يشتد » [١] . ولما توفى عبد الملك وجلس ابنه الوليد دخل عليه الناس وهم لا يدرون أيهنئونه أم يعزّونه ، فأقبل غَيْلان بن سَلمة الثَّقفى فسلَّم عليه ، ثم قال [٣] :

« يا أمير المؤمنين ! أصبحتَ قد رُزئت خير الآباء ، وسُمِّيت خير الأسماء ، وأُعطيتَ أفضل الأشياء ، فعظَّم الله لك على الرزيَّة الصبر ، وأعطاك فى ذلك نوافل الأجر ، وأعانك على حسن الولاية والشكر ، ثم قضى لعبد الملك بخير القضية ، وأنزله بأفضل المنازل المرضية ، وأعانك من بعده على الرعية » .

ولم يكن يتولى الخلافة أموى إلا وتقدم الوفود عليه من الأمصار ، ويقوم خطباؤها بين يديه مهنئين مبايعين ذاهبين فى خطبهم كل مذهب . ومن حين إلى حين كانت تقدم هذه الوفود على الخليفة لترفع مظلمة لها ، أو لتنال بعض الرِّفد والعطاء ونجد الوعاظ كثيراً ما يلمون بمجالس الخلفاء ويعظونهم ، على نحو ما كان يعظ أبو حازم الأعرج سليمان بن عبد الملك [٤] ، ولما تولى عمر بن عبد العزيز كان يقدم عليه النساك والزهاد لوعظه ، لما اشتهر عنه من نسكه وعبادته ، من مثل زياد بن أبى زياد ، وكان يلزمه محمد بن كعب القرظى ، وله أخبار معه ومواعظ [٥] ، وكان خالد بن صفوان يلزم هشام بن عبد الملك ويعظه [٦] .

وعلى نحو ما كانت تفد الوفود والوعاظ على الخلفاء كانت تفد على الولاة ، وممن وفد على زياد وخطب بين يديه فى وفد من قومه عمران بن حطّان [٧] ،

---

(١) البيان والتبيين ١/٣١٦ .

(٢) نفس المصدر ١/٣٩٩ ، ٢/٦٩ .

(٣) البيان والتبيين ٢/١٩١ — ١٩٢ .

(٤) البيان والتبيين ٣/١٣٥ .

(٥) نفس المصدر ٢/٣٤ ، ٣/١٤٣ ، ٣/١٧٠ . وانظر عيون الأخبار لابن قتيبة ٢/٣٤٣ ، ٢/٣٧٠ .

(٦) عيون الأخبار ١/٣٤١ .

(٧) البيان والتبيين ١/١١٨ .

وكان الأحنف يفد على ابن الزبير كما كان يفد على معاوية ، ويفد معه خطباء من قومه [١] ، وكم من خطيب تخلص من عقاب الحجاج بحسن منطقه [٢] ، ولما دخل أيوب بن القِريَّة عليه قال له : « ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : ثلاثة حروف ، كأنهن ركْبٌ وقوف : دنيا وآخرة ومعروف » وقال له فى بعض القول : « أقِلْنى عثرتى وأسِغْنى ريقى ، فإنه لا بد للجواد من كَبْوة ، وللسيف من نَبْوة ، وللحليم من هفوة »[٣] . وكان كثيراً ما يستنطق الوافدين عليه [٤] . ولما ولى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز على العراق كان يحضر مجلسه الوعاظ ، ويعظونه [٥] كما كانوا يعظون أباه .

ومما يدخل فى هذا الضرب من خطابة المحافل خطابة الإملاك والتزويج[٦] وخطابة الصلح بين العشائر[٧] ، وما كان من منازعات ومفاخرات فى مجالس الخلفاء[٨] ، ويسوق الجاحظ فى بيانه أخباراً كثيرة عن هذه الصور من الخطابة وما كان يفترق به بعضها عن بعض [٩] .

الخطابة الدينية والوعظ والمناظرات

نمت هذه الخطابة فى عصر بنى أمية نمواً واسعاً ، فقد كانت فريضة مكتوبة على المسلمين فى صلاة الجماعة والعيدين وكان الخلفاء والولاة يؤمّون الناس فى تلك الصلاة ، ولذلك نقرأ لكثير منهم خطابات زاهدة ، يحضّون الناس فيها على الانصراف عن الدنيا والتعلق بالآخرة ويحثونهم على الخير والفضيلة

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٠ .

(٢) نفس المصدر ١/٢٥٩ - ٢٦٠ والعقد الفريد ٢/٤٦٤ .

(٣) البيان والتبيين ١/٣٥٠ وزهر الآداب ٤٩/٤ وعيون الأخبار ١/١٠٢ .

(٤) البيان والتبيين ٢/١٦٤ .

(٥) البيان والتبيين ١/٢٤ .

(٦) انظر البيان والتبيين ١/٤٠٤ ، ٧٣/٤ العقد الفريد ٤/١٤٩ وعيون الأخبار ٧٢/٤ .

(٧) البيان والتبيين ٢/١٣٥ وانظر ١/١٠٥ ، ١/١٧٣ .

(٨) انظر البيان والتبيين ٢/٩٠-٩٢ وانظر العقد الفريد ٤/٤ وما بعدها والنزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم للمقريزى .

(٩) البيان والتبيين ١/١١٦ ، ٣/٦ .

والأعمال الصالحة . وأخطبُ الخلفاء فى هذا الباب عمر بن عبد العزيز ، وله خطب كثيرة ، يدعو فيها الناس إلى طاعة الله والنفور من معصيته وأن يفكروا فى الموت وما بعده من البعث والحساب والجنة والنار ، ولعل والياً لم يؤثر عنه من الخطب الدينية ما أُثر عن الحجاج ، وكان دائماً يقول : « أيها الناس إن الكفَّ عن محارم الله أيسرُ من الصبر على عذاب الله »[١] وللولاة من قبله وبعده مواعظ ترويها كتب الأدب والتاريخ[٢] .

وإذا كان هذا اللون من الخطابة قد شاع على ألسنة الخلفاء الأمويين وولاتهم فإن خصومهم من الخوارج والشيعة كانوا لا يقلون عنهم دعوة إلى التقوى والورع ، بل لعلهم كانوا يتقدمونهم ، إذ لم يكن بأيديهم شىء من الدنيا ، وكانوا يمزجون خطابتهم السياسية بالدين ، وقد يجعلونها دينية خالصة ، على نحو ما صنع قَطرىّ بن الفجاءة فى موعظته المشهورة[٣] ، وشدَّاد بن أوس أحد شيعة علىّ فى موعظته بين يدى معاوية ، وقد طلب إليه أن يتنقَّص عليًّا[٤] ، وتدور فى كتب الأدب كلمات كثيرة لزيد بن على بن الحسين ، هى من بقايا خطبه[٥] ، وكان ينازعه جعفر بن حسن بن الحسن بن على فى الإمامة ، فكان الناس يجتمعون ليسمعوا مجاوباتهما ومجادلاتهما فى أيهما الأحق بها[٦] .

غير أن هؤلاء جميعاً لم يتخصصوا بالخطابة الدينية ، ولم يعيشوا لها ، وإنما الذى عاش لها هم القُصَّاص والوعاظ ، وقد نشأ القصص منذ عصر عمر ابن الخطاب ، فكان هناك قُصَّاص يقصون فى المساجد[٧] وآخرون يقصون فى

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٨٧ .
(٢) نفس المصدر ١/٣٨٧ و ٢/١٤٣ والعقد الفريد ٤/١٣٤ وما بعدها وعيون الأخبار ٢/٢٤٦ ، ١/٢٥١ .
(٣) البيان والتبيين ٢/١٢٦ وعيون الأخبار ٢/٢٥٠ .
(٤) البيان والتبيين ٤/٦٩ وعيون الأخبار ١/٥٥ .
(٥) البيان والتبيين ١/٣٥٣ وزهر الآداب ١/٧٢ .
(٦) البيان والتبيين ١/٣٣٤ وانظر زهر الآداب ١/٧٣ .
(٧) طبقات ابن سعد ٥/٣٤١ .

مقدمة الجيوش الفاتحة [١]. واتسعت هذه الموجة اتساعاً شديداً فى عصر بنى أمية ، إذ استخدمتها الدولة كما استخدمها خصومها فى الدعوة السياسية ، وقد أمر معاوية أن يكون ذلك مرتين فى اليوم ، مرة بعد صلاة الصبح ومرة بعد صلاة المغرب [٢] ، وعيّن للقصاص مرتبات خاصة [٣]. وكان للخوارج قصاص كثيرون ، أشهرهم صالح بن مسرّح، وكان يخلط مواعظه وقصصه بالدعوة إلى الجهاد للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما يزال يذم الدنيا والتعلق بها .

وهؤلاء القصاص الرسميون كان يقابلهم قصاص من الناسكين العابدين من مثل الأسود بن سريع ، وهو أول من قصّ بالبصرة [٤] ومثل زيد بن صوحان فى الكوفة [٥] وعبيد بن عمير فى المدينة [٦] ، وكان عبد الله بن عمر يحضر قصصه ووعظه ، ومنهم إبراهيم التيمى وكان الناس ينتفضون أمامه انتفاض الطير [٧] ، وسعيد بن جبير ، وكان يقص كل يوم مرتين بعد الفجر وبعد العصر [٨] ، وذَرّ بن عبد الله وكان من أبلغ الناس فى القصص [٩] ، ومسلم ابن جندب قاصّ مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم [١٠] ، ومطرّف بن عبد الله الشِّخِّير [١١] ، ويزيد بن أبان الرقاشي ، وكان قاصًّا مجيداً ، ومن قوله [١٢] :

« ليتنا لم نُخْلَق ، وليتنا إذ خُلقنا لم نَعْصِ، وليتنا إذ عصينا لم نمت ، وليتنا إذ متنا لم نُبعث، وليتنا إذ بُعثنا لم نحاسَب، وليتنا إذ حُوسبنا لم نعذّب ، وليتنا إذ عُذّبنا لم نخلَّد » .

(١) أسد الغابة ٥/٢١٦ .

(٢) الولاة والقضاة للكندى ص ٣٠٤ فى الهامش وخطط المقريزى (طبعة بولاق) ٢/٢٥٣

(٣) الولاة والقضاة ص ٣١٧ .

(٤) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٢٨ .

(٥) ابن سعد ٦/٨٤ .

(٦) ابن سعد ٥/٣٤١ والبيان والتبيين ١/٣٦٧ .

(٧) طبقات ابن سعد ٦/١٩٩ .

(٨) ابن سعد ٦/١٨٠ .

(٩) انظر العقد الفريد ٣/١٩٨ وعيون الأخبار ٢/٢٩٨ .

(١٠) البيان والتبيين ١/٣٦٧ .

(١١) نفس المصدر ١/٣٦٧ وصفة الصفوة ٣/١٤٤ وعيون الأخبار ٢/٢٨٩ .

(١٢) البيان والتبيين ١/٢٦٢ .

وهو عم الفضل بن عيسى القصَّاص المشهور[١] ، ومن كبار القُصاص مالك بن دينار ، وكان يقول فى قصصه : « ما أشد فطامَ الكبير »[٢] . ومن القصاص أيضاً وهب[٣] بن منبِّه .

وكان هؤلاء القصاص يمزجون قَصصَهم بالحديث عن الرسل والأنبياء والأمم الداثرة ، كما كانوا يمزجونه بآى الذكر الحكيم وأحاديث الرسول عليه السلام . وكان بجانبهم كثير من الزهاد الوعاظ مثل رجاء[٤] بن حَيْوة والأوزاعى[٥] فى الشام وسعيد[٦] بن المسيب وأبى حازم[٧] الأعرج سلمة بن دينار فى المدينة . وعبد الله بن عمرو بن العاص فى مصر[٨] وكان العراق يكتظ بهم ، ومنهم ابن شُبرمة[٩] وأيوب السِّختيانى[١٠] ومؤرِّق العجلى ، وكان يقول : « ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدلّ على ربه »[١١] . ومنهم بكر بن عبد الله المزنى القائل : « أطفئوا نار الغضب بذكر جهنم »[١٢] والشَّعْبى[١٣] ومحمد بن واسع الأزدى ، وكان يقول : « يعجبنى أن يصبح الرجل وليس له غَدَاء ، ويمسى وليس له عَشاء ، وهو مع ذلك راضٍ عن الله »[١٤] . ومن الوعاظ المشهورين محمد بن كعب القرظى واعظ عمر بن عبد العزيز[١٥] ومالك بن دينار[١٦] والحسن البصرى هو أكبر وعاظ العصر وقصاصيه ، وكان الوعظ عليه أغلب ، وله مواعظ كثيرة تدور فى البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد ، وقد أفرد له ابن الجوزى

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٩٠ ، ٣٠٦–٣٠٨ وانظر الحيوان ٧/٢٠٤ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٢٠ وصفة الصفوة ٣/١٩٧ وما بعدها .

(٣) انظر بعض قصصه الوعظى فى عيون الأخبار ٢/٢٧٢–٢٧٦، ٢/٢٨ – ٢٨٣ ، ٢/٣٢٨ .

(٤) انظر صفة الصفوة ٤/١٨٦ .

(٥) صفة الصفوة ٤/٢٢٨ .

(٦) صفة الصفوة ٢/٤٤ .

(٧) عيون الأخبار ٢/٢٨٦ ، ٢/٣٣٠ والبيان والتبيين ٣/١٤٢ والعقد الفريد ٣/١٦٣ .

(٨) عيون الأخبار ٢/٢٩٤ .

(٩) البيان والتبيين ١/٣٣٦ والعقد الفريد ٣/١٥٠ ، ٣/١٨٣ .

(١٠) انظر صفة الصفوة ٣/٢١٢ .

(١١) البيان والتبيين ٢/١٩٨ .

(١٢) نفس المصدر ٣/١٤١ .

(١٣) البيان والتبيين ٢/٣٢٢ وصفة الصفوة ٣/٤٠ .

(١٤) العقد الفريد ٣/١٧٠ .

(١٥) البيان والتبيين ٣/١٤٣ .

(١٦) عيون الأخبار ١/٥٤ .

كتاباً ساق فيه وعظاً كثيراً ، وهو لا يبلغ من الثقة به مبلغ المصادر السابقة . ونراه فى وعظه دائم التذكير بالبعث ويوم الحساب مكثراً من الحض على التقوى والعمل الصالح الذى يبقى . وهو يعرض ذلك فى صورة من الخوف الشديد ، الخوف من الجحيم ، حتى لكأنه يراها بين عينيه ، وكأن الناس واقفون على شفيرها ، وهو يدعوهم أن يبتعدوا عنها مخافة أن يهووا فيها وهم لا يشعرون . وفى أثناء ذلك يحثهم على التحلى بالفضائل فاتحاً عليهم من جهة أبواب النار ومن جهة ثانية أبواب الرجاء بل أبواب المحبة الإلهية . ونراه يغترف فى مواعظه اغترافاً من القرآن الكريم وآيه ، فهو المنبع الذى يستمد منه وعظه وخوفه ورجاءه وحزنه العميق ، ولعله من أجل ذلك كان يقول : « والله يا ابن آدم لئن قرأت القرآن ثم آمنت به ليطولنّ فى الدنيا حزنك وليشتدن فى الدنيا خوفك وليكثُرن فى الدنيا بكاؤك »(١) .

وعلى هذا النهج نفسه نقرأ مواعظ الوعاظ من حوله التى تتناثر فى الكتب الأدبية الآنفة الذكر ، وكانوا كثيراً ما يلمون بمجالس الخلفاء والولاة فيعظونهم ويبكونهم ، ويُحدثنا الرواة أن خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى الرقاشى وواصل بن عطاء تباروا فى الوعظ بمجلس عبد الله بن عمر بن عبد العزيز حين ولى العراق ، وكان ذلك فى سنة ١٢٨ للهجرة ، فبزَّهم واصل لطول خطبته ولأنه جانب فيها الكلمات ذات الراء ، للثغة كانت له فيها ، فكان يتحاشاها فى منطقه (٢) .

وخالد بن صفوان وشبيب بن شيبة هما اللذان يقول فيهما الجاحظ : « ما علمت أنه كان فى الخطباء أحد كان أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة ، للذى يحفظه الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهم »(٣) ويقول فى خالد : « ومن الخطباء المشهورين فى العوام والمقدَّمين فى الخواص خالد بن صفوان . ولكلامه كتاب يدور فى أيدى الوراقين »(٤) وكان الفضل بن عيسى

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم (طبعة الخانجى) ١٣٣/٢ .

(٢) البيان والتبيين ٢٤/١ .

(٣) نفس المصدر ٣١٧/١ .

(٤) نفس المصدر ٣٣٩/١ – ٣٤٠ .

الرقاشى من أخطب الناس وكان متكلماً ، وكان قاصًّا مجيداً ، وكان يجلس إليه عمرو بن عبيد وكثير من الفقهاء [١] ولم يكن عمرو بن عبيد يقل عنه بلاغة وبياناً ، أما واصل فلم يكن أبين ولا أجود لساناً منه ، وكان يلثغ فى الراء ، فرام إسقاطها من كلامه ، فلم يزل يكابد ذلك ويناضله ويساجله ، حتى تخلص من تلك الهجنة ، وانتظم له ما حاول ، حتى فى محاجة الخصوم وفى الكلام البديه المرتجل . ويعلل الجاحظ لذلك بأنه « كان داعية مقالة ورئيس نحْلة وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، وأنه لابد له من مقارعة الأبطال ومن الخطب الطوال ، وأن البيان يحتاج إلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب وتُثْنَى به الأعناق وتزيَّن به المعانى»[٢] فما زال يمرن نفسه على تفادى الكلمات ذات الراء ، حتى تأتى له ذلك واتسق له ما أراد .

ويقول الجاحظ إن واصلا كان داعية مقالة ورئيس نحلة ، والمقالة التى يريدها هى مقالة الاعتزال وهى نفسها النحلة ، ويحدثنا صفوان الأنصارى فى قصيدة مدحه بها وأنشدها الجاحظ[٣] أنه كان له دعاة خطباء يطوفون بأركان الأرض حتى يبلغوا الصين شرقاً وبلاد البربر غرباً ، ويُشيد ببيانهم وفصاحتهم وما أوتوا من اللسن وبراعة القول وقوة الحجة .

ويلفتنا الجاحظ إلى ما كان ينهض به واصل من الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل ، فقد كان يناظر أصحاب الديانات ، وكان يناظر أصحاب النحل من جماعة المسلمين ، ومن يقرأ فى أخبار هذا العصر يعرف أن المناظرات كانت مشتعلة بين الفرق ، اشتعلت أولا بين الفرق السياسية ، بين فرق الخوارج نفسها ثم بينهم وبين الشيعة ومن يميلون إلى طاعة أولى الأمر من الأمويين ، ثم اشتعلت بين أرباب الفرق الدينية التى كانت تبحث فى العقيدة والإيمان

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٦ .
(٢) نفس المصدر ١/١٤ .
(٣) نفس المصدر ١/٢٥ .

وصفات الله ، فكان هناك القدرية الذين قالوا بحرية الإرادة وعلى رأسهم الحسن البصرى ، وكان هناك الجبرية الذين يقولون بتعطيل إرادة الإنسان وأنه مجبر لا حول له على ما يأتى من الأمر ولا قوة ، وكان هناك المرجئة الذين يفصلون بين الإيمان والعمل ولا يحكمون على مسلم فى أعماله ، بل يفوّضون الحكم إلى ربهم . واحتدم الجدال بين هذه الفرق ، كما احتدم بين الفقهاء فى اجتهادهم ومدى أخذهم بالقياس ، فكان الفقهاء يتناقشون ، وكان المتكلمون من أصحاب الفرق الدينية يتجادلون كما كان الخوارج والشيعة والأمويون يتحاورون ، كل يدافع عن رأيه ، ويحاول أن يقنع به خصمه أو خصومه ، وقد وصلتنا أخبار كثيرة عن تلك المحاورات والمجادلات والمناقشات ، فهم يروون أن الفقهاء كانوا يتناقشون فى مجلس الشعبي[١] ، وأن سليمان بن عبد الملك عقد مناظرة بين قَتادة والزهرى ، فغلب الأول [٢] ، كما غلب إياس بن معاوية عبد الله بن شبرمة فى مناظرة طويلة ، تناولت اثنين وسبعين سؤالا [٣] . وكثيراً ما كان الخوارج يتناظرون مع خصومهم فى نظريتهم السياسية وأمور الدين[٤] ، وكذلك كان يصنع صنيعهم الشيعة ، وخاصة مع المرجئة[٥] ، وكانت المناظرات بين المرجئة والجبرية والقدرية مشتعلة فى مجالس الوعاظ ، بل لقد وصل شررها إلى مجالس الخلفاء ، إذ يُروَى أن عون بن عبد الله وموسى بن كثير وعمر بن حمزة وفدوا على عمر بن عبد العزيز وناظروه فى الإرجاء [٦] ، كما يروى أنه ناظر غيلان وصالح بن سويد فى القدر [٧] وكذلك يروى أن الأوزاعى وغيلان تناقشا فيه أيضاً أمام هشام بن عبد الملك[٨] وقد احتفظ المرتضى فى أماليه بمناظرة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد فى مرتكب الكبيرة أمام الحسن البصرى[٩] ، وكان

(١) البيان والتبيين ٢/٣٢٢ .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٤٣ .
(٣) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ .
(٤) انظر مناظرتهم مع ابن عباس أول خروجهم ومع ابن الزبير ومع عمر بن عبد العزيز فى العقد الفريد ٢/٣٨٨ – ٤٠٣.
(٥) ابن سعد ٦/١٩٢ والبيان والتبيين ٣/٣٥٠ .
(٦) ابن سعد ٦/٢١٨ .
(٧) سرح العيون لابن نباتة ص ١٨٤ .
(٨) العقد الفريد ٢/٣٧٩ .
(٩) أمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١/١٦٥

الخوارج يكفرونه ، بينما كان الحسن يدعوه مؤمناً فاسقاً ، وكان واصل يرى أنه فى منزلة بين المنزلتين ، وتناظر هو وعمرو بن عبيد فى تلك المشكلة واستطاع أن يقنعه بوجهة نظره .

ومن يرجع إلى تلك المناظرة يلاحظ أنها تبدو فى أولها تطبيقاً لأشكال القياس المنطقى ، وهى كذلك فى أثنائها وفى خاتمتها تستعين بالمنطق . ومما لا ريب فيه أن نفس الفكرة التى انتهى إليها واصل ، وهى أن مرتكب الكبيرة فى منزلة بين منزلتى المؤمن والكافر فكرة دقيقة ، لا يصل إليها إلا عقل دُعم بالثقافة ، وتعود النظر العميق والنفوذ إلى دقائق الأفكار والمعانى .

وطبيعى أن نجد الجاحظ مفتوناً أمام قدرة هؤلاء الخطباء الدينيين ، فقد أشاد بهم فى كل موضع من كتابه البيان والتبيين ، وتحدث عن تصرفهم فى الألفاظ والأساليب وكيف صفّوها وروّقوها ونخلوها نخلا ، حتى لا ينطقوا إلا بلُبِّ اللُّبِّ ، وإلا بما عليه حلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة .

٤

الصنعة فى الخطابة الأموية

رأينا الخطابة تزدهر ازدهاراً رائعاً فى العصر الأموى ، وقد صاحب هذا الازدهار عناية واسعة من الخطباء على اختلاف أغراضهم بإحكام خطابتهم عن طريق البيان التام والحجة البالغة والألفاظ المونقة ، ولا غرابة فى ذلك فإنهم إنما كانوا يريدون بخطبهم فى أكثر أحوالها إقناع الناس وإسكات الخصوم واستمالة القلوب ، حتى يصنع فيها صنيع الغيث فى التربة الكريمة .

وإذا رجعنا نتصفح آثار الخطباء السياسيين وجدنا خطباء كل حزب يحاولون أن يحققوا لخطبهم كل ما يمكن من آلات البيان والبلاغة ، كل بحسب

طاقته ومواهبه . ونعرض فى إجمال لطائفة من هؤلاء الخطباء ، هم زياد والحجاج من خطباء الحزب الأموى وقَطرى بن الفُجاءة من حزب الخوارج والمختار الثقفى من حزب الشيعة ، أما زياد فكان حسن الألفاظ جيد المعانى ، كأنما أوتى فَصْل الخطاب ، وفيه يقول الشعبي : « ما سمعت متكلماً على مِنْبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً أن يسىء إلا زياداً ، فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً »[1] ولعل أشهر خطبة أُثرت عنه هى خطبته الملقبة بالبَتْراء ، وإنما سميت بذلك « لأن خطباء السلف الطيب وأهل البيان من التابعين بإحسان ما زالوا يسمُّون الخطبة التى لم يبتدئ صاحبها بالتحميد ، ويستفتح كلامه بالتمجيد : البتراء ، ويسمون التى لم توشَّح بالقرآن وتزيَّن بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : الشوهاء »[2] .

ومن يرجع إلى هذه الخطبة[3] يلاحظ أن زياداً عُنى بتأليفها عناية شديدة ، فهى مقسمة إلى فقر ، إذ يستهلها ببيان ما انغمس فيه أهل البصرة من الغى والضلال والفسق والفساد منحرفين عن هدى الإسلام والقرآن الكريم . ثم يبين لهم سياسته التى سيأخذهم بها وأنها لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف ، ثم يأخذ فى إنذراهم وبيان العقوبات التى سينزلها على الجانين منهم ومن يعيثون فساداً فى الأرض ، ويخرج من ذلك إلى بيان حق أئمتهم عليهم من الطاعة ولزوم الجماعة ويقول إنهم يسوسونهم بسلطان يستمدونه من الله ، فهم ساستهم المؤدبون وكَهْفهم الذى إليه يأوون ، ويختمها بالوعيد الشديد يشوبه بالترغيب .

وبون بعيد بين هذه الخطبة وخطب الجاهليين ، فقد كانت الأخيرة أمثالا وحكماً ، ولما جاء الإسلام أصبح للخطابة موضوع دينى واضح ، ثم أخذت تتسع منذ الرسول عليه السلام للأحداث ، ولكنها لم تصبح خطابة زمنية على هذا النحو الذى نجده فى «البتراء» ، والذى أصبحت فيه الخطبة تعرض لسياسة الحكم

(١) البيان والتبيين ٢/٦٥ .

(٢) نفس المصدر ٢/٦ .

(٣) البيان والتبيين ٢/٦٢ وانظر عيون الأخبار ٢/٢٤١ ، ٢٤٣ حيث أوردها ابن قتيبة برواية أخرى والعقد الفريد ٤/١١٠ .

وتدعو لبنى أمية وتؤكد حقهم فى الخلافة بمثل قوله : « أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفَىءِ الله الذى خوَّلنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا » وكأنه يقرر هنا نظرية التفويض الإلهى التى عرفها الفرس قبل الإسلام ، فبنو أمية وولاتهم مثل زياد يسوسون الناس بتفويض من الله ، وليس لهم أن يعارضوا وأن ينقضوا هذا التفويض أو تلك السياسة .

والخطبة بدون شك صحيحة النسبة إلى زياد ، فهى تصور سياسته التى تحدثنا عنها كتب التاريخ والتى أجملها فى قوله : « لين فى غير ضعف وشدة فى غير عنف » ثم هى تصور شدته على الجانين والبغاة ومن كانت تحدثهم نفوسهم بالخروج على بنى أمية . وقد بناها جميعها من ألفاظ جزلة مختارة ، ليس فيها غريب مستكره ولا ساقط ردىء ، وإنما فيها القوة والمتانة ، وفيها ضروب من الصور البيانية ، وبعبارة أخرى من التشبيهات والاستعارات ، غير أنه لا يعمد فيها إلى السجع ، آخذاً بسنة الخلفاء الراشدين فى خطابتهم . وهى محكمة التنسيق كل فقرة تسلم إلى أختها ، والأفكار تتسلسل فى نظام ، مما يدل على أنه لم يكن ذا عقل فطرى بسيط ، فعقله مدعم بالفكر الجديد وهو الفكر الذى أخذ يستسيغ ما لدى الأجانب من نظرية التفويض الإلهى وغيرها ، ولكن دون أن يذوب فيهم ، ودون أن ينسى شخصيته العربية وأساوب قومه المحكم القائم على استخدام اللفظ المصقول الرصين ، الذى يروعنا برونقه وسلاسة نظمه ووضوح دلالته .

ولم يكن الحجاج يقل عن زياد بياناً وإعراباً عما يختلج فى صدره ، ولعل أشهر خطبه تلك التى خطبها فى الكوفة حين قدم على العراق والياً من قبل عبد الملك[1] . حدّث معاصروه أنه دخل الكوفة فجأة حين انتشر النهار ،

---

(١) البيان والتبيين ٢/٣٠٧ وعيون الأخبار ٢/٢٤٣ والعقد الفريد ٤/١١٩ وما بعدها .

فبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر وهو ملثم بعمامة خزٍّ حمراء ، حتى إذا اجتمع الناس فى المسجد قام فكشف عن وجهه ، ثم قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنـايا متى أضع العمامة تعرفونى[١]

أما والله إنى لأحتمل الشرَّ بحمْله .. وإنى لأرى رءوساً قد أينعتْ وحان قِطافُها وإنى لصاحبها ،وإنى لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللِّحَى ؛ ثم أخذ ينشد أبياتاً تنذر بما سيأخذهم به من عنف ، فهم كما يقول أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ، وقد نثر عبد الملك جعبة سهامه فوجده أمرَّها عوداً ، فرماهم به ، ويردد وعيده لهم وتهديده من مثل قوله : « أما والله لألحوَنَّكم لَحْوَ العَصا[٢] ، ولأعصبَنَّكم عَصْبَ السَّلَمة[٣] ، ولأضربنَّكم ضرب غرائب الإبل »[٤] وقوله : « أما والله لتستقيمُنَّ على طريق الحق أولأدعنَّ لكل رجل منكم شغلا فى جسده » .

والخطبة سياسية خالصة ، فهى ذات موضوع زمنى واضح ، وهى تصور سياسة الحجاج التى اشتهر بها فى كتب التاريخ والتى كانت تقوم على العنف الشديد فى غير لين ، ولعل ذلك ما أراده الحسن البصرى حين قال فيه وفى زياد : « تشبَّه زياد بعمر بن الخطاب فأفرط ، وتشبَّه الحجاج بزياد فأهلك الناس »[٥] .

وعلى نحو ما تصور الخطبة سياسة الحجاج تصور فصاحته وبلاغته وحفظه للشعر الغريب ، إذ اتخذه مقدمة لكلامه ، وكأنما يجعله فاتحة موسيقية له وهى فاتحة يتبدَّى فيها، ويطلب التشبه بالبدو لا فى لغته فحسب ،

---

(١) ابن جلا : كناية عن أنه لا يخفى مكانه، والثنايا : الشعاب فى الجبال .

(٢) لحا العصا والشجرة لحوا قشرها .

(٣) السلمة : واحدة السلم ، شجر ذو شوك ، وكانوا يعصبون أغصانه ويشدونها بعضها إلى بعض ، ثم يخبطونها بالعصى ، فيتناثر ورقها للماشية .

(٤) كانت الإبل الغريبة إذا وردت الماء على إبل أخرى ضربت لتبتعد عنها ، حتى ترتوى .

(٥) البيان والتبيين ٢/ ٦٦ .

بل أيضاً فى ثيابه وملبسه[١] ، حتى يغرب على السامعين ويروعهم . ولم يكتف بهذا الضرب من الإغراب ، فقد عمد إلى طائفة من الصور الغريبة ، وهى تتراكم فى الخطبة تراكماً شديداً ، كما تتراكم فى خطبه الأخرى[٢] . ولعل مما يتصل بميله إلى الإغراب والتهويل فى منطقه ما رواه المبرد من أنه « كان إذا صعد المنبر تكلم رويداً ، فلا يكاد يُسْمَع ، ثم يتزيَّد فى الكلام حتى يخرج يده من مُطْرفه[٣] ويزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من فى المسجد »[٤]. ومعنى ذلك أنه كان فى مظهره أثناء خطابته وفى صوته وفى لفظه وما يحوى من شعر وصور نادرة يريد التهويل على السامعين ويحاول أن يحكم صنعته فى الخطابة من جميع أطرافها ، حتى فى إشارة اليد وفى الهمس بصوته والجهر به حتى يخلب القلوب . على أننا نلاحظ أنه كان يتحامى السجع مثله مثل زياد ، لكنه بعد ذلك كان يعنى باختيار ألفاظه ، ملتمساً منها ما ليس متوعِّراً وحشيًّا ولا ساقطاً سوقيًّا . وهو حقا يعد فى الذروة من البلاغة لعصره ، حتى ليقول عنه مالك بن دينار : « ربما سمعت الحجاج يخطب ، يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع فى نفسى أنهم يظلمونه وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج »[٥].

ومما لا شك فيه أنه يتفوق على زياد فى ابتكار الصور والتشبيهات والاستعارات، ولكن زياداً يتفوق عليه فى بناء خطبه وإحكام تأليفها ، بحيث تتتابع فى فقر وأجزاء متسلسلة . وليس معنى ذلك أن الحجاج لم يكن يطيل خطبه ، فقد كان كثيراً ما يطنب فى خطابته ويسهب إسهاباً شديداً ، وخاصة فى مواعظه الدينية[٦] وقد بقى له منها قطع تدور فى كتب الأدب من مثل : « اللهم أرنى الهدى هُدًى فأتبعه ، وأرنى الغىَّ غيًّا فأجتنبه ، ولا تَكِلْنى إلى نفسى فأضلَّ ضلالا بعيداً »[٧] ومثل : « إنا والله ما خُلقنا للفناء ، وإنما خلقنا للبقاء ،

---

(١) البيان والتبيين ٢/٣٠٨ وعيون الأخبار ٢/٢٤٣ وقارن ١/١٦٩ .

(٢) انظر البيان والتبيين ٢/١٣٨ والعقد الفريد ٤/١١٩ وما بعدها .

(٣) المطرف : الثوب .

(٤) الكامل للمبرد (طبعة رايت) ص ١٧٣

(٥) البيان والتبيين ١/٣٩٤، ٢/٢٦٨ .

(٦) نفس المصدر ٢/٢٩٨ .

(٧) البيان والتبيين ٢/١٣٧ والعقد الفريد ٤/١١٥ .

وإنما ننتقل من دار إلى دار »[١] وكان الحسن البصرى يقول فيه « يعظ عظة الأزارقة ويبطش بطش الجبارين[٢] » ويُروى أنه قال : « لقد وقذتنى كلمة سمعتها من الحجاج ، سمعته يقول على هذه الأعواد : إن امرأ ذهبت ساعةٌ من عمره فى غير ما خُلق له لخليقٌ أن تطول عليها حسرته »[٣] .

ومرَّ بنا أنه كان للخوارج خطباء كثيرون مفوَّهون ، وكانوا يعنون عناية شديدة بإعداد كلامهم ، حتى يجذبوا القلوب إليهم ، ولعل ذلك ما جعل عبيد الله بن زياد يقول فيهم : « إن كلامهم أسرع إلى القلوب من النار إلى الهشيم » وروى المبرد أن عبد الملك بن مروان أُتِىَ برجل منهم ، فجعل يبسط له من قولهم ويزيِّن له من مذهبهم بلسان طَلْق وألفاظ مبيِّنة ومعان واضحة ، فقال عبد الملك : « لقد كاد يوقع فى خاطرى أن الجنة خُلقت لهم وأنى أولى بالجهاد منهم ، ثم رجعتُ إلى ما ثبَّت الله علىَّ من الحجة وقرر فى قلبى من الحق »[٤] وفى إحسانهم لخطابتهم يقول عبيدة بن هلال[٥] :

أدباءُ إمـــا جئتهم خطبـــاءُ ضُمَناء كلِّ كتيبةٍ جرَّارِ[٦]

وكانوا يمزجون خطابتهم السياسية بالدعوة إلى الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة وما عند الله من الثواب ، وقد يثنون على أبى بكر وعمر ، ثم يقدحون فى عثمان ومن جاءوا بعده ، ويحثون على الجهاد ، معلنين أنهم على الحق ، أما جماعة المسلمين فاتبعت أهواءها وجارت عن الطريق القاصد . ومن خير ما يصور ذلك خطبة أبى حمزة الخارجى فى مكة[٧] ، وفيها يصف شباب الخوارج هذا الوصف الرائع :

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٦٧ وعيون الأخبار ٢/٢٥١ .

(٢) البيان والتبيين ٣/١٦٤ .

(٣) البيان والتبيين ٢/١٩٣ وقذتنى : أفزعتنى .

(٤) الكامل للمبرد ص ٥٧٣ .

(٥) نفس المصدر ص ٧٠١ وانظر البيان والتبيين ١/٤٠٦ والحيوان للجاحظ ٦/٤٢٣ .

(٦) ضمناء : كفلاء .

(٧) البيان والتبيين ٢/١٢٢ وعيون الأخبار ٢/٢٤٩ والعقد الفريد ٤/١٤٤ والأغانى ٢٠/١٠٤

«شبابٌ والله مكْتَهلون فى شبابهم غضيضة عن الشر أعيُنهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطْلاَح سهر(١) ، ينظر الله إليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مرَّ بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم فى أذنيه ، موصولٌ كلالهم بكلالهم : كلال الليل بكلال النهار . . حتى إذ رأوا السِّهام قد فُوِّقت(٢) والرماح قد أُشْرِعت والسيوف قد انْتُضِيَتْ ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، ومضى الشاب منهم قُدُماً حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضَّبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعتْ إليه سباعُ الأرض ، وانحطَّت عليه طير السماء . فكم من عين فى منقار طائر طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من كَفّ زالت عن معْصَمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى جوف الليل بالسجود لله» .

وواضح أن هذا الوصف يعتمد فى جماله على صدق العاطفة وحرارتها ، وقوة العقيدة ومتانتها ، إذ يمثل صاحبه مدى إيمان الخوارج بمذهبهم وكيف باعوا الحياة الدنيا بالآخرة ، حتى أصبح الاستشهاد أمنيتهم والتهافت على نيران الموت طَلِبَتَهم، وهم لذلك يثورون ثورة جامحة، يقدسون فيها عقيدتهم ويتفانون فى سبيلها صادرين فى ذلك عن روح تقوى مفرطة . ولعل ذلك ما جعلهم يكثرون من المواعظ الخالصة . وخير من يمثلهم فى ذلك قَطرىٌّ بن الفُجاءة وله موعظة طويلة مشهورة وكلام كثير محفوظ(٣) ،ونسوق قطعة من موعظته ندل بها على مبلغ تجويده وتحبيره ، يقول(٤) :

«أما بعد فإنى أحذركم الدنيا فإنها حُلوة خَضِرة،حُفَّت بالشهوات وراقت بالقليل وتحببت بالعاجلة وحَليت بالآمال وتزينت بالغرور . . مع أن امرأ لم يكن منها فى حَبْرة إلا أعقبتْه بعدها عَبرة،ولم يلق من سَرَّائها بَطْناً إلا منحتْه

(١) أنضاء : مهزولون ، أطلاح : مكدودون .

(٢) فوقت : جعلت لها الأفواق ، وهى مواضع الأوتار فى السهام .

(٣) البيان والتبيين ١/٣٤١ - ٣٤٢ .

(٤) نفس المصدر ٢/١٢٦ وعيون الأخبار ٢/٢٥٠ والعقد الفريد ٤/١٤١ .

من ضرّائها ظَهرْاً، ولم تطُلّه[1] غيْثة رُخاء إلا هطلت عليه مُزْنة بلاء، وحرّى إذا أصبحتْ له منتصرة ، أن تمسى له خاذلة متنكرة ، وإن جانبٌ منها اعذوْذَبَ واحلَوْلى ، أمرّ عليه منها جانبٌ وأوبى [2] ، وإن آتت امرأً من غضارتها ورفاهيتها نِعماً ، أرهقته من نوائبها نقماً ، ولم يُمس امرؤ منها فى جنَاح أمْن إلا أصبح منها على قوادم[3] خوف .. لا خير فى شىء من زادها إلا التقوى » .

والقطعة — مثلها مثل الموعظة جميعها — تمتاز بأنها تتصل بنفس صاحبها ، وكأنه سكب فيها روحه ، فهو يعبر عن تقوى صادقة تسيل من قلبه ونفسه ، وهو بعد ذلك دقيق فى اختيار لفظه ، يعنى برصفه عناية أوسع من عناية أبى حمزة الشارى ، إذ تنقلب عنايته فى أكثر الموعظة إلى ضرب من السجع الرشيق . وهذه العناية بالسجع إلى حد بعيد تضافرت معها عناية بالطباق والمقابلة وعناية أخرى بالصور والرسوم المتحركة ، وهو يشبه الحجاج فى الجانب الأخير ، غير أنه لا يكتفى به ، بل يضيف إليه فنوناً من المقابلات وضروباً من الإيقاعات الصوتية ، حتى يبلغ ما يريد من التأثير فى نفوس سامعيه .

ولم يكن الشيعة أقل من الخوارج وولاة بنى أمية احتفالا بخطابتهم ، ويُؤثر عن على بن الحسين أنه قال : « لو كان الناس يعرفون جملة الحال فى فضل الاستبانة وجملة الحال فى صواب التبيين لأعربوا عن كل ما تخلّج فى صدورهم ولوجدوا من برد اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم .. ولكنهم من بين مغمور بالجهل ، ومفتون بالعجب ، ومعدول بالهوى عن باب التثبت ، ومصروف بسوء العادة عن فضل التعلم »[4] . وكان زيد ابنه جدلا لسناً يجتذب الناس بحلاوة لسانه وسهولة منطقه وعذوبته[5] ، مع قوة الحجج

---

(١) تطل : من الطل وهو المطر الخفيف .
(٢) أوبى : من الوباء .
(٣) القوادم : الريش فى مقدمة الجناح .
(٤) البيان والتبيين ١/٨٤ وزهر الآداب ١/٥٩ .
(٥) البيان والتبيين ١/٥٨ وانظر زهر الآداب ١/٧٢ .

وكثرتها ، ومع الجزالة والفخامة(١) ، ومن خطباء الشيعة وكبار دعاتهم فى هذا العصر المختار الثقفى ، وكان خارجيًّا، ثم صار زبيريًّا، ثم صار رافضيًّا(٢) ، وقد ثار فى العراق ثورة عنيفة ، غير أن مصعب بن الزبير قضى عليه فى سنة ٦٧ للهجرة . وكان يذهب فى سيرته وخطابته مذهباً قريباً من مذهب الكهنة فى الجاهلية ، فكان يزعم لأصحابه أنه يوحى إليه ، وكان يتخذ السجع دلالة على هذا الوحى ، وفى ذلك يقول ابن قيس الرقيات :

والذى نغَّص ابنَ دومـــة ما تو ... حى الشياطينُ والسيوفُ ظِماءُ

وكان يتخذ لأنصاره كرسيًّا قديم العهد غطّاه بالديباج، وكان يقول لهم : « إن محله فيكم محل السكينة فى بنى إسرائيل »(٣) وروى المبرد كثيراً من شعوذته وكيف كان يدعى أنه يُلْهَمُ ضرباً من السجع لأمور تكون ثم يحتال فيوقعها ، فيقول للناس : هذا من عند الله عز وجل. ومن يرجع إلى سجعه يجده يعتمد فيه على الأقسام والإبهام والإغراب على نحو ما كان يعتمد على ذلك الكهنة قديماً من مثل قوله(٤) :

« أما وربِّ البحار ، والنخيل والأشجار ، والمهامه(٥) والقفار ، والملائكة الأبرار، والمصطَفَيْن الأخيار، لأقتلنَّ كل جبَّار ، بكل لَدْن خَطَّار(٦)، أومهنَّد بتَّار(٧)، فى جموع من الأنصار، ليسوا بمِيل أغمار(٨)، ولا بعُزْل(٩) أشرار . حتى إذا أقمت عمود الدين ، ورأبْت شعْب(١٠) صَدْع المسلمين ،

(١) البيان والتبيين ١/٣٠٩ — ٣١٠ ، ١/٣٢٥ والعقد الفريد ٤/٣٢ .
(٢) الكامل للمبرد ص ٥٩٦ .
(٣) نفس المصدر والصفحة وانظر الحيوان للجاحظ ٢/٢٧١ .
(٤) الطبرى ، القسم الثانى ص ٥٣٦ .
(٥) المهامه : الفيافى والقفار .
(٦) لدن : الرمح القاطع للينه وحدته ، والخطار : الضارب .
(٧) مهند : السيف ، بتار : قاطع .
(٨) ميل : جمع أميل وهو الجبان أو من لا سلاح معه ، الأغمار : جمع غمر ، وهو ناقص التجربة .
(٩) عزل : جمع أعزل : وهو من ليس معه سلاح .
(١٠) شعب : ثلمة . ورأب الصدع : أصلحه .

وشفيت غليل صدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبر علىّ زوالُ الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى » .

وكان المختار يكثر من هذه الأسجاع ويتشبه فيها بصنيع الكهان ، وهذا هو لَحْنه الذى كان يردده فى خطبه التى رواها له المؤرخون ، وكان يوفّر من غير شك فى أثناء ذلك لكلامه ضروباً مختلفة من التكلف حتى يحقق ما يريد من الإيهام البعيد .

وإذا تركنا خطباء الأحزاب السياسية إلى خطباء المحافل وجدناهم يحاولون جاهدين التأنق فى خطابتهم[١] ، وهذا طبيعى لأن خطابتهم محدودة ، إذ لا تتجاوز فى كثير منها كلمات معدودة ، وكانوا يلقونها بين أيدى الخلفاء والولاة ، فكانوا يطلبون فيها أن تروعهم وتستميل إليهم قلوبهم ، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يلتزمون فيها السجع حتى يستتموا لها كل حلية صوتية ممكنة . وأشهر خطباء المحافل فى هذا العصر ، كما أسلفنا ، الأحنف بن قيس زعيم تميم البصرة ، فقد كان يفد لقومه على معاوية ، فيلقى إليه بحاجاتهم فى عبارات مسجعة منمقة على شاكلة قوله[٢] :

« يا أمير المؤمنين ! أهل البصرة عدد يسير ، وعظم كسير ، مع تتابع من المُحول ، واتصال من الذُّحول[٣] ، فالمكثر فيها قد أطْرق[٤] ، والمقلُّ قد أملق[٥] ، وبلغ منه المخْنَق ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يُنعش الفقير ، ويَجْبر الكسير ، ويسهّل العسير ، ويأمر بالعطاء ، ليكشف البلاء ، ويزيل اللأواء[٦] ، وإن السيد من يعم ولا يخصّ ويدعو الجفلى[٧] ، ولا يدعو النَّقَرى[٨] ، وإن أُحْسِن إليه شكر ، وإن أسىء إليه غفر ، ثم يكون من وراء

(١) البيان والتبيين ١ / ٢٠٤ وما بعدها .

(٢) زهر الآداب للحصرى (طبعة المطبعة الرحمانية) ١ / ٤٦ .

(٣) الذحول : الثارات ، والمحول : الجدب .

(٤) أطرق : ضعف وهزل .

(٥) أملق : افتقر .

(٦) اللأواء : الشدة .

(٧) الدعوة الجفلى : الدعوة العامة .

(٨) النقرى : الدعوة الخاصة ، دعوة الأفراد .

ذلك لرعيته عماداً يدفع عنهم الملمات ، ويكشف عنهم المعضلات » .

وليس الأحنف وحده الذى كان يسجع بين خطباء المحافل ، فقد كانت عامتهم تذهب هذا المذهب من التحبير وتنميق الكلام . واستمر ذلك سمتهم طوال عصر بنى أمية كما كان سمة أعراب البادية غالباً حين ينزحون من باديتهم إلى المدن ، فيتحدثون بين أيدى الخلفاء والولاة ، وقد فتح الجاحظ لهم فصلا فى بيانه استعرض فيه طائفة من أقوالهم[١] ، وهى جميعها تدخل فى هذا الأسلوب المسجع وما يُطْوَى فيه من جمال الصياغة ، ويعبر الجاحظ عن انبهاره إزاء ما يروى من كلام هؤلاء الأعراب ، فيقول : «ليس فى الأرض كلام هو أمتع ولا آنَقُ ولا ألذ فى الأسماع ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان ، من طول استماع حديث الأعراب العقلاء الفصحاء»[٢] . ويقال إن خالد بن صفوان تكلم فى صلح بكلام لم يسمع الناس قبله مثله ، فإذا أعرابىٌّ فى بَتٍّ[٣] ، ما فى رجليه حذاء ، فأجابه بكلام أروع من كلامه وأعجب[٤] .

وقد خطا خطباء القصص والمواعظ بخطابتهم خطوات واسعة نحو الصقل والتجويد لأساليبهم وتلوين معانيهم وتنويعها وتفريعها فروعاً كثيرة . ولم يكن الوعاظ يخطبون وقوفاً إلا فى صلاة الجماعة والعيدين ، أما بعد ذلك فكان مثلهم مثل القصاص يخطبون غالباً وهم جالسون وحولهم الناس يتحلقون ، وهم يسوقون إليهم مواعظهم . فخطابتهم كخطابة القصَّاص كانت فى الأغلب خطابة جالسة ، أو قل كانت أشبه بالمحاضرات والإملاءات . وليس هذا هو كل ما يفرق بين خطابتهم والخطابة السياسية ، فهنالك فرق آخر مهم يتصل بجمهور المستمعين إلى الطرفين ، إذ كان خطباء السياسة يتجهون بخطابتهم إلى العرب وجيوشهم المقاتلة ، أما خطباء الوعظ والقصص فكانوا يخاطبون الهيئة الاجتماعية

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٢٨٤ وما بعدها وانظر ١/ ٢٩٧ وما بعدها ، ١/ ٤٠٨ .

(٢) البيان والتبيين ١ / ١٤٥ .

(٣) البت : كساء غليظ .

(٤) البيان والتبيين ١ / ١٧٣ .

كلها على اختلاف طبقاتها من خاصة وعامة ومن عرب وموالٍ . ولذلك هبطوا بأساليبهم قليلا عن مستوى أساليب الخطابة السياسية ، حتى تفهمهم جميع الطبقات ، وحتى لا يرتفعوا بكلامهم عن فئات العامة ، ومع هذا الهبوط لم يخرجوا إلى كلام السوقة ، بل وازنوا موازنة دقيقة بين كلامهم ومستوى الفصاحة ، فأخلوه من الألفاظ الغريبة ، وفى الوقت نفسه لم يسقطوا به إلى ألفاظ مبتذلة . وألجأهم ضيق معانيهم إلى التنويع فيها والتفريع والتوليد ، كما ألجأهم إلى ضروب من الترداد والتكرار والترادف ، لم يلبثوا أن تحولوا بها إلى صورة من الأسلوب المزدوج ، الذى يقف فى منزلة وسطى بين أسلوب السجع والأسلوب المرسل . ولا نغلو إذا قلنا إنهم هم الذين هيئوا لبروز هذا الأسلوب الذى شاع فيما بعد بين الكتّاب مثل عبد الحميد الكاتب والجاحظ ومن جرى مجراهما . ونراهم يستخدمون ضروباً من التصوير أو من التشبيهات والاستعارات ، وهم يستلهمون فى كثير من جوانبها آى الذكر الحكيم كما يستلهمونها فى أكثر معانيهم ، وقد جعلهم حديثهم عن الثواب والعقاب والجنة والنار والطاعة والعصيان والحياة والموت والإيمان والكفر أن يقيموا كلامهم على الطباق والمقابلة ، مثل قول الحسن البصرى : « بعْ دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً ، وإذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه وإذا رأيتهم فى الشر فلا تغبطهم به ، الثّواء هاهنا قليل ، والبقاء هناك طويل ، فخذوا صفاء الدنيا وذروا كدرها »[1] وقوله : « إن خوفك حتى تلقى الأمن خير من أمنك حتى تلقى الخوف »[2] .

والحسن البصرى خير من يصور أسلوب الوعاظ المبنى على الازدواج واستخدام بعض الصور وتلوين الكلام بألوان الطباق والمقابلة ، مما يمثل تلك الصناعة المحكمة ، ويغلب الحزن على مواعظه كما يغلب ترداد معنى الخوف والرجاء ، ووصفه بعض معاصريه ، فقال : « كان إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حَميمه ، وكأنه إذا جلس فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه ، وكان إذا

(١) البيان والتبيين ٣/١٣٢ . (٢) العقد الفريد ٣/١٧٨ وانظر ٣/٢١٤ .

ذُكرت النار عنده فكأنها لم تخلق إلا له »[١]. ويموج كتاب البيان والتبيين وكتاب عيون[٢] الأخبار والعقد[٣] الفريد بمواعظه ومواعظ معاصريه .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن هؤلاء الوعاظ هم الذين ألانوا أساليب اللغة العربية وحمَّلوها من الطاقات ما تستطيع به التعبير عن المعانى الدقيقة ، وكانت كثرتهم من الأجانب ، وكانوا مثقفين ثقافة واسعة، وكانوا أصحاب فطن بارعة ، ففتحوا أبواباً لا حصر لها من الجدال فى مسائل الدين والعقيدة ، وتحولوا بمعانيهم يفرِّعون فيها ويولدون ويأتون بكل جديد مستطرف وبديع مستحسن .

وكان بين هؤلاء الوعاظ من بلغ من الحذق أن جعل مواعظه كلها سجعاً خالصاً كأسرة الرقاشيين ، وهى أسرة فارسية كانت تحترف القصص فى هذا العصر كما كانت تحترف السجع ، ويقال إنها كانت معروفة فى أمتها بالخطابة، فلما دخلت فى الإسلام قامت فى لغتنا مقامها فى لغتها الأصلية ، وكأنما نزع أفرادها ذلك العرقُ القديم، ومنها يزيد بن أبان الرقاشى وكان قاصًّا مجيداً وكان يتكلم فى مجلس الحسن البصرى ، وكان عابداً زاهداً ، وهو عم الفضل بن عيسى الرقاشى ، وفيه يقول الجاحظ : « كان الفضل سجَّاعاً فى قصصه . . وهو الذى يقول: سَلِ الأرض فقل .. من شَقَّ أنهارك ، وغرس أشجارك ، وجَنَى ثمارك، فإن لم تُجبك حواراً أجابتك اعتباراً »[٤] وكان خالد بن صفوان التميمى يسجع كثيراً[٥] كما كان يسجع غيره من العرب ، ومعنى ذلك أن الرقاشيين لم يستحدثوا السجع فى وعظهم ، وإنما نسجوا فيه على منوال طائفة من فصحاء العرب وبلغائهم .

ومهما يكن فإن الخطباء الوعاظ والقصاص نموا التحبير البيانى ، وكثيراً ما يقف الجاحظ فى بيانه متعجباً من قدرتهم البلاغية ، وقد تعجَّب طويلا

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٧١ .

(٢) أنظر ٢/٣٤٤ وفى مواضع متفرقة .

(٣) أنظر فهرس الأعلام الملحق بالكتاب .

(٤) انظر فى الفضل وأسرته البيان والتبيين ١/٣٠٦-٣٠٨ وراجع زهر الآداب ٣/٢٢٠

(٥) البيان والتبيين ٢/٩٣ ، ٣/١٦٤ .

من بلاغة واصل بن عطاء وكيف استطاع أن ينزع الراء من خُطَبه للثغته فيها على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع .

ولم يكن واصل وحده هو الذى أحرز هذا المقدار من البلاغة والبيان ، بل لقد أحرَزَه عامة القصاص والوعاظ ، وقد تحولوا يعلمون شباب البصرة والكوفة كيف يتفوقون فى الخطابة ، وكانوا يسألونهم أسئلة كثيرة عن أساليبها وألفاظها وكيف ينبغ الخطيب ، وما ينبغى أن يراعيه فى هيئته وإشاراته ومنطقه ، وكيف يقنع خصومه فى الجدال ويسكتهم ؟ ومتى يستحبُّ الإيجاز فى الخطبة ؟ ومتى يستحب الإطناب ؟ وكيف يلاءم الخطيب بين ألفاظه ومعانيه ؟ وكيف يوازن بين كلامه وبين طبقات السامعين ؟ وكيف يجعل لكل طبقة كلاماً ولكل حالة مقاماً ؟ وكيف يقنع خصومه فى المناظرة ويلزمهم الحجة ؟

وهيأ ذلك كله لاستنباط طائفة من الوصايا البلاغية نجدها منثورة فى كتاب البيان والتبيين تجرى على ألسنة هؤلاء الوعاظ وخاصة من كانوا يقارعون الخصوم ويجادلونهم ، ونقصد المتكلمين الذين تناقشوا فى القدر والعقيدة طويلا ، والذين نصبوا أنفسهم للرد على خصوم الإسلام .

ولعل مما يدل على صحة ما نزعم من ذلك أن أقدم النصوص التى تتصل بماهية البلاغة تضاف إلى واعظ من هؤلاء الوعاظ المتكلمين وهو عمرو بن عبيد، فقد روى الجاحظ أنه قيل له ما البلاغة ؟ فقال لسائله(١) :

« ما بلغ بك الجنة وعدل بك عن النار ، وما بصَّرك مواقع رشدك وعواقب غيِّك ، قال السائل : ليس هذا أريد .. قال عمرو : فكأنك إنما تريد تخير اللفظ فى حسن إفهام ؟ قال : نعم، قال : إنك إن أردت تقرير حجة الله فى عقول المكلَّفين ، وتخفيف المئونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين ، بالألفاظ الحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة فى سرعة

(١) البيان والتبيين ١/١١٤ وانظر العقد الفريد ٢/٢٦٠ وزهر الآداب ١/٩٤ .

استجابتهم ونَفْى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة ، على الكتاب والسنة كنتَ قد أُوتيتَ فصل الخطاب ، واستحققت على الله جزيل الثواب » .

وعلى هذا النحو كان الشباب يتعلمون على هؤلاء الوعاظ كيف يبلغون ما يريدون من حسن الإفهام ومن البيان والطلاقة ، وكيف يحصلون ذلك ويميزونه مع جمال المخارج والسلامة من التكلف ، وكان الوعاظ من جانبهم لا يزالون يقدمون لهم النصح والإرشاد ، وقد يدعونهم إلى المناظرة بين أيديهم طلباً لترويضهم وتمرينهم ، على نحو ما صنع الحسن البصرى بواصل وعمرو بن عبيد إذ دعاهما فى مجلسه للمناظرة فى مرتكب الكبيرة والوصف الذى يستحقه ، حتى يحذقوا الجدال ومناقشة الخصوم والاحتجاج عليهم . وإذا لم يدعوهم إلى الكلام بين أيديهم نثروا عليهم وصاياهم على نحو ما نجد فى وصية شبيب بن شيبة التى يذكر فيها أن الناس يعجبون بجودة الابتداء ، أما هو فيعجب بجودة الخاتمة ، ويقول إذَا ابتُلى الخطيب بمقام لابد له فيه من الإطالة فإياه والإسهاب إلى درجة الخطل[١] . ويقول خالد بن صفوان : « اعلم — رحمك الله — أن البلاغة ليست بخفة اللسان وكثرة الهذيان ، ولكنها بإصابة المعنى والقصد إلى الحجة »[٢]

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور كيف ارتقت الخطابة فى بيئات الوعاظ والقصاص ، فقد أخذوا يتدارسونها ويبحثون فى أدواتها ووسائلها ، وانبعثوا يخطبون فى كل مناسبة ومقام ، موازنين بين معانيهم وألفاظهم ، وبين كلامهم ومن يخاطبونهم به من العامة والخاصة . وكان خطباء السياسة من حولهم لا يزالون يجوِّدون فى خطابتهم ، وكذلك كان شأن خطباء المحافل ، حتى ليقولون إن شباب الكتاب فى دواوين الخلفاء كانوا يحضرون — إذا قدمت الوفود — لاستماع بلاغة خطبائهم[٣] .

والحق أن هذه البيئات جميعاً أتاحت للخطابة فى هذا العصر ازدهاراً عظيماً ، لعلها لم تعرفه فى أى عصر من العصور الإسلامية الوسيطة ، فقد

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٢ .
(٢) العقد الفريد ٢/٢٦١ .
(٣) العقد الفريد ٤/٤٤٩ .

تعاونت جهود خطباء السياسة والمحافل وتعاون معهم الوعاظ والمتكلمون على النهوض بها ، بل لقد نفذ الأخيرون إلى وضع قواعد وتعاليم فيها كانت مقدمة للأبحاث البلاغية التى عرفت فى العصر العباسى .

٥

الكتابة فى صدر الإسلام

اتخذ الإسلام الكتابة دعامة من دعائمه ، فقال جل شأنه فى أول آية نزلت على رسوله صلى الله عليه وسلم : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم) وأقسم سبحانه وتعالى بالقلم فقال جلّ وعز : (ن والقلم وما يسطرون) كما أقسم بالكتاب فقال : (والطور وكتاب مسطور فى رَقٍّ منشور) . وجاءت فى الذكر الحكيم كلمات اللّوْح والقرطاس والصحف من مثل : (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) ومثل : (ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) ومثل : (إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) .

وشجع الرسول عليه السلام على تعلم الكتابة بطرق مختلفة ، فمن ذلك أنه جعل فداء بعض أسرى قريش فى بدر ممن تعلموا الكتابة أن يعلموها عشرة من صبيان المدينة[1] . وبجانب ذلك نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو بعض أصحابه إلى تعلم اللغات الأجنبية ، فنى البخارى عن زيد بن ثابت : أُتى بى النبى صلى الله عليه وسلم حين مقدمه المدينة، فقيل: هذا من بنى النجار ، وقد قرأ سبع عشرة سورة (من القرآن الكريم) فقرأت عليه ، فأعجبه ذلك ، فقال : تعلَّمْ كتاب يهود ، فإنى ما آمنهم على كتابى ، ففعلت ، فما مضى

(١) فجر الإسلام لأحمد أمين ص ١٧٠ .

لى نصف شهر حتى حذقته ، فكنت أكتب له إليهم ، وإذا كتبوا إليه قرأت له »[١] . وقد حضّ القرآن على اتخاذ الكتابة فى المعاملات ، يقول جل شأنه: (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بِدَيْنٍ إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتبْ بينكم كاتب بالعدل ، ولا يَأْبَ كاتبٌ أن يكتب كما علَّمَه الله فليكتُبْ وليُمْلِلِ الذى عليه الحق) .

وكان للرسول صلى الله عليه وسلم جماعة من الكُتَّاب تخصصوا بكتابة الوحى ، وكان على رأس هذه الجماعة عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب ، وكانا إذا غابا كتب له أبىّ بن كعب وزيد بن ثابت . وكان يكتب له بين يديه فى حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان . وكان المغيرة ابن شعبة والحصين بن نمير يكتبان ما بين الناس . وكان عبد الله بن الأرقم ابن عبد يغوث والعلاء بن عقبة الحضرمى يكتبان بين القوم فى قبائلهم ومياههم . وكان حنظلة بن الربيع ابن أخى أكثم بن صَيْفى خليفة كل كاتب من كُتَّاب الرسول إذا غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكاتب[٢] .

ونرى من ذلك أن الكتابة أخذت تستخدم استخداماً واسعاً لا فى كتابة القرآن الكريم فحسب ، بل فى كتابة كثير من شئون المسلمين ، وكان الرسول عليه السلام يكتب كثيراً من عهود الأمان ومن المعاهدات ، كما كان يكاتب الأمراء والملوك من العرب وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام ، وتزخر السيرة النبوية لابن هشام وكتب الحديث والتاريخ بهذه الكتب ، وقد جمعها محمد حميد الله الحيدر آبادى فى كتابه النفيس « مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة » . وقدم لها بدراسة وقف فيها عند معيار الوضع والصحة ، وما دخلها من الانتحال . وقد يكون من صحيحها الذى سلم على الزمن كتابه[٣] صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار واليهود ممن كانوا بالمدينة حين نزوله

---

(١) فجر الإسلام ص ١٧١ .

(٢) انظر فى ذلك الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ١٢ .

(٣) انظر مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١ .

فيها وكذلك معاهدته التى كتبها بينه وبين قريش عام الحُدَيْبِيَة،وهى تمضى على هذه الصورة[١] :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيلَ بن عمرو : اصطلحا على وضْع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكفّ بعضهم عن بعض . على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه. وأن بيننا عَيْبة مكفوفة[٢] ، وأنه لا إسْلالَ ولا إغْلال[٣]. وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخله، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه » .

وواضح أن الرسول عليه السلام لا يُعْنَى فى هذه المعاهدة بتحبير فنى ، بل هو يؤدى غرضاً سياسيًّا فى صورة موجزة ، وكذلك كان شأنه فى كتبه التى كان يرسلها إلى أمراء العرب ، ونسوق لذلك مثلا كتابه الذى أرسله إلى وائل ابن حُجْر الحضرمى وقومه إذ يقول عليه السلام[٤] :

« من محمد رسول الله إلى الأقيال العباهلة[٥] من أهل حَضْرموت بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فى التَّيْعة[٦] شاة،والتَّيْمَةُ[٧] لصاحبها، وفى السُّيوب[٨] الخُمس ، لاخِلاط[٩] ، ولا وِراط[١٠] ، ولا شِناق[١١] ، ولا شغَار[١٢] ،

---

(١) نفس المصدر ص ١٣ وراجع الطبرى ، القسم الأول ص ١٥٤٦ .

(٢) العيبة : الحقيبة ، والعيبة المكفوفة هنا يراد بها الذمة التى لا تنكث .

(٣) إسلال : سرقة ، إغلال : خيانة .

(٤) انظر حميد الله ص ١٢٨ والبيان والتبيين ٢/٢٧ والعقد ٢/٤٨ .

(٥) الأقيال : ملوك الجنوب وأمراؤهم ، العباهلة : العظام الثابت ملكهم .

(٦) التيعة : الأربعون من الغنم ، وهو أقل ما تجب فيه الزكاة .

(٧) التيمة : الشاة الداجنة غير السائمة أو الراعية .

(٨) السيوب : جمع سيب ، وهو المال المدفون أو المعدن .

(٩) الخلاط : أن تخلط الغنم أو الإبل بغيرها لتمنع من الزكاة .

(١٠) الوراط : أن توضع الغنم أو الإبل بعيداً عن أعين من يجمعون الزكاة .

(١١) الشناق : الخلاط .

(١٢) الشغار : زواج فى الجاهلية أبطله الإسلام .

فمن أجبى[١] فقد أربى[٢] . وكل مسكر حرام » .

والرسول صلى الله عليه وسلم لا يعمد فى هذا الكتاب إلى تزويق ، إنما يعمد إلى فكرته وتبليغ دعوة الإسلام ورسالته فى غير إسهاب ، وفى غير صنعة أو تكلف . فكان كما قال جل شأنه : (قُل ما أسألكم عليه من أجرٍ وما أنا من المتكلفين) فكان يقصد إلى غرضه بالحروف القليلة والكلمات اليسيرة .

وتبعه الخلفاء الراشدون يهتدون بهديه فى كتابتهم وما يعقدون من معاهدات[٣] ، فهم لا يقصدون إلى تنميق ، إنما يقصدون إلى إبلاغ أفكارهم فى عبارات واضحة الدلالة . وليس من ريب فى أننا لا نصل إلى عصر عمر حتى تكثر المكاتبات السياسية ، فهو يكاتب قواده وولاته ، وهم يكاتبونه كلما جدّت مشكلة ، وكان يكتب إليهم أحياناً فى سياستهم لمن يحكمونهم ، وكتابه إلى أبى موسى الأشعرى فى القضاء ذائع مشهور[٤] .

ونظن ظنّاً أن عمر وغيره من الخلفاء الراشدين ، وولاتهم ، وقوادهم ، لم يقصدوا فى كتابتهم إلى أى ضرب من ضروب التزيين والتنميق ، فقد كان حسبهم أن يؤدوا أغراضهم فى لغة جزلة متينة ، وإن كان ذلك لم يمنع بعض المؤرخين والأدباء أن يدخلوا الزينة والتنميق على بعض ما رووه لهم . من ذلك الكتاب الذى ينسب إلى عمرو بن العاص أنه أرسله إلى عمر فى وصف مصر ، والذى يقول فيه : « مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر » إلى آخر ما فى هذا الكتاب من عبارات أنيقة[٥] ، فإنه واضح الانتحال على ابن العاص .

وينبغى أن نعرف أن المكاتبات فى صدر الإسلام لم تحفظ فى سجلات

---

(١) أجبى : من الإجباء وهو بيع الزرع قبل أن يبدو صلاحه .

(٢) أربى : من الربا .

(٣) انظر القسم الثانى من كتاب حميد الله .

(٤) البيان والتبيين ٢/ ٤٨ ، ٢٩٣ وعيون الأخبار ١/ ٦٦ .

(٥) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (طبعة دار الكتب) ١/ ٣٢ .

خاصة ، وكان ذلك سبباً فى أن تناولها غير مؤرخ وأديب بالتبديل والتحسين ، ومن ثم كان الكتاب الواحد يُرْوَى روايات مختلفة باختلاف الكتب التى ترويه ، وحسب ذوق الراوى وقدرته البيانية .

٦

الكتابة فى العصر الأموى

وإذا انتقلنا إلى عصر بنى أمية وجدنا الكتابة ترقى رقيًّا عظيماً ، فقد جدَّ كثير من المشكلات ، وتعقدت الحياة من جميع أطرافها المادية والسياسية والعقلية ، إذ تحضر العرب ، وأخذوا يستعيرون كثيراً من النظم الأجنبية ومواد الثقافات لدى الأمم المفتوحة .

ونستطيع أن نميز ثلاثة جداول مهمة كانت تمد الحياة العربية فى العصر الأموى ، وهى جدول جاهلى يتمثَّل فى الشعر والأيام وتقاليد الجاهليين ، وأقبل كثير من العلماء على هذا الجدول يعبّون منه ، مما هيأ لتسجيل الحياة الجاهلية ، وجدول إسلامى يتمثل فى تاريخ الإسلام وخطوبه وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وغزواته وأحاديثه وسيرة الخلفاء الراشدين وفتوحاتهم ، ثم ما كان من أحزاب سياسية وما لكل حزب من آراء فى السياسة والحكم ، وجدول أجنبي يتمثل فى معرفة شئون الأمم المفتوحة ونظمها السياسية والاجتماعية والاستعارة منها حسب الحاجة . ولعل أول ما كان من هذه الاستعارة اتخاذ عمر لديوان العطاء أو ديوان الجيش[1] ، وقد خلفه جيل كانت استعارته أقوى وأكبر ، ونستطيع أن نرمز لصنيع هذا الجيل بما كان من اتخاذ معاوية لدواوين الخراج والخاتم والرسائل[2] ، ثم بما كان من تأليف زياد بن أبيه لكتاب فى

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ١٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٤ .

المثالب [١] . وكلما مضينا فى العصر اتسعت التأثرات بما لدى الأجانب ، فقد كان العرب ناشرين للدين الإسلامى ، وقد اتصلوا بيهود ومجوس ونصارى وحدثت بينهم وبين هؤلاء جميعاً أحاديث ومناقشات ومحاورات تسرب إليهم فى أثنائها كثير من الفكر الأجنبي وخاصة من شُعَب الفكر اليونانى فى الفلسفة والمنطق ، وقد أخذوا يقفون على طرق استغلال الأرض وغير ذلك من مسائل الحياة العملية ، وعاشوا فى القصور وقام الأجانب على خدمتهم وتهيئة حياتهم المادية ، واطلعوا على نظم التعليم عندهم وما أنشأوا من مدارس ، وطلب خالد ابن يزيد بن معاوية أن تترجَم كتُبٌ فى الكيمياء [٢] ، وأمر عمر بن عبد العزيز بترجمة كتيِّب فى الطب [٣] .

ومعنى ذلك كله أن الكتابة نمت فى العصر الأموى نموًّا واسعاً ، فقد عرف العرب فكرة الكتاب وأنه صحف يجمع بعضها إلى بعض فى موضوع من الموضوعات ، وقد ألفوا فعلا كتباً كثيرة ، بعضها دينى خالص يتصل بمسائل الفقه والتشريع الإسلامى ، بمن ذلك أننا نجد الرواة ينسبون إلى هشام بن عروة بن الزبير أنه قال : « أحرق أبى يوم الحَرَّة كتبَ فقه كانت له » [٤] ونعرف أن موقعة الحرة كانت لعهد يزيد بن معاوية ، وقد ترك زيد بن على مؤسس مذهب اليزيدية مختصراً فى الفقه [٥] ، ومرَّ بنا أن المحدِّثين طوال القرن الأول للهجرة كانوا يختلفون فيما بينهم ، منهم من يكتفى برواية الحديث ومنهم من يدونه ، حتى إذا وصلنا إلى رأس المائة أمر عمر بن عبد العزيز بتدوينه تدويناً عامًّا ، ومن أوائل من بادروا إلى جمعه ابن شهاب الزهرى [٦] المتوفى سنة ١٢٤ للهجرة .

وقد نشطت الكتابة التاريخية ، فكتب المؤرخون فى مغازى الرسول عليه

---

(١) الفهرست لابن النديم (طبعة مصر) ص١٣١ .

(٢) الفهرست ص ٣٣٨ .

(٣) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزنى) طبع ليبزج ص ٣٢٤ .

(٤) طبقات ابن سعد ٥/١٣٣ .

(٥) راجع كلمة فقه فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٦) الزرقانى على موطأ مالك (طبع المطبعة الخيرية) ١/١٠ .

السلام ، وعلى رأسهم أبان بن عثمان[١] وعروة بن الزبير ، وهو أول من صنف فى تلك المغازى[٢] ، ثم الزهرى[٣] ، وكلهم من المدينة ، وهذا طبيعى فهى دار النبوة ، وبيت السيرة الذكية . وقد أخذ بعض هؤلاء المؤرخين يتحدثون عن الخلفاء الراشدين والأمويين .

وبجانب مؤرخى السيرة النبوية نجد مؤرخين من اليمن يهتمون بتاريخ موطنهم ، وفى مقدمتهم عُبيد بن شَرِيَّة الجُرْهمى الذى وفد على معاوية وأدرك خلافة عبد الملك بن مروان ، وهو صاحب « كتاب الملوك وأخبار الماضين »[٤] ألفه لمعاوية ، وطبع حديثاً فى الهند باسم « أخبار عبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » ومن يطلع عليه يجد الخرافة تغلب على أخباره . وتشتهر اليمن فى هذا العصر بقُصَّاصها مثل تميم الدارىّ ، وأشهرهم وهب بن منبِّه الذى توفى سنة ١١٤ للهجرة ، وقد كتب كثيراً عن عرب الجنوب كما كتب عن مغازى الرسول ، وأهم من ذلك أنه عُنى بجمع أخبار أهل الكتاب وما يتصل بها من الإسرائيليات[٥] ؛ وهو مثل عبيد فى ملء كتاباته التاريخية بالخرافات ، كما يلاحظ ذلك كل من يقرأ فى الكتاب المنسوب إليه المسمى « كتاب التيجان فى ملوك حمير » .

ونحن لا نصل إلى أواخر هذا العصر حتى نجد العراق تُعنى بهذه المادة التاريخية جميعها ، كما تعنى بتاريخ القبائل الشمالية وأنسابها وأيامها ، وأيضاً فإنها عنيت بتاريخ الأحداث فى عصر على بن أبى طالب ثم فى عصر بنى أمية . وكان مما زاد فى هذه العناية وخاصة بتاريخ العرب فى الجاهلية وأيامهم وملوكهم وأمرائهم وشعرائهم وخطبائهم قيام علم اللغة وتوفر أصحابه على دراسة أحوال الجاهليين . ولا نلبث أن نجد مؤرخاً كبيراً هو أبو مخنف[٦] يعنى بتأليف

---

(١) انظر ترجمة أبان فى دائرة المعارف الإسلامية وطبقات ابن سعد ١١٢/٥ .

(٢) كشف الظنون (الطبعة القديمة) ٦٤٦/٥

(٣) انظر ترجمة الزهرى فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) الفهرست ص ١٣٢ .

(٥) كشف الظنون ٤٠/٥ .

(٦) راجع ترجمة أبى مخنف فى معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ٤١/٧ .

كتب كثيرة يقال إنها بلغت اثنين وثلاثين كتاباً ، وأكثرها يتحدث فيه عن أحداث القرن الأول للهجرة ، واحتفظ الطبرى بكثير مما كتبه فى تلك الأحداث.

ولعل من الطريف أن نلاحظ أن هذه النزعة لكتابة التاريخ عند العرب ظهرت فى ظروف مشبهة لظهورها عند اليونان ، فإن من المعروف أن اليونان لم يعنوا بكتابة تاريخهم إلا بعد حروبهم مع الفرس واتصالهم بالعالم الخارجى ، وكذلك كان الشأن عند العرب فإنهم لم يعنوا بكتابة تاريخهم إلا بعد حروبهم مع الأمم الأجنبية وفتوحهم . وينبغى أن نعرف أن هذا النثر التاريخى عند العرب نثر عربى خالص ، فهم لم يستعيروه من الأجانب ، بل مثلهم فيه مثل اليونان الأقدمين فى نثرهم ونشأته فى حجورهم .

وليس معنى ذلك أن الكتابة التاريخية عند العرب لم تتأثر بعناصر أجنبية فى هذا العصر المبكر ، بل لقد أخذت تتأثر بهذه العناصر كما مر بنا عند وهب بن منبه وأضرابه ممن كانوا يتحدثون عن الملوك الأوائل وعن قصص الأنبياء وأخبار شعوبهم ، غير أن هذه العناصر لم توجد هذه الكتابة من عدم ، بل لقد وقف تأثيرها عند تنميتها والتطور بها مع الزمن ، كان موضوعها فى كثير من جوانبها عربياً خالصاً يتصل بسيرة الرسول وأحداث الإسلام أو يتصل بأيام العرب فى الجاهلية وأخبار قبائلهم وملوكهم . وكلما تقدمنا فى الزمن اتسعت هذه العناصر الأجنبية ، فشملت تاريخ الفرس وتاريخ الأمم المفتوحة .

وإذا تركنا الكتابة التاريخية إلى الرسائل وجدناها مثل الخطابة التى عاصرتها ، فقد كانت هناك رسائل سياسية تصدر عن دواوين الخلفاء والولاة أو عن خصومهم ، ورسائل اجتماعية يتبادلها الناس فى أمور حياتهم الشخصية ، ورسائل دينية ، منها ما يأخذ شكل الموعظة ، ومنها ما يأخذ شكل الحوار والجدل ، حين يتعرض شخص للرد على صاحب نحلة من النحل .

وقد نهضت الرسائل السياسية فى هذا العصر نهضة واسعة ، وهى نهضة تُرَدُّ إلى سببين: أما السبب الأول فهو أن كثيراً ممن كانوا يكتبونها كانوا يُعَدُّون فى الذروة من الفصاحة والبيان لهذا العصر أمثال زياد والحجاج وقَطَرِىّ بن

الفجاءة والمختار الثقفى ، وأما السبب الثانى فقيام ديوان الرسائل وظهور طبقة من الكتاب المحترفين فى هذا الديوان ، لا فى دواوين الخلفاء وحدهم ، بل أيضاً فى دواوين الولاة ، وكان قادة الجيوش أيضاً يتخذونهم ، ليراسلوا عنهم من يريدون مراسلته . ومعروف أن ديوان الخراج كان يقوم عليه فى أول الأمر كتاب من الأجانب ، يكتبون فيه بلغاتهم الأصلية ، حتى إذا كان عصر عبد الملك نُقل هذا الديوان إلى العربية ، فأصبح الشأن فيه كالشأن فى ديوان الرسائل يليه العرب ، ولم يلبث الأجانب أن سعوا إلى تعلم العربية وشاركوا فى ديوان الرسائل نفسه .

ويقدِّم لنا كتاب الوزراء والكُتَّاب للجهشيارى أثباتاً طويلة بأسماء من كانوا يلون الديوانين : ديوان الرسائل وديوان الخراج ، وهى أثبات تدل دلالة قاطعة على أن من نهضوا بالكتابة السياسية فى هذا العصر إنما هم العرب ، وظلوا على ذلك طويلا ، حتى أوشك القرن الأول للهجرة على الزوال ، فشاركهم الأجانب مشاركة بدت قاصرة فى أول الأمر ، حتى إذا كان عصر هشام ابن عبد الملك (١٠٤ — ١٢٤ هـ) وجدنا على ديوانه مولى كان يحسن اليونانية وينقل عنها بعض رسائل وهو سالم، الذى تخرج على يديه عبد الحميد الكاتب الفارسى الأصل .

ومعنى ذلك أن كتابة الرسائل السياسية الرسمية نشأت فى حِجْر العرب ، ونمت تحت أيديهم ، فقد أخذت فى الظهور منذ صدر الإسلام ومنذ أن جَدَّت تلك المشكلات التى اقتضت أن يكتب فيها الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه ، وبمضى الزمن أخذت مشاكل الدولة فى التعقد ، كما أخذ العقل العربى ينمو ويرقى ، فنمت ورقيت معه تلك الصناعة ، وتوفر عليها جماعة من بلغاء الخطباء كما توفرت عليها جماعة من الكتّاب المحترفين الذين توظفهم الدولة للعناية بها ، وحقًّا يقال إن العرب استعاروا نظم الدواوين من لدن الفرس[١] ،

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢ وما بعدها .

ولكن الفرس مثلهم مثل غيرهم من الموالى لم يوجدوا لهم هذا الفن من كتابة الرسائل السياسية ، إنما أوجدته حياتهم وضروراتها السياسية والإدارية . ومن هنا كنا نرفض رفضاً باتاً رأى بعض المستشرقين الذين يزعمون أن العرب استعاروا كتابتهم السياسية الفنية أو نثرهم السياسى الفنى من لدن الفرس[1] ، فالعرب لم يستعيروا من الفرس ولا من غيرهم نثرهم كما أنهم لم يستعيروا منهم ولا من غيرهم شعرهم ، وكل ما يمكن أن يلاحَظ أنهم أخذوا مع الزمن يتأثرون فى نثرهم وشعرهم جميعاً بالأجانب من الفرس وغير الفرس ، وتمّ ذلك بحكم التطور واشتراك هؤلاء الأجانب معهم فى أدبهم ، وما كان من نقل ثقافاتهم إلى العربية .

ونحن لا نغلو هذا الغلو الذى جعل بعض المعاصرين يذهب إلى أن العرب عرفوا الكتابة الفنية أو النثر الفنى منذ العصر الجاهلى[2] ، فما تحت أيدينا من وثائق ونصوص حسية لا يؤيد ذلك إلا إذا اعتمدنا على الفرض والظن ، والحق أن ما تحت أيدينا من النصوص الوثيقة يجعلنا نقف فى مرحلة وسطى بين الرأيين ، فلا نتأخر بنشأة الكتابة الفنية عند العرب إلى العصر العباسى عصر التأثر الواضح بالفرس ، ولا نتقدم بها إلى العصر الجاهلى ، بل نضعها فى مكانها الصحيح الذى تؤيده المستندات والوثائق ، وهو العصر الإسلامى ، حيث أخذت فى الظهور منذ صدره ، كما أخذت فى النمو والازدهار كلما تقدمنا مع الزمن . وإذا كان للفرس أو لغيرهم من الموالى فيها من فضل فهو فضل المشاركة فى النمو بها ، بالضبط على نحو ما صنعوا بالشعر فى العصر العباسى ، ولعل من المهم أن نعرف أن العرب لم يأخذوا عن الفرس فلسفة ولا نحتاً ولا تصويراً ولا شعراً ولا أى فن من الفنون .

وعلى نحو ما نشأت الكتابة السياسية الرسمية ونمت نشأت الكتابة الاجتماعية أو الشخصية وأخذت فى النمو منذ عصر الفتوح ، فإن تفرق العرب فى البلدان

---

(١) انظر النثر الفنى لزكى مبارك ١ / ٣٤ ، ١ / ٤٣ وراجع بحثاً لمرسيه نشره فى : Revue Africaine, Nos. 330, 331 (1er., 2me. trimestres, 1927).

(٢) النثر الفنى ١ / ٣٣ – ٤٣ .

الإسلامية دفعهم دفعاً إلى أن يتكاتبوا فى مهامهم وشئونهم الشخصية وفى التهانى والتعزية وفى العظة والعبرة[1] . ومن غير شك كثر ذلك مع مر الزمن ، وإن كانت الكتب الأدبية والتاريخية لم تعن بتلك المكاتبات قدر عنايتها بالوسائل السياسية ، لأنها فى الغالب لا يتعلق بها تاريخ ، وأيضاً فإن أصحابها لم يكونوا يقرءونها فى الناس ولا كانوا يسجلونها ، ومع ذلك نجد آثاراً منها ، يرجع بعضها إلى صدر الإسلام ، وبعض آخر يرجع إلى عصر بنى أمية ، وربما كان أبرز كتَّابها عبد الله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر .

أما الكتابة الدينية فقد أصابها ما أصاب الخطابة الدينية من الرقى والازدهار ، لسبب بسيط وهو أن كُتَّابها كانوا هم أنفسهم الذين مرنوا على الخطابة والجدال والحوار فى المسائل الدينية والمذهبية ، فأضفوا على كتابتهم نفس الصورة البيانية التى أضفوها على خطابتهم ، مما نجده ماثلا فى كتابات الحسن البصرى وغَيلان الدمشقى وغيرهما من الوعاظ وأصحاب النحل الذين نهضوا بتمرين اللغة العربية على كثير من المعانى الدقيقة موازنين بين معانيهم وبين ألفاظهم وما تحتاجه لتأثيرها على وجدان السامع والقارئ من حلاوة وعذوبة .

٧

الصنعة فى الكتابة الأموية

رأينا الكتابة فى العصر الأموى تعالج موضوعات علمية وتاريخية ، كما تعالج رسائل سياسية واجتماعية ودينية ، وليس بين أيدينا وثائق صحيحة تصور كيف كانوا يعالجون مسائل العلم والتاريخ ، وحقًّا مر بنا أنه طُبع لعبيد بن شَرِيَّة كتابٌ فى أخبار اليمن كما طبع لوهب بن منبه كتابه التيجان فى ملوك حمير .

---

(١) انظر رسالتين متبادلتين بين الصحابيين : أبى الدرداء وسلمان الفارسى فى العقد الفريد ١٥٠/٣ .

ولكن الكتابين جميعاً مشكوك فى صحة نسبتهما إليهما . وربما كان أصح منهما وأوثق ما احتفظ به الطبرى فى تاريخه الكبير . على أن من يرجع إلى ما رواه عن مؤرخى تلك الفترة يلاحظ أن الكتابة التاريخية كانت لا تزال فى أول نشأتها ، وأنها لم تتطور بالسرعة التى تطورت بها الرسائل السياسية والدينية .

ومن يقرأ ما أُثر من رسائل سياسية لهذا العصر يستطيع أن يلاحظ فى وضوح أنها كانت تجرى أول الأمر فى الصورة التى كانت تجرى فيها لعهد صدر الإسلام ، فكاتبها أو ممليها لا يتأنق فيها ولا يقصد إلى تفنن أو زخرف فنى خاص ، إنما يقصد إلى أداء غرضه فى عبارة جزلة مصقولة يغلب عليها الإيجاز .

غير أننا لا نكاد نتجاوز منتصف القرن الأول للهجرة ، حتى تتكامل الرغبات للعناية بتلك الرسائل عناية توفّر لها ضروباً من التجويد والجمال الفنى ، وكأنما لم تعد الغاية أن تؤدى أغراضها فحسب ، بل أضيف إلى ذلك غاية أخرى أن تروع القارئين والسامعين بتحبيرها وتنميقها ، وكأنها قطعة موسيقية أو لوحات تصويرية . ولم يقفوا بذلك عند ظاهرها ، فقد أخذوا ينوعون فى معانيها ويفرّعون ، ويطنبون صوراً مختلفة من الإطناب ، وسرعان ما نسمع أن عمرو بن نافع كاتب عبيد الله بن زياد والى العراق (٦٠–٦٤هـ) كان يطيل فى رسائله طولا شديداً[١] . وظاهرة الطول ظاهرة جديدة لم يكن يعرفها العرب فى أدبهم إذ كانوا يوجزون قبل عصر عبيد الله بن زياد فى شعرهم ونثرهم جميعاً ، أما منذ هذا العصر فقد استمرت ظاهرة الإيجاز فى الشعر ، بينما حلت محلها ظاهرة معاكسة فى النثر ، وهى ظاهرة لا شك فى أنها وليدة التطور العقلى الذى أصابه العربَ ، فإذا هم يستطيعون أن يبسطوا آراءهم السياسية وأن يفصلوا فى معانيها ضروباً مختلفة من التفصيل .

وإذا مضينا إلى عصر الحجاج وأغفلنا النظر عن طول الرسائل السياسية وما يُطْوَى فيه من صنعة فى بسط التعبير ومدّه ونظرنا فى الصياغة والأسلوب

---

(١) تاريخ الطبرى ، القسم الثانى ص ٢٧٠ .

لاحظنا أن بعض هذه الرسائل كان يعتمد على السجع ، فكان الحجاج نفسه يسجع أحياناً كما كان يسجع بعض من يكاتبونه ، ومن خير ما يصور ذلك رسالتان احتفظ بهما الجاحظ فى بيانه ، وهما متبادلتان بينه وبين قَطَرِىّ بن الفُجاءة ، وقد بُنيتا على السجع الخالص [١] . وحقًّا نجد المختار الثقفى يسجع فى رسائله [٢] ، ولكنه كان يبدو شاذًّا بعض الشيء فى هذا الاتجاه ، أما فى عصر الحجاج فيظهر أن كثيراً من الكتَّاب كان يبنى كتابته عليه ، ولعل مما يدل على ذلك أن نجد ابن الأشعث حين ثار على الحجاج وأعد جيشاً لحربه ، يقول لكاتبه ابن القِرِّيَّة : « إنى أريد أن أكتب إلى الحجاج كتاباً مسجعاً أعرفه فيه سوء فعاله وأبصره قبح سريرته » ويصدع ابن القرية بأمره ، ويرد عليه الحجاج برسالة مسجوعة أيضاً [٣] . وقد لا يسجع الكاتب ، ولكنه لا يزال يفكر فى طريقة يلفت بها القارئ والسامع ، فقد حدثنا الرواة أن يزيد بن المهلب فى أثناء بعض حروبه فكر أن يكتب إلى الحجاج كتاباً ، وكان يكتب له يحيى بن يَعْمَر ، وهو عربى ومن أوائل من عُنوا بوضع قواعد العربية [٤] فلما أمره يزيد بالكتابة إلى الحجاج وأن يعلمه بما صنعوا فى الحرب كتب إليه هذه الرسالة القصيرة [٥] :

« إنا لقينا العدو ، فمنحنا الله أكتافهم ، فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة ، ولحقتْ طائفة برءوس الجبال وعرائر [٦] الأودية وأهْضام [٧] الغيطان ، وبِتْنَا بعُرْعُرَة [٨] الجبل ، وبات العدو بحضيضه » .

ولما قرأ الحجاج الرسالة أعجب بها إعجاباً شديداً ، وأرسل إلى يحيى يطلبه على البريد ، فلما جاءه سأله : من أين لك هذه الفصاحة ؟ وهى فصاحة

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٣١٠ .
(٢) انظر الطبرى فى سنة ٦٦ هـ .
(٣) الأخبار الطوال للدينورى (طبع ليدن) ص ٣٢٣ .
(٤) أخبار النحويين البصريين للسيرا فى (طبعة كرنكو) ص ٢٢ .
(٥) البيان والتبيين ١ / ٣٧٧ .
(٦) عرائر الأودية : أسافلها .
(٧) أهضام الغيطان : مداخلها .
(٨) عرعرة الجبل : أعلاه .

كانت تعتمد على اللفظ الغريب . ونحن لا نُشْنى على الإغراب فى الألفاظ ولكنا نستدل من هذه الرسالة الموجزة على أن الكتّاب فى عصر الحجاج كانوا لا يزالون يفكرون فى صَنْعة أساليبهم ، فتارة يعمدون فيها إلى السجع ، وتارة يعمدون فيها إلى الإغراب اللفظى . فالكاتب لا يفكر فى أداء معانيه فحسب بل يفكر فى تنميقها وتزيينها بضروب من الحلية ، كل حسب ذوقه ، وكان يحيى بن يعمر لغويًّا ، وكان ذوقه ذوق لغويين فعمد إلى ألفاظ غير مألوفة كى يروع الحجاج ويملك عليه لُبَّه ، ونفذ فعلا إلى ما أراده ، إذ كان الحجاج يميل أحياناً إلى التفاصح بالغريب ، على نحو ما مر بنا فى خطبته بالكوفة التى بدأها بأرجاز تزخر باللفظ الحوشىّ .

ولم يكن الحجاج يعمد إلى السجع فى كتبه ورسائله دائماً ، بل لعل ذلك إنما كان فى القلة وفى الحين بعد الحين ، أما الكثْرة فتخلو من السجع . وليس معنى هذا أنه كان يتخلص من محاولة التأنق والتنميق ، فقد كان يسعى إلى تحقيق ذلك دائماً ، وكان يتخذ إليه الإغراب فى اللفظ حيناً ، وحيناً يتخذ ما سبق أن لاحظناه فى خطابته من الصور والاستعارات الطريفة ، ومن خير ما يصور ذلك عنده ما رواه الجاحظ فى خاتمة بيانه من أنه كتب إلى عبد الملك بهذه الرسالة[١] :

« أما بعد فإنا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يُصبْ أرضنا وابلٌ[٢] منذ كتبت أخبره عن سُقيا الله إيانا ، إلا ما بَلّ وجه الأرض من الطَّشّ والرَّشّ والرَّذاذ[٣] ، حتى دَقعت[٤] الأرض واقشعرَّت[٥] واغبرَّت[٦] ، وثارتْ فى نواحيها أعاصيرُ تذرو[٧] دُقاق الأرض من ترابها ، وأمسك الفلاحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها[٨] وامتناعها . وأرضُنا أرضٌ سريعٌ تغيرها ، وشيكٌ تنكُّرها ، سيءٌ ظَنّ

---

(١) البيان والتبيين ٤/٩٩ .

(٢) وابل : مطر شديد .

(٣) الطش : المطر القليل : ونحوه الرش والرذاذ .

(٤) دقعت الأرض : أصبحت لا نبات فيها .

(٥) اقشعرت : تقبضت من الجدب .

(٦) اغبرت : من الغبار .

(٧) تذرو : تسفى وتحمل .

(٨) اعتزازها : امتناعها ، أو لعله من العزاز وهى الأرض الصلبة .

أهلها عند قحوط المطر ، حتى أرسل الله بالقبول[١] يوم الجمعة ، فأثارت زِبْرِجاً[٢] متقطعاً متصراً[٣] ، ثم أعقبته الشمال[٤] يوم السبت ، فطَحْطحتْ[٥] عنه جَهامه[٦] ، وألَّفَتْ متقطِّعه ، وجمعت متمصِّره ، حتى انتضد[٧] ، فاستوى ، وطما وطحا[٨] ، وكان[٩] جَوْناً[١٠] مُرْثعناً[١١] قريباً رواعده . ثم عادت عوائده بوابل منهمل منسجل[١٢] ، يردف[١٣] بعضه بعضاً ، كلما أردف شُؤبوبٌ أردفته شآبيب[١٤] بشدة وقعه فى العراض[١٥] . وكتبت إلى أمير المؤمنين وهى ترمى بمثل قِطع القُطْن ، قد ملأ اليَباب[١٦] ، وسدَّ الشعاب[١٧] وسقى منها كلُّ ساق . فالحمد لله الذى أنزل غَيْثه ، ونشر رحمته من بعدما قَنَطوا[١٨] وهو الولى الحميد . والسلام » .

وواضح أن هذه الرسالة ليست مسجوعة ، ولكنها مع ذلك قد أحكمت صنعتها ، سواء من حيث اختيار ألفاظها والذهاب بها مذهب الغريب المقبول ، أو من حيث دقتها فى تصوير الجدب ثم نزول الغيث ، وهو تصوير لاشك قد فكر فيه الحجاج طويلا ، قبل أن يحكمه ويضبط التشبيهات والاستعارات التى تمثله ، وكأنه شاعر يجمع أشتات خياله ، ليؤلف هذه اللوحة البديعة .

ولم تبلغ صنعة الرسائل هذا المبلغ من الإتقان عند الحجاج وحده ، فقد كان يشركه فى ذلك معاصروه من الولاة والقواد وكتّابهما ، بل من الخلفاء

---

(١) القبول : الريح الشرقية .
(٢) الزبرج : السحاب الرقيق الخفيف .
(٣) متمصراً : متقطعاً .
(٤) الشمال : الريح الشمالية .
(٥) طحطحت : فرقت وبددت .
(٦) الجهام : السحاب لا ماء فيه .
(٧) انتضد : تراكبت طبقاته بعضها فوق بعض .
(٨) طما : امتلأ وزخر ، وطحا : انبسط وملأ الجو .
(٩) كان هنا بمعنى صار .
(١٠) الجون : الأسود .
(١١) مرثعناً : مسترسلا سائلا .
(١٢) منسجل : منصب .
(١٣) يردف : يتبع .
(١٤) الشآبيب : جمع شؤبوب وهو الدفعة من المطر .
(١٥) العراض : جمع عرض بضم العين وهو الناحية .
(١٦) اليباب : الخالى الذى لا شىء فيه .
(١٧) الشعاب : المسالك والسبل .
(١٨) قنطوا : يئسوا .

أنفسهم ، فقد روى الجاحظ فى بيانه رسالتين متبادلتين بين عبد الملك بن مروان وعمرو بن سعيد بن العاص حين ثار عليه ، وليستا مسجوعتين ، ولكن أثر الصنعة والتأنق باد عليهما[١] ، ومعنى ذلك كله أن الكتّاب أصبحوا منذ هذه الحقبة من العصر يتفننون فى رسائلهم ، ويحاولون جاهدين أن تلمع عليها أثارةٌ من الجمال الفنى .

وإذا مضينا إلى أوائل القرن الثانى للهجرة وإلى عصر هشام بن عبد الملك (١٠٤–١٢٤ هـ) وجدنا على رأس ديوانه مولى له يسمى سالماً[٢] ينهض بكتابة هذه الرسائل السياسية نهضة واسعة ، وكان يعرف اليونانية وترجم منها بعض رسائل لأرسطاليس[٣] ، وعده صاحب الفهرست أحد البلغاء العشرة الأوَل فى تاريخ العرب وأدبهم[٤] ، ويقول إن له رسائل تبلغ نحو مائة ورقة[٥] ، غير أن هذه الرسائل لم تصلنا ، ولولا أن الطبرى احتفظ لنا برسالة كتبها عن هشام إلى خالد القسرى[٦] لم نكد نعرف شيئاً واضحاً عن فنه وبيانه ، ومن يرجع إليها يلاحظ أنه عُنى بأسلوبه عناية تشبه عناية الوعاظ من أمثال الحسن البصرى بأسلوبهم وما كانوا يوفرون له من الازدواج والترادف الصوتى ، وكان يتكئ على الحال اتكاء شديداً فى صياغته .

وليس تحت أيدينا من النصوص ما نستطيع به أن نحكم على مدى التأثير اليونانى فى كتابة سالم ، وإن كان يُظَنّ أن هذا التأثير كان عميقاً ، وقد تخرّج عليه عبد الحميد أنبه كتّاب العصر وأشهرهم ، وسنعرض له عما قليل . على أنه ينبغى أن نلاحظ هنا شيئاً مهمّاً ، وهو أن التأثير الأجنبى فى الكتابة العربية الفنية لم يدخل أول الأمر عن طريق الفرس وكاتبهم ابن المقفع ، مما جعل بعض المستشرقين يزعم أنهم هم الذين أعاروا العرب هذا الفن النثرى ، بل لقد دخل كما نرى الآن عن طريق سالم الذى كان يحذق اليونانية . ولعل فى ذلك ما يدل

---

(١) البيان والتبيين ٤ / ٨٧ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٦٢ .
(٣) الفهرست ص ١٧١ .
(٤) الفهرست ص ١٨٢ .
(٥) الفهرست ص ١٧١ .
(٦) الطبرى ، القسم الثانى ص ١٦٤٢ .

على ما نذهب إليه من أن الكتابة الرسميّة الفنية عند العرب لم تأتهم من الخارج ، فقد نشأت فى حجورهم بحكم حياتهم الإسلامية والسياسية الجديدة ومشاكلها المختلفة ، فالأجانب لم يبتكروها لهم ، بل كل ما هنالك أنهم أسهموا معهم فيها ، وتأخر هذا الإسهام إلى أن ظهر سالم وأشباهه .

ولم تكن الرسائل السياسية وحدها هى التى يطّرد لها النمو والازدهار ، بل شاركتها فى ذلك الرسائل الاجتماعية أو الشخصية ، لسبب بسيط ، وهو أن من كانوا يكتبونها كانوا يعيشون فى تلك الحقب التى أخذ البلغاء يهتمون فيها بتنميق أساليبهم وإيداعها ضروباً من البيان والفصاحة ، ونسوق مثلا لها رسالة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى رجل من إخوانه[1] :

« أما بعد فقد عاقنى الشك فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك . ابتدأتنى بلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبتنى جفاء عن غير ذنب ، فأطمعنى أولك فى إخائك وأيأسنى آخرك من وفائك ، فلا أنا فى اليوم مجمعٌ لك اطّراحاً ، ولا أنا فى غد وانتظاره منك على ثقة . فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأى فى أمرك عن عزيمة فيك ، فأقمنا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف . والسلام » .

والرسالة على قصرها يتضح فيها جهد كاتبها فى تحبيرها ، فقد بناها على الطباق والمقابلة بين المعانى والألفاظ ، والتوازن بين العبارات والكلمات الفصيحة ذات المخارج الحسنة ، وكان شاعراً بيّناً وخطيباً لسِناً ، فأضفى من لَسَنه وبيانه على رسالته .

وإذا تركنا الرسائل الاجتماعية الشخصية والسياسية الرسمية إلى الرسائل الدينية والجدلية وجدنا أصحابها هم أنفسهم أرباب البيان والبلاغة من الخطباء المفوهين أمثال الحسن البصرى وغيلان الدمشقى .

وكانت هذه الرسائل تستخدم الأسلوب المزدوج الذى يأخذ بأطراف من التصوير والطباق ، والذى سبق أن لاحظناه فى خطابة الحسن البصرى

---

(١) البيان والتبيين ٢/٨٤ — ٨٥ وزهر الآداب ١/٧٨ .

وأضرابه ، ونسوق مثالين منه ، أما أولهما فما كتب به الحسن إلى عمر بن عبد العزيز فى صفة الإمام العادل ، وهو يطرد على هذه الشاكلة(١) :

« اعلم ياأمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قِوَام كلٍّ مائل وقَصْد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف . والإمام العَدْل ياأمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله ، الرفيق بها ، الذى يرتاد لها أطيب المراعى ، ويذودها عن مراتع الهلكة ويحميها من السباع ، ويَكنفها من أذى الحر والقُرّ(٢) . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده ، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم فى حياته ، ويدَّخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرَّة بولدها ، حملته كرهاً ، ووضعته كُرْهاً ، وربَّته طفلا ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تاره ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتمُّ بشكايته . . »

وتحمل هذه القطعة من الرسالة كل الخصائص التى سبق أن تحدثنا عنها فى خطابة الحسن ، ففيها الازدواج والترادف الصوتى والتكرار ، وفيها التقابل والطباق والتشبيهات وغير ذلك من حُلى بيانية . وقد مضى الحسن يقتبس فيها من آى الذكر الحكيم ما يصور به فكره ويوشى به تعبيره . أما المثال الثانى فنسوقه من رسائل غَيْلان الدمشقى ، إذ يقول(٣) :

« إن التراجع فى المواعظ يوشك أن يُذهب يومها ويأتى يوم الصاخَّة(٤) ، كل الخلق يومئذ مُصيخ(٥) ، يستمع ما يُقال له ويُقضى عليه (وخشَعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا هَمْساً) . فاصمُتِ اليوم عما يُصمتك يومئذ ، وتعلَّمْ ذلك حتى تعلمه ، وابتغه حتى تجده ، وبادِرْ قبل أن تفجأك دعوةُ

---

(١) العقد الفريد ١/٣٤ .
(٢) القر : البرد .
(٣) عيون الأخبار ٢/٢٤٥ .
(٤) يوم الصاخة : يوم القيامة .
(٥) مصيخ : مرهف أذنه وسمعه .

الموت ، فإنها عنيفة إلا بمن رحم الله . ويا رُبَّ متعبد لله بلسانه معاد له بفعله ، ذلول فى الانسياق إلى عذاب السَّعير فى أمنية أضغاث [١] أحلام يَعْبُرها بالأمانى والظنون ، فاعرفْ نفسك » .

وهذه القطعة بدورها ترينا مدى احتفال الوعاظ برسائلهم وما كانوا يؤدون فيها من ضروب الجمال الفنى ، ويقول صاحب الفهرست إن رسائله كانت فى ألفى ورقة [٢] . ولا نرتاب فى أن هذه الرسائل وما يماثلها من مواعظ الحسن البصرى وأضرابه هى التى استعار منها سالم وتلميذه عبد الحميد أسلوبهما الكتابى فى الرسائل السياسية ، فإننا نجدهما يكتبان من نفس النمط ونفس النموذج ، وهو النموذج الذى شاع طوال القرن الثانى بين الكتاب العباسيين وعلى رأسهم الجاحظ ، ونقف قليلا لنتحدث عن عبد الحميد الكاتب فى إيجاز .

٨

عبد الحميد الكاتب وخصائصه الفنية

هو عبد الحميد بن يحيي مولى العلاء بن وهب القرشي ، ويقول من كتبوا عنه إنه يرجع إلى أصول فارسية [٣] وإنه كان من أهل الأنبار وسكن الرقة [٤] ، وكان فى أول أمره يتنقل فى البلدان معلماً فى الكتاتيب [٥] ثم التحق بديوان الرسائل فى دمشق لعهد هشام بن عبد الملك ، حيث خرجه ختَنه سالم مولى هشام ورئيس هذا الديوان [٦] . واتصل بمروان بن محمد وكتب له أيام كان

---

(١) أضغاث : أخلاط .

(٢) الفهرست ص ١٧١ .

(٣) المسالك والممالك للإصطخرى (طبعة ليدن) ص ١٤٥ .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان (طبعة المطبعة الميمنية ١/ ٣٠٧ .

(٥) نفس المصدر ١/ ٣٠٧ والفهرست ١٧٠ .

(٦) وفيات الأعيان ١/ ٣٠٧ والوزراء والكتاب ص ٦٢ .

والياً ، فلما صارت إليه الخلافة أقامه على ديوانه ، فنهض بالعمل فيه خير نهوض .

ولما دارت الدوائر على مروان وانتصرت عليه الجيوش العباسية بقيادة أبي مسلم الخراسانى فى موقعة الزاب ظل مخلصاً له وفياً ، ففر معه إلى مصر حيث قُتلا فى موقعة بوصير[١] . ويروى المسعودى أن مروان قال له حين أيقن بزوال ملكه : قد احتجتُ أن تصير مع عدوى وتظهر الغدر بى ، فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابتك يدعوانهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعنى حياتى صنعت ، وإلا لم تعجز عن حفظ حُرَمى بعد وفاتى ، فقال له عبد الحميد : إن الذى أشرت به علىّ أنفع الأمرين بك وأقبحهما بى ، وما عندى إلا الصبر ، حتى يفتح الله أو أقتل معك ، وأنشد :

أسرُّ وفاء ثم أظهر غــدْرَةً فمن لى بعُذْرٍ يوسع الناسَ ظاهرُه[٢]

وفى ابن خلكان رواية أخرى تزعم أن عبد الحميد اختفى بعد مقتل مروان فى الجزيرة ، فوقف عليه السفاح وعذّبه حتى مات [٣] ، ويروى الجهشيارى أنه اختفى عند ابن المقفع ففاجأهما الطلب ، وأُخذ عبد الحميد[٤] . والصحيح ما ذكرناه أولا من أنه قُتل فى بوصير مع مروان .

وعبد الحميد أبلغ كتّاب الدواوين فى العصر الأموى وأشهرهم ، وقد ضُربت ببلاغته الأمثال ، فقيل فُتحت الرسائل بعبد الحميد، وخُتمت بابن العميد[٥] ، ويقول ابن النديم : «عنه أخذ المترسلون، ولطريقته لزموا ، وهو الذى سهّل سبيل البلاغة فى الترسل»[٦] ويزعم المسعودى أنه أول من استخدم التحميدات

---

(١) وفيات الأعيان ١/٣٠٧ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى (طبعة دار الرجاء) ٣/١٧٨ والوزراء والكتاب ص ٧٩ وعيون الأخبار ١/٢٦ .

(٣) وفيات الأعيان وانظر الوزراء والكتاب ص ٧٩ .

(٤) الوزراء والكتاب ص ٨٠ .

(٥) اليتيمة للثعالبى (طبعة الصاوى) ٣/١٣٧ .

(٦) الفهرست ص ١٧٠ .

فى فصول الكتب[١] . والحق أنه القمة التى وصلت إليها الكتابة الفنية فى العصر الأموى ، إذ كان زعيم البلغاء فى عصره غير مدافع . وقد بقيت منثورات من رسائله تشهد بفصاحته ولَسَنه ومقدرته على التعبير والبيان مع الفخامة والطلاوة ، من ذلك رسالة وجهها إلى عُمَّال مروان بن محمد بالأمصار يأمرهم بمحاربة لعبة الشطرنج ، ورسالة ثانية يصف فيها رحلة صيد وقد تأثر فيها تأثراً شديداً بوصف شعراء الجاهلية للصيد وكلابه وجوارحه . ورسالة ثالثة تقدم بها إلى الكُتَّاب[٢] ، ضمنها وصايا مختلفة لهم ، وهى تدل على نمو طبقتهم وأنهم أصبحوا يؤلفون جماعة بارزة فى حياة الدولة ووظائفها وأعمالها المتنوعة . ونراه يستهلها بأن صناعتهم أشرف الصناعات ، إذ بهم ينتظم الملك وبتدبيرهم وسياستهم يستقيم الحكم ، وينصحهم أن يتحلوا بخلال الخير وخصال الفضل ، ويخوض فيما ينبغى أن يتقتنوه من صنوف المعرفة والثقافة ، يقول :

« فنافسوا معشر الكُتَّاب فى صنوف العلم والأدب ، وتفقَّهوا فى الدين ، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية فإنها ثِقاف ألسنتكم ، وأجيدوا الخطَّ فإنه حِلْية كتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيامَ العرب والعجم وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك مُعين على ما تسمون إليه بهممكم ، ولا يضعفنَّ نظركم فى الحساب فإنه قوام كُتَّاب الخراج منكم » .

وفى ذلك الدلالة البينة على أن الكاتب فى عصر عبد الحميد كان لا يستطيع أن يحسن وظيفة الكتابة إلا إذا ألم بالثقافة الإسلامية وثقافة العرب الأدبية من خطابة وغير خطابة ومن أيام وغير أيام ، وأخبار الأمم الأجنبية ومعارفها ، ولابد أن يعرف الحساب وأن يروى الأشعار ويقف على غريبها ومعانيها ، فيفيد منها كما أفاد عبد الحميد نفسه فى رسالة الصيد إذ نثر فيها كثيراً من معانى الشعر القديم . فالكتابة لم تعد عملا سهلا بسيطاً ، بل أصبحت عملا معقَّداً ، لابد فيه من إعداد ومن تثقف تام بالقرآن الكريم وأوامر الشريعة وبالأدب العربى

---

(١) مروج الذهب ٣/١٧٨ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٧٣ وما بعدها .

وكنوزه النثرية والشعرية والآداب الأجنبية . وليس هذا كل ما يلفتنا فى الرسالة ، فقد تحدث عبد الحميد طويلا عما ينبغى أن يأخذ به الكاتب نفسه فى سياسة الناس وتدبير شئونهم ، كما تحدث عما يمكن أن نسميه آداب اللياقة بالقياس إلى الخلفاء . والرسالة فى مجموعها تتصل مباشرة بما أثر من وصايا ملوك الفرس لكُتَّابهم ، مما رواه الجهشيارى فى مقدمة كتابه الوزراء والكتاب ، ولذلك كنا نظن ظنًّا أن عبد الحميد يتأثر فيها بتلك الوصايا ، ولعل هذا هو الذى جعل صاحب الصناعتين يزعم أنه « استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى ، فحوَّلها إلى اللسان العربى » [١] ونصَّ الجاحظ فى بيانه على أنه ترجم بعض كتب من الفارسية[٢] ، ولابد أن تكون هذه الكتب متصلة بعمله من الكتابة الأدبية . وربما كان من أطرف ما نقرؤه فى رسالته إلى الكُتَّاب الآنفة الذكر أننا نراه يدعوهم إلى تأليف ما يشبه النقابة فى عصرنا، فقد طلب إليهم أن يعطفوا على من يَنْبُو به الزمان منهم ،وأن يواسوه ،حتى يرجع إليه حاله ويثوب أمره . والرسالة بذلك دستور واسع للكُتَّاب يصور واجباتهم الخلقية والثقافية ، وعلى هَدْيها كُتبت فيما بعد كتب أدب الكاتب والكتَّاب لابن قتيبة والصولى وغيرهما .

وربما كانت أهم رسالة سياسية وصلتنا عنه رسالته التى بعث بها عن مروان ابن محمد إلى ابنه وولى عهده عبد الله حين وجَّهه لمحاربة الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى الذى ثار فى العراق وامتدت ثورته إلى الموصل عام ١٢٨ للهجرة، وهى رسالة كبيرة ، وكأن عبد الحميد أراد بها أن يضع دستوراً لتنظيم قواد الدولة لجيوشهم من الوجهتين : المادية والحربية ، والرسالة تقع فى نحو أربعين صحيفة ، فهى أطول رسالة أثرت عن عصر بنى أمية ، إذ امتد فيها نفس عبد الحميد إلى كثرة واسعة من الصحف ، فَصَّل فيها الحديث عن آداب القادة وتصريفهم للمسائل الحربية ، وأطال فى بيان ذلك ، حتى غدت

---

(١) الصناعتين لأبى هلال العسكرى (طبعة الحلبى) ص ٦٩ .

(٢) البيان والتبيين ٢٩/٣ .

الرسالة أشبه ما تكون بكتاب مستقل .

وهذا الطول المسرف فى الرسالة جعل خصائص عبد الحميد فى فنه الكتابى تبدو واضحة تمام الوضوح ، إذ نرى الخاصة من خصائصه تنبسط تحت عين القارئ انبساطاً واسعاً . وقد قسمها ثلاثة أقسام كبيرة قسم يصور القائد وما ينبغى أن يكون عليه من آداب فى سلوكه مع نفسه ثم مع حاشيته ورؤساء جيشه ، وأثرُ الثقافة الفارسية وما عرف عن آداب الفرس فى الملك والسياسة بيِّنٌ فى هذا القسم . أما القسم الثانى فخاص بسياسة القائد لجيشه وما ينبغى أن يتخذ فيه من شرطة وقضاة ورجال مال . وأما القسم الثالث فقد تحدث فيه عن التنظيم الداخلى للجيش وكيفية إعداده فى وحدات كل وحدة مائة ، وهو نفس النظام الحربى الذى كان متبعاً عند البيزنطيين ، مما جعل طه حسين يظن أن عبد الحميد يتأثر فى هذا النظام برسائل الحرب عند اليونان . وذهب يلتمس صلة عبد الحميد بالثقافة اليونانية فى تقسيم كلامه إلى فصول بحيث يؤدى كل فصل فكرة تامة . وهى خاصة فى رأيه من خصائص النثر اليونانى القديم ، وأيضاً فإنه وجده يستخدم الحال استخداماً مسرفاً ، على شاكلة استخدام اليونان له ، يقول : « وهو لا يقتصد فى استعمال الحال ، وإنما هو يعتمد عليها فى تحديد فكرته وتوضيحها وتقييدها وتجميل الكلام وإظهار الموسيقى »[١] .

وأغلب الظن أن عبد الحميد فى ذلك كله إنما كان يقلد أستاذه سالماً فى كتابته ، فصلة سالم باليونانية مقررة ، ومرَّ بنا أنه كان يسرف فى استخدام الحال كما تشهد بذلك إحدى رسائله ، وقد أثرت عن ابنه عبد الله رسالة[٢] تسرف أيضاً فى استخدام الحال وكأنها كانت لازمة من لوازم سالم ، وتأثر به فيها تلميذان له ، أحدهما من بيته وهو ابنه عبد الله وثانيهما من غير بيته وهو عبد الحميد. أما مسألة تنظيم الجيوش إلى وحدات كل وحدة مائة فلعل عبد الحميد عرفها كما عرفها معاصروه عن طريق ما كانت تتبعه الجيوش البيزنطية فى عصره

(١) من حديث الشعر والنثر لطه حسين ص ٤٠ وما بعدها .

(٢) الكامل للمبرد ص ٧٩٣ .

فى عصره من تنظيم حربى وكانت الحرب قائمة بينهم وبين العرب لايهدأ أوارها .

ونحن نقف فى منزلة وسطى بين طه حسين ومن كتبوا عن عبد الحميد من القدماء ، فقد أجمعوا على أنه كان فارسياً وأنه نقل عن الفرس بعض رسائل أدبية ، وإذاً فهو فى نثره يتأثر الفرس تأثراً مباشراً لا شك فيه ، أما تأثره باليونان فلعله جاءه عن طريق أستاذه سالم الذى كان يحذق اليونانية ، وهى تظهر عنده فى التزامه المنطق الدقيق فى تقسيم كلامه إلى أجزاء متميزة وفقر متناسقة ، لا يظهر فيها أى نُبوّ ، ولا يداخلها أدنى شيء من استطراد أو تشعث . وقد رأينا أن سالماً هو الذى اتبع ذلك أولا فى رسائله بحكم ثقافته اليونانية ، ثم حاكاه تلميذه ، كما حاكاه فى لازمة الحال وفى أسلوبه الموسيقى الذى يقوم على الازدواج والترادف الصوتى ، وهو أسلوب سبق إليه الوعاظ من أمثال غَيلان الدمشقى والحسن البصرى ، ونقله عنهم سالم فى كتاباته ، وجاراه تلميذه عبد الحميد فيه ، حتى أوفى به على غايته ، فبهر معاصريه ومن خلفوهم . وانظرْ إليه يقول فى مطلع هذه الرسالة السياسية الطويلة[1] :

« اعلم أن للحكمة مسالك تفضى مضايق أوائلها بمن أمها سالكاً ، وركب أخطارها قاصداً ، إلى سعة عاقبتها ، وأمن سَرْحها[2] ، وشرف عزها ، وأنها لا تُعار بسخف الخفّة ولاتنشأ بتفريط الغفلة . . واعلم أن احتواءك على ذلك وسبقك إليه بإخلاص تقوى الله فى جميع أمورك مؤثراً بها ، وإضمار طاعته منطوياً عليها ، وإعظام ما أنعم الله به عليك شاكراً له ، مرتبطاً فيه بحسن الحياطة له والذبِّ عنه من أن تدخلك منه سآمةُ ملال ، أو غفلة ضياع أو سِنَةُ تهاون ، أو جهالة معرفة ، فإن ذلك أحقُّ ما بُدئ به ونُظر فيه معتمداً عليه بالقوة والآلة والعُدّة ، والانفراد به من الأصحاب والحامّة ، فتمسكْ به لاجئاً إليه ، واعتمد عليه مؤثراً له ، والتجئ إلى كنفه متحيزاً إليه ، فإنه أبلغ ما طُلب به رضا الله ، وأنجحه مسألة ، وأجزله ثواباً ، وأعوده نفعاً ، وأعمه صلاحاً » .

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى ١٠/١٩٥ وما بعدها .

(٢) السرح : المال السائم .

وواضح أن عبد الحميد يعتمد على خاصة الترادف الموسيقى ، فالفكرة تؤدَّى لا فى عبارة واحدة ، وإنما فى عبارتين أو عبارات ، حتى يكتسب الأسلوب ضرباً من التوقيع والتعادل الصوتى ، فإذا العبارات تتلاحق متوازنة متعادلة تعادلا موسيقيًّا رائعاً ، يُرضى الأذن والشعور . وهو أثناء ذلك يعتمد على الحال اعتماداً مسرفاً لا نعرفه عند الوعاظ ولا عند من سبقوهم وعاصروهم من الخطباء ، إنما نعرفه عند سالم وابنه عبد الله ثم عند صاحبنا ، وكأنها أصبحت لازمة من لوازم تلك المدرسة .

ويوشِّى عبد الحميد أسلوبه بحلية التصوير وما يدمج فيه من استعارات ، وبحلية الطباق والمقابلة ، بالضبط على نحو ما كان يصنع الحسن البصرى وغيلان الدمشقى وأضرابهما فى رسائلهم ومواعظهم ، ومن رسائله الطريفة التى تصور مهارته البيانية تصويراً دقيقاً رسالته الشخصية إلى أهله ، وهو منهزم مع مروان يعزّيهم عن نفسه[1] :

« أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفةً بالكره والسرور ، وجعل فيها أقساما مختلفة بين أهلها ، فمن دَرَّت[2] له بحلاوتها وساعده الحظُّ فيها سكن إليها ، ورضى بها ، وأقام عليها ، ومن قرصتْه بأظفارها ، وعضَّتْه بأنيابها ، وتوطَّأتْه بثِقْلها ، قَلاها[3] نافراً عنها ، وذمَّها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً منها . وقد كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من دَرِّها أفاويق[4] استحليناها ثم شَمَسَتْ[5] منا نافرة ، وأعرضت عنا متنكرة ، ورمحتنا[6] مولِّية ، فملُح عذْبها ، وأمرَّ حلوها ، وخشُن لينها ، ففرَّقتنا عن الأوطان ، وقطعتنا عن الإخوان . فدارُنا نازحة ، وطَيْرنا بارحة[7] ، قد أخذتْ كل ما أعطتْ ، وتباعدت مثلما تقربت ، وأعقبت بالراحة نصَباً[8] ، وبالجذل[9] همًّا ، وبالأمن خوفاً ،

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٧٢ .
(٢) درت : من الدر وهو اللبن .
(٣) قلاها : أبغضها .
(٤) أفاويق : ما يتجمع فى الضرع من اللبن الذى يحلب .
(٥) شمست : من شمس الفرس إذا منع ظهره
(٦) رمحتنا : من رمحه الفرس إذا رفسه .
(٧) الطير البارحة : التى تمر من اليمين إلى اليسار ، وكان العرب يتشاءمون بها .
(٨) نصباً : تعبا .
(٩) الجذل : السرور .

وبالعز ذلا ، وبالجِدَة [1] حاجة، والسَّراء ضرَّاء ، وبالحياة موتاً ، لاترحم من استرحمها ، سالكة بنا سبيل من لا أوبة له ، منفيِّين عن الأولياء ، مقطوعين عن الأحياء » .

وخصائصُ عبد الحميد جميعها واضحة فى هذه الرسالة القصيرة ، ففيها لازمة الحال ، وفيها جودة التقسيم ودقة المنطق ، وفيها الطباق ومقابلاته والصور وألوانها وخاصة لون الاستعارة ، وفيها الازدواج والترادف الموسيقى الذى يتيح لعباراته فنوناً مختلفة من الإيقاعات والموازنات الصوتية . وبذلك كنت تقرؤه ، فيلذ عقلك لدقة معانيه ، ويلذ شعورك لجمال تصويره وجمال موسيقاه .

ونحن لا نقول كما قال السابقون إن الرسائل بُدئت بعبد الحميد ، فقد بدأت منذ فاتحة العصر الإسلامى ، وقام عليها بلغاء كثيرون أتاحوا لها النماء وضروباً من الازدهار . ومن ثَمَّ كنّا نرفض أوليته فى الرسائل ديوانية وغير ديوانية ، ولكنا بعد ذلك نثبت له أنه كان القمة التى وصلت إليها نهضة الكتابة فى العصر الأموى ، لما صارت إليه عنده من هذا اليسر وتلك المرونة فى أداء المعانى التى كان يجتلبها من الأدب الفارسى والتى كان يعبر عنها تعبيراً منطقيًّا دقيقاً ، لا استطراد فيه ولا حشو ولا نبوّ بأى وجه من الوجوه ، وأيضاً لما أتاح لها من هذا الأسلوب التصويرى الموسيقى ، فإذا الكتابة عنده تروق العين والأذن كما تروق العقل والقلب . ومن غير شك هيأت لذلك كله عنده بيئات الوعاظ ، كما هيأ له أستاذه سالم ، ولكن ذلك لا يضيره، فحسبه أنه كان يملك لغته ويصرّفها فى أداء معانيه كما يشاء، كما كان يملك أسلوبه وينظّمه تنظيما تصويريًّا وموسيقيًّا بديعاً ، مما جعله ينفذ بصنعة الرسائل إلى كل ما كان يريده أصحابها من تنويع فى معانيها على أساس من المنطق الدقيق وجمال فى أساليبها على أساس من التصوير الطريف والإيقاع الصوتى الأنيق .

---

(١) الجدة : الميسرة .

الفصل الثالث

الصنعة فى النثر العباسى

١

النثر العباسى

خلّفت الدولة العباسية دولة بنى أمية ، واتخذت بغداد حاضرة لها تاركة شئون الحكم للفرس الذين قضوا قضاء مبرما على الأمويين ، وبذلك أصبحوا هم السادة الحقيقيين . فلم يعد العرب يتصدّرون مكان السيادة ، ولم تعد لهم أرستقراطيتهم كما كان شأنهم فى العصر الأموى ، فقد أبعدوا غالباً عن المناصب الكبرى فى الإدارة والجيش ، وأصبحوا لا يستطيعون الدخول على الخليفة إلا إذا أذن لهم الموالى من الفرس ، أمثال البرامكة وبنى سَهْل ، ممن أمسكوا بزمام الأمور .

وبذلك عمت الروح الفارسية فى الحياة العباسية ، حتّى الخليفة نفسه لم يعد كأسلافه الأمويين يمثّل شيخاً كبيراً من شيوخ القبائل العربية ، بل أصبح خلفا لملوك الفرس الساسانيين ، فله وزراؤه وحجّابه وبلاطه ، وله نفس التقاليد الفارسية فى التشريفات ، ويعيش معيشة مترفة ، وإذا كان أبو جعفر المنصور عُرف بالاعتدال فى الاتصال بهذه الحياة الجديدة فإن من خلفوه أقبلوا عليها إقبالا شديدا .

وكان تقدم الفرس على العرب فى شئون الحكم سبباً فى اصطدام هائل بين العرب والموالى ، وسرعان ما ظهرت نزعة الشعوبية (١) ، إذ أخذ جماعة من علماء العجم وأدبائهم يطعنون فى عرب الجاهلية لبعدهم عن أسباب الحضارة

---

(١) انظر الفصل الخاص بهذه النزعة فى الجزء الأول من ضحى الإسلام .

والثقافة ، وطعنوا عليهم أيضاً فى كل ما يتصل بهم من فضائل خلقية ومن خطابة وغير خطابة منوهين بفضائل الفرس وغيرهم من شعوب الحضارات القديمة وما اشتهرت به من عمارة وفنون وعلوم . واتخذ ذلك شكل نزاع ضخم ، فألفت كتب كثيرة فى مثالب العرب ، وكتب أخرى كثيرة فى فضائل الفرس وغيرهم .

ومن أشهر هؤلاء الشعوبيين فى العصر العباسى الأول أبو عبيدة معمر بن المثنى وأصله من يهود فارس ، وهو من أشهر العلماء فى اللغة والأخبار ، وكان يتعصب للفرس على العرب ، فألف فى فضائل الأولين كتابا[١] ، أما الأخيرون فألف كتاباً فى مثالبهم[٢] . وشركه فى كتابة المثالب والتأليف فيها الهيثم بن عدىّ[٣] . وممن اشتهر بهذه النزعة سهل بن هرون ، كاتب البرامكة ثم أخذ أصحاب خزانة الحكمة للمأمون . ومنهم علّان الشعوبى وكان ورّاقا فى خزانة المأمون ، وقد جمع فى كتابه « حلبة المثالب » جملة المطاعن على القبائل العربية فى زمن الجاهلية[٤] . ولم يقف أنصار العرب صامتين إزاء هذه النزعة ، فقد أخذوا يردون على أصحابها ، ومن أشهر من اضطلعوا بهذا الرد مدافعين عن العرب الجاحظ فى فاتحة الجزء الثالث من البيان والتبيين ، وصنع صنيعه ابن قتيبة فى رسالة له سماها كتاب العرب[٥] .

ترجم الفرس كثيراً من تراثهم إلى العربية[٦] ، ومن أشهر من قاموا بهذا الصنيع عبد الله بن المقفع وآل نوبخت[٧] ، ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق أثر فى اللغة البهلوية إلا ترجم إلى العربية سواء تعلق بتاريخ الساسانيين أو بآدابهم ، ومن ثَمّ بالغ بعض المحدثين فيما كان للثقافة الفارسية من أثر فى العقل العربى ،

---

(١) الفهرست ص ٧٩ — ٨٠ وراجع ترجمته فى إنباه الرواة ٣/٢٧٦ .

(٢) انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدى (طبعة الخانجى) ص ١٩٣ .

(٣) الفهرست ص ١٤٥ ومعجم الأدباء ١٩/٣٠٩ .

(٤) الأغانى (طبع الساسى) ١٢/١٥٠ والفهرست ١٥٣ .

(٥) انظر هذه الرسالة فى كتاب رسائل البلغاء نشر كرد على .

(٦) انظر فى ذلك الفصل الخاص بالثقافة الفارسية فى الجزء الأول من ضحى الإسلام .

(٧) انظر فى النقلة من الفارسية إلى العربية الفهرست ٣٤١ وما بعدها .

ومن الغلاة فى ذلك إنيسترانسيف ، فقد أكبر فى كتابه « الأثر الإيرانى فى الأدب الإسلامى » من شأن هذه الثقافة وتأثيرها فى العرب معتمداً فى ذلك على ما يحصيه ابن النديم فى فهرسته من أسماء الكتب الفارسية المترجمة ، وهى كثيرة هناك كثرة غامرة ، إلا أن هذه الكثرة يجب أن نحذرها ، فالمسألة مسألة كيف لا كمٍّ ، وربما كانت أهمية هذه الثقافة لا ترجع إلى ما تُرجم للفرس أنفسهم ، وإنما ترجع إلى ما ترجم إلى لغتهم عن غيرها ، فقد كانت وسيطاً مهمًّا فى نقل كثير من آداب الهند ومعارفها مثل كتاب كليلة ودمنة الذى نقله ابن المقفع ، وكذلك كانت وسيطا فى نقل بعض الكتب اليونانية مثل منطق أرسطو الذى ترجمه عبد الله بن المقفع ، أو ابنه[1] ، على أنه ينبغى أن نشير إلى أنه دخل عن طريق الترجمة من الفارسية كثير من تعاليم الفرس الدينية القديمة عند زرادشت ومانى ومزدك ، بل ترجموا كتاب زرادشت المسمى أفستا كما ترجموا كتباً أخرى لمانى ومزدك ، مما كان سببا فى ازدياد جماعة الزنادقة ، وكانوا يتظاهرون بالإسلام ويبطنون أديانهم المجوسية القديمة ، وكانت عين الدولة يقظة فأقام المهدى ديوانا خاصًّا بمحا كمتهم ، وقُتِلَ ابن المقفع وكثيرون غيره . وقد انبرى علماء الكلام ، وخاصة المعتزلة يردون على هؤلاء الزنادقة وما زعموا من إثْنَيْنِية ومذاهب دهرية .

ولا تقل أهمية الثقافة الهندية[2] عن الثقافة الفارسية ، إذ ترجم العباسيون عنها كثيرا من الحكم والقصص ، ومن الفلك والرياضة والطب . وقد ترجم إبراهيم الفزارى للمنصور كتاب الفلك الهندى المعروف باسم « السند هند » يعاونه فى ذلك بعض علماء من الهنود ، واجتلب يحيى بن خالد البرمكى مجموعة من أطبائهم إلى بغداد ، وأمرهم بنقل بعض كتب الطب الهندية ، ويظهر أنه كان هناك مترجمون كثيرون يحسنون النقل عن السنسكريتية ، ومما نقلوه صحيفة فى

---

(١) راجع التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية لعبد الرحمن بدوى ص ١٠١ وما بعدها .

(٢) انظر الفصل الخاص بهذه الثقافة فى الجزء الأول من ضحى الإسلام .

البلاغة احتفظ بها الجاحظ فى بيانه[١] ، ومن المؤكد أن كثيرًا من تأملاتهم فيما بعد الطبيعة أخذ طريقه إلى العربية ، وكان له صداه الواسع فى الصوفية الإسلامية . وقد لعبت نظريتهم فى التناسخ وبعض مذاهبهم الدهرية مثل السُّمَنيَّة دورًا هى الأخرى فى نزعات الزندقة والإلحاد .

على أن هاتين الثقافتين الهندية والفارسية لا تقاسان فى أهميتهما إلى الثقافة اليونانية[٢] التى دخلت فى العربية لهذا العصر ، وكانت مبثوثة فى مدارس جُنْدَيسابور والرُّها وحَرّان ونَصيبين ، كما كانت مبثوثة فى الكنائس الشرقية والغربية ، وكان للسوريان الفضل الأول فى نقل محتوياتها إلى العربية ، وبدأ ذلك منذ عصر المنصور ، إذ استدعى من جنديسابور أسرة بَخْتيشوع ، ليتولى بعض أطبائها علاجه ، وجَدَّت هذه الأسرة كما جدّ غيرها من السوريان فى ترجمة الفلسفة اليونانية ، وبلغت هذه الترجمة أوجها فى عهد المأمون ، فقد اتخذ فى قصره خزانةَ الحكمة وأخذ يضم إليها كنوز المعرفة العربية والأجنبية ، وشجّع على النقل والترجمة ، وطلب من آسيا الصغرى ومن بيزنطة نفسها المصنفات اليونانية ، وفى عهده لمع اسم أبى يوسف يعقوب الكندى أول فلاسفة العرب المهمين وأحد العقول الكبرى فى تاريخ العالم .

والذى لا ريب فيه أن هذه الثقافات الدخيلة التى نُقِلَتْ إلى العربية وسَّعت طاقتها ، بما اكتسبت من المعانى العقلية والفلسفية ، وقد أصبح النثر العربى نثر ثقافة متشعبة ، تمدها روافد كبيرة من إيران والهند واليونان ، وليس ذلك فحسب ، فقد أخذت تدخل فى هذا النثر طرائق النظر الأجنبية وأساليب الأجانب فى تفكيرهم ، والذى لا ريب فيه أيضًا أنه قام على هذا العمل نُخْبة من رجال الفكر الذين يحسنون اللغتين المنقول عنها والمنقول إليها فإذا هم يستخدمون أسلوبا مولَّداً جديداً يحتفظون فيه للعربية بصورتها النحوية والتركيبية. ونحن لا نستطيع أن نقف على مدى إحسانهم فى هذا الأسلوب إلا إذا لاحظنا أن

---

(١) البيان والتبيين ١/٩٢ وانظر زهر الآداب ١/٩٥ .

(٢) انظر الفصل الخاص بهذه الثقافة فى الجزء الأول من ضحى الإسلام .

لغتنا لم يصبها أثناء ذلك شيء من الفساد ، فقد عمدوا إلى تخصيص بعض ألفاظها للدلالة على المصطلحات الفلسفية والعلمية الجديدة ، وكان إذا اضطرهم معنى لفظ أجنبي إلى الاحتفاظ به عرَّبوه ، كما حدث فى أسماء كثير من النباتات والأحجار والعقاقير والأمراض وبعض أسماء الآلات أو أسماء بعض العلوم . وكانوا كثيراً ما يضيفون صِيغاً جديدة ، ولكنهم لم يبتعدوا بها عن تراكيب العربية . ومن يقرأ كتب ابن المقفع ، وهو من أوائل المترجمين يرى كيف استطاع أن يُضفى على أساليبه الطوابع العربية تامة كاملة .

وبذلك اتسعت لغة الصحراء ، وأصبحت لغة ثقافية ذات أسلوب مرن يستوعب كل ما لدى الأجانب من كنوز المعرفة ومذاهب الفلسفة مما كان له أثره فى الأدب نثره وشعره ، كما كان له أثره فى العلوم الإسلامية كعلم الكلام والفقه ،وحتى فى علم اللغة نفسه وما اتصل به من علم النحو ، فقد وضع الخليل خطة أول معجم فى العربية وهو «معجم العين» ورتبه على مخارج الحروف بالضبط كما يرتب الهنود حروف لغتهم. وكان يعرف علم الموسيقى ،وعلى هديه أو باستيحائه وضع عروض الشعر وموازينه . ولا ننسى المنطق اليونانى فصلته بالنحو العربى مقررة . ومعنى ذلك أن العلوم المنقولة أثرت فى تلك العلوم اللغوية ، كما أثرت فى جميع العلوم العربية الإسلامية الخالصة ، وليس من باب الاتفاق أن يأخذ فقهاء العراق بالقياس وأن يسموا بأصحاب الرأى . وقد أخذ المؤرخون يكتبون فى التاريخ على ضوء ما قرأوا عند الأمم الأجنبية من كتاباته ، مما أتاح للطبرى أن يكتب موسوعته التاريخية الكبرى .

وعلى هذا النحو أصبح النثر العربى فى العصر العباسى متعدد الفروع ، فهناك النثر العلمى والنثر الفلسفى والنثر التاريخى ، والنثر الأدبى الخالص ،وكان فى بعض صوره امتداداً للقديم ، وكان فى بعضها الآخر مبتكراً لا عهد للعرب به ، على شاكلة ما هو معروف فى كتابات سهل بن هرون والجاحظ . وظلت الخطابة مزدهرة فى أوائل هذا العصر ، وإن كان قد أسرع الذبول إلى الخطابة الحفلية ، إذ لم تعد القبائل تَقْدُمُ بوفودها على الخلفاء كما كان الشأن فى عصر

بنى أمية . أما الخطابة السياسية فظلت فترة نشيطة ، بحكم دعوة بنى العباس لأنفسهم ، حتى إذا استقام لهم الأمر أصابها ما أصاب الخطابة الحفلية من الذبول ، ومن خطبائهم المفوَّهين أبو العباس السفاح والمنصور والمهدى والرشيد والمأمون[١] . ثم غلبت العجمه على خلفائهم ، فلم يعودوا يخطبون فى أيام الجمع والأعياد إلا ما كان من الخليفة المهتدى[٢] (٢٥٥ ــ ٢٥٦ هـ) وفى أخبار الرشيد أنه عهدَ إلى الأصمعى أن يحفِّظ ابنه الأمين خطبة يخطب بها الناس فى يوم الجمعة[٣] . أما خطابة الوعاظ فيظهر أنه ظل لها غير قليل من الازدهار ، فقد كان خلفاء بنى العباس يستنُّون بخلفاء بنى أمية فى استقبال كثيرين منهم ، وكان المنصور خاصة يوسع لهم فى مجالسه ، وفى كتب الأدب أطراف من تلك المواعظ ، يُنسَب بعضها إلى شبيب بن شيبة[٤] ، وبعض آخر ينسب إلى عمرو بن عبيد[٥] أو إلى الأوزاعى[٦] أو إلى غيرهم .

وكان المهدى مثل أبيه يستدعى هؤلاء الوعاظ ويستمع إليهم ، ويُرْوَى أن صالح بن عبد الجليل وعظه يوما حتى سالت دموعه[٧] ، وكان الرشيد يقتدى به ، فكان يعظه ابن السمّاك[٨] وغيره . وروى ابن قتيبة فى عيون الأخبار وابن عبد ربه فى العقد الفريد كثيراً من كلام هؤلاء الوعاظ . وكان وراءهم كثير من القُصّاص الذين يقصون على الناس فى المساجد الجامعة ، ومن أشهرهم موسى ابن سيار الأسْوارى ، وكان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فتقعد العرب عن يمينه وتقعد الفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب

---

(١) انظر فى خطبهم عيون الأخبار ٢/٢٥١ والعقد الفريد ٤/٩٧ وراجع البيان والتبيين ١/٣٣١ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى (طبعة باريس) ٨/٢ .

(٣) الفرج بعد الشدة للتنوخى ٢/٢٠ .

(٤) البيان والتبيين ٢/١٩٨ .

(٥) عيون الأخبار ٢/٣٣٧ والعقد الفريد ٣/١٦٤ وزهر الآداب ١/٩٤ .

(٦) العقد الفريد ٣/١٦٣ وعيون الأخبار ٢/٣٣٨ .

(٧) عيون الأخبار ٢/٣٣٣ والعقد الفريد ٣/١٥٨ .

(٨) العقد الفريد ٣/١٦٤ .

بالعربية ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدْرَى بأى لسان هو أبين ». ومنهم عمرو بن فائد الذى ظل يفسر القرآن الكريم للناس ستًّا وثلاثين سنة ، وما ختمه حتّى مات لأنه كان حافظا للسِّيَر ولوجوه التأويلات ، فكان ربما فسر آية واحدة فى عدة أسابيع . ومنهم القاسم بن يحيى الضرير الذى لم يكن فى القصاص مثله . ومنهم صالح المُرّى وكان صحيح الكلام شديد التأثير فى سامعيه[1] .

واتسعت فى هذا العصر المناظرات الكلامية ، وحمل لواءها المعتزلة من أصحاب واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد ، ولم يكن همهم أن يردوا على مخالفيهم من الجهمية أصحاب جَهْم بن صفوان الذى كان يقول بالجبر، والمرجئة الذين قالوا بأنه لا يجوز تكفير المسلم ولا الحكم على أعماله ، حتّى لو ارتكب كبيرة . لم يكن همهم أن يردوا على هاتين الفرقتين فقط ، بل انصرف همهم إلى الرد على الدهرية والزنادقة ، ونراهم فى عصر المأمون يدعون إلى أن القرآن ليس أزليًّا ، إنما هو مخلوق ، واستطاعوا أن يؤثروا فى المأمون حتّى اعتنق فكرتهم وأعلنها عقيدة رسمية للدولة ، وأخذ فى امتحان مَنْ يؤمنون بها فى آفاق دولته ، على نحو ما كان يمتحن جده المهدىُّ الناسَ فى عقيدة المانوية . وتبعه المعتصم فى تلك السيرة ، حتّى إذا ولى المتوكل ترك الناس وشأنهم .

ولا نبالغ إذا قلنا إن المتكلمين من معتزلة وغير معتزلة نهضوا بالنثر العباسى نهضة رائعة ، فقد كان المتكلم لا يحسن الكلام والاحتجاج لآرائه إلا إذا أخذ نفسه بثقافة فلسفية واسعة ، يقول الجاحظ : « ولا يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام متمكنًا فى الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتّى يكون الذى يحْسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة ، والعالم عندنا هو الذى يجمعهما »[2] ولم يكونوا يتثقفون بالثقافة الفلسفية وحدها ، بل كانوا يتثقفون أيضًا بكل ضروب الثقافات التى عُرفت لعصرهم ، حتّى يجمعوا « التدابير العجيبة ، والعلوم الغريبة ،

(١) انظر فى هؤلاء القصاص البيان والتبيين ١/٣٦٨ وما بعدها .

(٢) الحيوان ٢/١٤٣ .

وآثار القول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، والحكم الرفيعة ، والمذاهب القويمة ، والتجارب الحكيمة ، والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والأمثال السائرة »[١] . ويعترف الجاحظ بقيمة ذلك كله فيقول : « ولولا ما أودعتْ لنا الأوائلُ فى كتبها ، وخلّدتْ من عجيب حكمتها ، ودوّنتْ من أنواع سِيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم لقد خسّ حظنا من الحكمة ، ولضعف سببنا إلى المعرفة . ولو لجأنا إلى قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسُّنا وتشاهده نفوسنا لقلّت المعرفة وسقطت الهمة وارتفعت العزيمة ، وعاد الرأى عقيما ، والخاطر فاسداً ، ولكَلّ الحدُّ وتبلّد العقل »[٢] .

والجاحظ المتكلم لا يعبر بهذا الكلام عن وجهة نظره وحده ، وإنما يعبر عن وجهة نظر المتكلمين جميعًا لعصره ، فقد انكبُّوا على قراءة الكتب المترجمة من الفلسفة وغير الفلسفة ، ففتقتْ عقولهم وفتحت لهم مسالك وأبوابًا من الفِطَن وقد أقبلوا فى شوق شديد على التثقف بالإسلام وتعاليمه ، وباللغة العربية وكنوزها النثرية والشعرية. ويكفى أن يقرأ الإنسان «البيان والتبيين» للجاحظ وكذلك «الحيوان» ليقف على مدى ثقافته العربية . وهى فى الكتاب الأخير تعانقها ثقافة عامة واسعة .

ولا نقرأ فيما خلفه هؤلاء المتكلمون حتى يبهرنا لَسَنُهم وقدرتهم على الحجاج والإقناع ، وقد كانت المناظرة فى موضوع من الموضوعات تنعقد أحيانا بين اثنين منهم ، فتظل أياماً لا فى أصول الدين ولا فى الرد على الملحدين فحسب ، بل فى كل موضوع يمكن أن يفد إلى أذهانهم . وقد ملأ الجاحظ نحو مجلد من كتابه الحيوان بمناظرة انعقدت بين معبد والنظام فى الكلب والديك أيهما أفضل ، وظلّ يورد أدلةَ كل منهما فى صورة رائعة ، وهى صورة تدل دلالة بينة على مدى ما أصابه هؤلاء المتكلمون من تنويع لأفكارهم وتصحيح لمقدماتهم

(١) الحيوان ١/٤٢ . (٢) الحيوان ١/٨٥ .

وتصريف لأساليبهم وألفاظهم . وإذا كانت القدرة البيانية بلغت باثنين منهم هذا المبلغ فى مساوئ الديك ومحاسنه ومنافع الكلب ومضاره ، فما بالك بما كان يجرى بينهم فى مسائل الدين واستقصاء كل مسألة وجمع معانيها وترتيب أفكارها وألفاظها ؟ ومن يقرأ ما يرويه الجاحظ عن النّظام فى كتابه الحيوان يَعْجَبُ أشد العجب من استنباطه للمعانى والأدلة ، سواء تحدث فى الحيوان أو فى الرد على الدهرية والمانوية أو على خصومه من المتكلمين أو فى بيان نظرياته فى الروح والحواس والتولد والجسم والعرض والخير والشر والاستطاعة والكمون والتداخل والحركة والسكون . ويُشيد به الجاحظ فى غير موضع من حيوانه ، ومن قوله فيه وفى المتكلمين : « إنه لولا مكان المتكلمين لهلكت العوامُّ من جميع الأمم ، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النِّحل . . ولولا أصحاب إبراهيم (النظّام) وإبراهيم لهلكت العوام من المعتزلة ، فإنه قد أنهج لهم سبلا ، وفتق لهم أموراً ، واختصر لهم أبوابا ، ظهرت فيها المنفعة ، وشملتهم بها النعمة »[1] وقال فى موضع آخر : « كان إبراهيم مأمون اللسان قليل الزلل والزَّيْغ . . وإنما كان عَيْبه الذى لا يفارقه ... جودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذى لا يوثق بمثله »[2] فهو يأخذ عليه أنه كان لا يصحح مقدمات القياس . وأكبر الظن أنه إنما كان يلجأ إلى ذلك حين تعوزه الحجة ، فكان يراوغ ويعتلُّ ، حتى يشكك خصمه وسامعيه ، وكان يذهب هذا المذهب نفسه خاله أبو الهُذيل العلاّف ، وكان يقول : خمسون شكًّا خير من يقين واحد[3] أما النظام فكان يقول : لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك ، ولما قال أبو الجهم للمكى : أنا لا أكاد أشك قال المكى : وأنا لا أكاد أوقن ، وكانوا يقولون : « العوامُّ أقل شكوكًا من الخواصّ ، لأنهم لا يتوقفون فى التصديق والتكذيب ولا يرتابون بأنفسهم ، فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرد أو على التكذيب المجرد ، وألغوا الحال الثالثة من الشك التى تشتمل على طبقاته »[4] .

---

(١) الحيوان ٤/٢٠٦ .
(٢) الحيوان ٢/٢٢٩ .
(٣) الحيوان ٣/٦٠ .
(٤) الحيوان ٦/٢٥ وما بعدها .

لم يعد هناك شيء لايقبل الشك والجدل فى هذه البيئة التى استطاعت حقًّا أن تمرن اللغة العربية على أداء معان لم تتعود أداءها ، وإنك لتقرأ كلامها فلا تشعر بأى تكلف أو شفقة أو التواء أو عُسْر ، فقد أصبحت اللغة طيعة على ألسنتهم ، وأصبحت مرنة مرونة عجيبة ، سواء تكلموا فى مسائل فلسفية عويصة أو فى مسائل كلامية دقيقة ، وتحس حقًّا كأنهم بحار تتدفق فلا تعثر ولاتوقف . وقد وقف الجاحظ فى البيان والتبيين يُشيد إشادة رائعة ببلاغتهم (١) ، وعرض لأحدهم ، وهو ثُمامة بن أشْرس فوصفه بقوله : « ما علمت أنه كان فى زمانه قَرَوِىٌّ ولا بَلَدِىٌّ كان بلغ من حُسْن الإفهام مع قلة عدد الحروف ولا من سهولة المَخْرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه. وكان لفظه فى وزن إشارته ومعناه فى طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك ، وقال بعض الكُتَّاب : معانى ثُمامة الظاهرة فى ألفاظه ، الواضحة فى مخارج كلامه ، كما وصف الخُرَيْمىُّ شعرَ نفسه فى مديح أبى دُلَف ، حيث يقول :

له كَلِمٌ فيك معقولةٌ إزاء القلوب كركْبٍ وُقوف » (٢)

وهذا الوصف الذى وصف به الجاحظ ثمامة ينطبق على كل متكلم فى عصره ، فقد مرنوا على الجدال ومكايلة الألفاظ وموازنة المعانى وعرضها بخفيّات حدودها ودقائقها ، والحوار فيها والجدال ومحاولة إقناع الخصوم وإسكاتهم وبلغوا من ذلك كل مبلغ ، حتى سُمُّوا المتكلمين فهم أرباب الكلام وأصحابه الذين يعرفون كيف يَنصبون أنفسهم للدفاع عن آرائهم ، وكيف يقدمون البراهين الواضحة والحجج الصحيحة .

واقرأ فى كتاب الحيوان للجاحظ فلن تجد موضوعا إلا خاضوا فيه واستخرجوا منه معانيه ، حتى لتظن أنه لم يكن هناك أديب بارع إلا وتستهويه تلك الجماعة وتجذبه إلى ميادينها ، ليبحث فى الأسباب الكونية ومسبباتها والعلل ومعلولاتها ، ويدخل فى صفوف هؤلاء الذين ملأوا قلوب الناس إعجابا بمناظراتهم ومجادلاتهم

---

(١) البيان والتبيين ١ / ١٣٩ . (٢) البيان والتبيين ١ / ١١١ .

التى اتسعت لكل جوانب المعرفة ديناً وغير دين .

وقد دعتهم رغبتهم فى إحكامهم لمناظراتهم ومناقشاتهم أن يبحثوا بحثاً واسعاً فى بلاغة الكلام وكيف يبلغ المتكلم بكلامه الكفاية وغاية الحاجة ، بل كيف يروع السامعين ببيانه وحلاوة ألفاظه وحسن مخارج حروفه ، حتى تسكن القلوب إليه وتثلج الصدور . ويزخر كتاب البيان والتبيين بوصاياهم التى كانوا يسوقونها إلى تلاميذهم فى مجالسهم ، وكثيرًا ما كانوا يَدْعون هؤلاء التلاميذ إلى المناظرة بين أيديهم ، ليمرنوهم ويُدَرِّبوهم ، وليروا مقدار براعتهم ، وهم أثناء ذلك يبدون ملاحظات مختلفة على إشاراتهم وحركاتهم وأصواتهم وعلى ألفاظهم وأقوالهم وأساليبهم وعلى براهينهم وأدلتهم وأقيستهم وعللهم وما يداخل ذلك كله من فلتات خطإ وسقطات وهم .وبذلك كانوا أول من وضع قواعد البيان العربى ، وقد أخذوا أثناء هذا الوضع يحاولون الاطلاع على ما عند الأجانب من هذه القواعد ، يقول الجاحظ فى بيانه : « قيل للفارسى : ما البلاغة ؟ قال معرفة الفصل من الوصل ، وقيل لليونانى ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وقيل للرومى ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة ، وقيل للهندى ما البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة ، وقال بعض أهل الهند: جُمَّاع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة ، ثم قال : ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها ، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة ، وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ فى الدرْك وأحق بالظفر » (١) . ويقول الجاحظ إن معمَّرا المتكلم قال لبهْلة الهندى ما البلاغة عند أهل الهند ؟ قال بهلة عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة ، ولكن لا أحسن ترجمتها ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها . ويلْقَى معمر بالصحيفة التراجمة فإذا فيها : « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٨٨ .

الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة . ويكون فى قواه فضل التصرف فى كل طبقة . . وممن قد تعود حذف فضول الكلام وإسقاط مشتركات الألفاظ وقد نظر فى صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة لا على جهة الاعتراض والتصفح ، وعلى وجه الاستطراف والتطرف . . ويكون لفظه مونقاً ، ولهول تلك المقامات معاوداً . ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم »[١] .

ومعنى ذلك كله أن المتكلمين لم يكتفوا بملاحظاتهم الشخصية فى بلاغة الكلام ، بل طلبوا ما عند الأجانب ، ويلحُّ الجاحظ وغيره منهم على فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وهى صريحة فى الصحيفة الهندية ، وأغلب الظن أنها تسربت إليهم أيضا فى بعض ما تُرجم لأفلاطون من محاورات أو لأرسططاليس من كلام فى الخطابة ، وربما سمعوها من المسيحيين السريان الذين كانوا يكثرون من جدالهم . ويحدثنا الجاحظ أن بشر بن المعتمر مرّ بإبراهيم بن جبلة وهو يعلّم بعض الفتيان الخطابة ، فدفع إليه بصحيفة من تحبيره[٢] ، تجمع قواعد البلاغة وكيف يحسن الخطيب فى خطابته ، متحاشياً التوعر وجالبا الألفاظ التى تروق السامع ، وقد بنيت الصحيفة على فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال وأن واجب الخطيب أن يلائم بين موضوعه ومعانيه وبين ظروف السامعين ، فإن إحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال ، فلا يكلم الخاصة بكلام العامة ولا العامة بكلام الخاصة ، بل يعرف أقدار المعانى ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وأقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً يلائمها ، حتى تفهم عنه ، وحتى يصل إلى ما يريد من استحالتها بلطف مداخله وعذوبة ألفاظه .

ونفذوا فى أثناء هذه الوصايا إلى وضع كثير من مصطلحات البيان العربى ، ومن يرجع إلى الحيوان والبيان والتبيين يجد اصطلاحات التشبيه والحقيقة والمجاز

---

(١) البيان والتبيين ١/٩٢ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٣٥ وما بعدها .

والاستعارة والكناية والالتفات وحسن الخروج والاعتراض وتأكيد المدح بما يشبه الذم والإيجاز والإطناب والاقتباس ، كل ذلك يدور فيهما ، وقد وقف الجاحظ طويلا فى فاتحة البيان عند فصاحة الألفاظ وتنافر الحروف وصنوف اللثغة فيها . فإذا قلنا إن هذه البيئة هى التى وضعت قواعد البلاغة والفصاحة لم نكن مبالغين ، وإذا قلنا أيضاً إن هذه البيئة هى التى أتاحت للغة العربية مرونة الأساليب على أداء المعانى الدقيقة لم نكن مغالين ، بل إننا نقول إنها هى التى وضعت نماذج التعبير العباسى البليغ ، فقد كانت تَنْفِى الألفاظ المتوعرة الوحشية عن كلامها كما كانت تنفى الساقط السوقى ، فاختارت بذلك لغة متوسطة تقوم على الألفاظ الرشيقة ذات المخارج السهلة ، كما تقوم على ضرب من التلاؤم الموسيقى هو نفسه الذى لاحظناه قبلا عند أسلافها من وعاظ العصر الأموى ، والذى يكسو الكلام كسوة الازدواج والترادف الصوتى البديع .

وكان كبار الأدباء فى القرن الثانى جميعه يتخذون هذا الأسلوب الفصيح الوسَطَ إمامهم ومثَلهم ، سواء أكانوا مترجمين مثل ابن المقفع أم مدبِّجين لرسائل أدبية طريفة مثل سهل بن هرون ، وقد بلغ القمة التى كانت تنتظره عند الجاحظ المتكلم ، وهو أسلوب كان يوازن موازنة دقيقة بين طرافة المعانى وإثارة الجمال فى نفس القارئ والسامع ، ولكن بدون كَدٍّ ومجاهدة ، ولذلك نسلك أصحابه فى مذهب الصنْعة ، فهم لا يبالغون فى تكلفهم ولا يستدعون الألفاظ من بعيد ولا يدققون فيها كل التدقيق ولا يصفُّونها كل التصفية .

وبينما كان هذا المذهب قائماً عند المتكلمين وكبار الأدباء والمترجمين كانت طلائع مذهب ثان من التصنيع والتجميل تأخذ طريقها فى بيئة الكُتَّاب الرسميين من أصحاب الدواوين ، فقد أخذوا يهذبون لغة رسائلهم السياسية غاية التهذيب ، وما زالوا يبالغون فى أناقة تعبيرهم ودقة أذواقهم ، حتى انفصلوا انفصالا تامًّا عن أسلوب الازدواج إلى أسلوب كله قطع زخرفية أنيقة ، أو بعبارة أخرى أسلوب كله سجع وتنميق . وسنعرض لهذا المذهب فى موضع آخر ، أما الآن فنُعْنَى بأهمِّ من نَمَّوا مذهب الصنعة فى العصر العباسى بتأثير الثقافات الأجنبية الدخيلة ،

وهم ابن المقفع وسهل بن هرون والجاحظ وكان أولهم مترجماً ، أما سهل والجاحظ فكانا أديبين يعنيان بكتابة الرسائل والكتب الأدبية ، ولعلهما من أجل ذلك كانا يهتمان بفنهما وتجويد أساليبهما أكثر من اهتمام ابن المقفع، إذ كان اهتمامه ينصبُّ غالباً على ما يترجمه ونقل معانيه، لا على طريقة الأداء والتحبير فيه.

٢

ابن المقفع : أصله وحياته وزندقته

ابن المقفع فارسى الأصل ، اسمه رُوزْبه[١] بن داذُوِيه ، كان أبوه من قرية تسمى جور[٢] من أعمال فارس على مقربة من شيراز . وانتقل إلى البصرة ، والتحق بديوان الخراج لعهد الحجاج ، فاحتجن (اختلس) مالا ، فضربه الحجاج حتى تقفَّعت (يبست) يده ، فلُقِّب بالمقفع[٣] ، ولم يسلم، بل استمر مجوسيًّا مانويًّا ، وعلى دينه نشأ ابنه روزبه ويظهر أنه عُنى بتأديبه كما عُنى بتعليمه العربية ، وساعده على ذلك أن ولاءهما كان فى آل الأهتم ، وهم يشتهرون بالفصاحة من قديم[٤] .

ولم يمض زمن كبير حتى ظهرت مخايل الفصاحة والبلاغة على ابن المقفع ، فكتب لعمر بن هبيرة فى دواوينه على كرمان[٥] بفارس ، ثم كتب لابنه يزيد حين ولى العراق من قِبَل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، كما كتب لأخيه داود[٦] . وجعلته وظيفته تلك يفيد أموالا ، كان يَبَرّ بها طائفة من أصدقائه ، يقول الجهشيارى : « وكان سريًّا سخيًّا ، يطعم الطعام ، ويتسع على كل من احتاج إليه . وكان يُجرى على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين

---

(١) الفهرست ص ١٧٢ .
(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٠٩ .
(٣) الفهرست ص ١٧٢ .
(٤) البيان والتبيين ١/٣٥٥ .
(٥) الوزراء والكتاب ص ١٠٩ .
(٦) الفهرست ص ١٧٢ .

الخمسمائة إلى الألفين فى كل شهر»[١] .

ولما قامت الدولة العباسية كتب لعيسى بن على عم المنصور[٢] ، وعلى يديه أعلن إسلامه وتسمى باسم عبد الله واكتنى بأبى محمد[٣] ، ويقال إنه حين حاول إعلان إسلامه سأله عيسى أن يؤجل ذلك إلى الغد ، حتى يكون ذلك فى حفل يحضره القواد والرؤساء ، ثم حضر طعامُ العشاء ، فجلس يأكل ويزمزم على عادة المجوس ، فقال له عيسى أتصنع ذلك وأنت على عَزْم الإسلام ؟ فقال : أكره أن أبيت على غير دين ! وظل يعمل فى خدمة عيسى حتى قتله سفيان بن معاوية والى البصره من قبل المنصور. وهنا يختلف الباحثون فى سبب قتله ، فيزعم قوم أنه قُتل لزندقته ، ويؤكد الجهشيارى وكثير من المؤرخين أن السبب فى قتله ما كان من تشدده فى كتابة الأمان الذى كتبه لعبد الله بن على أخى عيسى وعم المنصور فإنه حين فشلت ثورته على ابن أخيه هرب منهزما من أبى مسلم الخراسانى وقصد أخويه عيسى وسليمان بالبصرة ، فكاتبا المنصور فى أن يؤمنه ، ورضى بإعطائه الأمان ، فأمر عيسى ابنَ المقفع بعمل نسخة لهذا الأمان ، فعملها ووكّدها واحترس من كل تأويل يجوز أن يقع عليه فيها . . وكان الذى شق على أبى جعفر ما جاء فى أسفل الأمان من أنه إذا غدر بعمه عبد الله فهو نَفِىٌّ من أبيه ومولود لغير رِشْدة ، وقد حلّ لجميع أمة محمد خلعه وحربه والبراءة منه ، ولا بيعة له فى رقاب المسلمين ولا عهد ولا ذمة ، وقد وجب عليهم الخروج من طاعته وإعانة من ناوأه من جميع الخلق ، وأنه إن فعل كان كافراً بجميع الأديان ، ونساؤه طوالق وعبيده أحرار. فغضب المنصور حين قرأ هذا الأمان وسأل عن كاتبه ، فقيل له : ابن المقفع ، فقال : أما أحد يكفينيه ؟ وكتب فيه إلى سفيان بن معاوية ، وتصادف أن كان يضطغن عليه ، فاستغل الفرصة وطلبه ، فلما قدم عليه أمر بتَنُّور فسُجر، ثم أخذ يقطعه عضواً

---

(١) الوزراء والكتاب ص ١٠٩ . ص ١٠٣ .

(٢) الفهرست ص ١٧٢ والوزراء والكتاب . (٣) الفهرست ص ١٧٢ .

عضواً ويرمى به فى التنور[١] . وأكبر الظن أن هذا هو السبب الصحيح فى مقتل ابن المقفع ، فالجاحظ يقول فى بعض رسائله إنه أغرى عبد الله بن على بالمنصور ففُطن له ، وقُتل[٢] ومن المحقق أن الجاحظ لا يريد بإغرائه سوى ما كان من كتابة أمانه على هذا النحو الذى ضيّق فيه على المنصور ، ويقول ابن خلكان إن ذلك كان عام ١٤٢ أو ١٤٣ أو ١٤٥ . ومعنى ذلك أنه لم يعش فى الدولة العباسية إلا نحو عشر سنين .

واشتهر ابن المقفع بأنه كان زنديقاً ، وأنه إنما اتخذ الإسلام قناعاً لزندقته ومانويته ، وممن أكد ذلك أبو الفرج الأصبهانى[٣] والبيرونى[٤] وابن خلكان[٥] وصاحب خزانة الأدب[٦] . ويقول المرتضى فى أماليه : رُوى عن المهدى أنه قال : « ما وجدت كتاب زندقة إلا وأصله ابن المقفع »[٧] ويقول المسعودى : « أمعن المهدى فى قتل الملحدين لظهورهم فى أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته ، لما انتشر من كتب مانى وابن ديصان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وتُرجم من الفارسية والفهلوية إلى العربية »[٨] . وفى الفهرست أنه ترجم كتاباً فى سيرة مزدك[٩] ، ويقال إنه مرّ ببيت نار للمجوس بعد أن أسلم فلما رآه تمثّل :

يا بيتَ عاتكةَ الذى أتعزَّلُ حَذَرَ العِدا وبك الفؤادُ موكَّلُ
إنى لأمنحك الصُّدود وإننى قَسَماً إليك مع الصدود لأمْيَلُ[١٠]

ويقول بعض الرواة إنه عارض القرآن بزعمه[١١] . ونشر ميكائيل أنجلو جويدى سنة ١٩٢٧ كتابا يسمى : « كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع —

---

(١) الوزراء والكتاب ص ١٠٣ وما بعدها .
(٢) ثلاث رسائل للجاحظ (طبعة فنكل) ص ٤٧ .
(٣) أغانى (طبعة الساسى) ١٨ / ٢٠٠ .
(٤) تحقيق ما للهند من مقولة (طبعة ليبزج) ص ٧٦ .
(٥) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ / ١٥٠ .
(٦) خزانة الأدب للبغدادى ٣ / ٤٩٥ .
(٧) أمالى المرتضى ١ / ١٣٤ .
(٨) مروج الذهب للمسعودى (طبعة مصر) ٤ / ٢٤٢ .
(٩) الفهرست ص ١٧٢ .
(١٠) أمالى المرتضى ١ / ١٣٥ .
(١١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨ .

عليه لعنة الله – للقاسم بن إبراهيم عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم » ونرى القاسم يندّد – فى مقدمة هذا الكتاب – بمذهب مانى وأتباعه ويقول إن ابن المقفع : خلَفه فى إفكه وضلاله « فوضع كتاباً أعجمى البيان ، حكم فيه لنفسه بكل زور وبهتان ، فنال من عيب المرسلين ، وافترى الكذب على رب العالمين ، فرأينا من الحق أن نضع نَقْضه ، بعد أن وضعنا من قول مانى بعضه » . ثم يعرض القاسم فِقَراً من أقوال ابن المقفع ويردّ عليها . وقد شك بعض الباحثين فى هذا الكتاب ونسبة ما فيه من آراء لابن المقفع [١] ، غير أن ذلك لا ينقض زندقته فقد شهد بها معاصروه ومن جاءوا بعدهم . ويُروَى أنه لما قُتل ابن أبى العوجاء لزندقته رثاه بقوله :

رُزئنا أبا عمرو ولا حىَّ مثلُه ... فلله رَيْب الحادثات بمن وقَعْ
فإن تك قد فارقتَنا وتركتنا ... ذوى خلَّة ما فى انسداد لها طمع
فقد جرَّ نفعاً فقدُنا لك أننا ... أمِنّا على كل الرزايا من الجزَعْ

وقال أحمد بن يحيى ثعلب : البيت الأخير يدل على مذهبهم فى أن الخير ممزوج بالشر والشر ممزوج بالخير [٢] .

وعلى الرغم من زندقة ابن المقفع وتعصبه الشديد لفارسيته لم يفكر فى الرجوع إلى لغته ، بل اتخذ العربية مثله الأعلى ، وكان ذكيًّا ذكاء شديداً، ولكن ذكاءه أضلَّه . وكان دقيق الحس ، فقد دعاه عيسى بن على للغداء معه يوماً فقال له : « أعز الله الأمير ! لست يومى للكرام أكيلا ، فقال له : ولِمَ ؟ قال : لأنى مزكوم ، والزكمة قبيحة الجوار ، مانعة من عِشْرة الأحرار » . وكتب إليه يحيى بن زياد الحارثى الزنديق يلتمس عقد الإخاء والاجتماع على المودة والصفاء فأخَّر جوابه ، فكتب إليه كتاباً آخر ، يستريثه ، فكتب إليه ابن المقفع : « إن الإخاء رِقٌّ ، فكرهت أن أملّكك رِقِّى قبل أن أعرف حُسْنَ مِلْكتك » [٣] .

---

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين ١/٢٢٥ .

(٢) أمالى المرتضى ١/١٣٥ .

(٣) انظر فى هذا النص وسابقه أمالى المرتضى ١/١٣٦ .

٣

صنعة ابن المقفع فى كتبه ورسائله

رأينا ابن المقفع يعمل فى دواوين الحكام والأمراء ، ولكن أهميته لا ترجع إلى أنه كان كاتباً من كتّاب الدواوين ، وإنما ترجع إلى أنه كان مترجماً عن البهلوية ، إذ حاول أن ينقل إلى اللغة العربية خير ما عرفه فى لغته الفارسية سواء أكان ما عرفه فيها فارسيًّا خالصاً أم كان يونانيًّا أم كان هنديًّا .

أما الفارسى الخالص فمنه ما يرد إلى تراث القوم الدينى ، وقد ترجم منه كتاب مزدك[1] ، ومنه ما يُرَدُّ إلى تراثهم التاريخى والأدبى ، وهو تراث كان يدور فى أغلبه حول البلاط الإيرانى وحَوْلياته وتقاليده ، ومن هذا التراث ترجم كتاب « خُدَاى نامه » فى سِيَر ملوكهم ، وقد اعتمد الفردوسى على هذا الكتاب فى تأليف ملحمته « الشهنامة » . وأيضا ترجم كتاب « آيين نامه » وهو فى أنظمة الملك والدولة الساسانية ، وقد بقيت منه مقتطفات كثيرة فى عيون الأخبار لابن قتيبة تدل على أنه كان يعالج نظام القضاء وفنون الحرب ومكايدها . وترجم أيضاً كتاب التاج فى سيرة أنوشروان ورسالة تنسر وكل هذه الكتب — على ما يظهر — كانت كتباً رسمية أصدرها البلاط الساسانى.

وترجم بجانبها بعض ما نقل إلى لغته من التراث اليونانى ، إذ يقولون إنه ترجم لأرسطو المقولات[2] وبجانب ذلك نجده يترجم قصص كليلة ودمنة ، وهى قصص ترجع إلى أصول هندية . وقد عثر هرتل (Hertel) على أحد أصول هذه القصص ، وهو كتاب « بَنْجَ تَانْتَرا » الهندى كما عثر غيره على أصل آخر هو كتاب « هتو پادشا » ووجد الباحثون فى « المهابهارتا »

---

(١) انظر فى الكتب الفارسية التى ترجمها ابن المقفع كتاب الفهرست ص ١٧٢ .

(٢) الفهرست ص ٣٤٨ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (طبع المطبعة الوهبية) ١/٣٠٨ .

بعض أصول منه [١] . ويرجح بعض الباحثين أن ابن المقفع زاد على الكتاب فصولا لم تكن فى الأصل ، وكذلك زاد بعض القصص ، ويمكن أن تكون القصص المزيدة ليست من صنعه ، فقد تُرجم الكتاب بعده مرة أخرى وزيدت فيه بعض زيادات[٢] ، ومن المحقق أنه لم يزد سوى ما سماه غرَض الكتاب ، أما ما يزعمه البيرونى من أنه زاد باب برزويه « قاصداً تشكيك ضَعْفَى العقائد فى الدين وكَسْرِهم للدعوة إلى مذهب المنانية وإذا كان متّهماً فيما زاد لم يخل عن مثله فيما نقل »[٣] فغير صحيح ، إذ كان هذا الفصل موجوداً فى الأصل الفارسى [٤] . على أن ما قاله البيرونى يلفتنا إلى أن الفرس استخدموا الكتاب بعد نقله وقبل ترجمته إلى العربية فى الدعوة لمذهب المانوية .

وليس ذلك كل ما نقله ابن المقفع عن البهلوية ، فله رسائل أخرى أشهرها الأدب الكبير والأدب الصغير واليتيمة ورسالة الصحابة . ونراه يصرّح فى مقدمة الأدب الكبير بقوله : « منتهى علم عالمنا فى هذا الزمان أن يأخذ من علمهم (يريد القدماء) وغاية إحسان محسننا أن يقتدى بسيرتهم . . . ومن ذلك بعض ما أنا كاتبٌ فى كتابى هذا من أبواب الأدب التى يحتاج إليها الناس » وكثيراً ما يقول فى هذا الكتاب : « احفظ قول الحكيم » أو « قالت الحكماء » . ويقول فى مقدمة الأدب الصغير : « وقد وضعت فى هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً فيها عَوْنٌ على عمارة القلوب وصِقالها وتجلية أبصارها وإحياء للتفكير وإقامة للتدبير ودليل على محامد الأمور ومكارم الأخلاق » . فالكتابان بشهادته مترجمان ، أو على الأقل تغلب الترجمة عليهما ، وقد دار أولهما على السياسة والصداقة ، ودار ثانيهما على الشِّيَم والأخلاق. وتدخل فى هذه المعانى القطع الباقية من اليتيمة ، التى احتفظ بها ابن طيفور فى كتابه المنظوم والمنثور . فالكتب الثلاثة فى رأينا مترجمة على الأقل فى أكثرها ، وهى تصور ضرباً من

---

(١) انظر مقدمة كليلة ودمنة لعبد الوهاب عزام (طبعة دار المعارف) ص ٣٥ وما بعدها .

(٢) نفس المقدمة ص ٤٢ .

(٣) تحقيق ما للهند من مقولة للبيرونى ص٧٦ .

(٤) مقدمة كليلة ودمنة ص ٤٤ وما بعدها .

الأدب الأخلاقى نما فى بلاط الساسانيين ، كان يُروَى عن بزرجمهر وغيره ، وكان يراد به تثقيف الفرس بحكمة عملية خلقية تستمد من تجارب الحياة وتكفل للإنسان أن يعيش فى العالم سعيداً بعيداً عن المضار . وتدخل فى هذا الضرب من الأدب الأخلاقى رسالة الصحابة ، وهى لا تتصل بتعليم الناس كيف يعيشون ، وإنما تتصل بنظام الدولة ، فالصحابة فى هذه الرسالة إنما يراد بهم صحابة الحكام والملوك أو كما نقول الآن حاشيتهم وجنودهم ورعيتهم ، فهى تعرض لسياسة الدولة العامة ، وقد يكون ابن المقفع زاد عليها تطبيقا لأحوال الرعية الإسلامية والدولة العباسية ، ولكنه على كل حال استمد فى هذه الرسالة من أنظمة الملك الساسانية .

وعلى هذا النحو حمل ابن المقفع إلى العرب والعربية أروع ما أنتجته العبقرية الإيرانية قبل الإسلام ، مما كان له أثر كبير فى الآداب العباسية ، سواء منه ما اتصل بالأخلاق ، وما اتصل بتاريخ الساسانيين ومن سبقوهم من ملوك إيران ، وكذلك ما اتصل بأنظمة ملكهم وحكمهم للرعية . ولم يكتف بذلك فقد نقل أيضاً أجزاء من منطق أرسطو كما نقل قصص كليلة ودمنة ، وعنه نُقلت إلى السريانية والعبرانية واليونانية والفارسية الحديثة كما نقلت إلى اللغات الأوربية .

والطريف أنه حين قام بنقل هذا كله إلى لغتنا العربية لم تستعص عليه تلك اللغة ، بل أظهرت من المرونة ما استطاعت به أن تحمل هذا التراث كله ، ومن غير شك كانت كثرته إن لم يكن كله جديدة عليها بمعانيها ومدلولاتها التى لم يكن يعرفها عرب الصحراء ، ولا نريد أن نبالغ فنقول إن ابن المقفع أصاب التوفيق فى كل ما ترجم ، إذ يظهر أن ترجمته لمنطق أرسطو أو لأجزائه لم تكن موفقة كل التوفيق ، ومن ثَمَّ حمل عليه الجاحظ فى ترجمته لمعانى أرسطو [1] . ومن الحق أن ترجمة هذا المنطق لا تعدُّ مقياساً عامًّا لترجمته ، إذ كلنا نعرف صعوبة ترجمة الفلسفة ، فما بالنا إذا كانت هذه الترجمة تصاغ لأول مرة . وعلى

---

(١) الحيوان ١/٧٦ .

كل حال إذا كان التوفيق قد أخطأه فى ترجمة أرسطو فإنه لزمه فى ترجمة كليلة ودمنة وما ترجمه من تراث الأدب الفارسى.

وربما كانت حملة الجاحظ عليه فى ترجمته لمنطق أرسطو هى التى دفعت طه حسين إلى حملته على أساليبه حملة عامة، فذهب يقول إن «له عبارات من أجود ما نقرأ فى العربية، وبنوع خاص فى الأدب الكبير وفى كليلة ودمنة، ولكنه عندما يتناول المعانى الضيقة التى تحتاج إلى الدقة فى التعبير يضعف، فيكلف نفسه مشقة ويكلف اللغة مشقة» ويشبهه بالمستشرقين الذين يحسنون اللغة العربية فهماً، وربما أعياهم الأداء فيها، وينصح لطلاب الأدب أن يحتاطوا عندما يريدون أن يتخذوا ابن المقفع نموذجاً للتعبير والبلاغة، ويسوق دليلا على حكمه بعض أمثلة قليلة، نلاحظ فى تضاعيفها اضطراباً فى الضمائر. وكأنما فاته أن آثار ابن المقفع مضى عليها أكثر من ألف عام، قبل أن تطبع، كانت تتداولها فيها أيدى الناسخين الجانية، وأن ما لاحظه ربما رجعت آفاته إلى أصناف هؤلاء الناسخين.

والحق أن طه حسين بالغ حين عدّه كأحد المستشرقين، وهو قد نشأ فى بيئة عربية وفى آل الأهتم، وكان شاعراً كما كان كاتباً، وقد وجد فى نفسه من قوة البيان ما جعله إمام المترجمين فى عصره، وقد جعله صاحب الفهرست من البلغاء العشرة الذين قاموا على رأس أدباء العصر العباسى وكتّابه [1]، وما زال القدماء يستشهدون بآرائه فى الفصاحة والبلاغة، من ذلك قول الجاحظ فى بيانه [2]:
«لم يفسر البلاغةَ تفسير ابن المقفع أحدٌ قط، سُئِل ما البلاغة؟ قال: البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة، فمنها ما يكون فى السكوت، ومنها ما يكون فى الاستماع، ومنها ما يكون فى الإشارة، ومنها ما يكون فى الحديث، ومنها ما يكون فى الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً، ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحىُ فيها والإشارة إلى المعنى أبلغ، والإيجاز هو البلاغة» [2].

---

(١) الفهرست ص ١٨٢.
(٢) البيان والتبيين ١/١١٥.

ويروى الجاحظ أن الكتاب الناشئين كانوا يدرسون آثاره ليتعلموا منها البيان ويصقلوا عقولهم وألسنتهم [١] ، وقد سخِرَ مُرَّ السخرية من أحد هؤلاء الناشئين ، إذ رآه يتعرض لقول ابن المقفع فى كليلة ودمنة : « وكن كالنَّسر حوله الجِيَفُ ولا تكن كالجيف حولها النسور » ويقول : إنما كان ينبغى أن يقول بدلا من ذلك : « كن كالضِّرس حُفَّ بالتُّحف ، ولا تكن كالهَبْرة [٢] تُطيف بها الأكَلَة » . قال الجاحظ : وأظنه أراد الضروس ، فقال : الضرْس ، وهذا من الاعتراض عجب [٣] .

والحق أن ابن المقفع كان من البلاغة فى الذروة ، ويكفى أنه استطاع أن ينقل أهم ما عرفه فى لغته من تراث عقلى وتاريخى وفلسفى وأدبى إلى العربية مع الاحتفاظ لها بكيانها ومشخصاتها ، ومن غير شك عانى فى سبيل ذلك كثيراً ، فقد خرج بما كان يترجم وينقل عن نطاق المعانى العربية السابقة إلى معان جديدة لم يسبق للغتنا أن أدَّتها ، وهى معان كانت تزدحم عليه وتتكاثر وتتنوع ، ومع ذلك لم يستعص عليه التعبير عنها ، وقد كانت حرية أن تحدث عنده اضطراباً فى التراكيب وأن تُدْخل فى أساليبه صوراً من الرطانة الأعجمية ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فقد ظلت العربية عنده محتفظة بأصولها الأولى ومقوماتها الأساسية مع السلاسة والطلاوة . واقرأ له هذه الفقرة من كتاب الأدب الصغير [٤] : « وسمعت العلماء قالوا لا عقل كالتدبير ولا ورَع كالكف ، ولا حسَب كحسن الخلق ، ولا غنًى كالرِّضا ، وأحقُّ ما صُبر عليه ما لاسبيل إلى تغييره ، وأفضلُ البرِّ الرحمة ، ورأس المودة الاسترسال [٥] ، ورأس العقل المعرفة بما يكون وما لا يكون ، وطيب النفس حسنُ الانصراف عما لا سبيل إليه ، وليس فى الدنيا سرور يعدل صحبة الإخوان ، ولا فيها غمٌّ يعدل فَقْدهم . لا يتم حُسْن الكلام إلا بحسن العمل كالمريض الذى قد علم دواء نفسه ، فإذا هو

---

(١) ثلاث رسائل للجاحظ (نشر فينكل) ص ٤٢ .

(٢) الهبرة : القطعة من اللحم .

(٣) الحيوان ٦/٣٣٠ .

(٤) انظر رسائل البلغاء لكرد على (الطبعة الثالثة) ص ٣٥ .

(٥) الاسترسال : الائتناس والانبساط .

لم يتداوَ به لم يُغنه علمه . والرجل ذو المروءة قد يكرم على غير مال كالأسد الذى يُهاب وإن كان عقيراً [١] . والرجل الذى لا مروءة له وإن كثر ماله كالكلب الذى يهون على الناس وإن طُوِّق وخُلخِل [٢] . ليحسُنْ تعاهدك نفسك بما تكون به للخير أهلا ، فإنك إذا فعلت ذلك أتاك الخير يطلبك كما يطلب الماءُ السيلَ إلى الحدور » .

وذلك هو أسلوب ابن المقفع فيما بقى بين أيدينا من آثاره ، وهو أسلوب واضح شفاف ، ليس فيه تعقيد ولا إغراب ، وإنما فيه الاسترسال العذب ، وفيه الألفاظ القريبة والعبارات المبسطة حسب الأغراض والمعانى التى كان ينقلها ، وكان ينفر نفوراً شديداً من الإغراب فى اللفظ والتوعُّر فيه ، وكان يقول لبعض من حوله : « إياك والتتبع لوحشىّ الكلام طمعاً فى نيل البلاغة فإن ذلك هو العِىّ الأكبر » كما كان يقول : « عليك بما سَهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السِّفْلة » وسئل ما البلاغة ؟ فقال : « التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » [٣] .

وابن المقفع بهذه الوصايا يضع بين أيدينا أسس أسلوبه ، وهو أسلوب جديد لا شك أنه كان من أوائل من ثبتوا حدوده ورسومه ، أسلوب يقوم على التوسط بين لغة الخاصة وما قد يكون فيها من إغراب فى اللفظ ولغة العامة وما قد يكون فيها من ابتذال . أسلوب عباسى مولَّد ، يلائم فيه ابن المقفع بين حاجات عصره الثقافية وبين مقومات العربية وأصولها اللغوية والنحوية ، وكان يدفعه هذا الأسلوبُ دفعاً إلى أن يدرس الألفاظ ويختبرها ويقارن بينها ويفاضل ، حتى يظفر منها بما يستوفى معانيه من جهة ، وما يتيح لها ضرباً من البلاغة من جهة ثانية .

وأكبر الظن أننا لا نسرف فى القول حين نزعم أن ابن المقفع كان من أوائل من وطَّدوا هذا الأسلوب العباسى المولد، إن لم يكن أول من وطده وخاصة

---

(١) عقيراً : جريحاً .

(٢) طوق وخلخل : لبس الطوق والخلخال .

(٣) انظر فى هذه النصوص أمالى المرتضى ١/١٣٧ .

فى ميدان الترجمة ، وهذا أسلوب يقوم على السهولة والوضوح مع توفير الجزالة والرصانة ، وكان يعمد فيه إلى الإيجاز فالمعانى تؤدى بأقل الألفاظ دون أن تقصر عنها ودون أن تطول طولا يُجحف بحقوقها ، ولعلل ذلك هو الذى جعله يعدل عن أسلوب السجع وكذلك عن أسلوب الترادف الصوتى الذى سبق أن لاحظناه عند الوعاظ وعند عبد الحميد الكاتب وأستاذه سالم ، وليس معنى ذلك أنه لم يكن يهتم بالجمال المادى بتاتاً ، وإنما معناه أنه كان مترجماً ، وكان يسعى إلى الدقة فى الترجمة ، فلم يتوسّع فى رصف الألفاظ وبسطها ، حتى لا تخونه فى أداء معانيه . لقد كانت غايته أن يوفق بين اللفظ الدال والمعنى المدلول ، ومع ذلك لم ينس أبداً أن يكون لفظه جزلا رصينا مصقولا ، وأن ينسقه فى حركاته وأوضاعه تنسيقاً مبينا ، لا يخفى أى شىء مما يحمله معنى أو صورة . وقد ظلت القرون التالية إلى قرننا الحاضر تتداول كثيراً مما ترجمه ، وخاصة كليلة ودمنة والأدب الكبير والأدب الصغير . وهذا الصمودُ للتداول الطويل مرجعه هذا التعاون الوثيق بين المعنى الحصيف واللفظ الرشيق .

٤

سهل بن هرون : أصله وحياته وثقافته

إذا تركنا عصر ابن المقفع وتقدمنا إلى عصر هرون الرشيد التقينا بسهل ابن هرون ، وهو فارسى من دَسْتميسان[١] ، كورة بين البصرة وواسط والأهواز ، ويعيّن الحصْرى القرية التى ولد فيها ، فيقول إنها ميسان[٢] ، واختلف الرواة فى اسم جده ، فهو فى الفهرست رامنوى أو راهبون ، وهو فى البيان والتبيين راهبونى[٣] . وهو مثل ابن المقفع لا يُعرف بالضبط متى كان مولده ، أما وفاته فكانت فى عام ٢١٥ للهجرة[٤] . وقد ترك موطنه أول الأمر إلى البصرة حيث

(١) الفهرست (طبعة القاهرة) ص ١٧٤ .
(٢) زهر الآداب ٢/٢٥٨ .
(٣) البيان والتبيين ١/٥٢ .
(٤) معجم الأدباء (طبعة القاهرة) ١١/٢٦٧ .

تخرّج فيها ، ثم انتقل إلى بغداد ، فكتب ليحيي بن خالد البرمكى ، وله أشعار فى مديحه [١] ، ويقال إنه خلفه على الدواوين [٢] ، ويظهر أنه ظل يشتغل فيها لعهد الأمين [٣] . ولما ولى المأمون الخلافة قدَّمه إليه الفضل بن سهل فأعجب به ، وجعله خازناً بدار الحكمة [٤] ، وظل بها إلى أن توفى .

ودلائل كثيرة تدل على أنه كان مثقفًا ثقافة ممتازة بجميع معارف عصره ، وأنه كان أحد النقلة من لسانه الفارسى إلى العربية [٥] ، ولكن أهميته لا ترجع إلى ما تَرْجم ، بل ترجع إلى ما صنّف وألّف ، ومن أجل ذلك كان يختلف عن ابن المقفع ، فابن المقفع أهميته الأولى فى تاريخ النثر العربى إنما ترجع إلى أنه كان مترجمًا وأنه مرَّن أساليب العربية على حَمْل الثقافات الأجنبية ، أما سهل فكان أديبًا تبدو شخصيته فيما يؤلف ويدبِّج ويحبِّر .

ويُجمع من ترجموا لسهل على أنه كان شعوبى المذهب ، شديد العصبية على العرب ، ويقول صاحب الفهرست إن له فى ذلك كتبًا كثيرة [٦] . وعلى نحو ما اشتهر بالشعوبية اشتهر بالحكمة ، حتى لقبوه « بزرجمهر الإسلام » [٧] ووصفه الجاحظ فقال : « كان سَهْلٌ سهلا فى نفسه ، عَتيق [٨] الوجه ، حسن الشَّارة ، بعيدًا من الفَدامة [٩] ، تقضى له بالحكمة قبل الخبرة ، وبرقة الذهن قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب قبل الامتحان ، وبالنُّبْل قبل التكشف » [١٠] . ويلاحظ ابن النديم أن الجاحظ كان يفضِّله ، ويصف براعته وفصاحته ويَحْكى عنه فى كتبه [١١] ، وقد صرح مرارًا بأنه كان يلقاه [١٢] ، وروى كثيرًا من نوادره ، فمن

---

(١) الحيوان ٣/٤٦٦ ، ٥/٦٠٣ والبيان والتبيين ٣/٣٥٢ .
(٢) شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون (طبعة دوزى) ص ٢٤٣ وما بعدها .
(٣) البيان والتبيين ١/٣٤٦ .
(٤) معجم الأدباء ١١/٢٦٧ .
(٥) البيان والتبيين ٣/٢٩ .
(٦) الفهرست ص ١٧٤ .
(٧) زهر الآداب ٢/٢٥٨ وسرح العيون (طبعة المطبعة الوطنية) ص ١٣٢ .
(٨) عتيق الوجه : جميل .
(٩) الفدامة : العى .
(١٠) البيان والتبيين ١/٨٩ .
(١١) الفهرست ص ١٧٤ .
(١٢) البيان والتبيين ١/٢٣٨ والحيوان ٧/٢٠٢ .

ذلك أنه تندر على أحد جيرانه ، وهو صغير يختلف إلى الكتاب ، فقال :

نُبِّيتُ بِغَلْك مبطونًا فرغتَ له فهل تماثل أو نأتيك عُوَّادا[1]

ويدل هذا على أنه كانت فيه نزعة إلى الفكاهة منذ حداثته ، وتُرْوى له في ذلك طرائف كثيرة ، منها أن رجلا لقيه فقال له : هبْ لى ما لا ضرر به عليك ، فقال : وما هو يا أخى ؟ قال : درهم ، قال سهل : « لقد هَوَّنْتَ الدرهم ، وهو طائعُ الله فى أرضه لا يُعْصى ، وهو عُشْرُ العشرة ، والعشرة عُشر المائة ، والمائة عُشْرُ الألف والألف دِيَةُ المسلم ، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذى هوّنته ؟ وهل بيوت المال إلا درهم على درهم »[2] وقال دعبل الشاعر : « أقمنا عند سهل بن هرون ، فلم نَبرح ، حتى كدنا نموت من الجوع ، فلما اضطررناه ، قال : يا غلام ! ويلك غَدِّنا ! قال : فأتينا بقصعة (بصفحة) فيها مرق ، فيه لحم ديك هرم ، ليس قبلها ولا بعدها غيرُها ، لا تحزُّ فيه السكّين ولا تؤثّر فيه الأضراس ، فاطّلع فى القصْعة وقلّب بصره فيها ، ثم أخذ قطعة خبز يابس ، فقلّب جميع ما فى القصعة ، حتى فقد الرأس من الديك ، فبقى مُطْرِقاً ساعة ، ثم رفع رأسه إلى الغلام ، فقال : أين الرأس ؟ فقال : رميتُ به . قال سهل : ولم رميت به ؟ قال : لم أظنك تأكله ، قال : ولأى شىء ظننت أنى لا آكله ؟ فوالله إنى لأَمْقُتُ من يرمى برجليه ، فكيف من يرمى برأسه ؟ ثم قال له : لو لم أكره ما صنعت إلا للطِّيرة (التشاؤم) والفأل لكرهته ، الرأس رئيس ، وفيه الحواس (الخمس) ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فَرْقه الذى يتبرّك به ، وعينه التى يُضْرب بها المثل ، يقال : شراب كعين الديك (فى الصفاء) ودماغه عجيب لوجع الكُلْيَة ، ولم أر عظْماً قط أهشّ تحت الأسنان من عظم رأسه . فهلا إذ ظننت أنى لا آكله ظننت أن العيال يأكلونه ؟ وإن كان بلغ من نُبْلك أنك لا تأكله فإن عندنا من يأكله . أما علمتَ أنه خير من طرف الجناح ومن الساق والعنق ، انظر أين هو ، قال :

---

(١) الحيوان ٣/٦٦ . (٢) سرح العيون ص ١٣٣ .

والله ما أدرى أين رميتُ به ، قال : لكنى أدرى أنك رميتَ به فى بطنك ، واللهُ حَسِيبُك»[١] . ويُرْوى أن أبا الهُذَيْل العلاّف المتكلم المعروف طلب إليه رقعة إلى الحسن بن سهل يوصيه به ، فكتب له كتاباً ، وذهب به إلى الحسن ، فلما فَضَّه أغربَ فى الضحك ، إذ وجد فيه هذه الأبيات :

إن الضميرَ — إذا سألتُك حاجةً ... لأبى الهُذَيل خلافُ ما أُبْدى
فامنَحْه روحَ اليأس ثم امْدُدْ له ... حبْل الرجاء بمخلف الوَعْد
حتى إذا طالتْ شقاوةُ جَدِّه ... وعَنائه فاجْبَهْهُ بالرَّدِّ
وإن استطعت له المضرَّة فاجتهد ... فيما يضرُّ بأبلغ الجَهْدِ

فلما راجعه أبو الهذيل قال له : أين عَزَبُ عنك الفهم؟ أما سمعت قولى : إن الضمير خلاف ما أبدى ؟ فلو لم يكن ضميرى الخير ما قلت هذا »[٢] . وقالوا إن المأمون انحرف عنه ، فدخل عليه يوماً ، وقال : يا أمير المؤمنين ! إنك ظلمتنى وظلمت فلاناً الكاتب ، فقال له : ويلك وكيف؟ قال : رفعته فوق قَدْره ، ووضعتنى دون قدرى ، إلا أنك له فى ذلك أشد ظلماً ، قال : كيف ؟ قال : لأنك أقمته مقام هُزْءٍ وأقمتنى مقام رحمة ، فضحك المأمون ، وقال له : قاتلك الله ! ما أهجاك ! »[٣] . وقَصُّوا عنه أنه خاطب بعض الأمراء ، فقال له : كذبت ، فقال : أيها الأمير ! إن وجه الكذّاب لا يقابلك — يعنى الأمير بذلك — لأن وجه الإنسان لا يقابله[٤] .

وكل هذه الأحاديث والنوادر المروية عن سهل تدل على ذكائه وفطنته وخفة روحه ، وصدق الجاحظ إذ يقول إنه كان سهلا فى نفسه تحكم له برقة الذهن ودقته ، فهو فكه وهو لَسِن شديد العارضة . وفى لهجة لسانه وأسلوب منطقه ما يجعلنا نحس الصلة الشديدة بينه وبين الجاحظ ، إذ يعد امتداداً — من بعض الوجوه — لهذا اللسان ونمواً لهذا العقل وما طوى فيه من حجاج وجدل .

(١) الحيوان ٢/٣٧٤ وانظر سرح العيون ص ١٣٣ .
(٢) سرح العيون ص ١٣٤ .
(٣) نفس المصدر ص ١٣٤ .
(٤) سرح العيون ص ١٣٤ .

٥

صنعة سهل فى رسائله وكتبه

كان سهل خطيباً كاتباً شاعراً[١] يقول الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المجلَّدَة والسِّيَر الحسان المدوَّنة والأخبار المولَّدة سهل بن هرون بن راهبونى الكاتب ، صاحب كتاب ثعالة وعفراء فى معارضة كتاب كليلة ودمنة وكتاب الإخوان[٢] ، وكتاب المسائل[٣] ، وكتاب المخزومى والهذلية ، وغير ذلك من الكتب »[٤] . ومن كتبه التى ذكرها ابن النديم كتاب النمر والثعلب ، وكتاب الوامق والعذراء ، وكتاب ندود وودود ولدود وكتاب الغزالين ، وكتاب إلى عيسى بن أبان فى القضاء ، وكتاب تدبير الملك والسياسة[٥] .

ويدل الكتابان الأخيران على أنه عُنِى — مثل ابن المقفع — بالكتابة فى شئون الحكم والسياسة ، ولعل أهم هذه الكتب جميعاً كتاب ثعالة وعفراء الذى ألفه فصولاً فى قصص الحيوان معارضة لكتاب كليلة ودمنة ، ولم يصلنا هذا الكتاب إنما وصلتنا فقرة منه فى كتاب زهر الآداب للحصرى ، وهى حكمة تمضى على هذا النمط :

« اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدَّماً قبل الذى تجودون به من تفضُّلكم ، فإن تقديم النافلة مع الإبطاء عن الفريضة مظاهرٌ على وهَن العقيدة وتقصير الرويَّة ، مضرٌّ بالتدبير مخلٌّ بالاختيار ، وليس فى نفع تُحْمَدُ به عوضٌ من

---

(١) انظر فى أشعاره زهر الآداب ٢/٢٥٨ — ٢٥٩ والبيان والتبيين ١/١٩٦ ، ٣/٣٥٢ والحيوان ٣/٤٦٦ ، ٥/٦٠٣ — ٦٠٤ .

(٢) فى الفهرست : كتاب إسباسيوس فى اتحاد الإخوان .

(٣) لعله كتاب الرسائل الذى ذكر فى الفهرست .

(٤) البيان والتبيين ١/٥٢ .

(٥) انظر الفهرست ص ١٧٤ .

فساد المروءة ولزوم النقيصة » ويقول الحصرى عقب هذه الفقرة : وكتابه هذا مملوء حِكماً وعلماً[١] .

ويُكبر الجاحظ دائما من بلاغة سهل وفصاحته ، ويظهر أنه أهم كاتب ظهر خلال القرن الثانى الهجرى ، يقول صاحب سرح العيون : « انفرد سهل فى زمانه بالبلاغة والحكمة وصَنَّف الكتب معارضاً بها كتب الأوائل»[٢] ويقول الجاحظ : إنه كان فى أول أمره إذا ألف كتاباً طعن الناس عليه ، فكان ينسب ما يؤلفه إلى من عُرفوا بالتأليف مثل سهل ، فيشيع الكتاب ويحمله الناس مع الحمد والثناء[٣] .

وإذا ذهبنا نتعقب آثار سهل كى نحكم حكماً دقيقاً على صناعته وفنه فى كتبه ورسائله لم نجد إلا بقية ضئيلة من هذا المجهود الضخم الذى وصفه الجاحظ وابن النديم وأمثالهما ، ولولا أن الجاحظ احتفظ لنا فى كتابى البخلاء والبيان والتبيين بأطراف من عمله ما استطعنا أن نصدر حكماً دقيقاً على صياغته ولا على صنعته ، ولعل أهم ما سجله الجاحظ له رسالته التى استفتح بها كتاب البخلاء ، وفيها نرى سهلا يحتج للبخل احتجاجاً فيه حوار الجاحظ وجدله ، وفيه أيضاً فصاحته ولَسَنُه ، بحيث يختلط الأمر على الناظر فى هذه الرسالة ، فيخيل إليه أنها ربما كانت من صُنْع الجاحظ وإنما نحلها سهلا لمأرب فى نفسه ، ولكن هذا الظن ينمحى إذا قرأنا ما بقى من نثر سهل فى مواطن أخرى . ومن يرجع إلى الرسالة يجدها تذم الكرم وتزرى به ، بينما تمدح البخل وتثنى عليه ، وهو ثناء أراد به التعصب على العرب وذم صفة الكرم التى لهج شعراؤهم بذكرها ومدح ما يضادها من الشح والبخل ، ويقال إنه أرسل بها إلى الحسن بن سهل ليكافئه عليها فأجابه على ظهرها : « وصلت رسالتك ، ووقفنا على نصيحتك ! وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك والسلام»[٤] . وقد توجه بالرسالة فى مفتتحها إلى

---

(١) زهر الآداب ٢/٢٥٨ .
(٢) شرح العيون ص ١٣٢ .
(٣) التنبيه والإشراف للمسعودى (طبع ليدن) ص ٧٦ .
(٤) الفهرست ص ١٧٤ .

بنى عمه ، ويقول القدماء إنه يقصد بنى عمه من آل راهبون ، وأكبر الظن أنه يقصد بهم جماعة العرب لا آل راهبون كما ظن القدماء ، وهو يستهلها على هذا النمط [1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أصلح الله أمركم ، وجمع شملكم ، وعلمكم الخير وجعلكم من أهله ، قال الأحنف بن قيس : يا معشر بنى تميم ! لا تسرعوا إلى الفتنة ، فإنَّ أسرعَ الناس إلى القتال أقلُّهم حياء من الفرار ، وقد كانوا يقولون : إذا أردت أن ترى العيوب جَمَّة فتأمل عَيَّاباً ، فإنه إنما يعيب بفضل ما فيه من العيب ، وأول العَيْب أن تعيب ما ليس بعَيْب ، وقبيح أن تنهى عن مرشد أو تغرى بمشفق . وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم ، وإلا إصلاح فسادكم ، وإبقاءَ النعمة عليكم ، ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم ، فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم . ثم قد تعلمون أنَّا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم ، وشُهرنا به فى الآفاق دونكم . فما كان أحقكم فى تقديم حُرْمتنا بكم أن ترعوا حق قَصْدنا بذلك إليكم ، وتنبيهنا على ما أغفلنا من واجب حقكم ، فلا العذرَ المبسوط بلغتم ، ولا بواجب الحرمة قمتم » .

وأظن أن صنعة سهل قد استبانت لنا فى هذه الأسطر القليلة ، إذ نراه يعنى فى رسالته ببسط الأدلة ، وكأنه يتقدم حواراً عنيفاً ، فهو يدلى بأقيسة وقضايا وآثار مروية ، وليس هذا كل ما يميز صنعته التى نلمح فيها أثر المنطق وتعلم الجدل ، بل يميزها شىء آخر أهم من ذلك ، وهو ما يعمد إليه من بسط العبارة بسطاً يظهر فيه التقطيع الصوتى والترادف الموسيقى ، واستمرَّ معه فى الرسالة فسترى هذا العنصر فى فنه وصياغته يتضح أكثر إذ يقول :

« عبتمونى حين ختمت على سَدٍّ (سَلٍّ) عظيم وفيه شىء ثمين من فاكهة نفيسة ، ومن رُطَبة غريبة ، على عبد نَهِمٍ ، وصبى جشع ، وأمة لَكْعاء ، وزوجة

---

(١) انظر الرسالة بطولها فى فاتحة كتاب البخلاء للجاحظ .

خرقاء . وليس من أصل الأدب ، ولا فى ترتيب الحكم ، ولا فى عادات القادة ، ولا فى تدبير السادة ، أن يستوى فى نفيس المأكول ، وغريب المشروب ، وثمين الملبوس ، وخطير المركوب ، والناعم من كل فن ، واللُّباب من كل شكل ، التابعُ والمتبوع ، والسيد والمسود ، كما لا تستوى مواضعهم فى المجلس ، ومواقع أسمائهم فى العنوانات وما يستقبَلون به من التحيات . . . وعبتمونى بخَصْفِ (إصلاح) النعال ، و بتصدير القميص ، وحين زعمت أن المخصوفة أبقى ، وأوطأ وأوقى ، وأنفى للكِبْر ، وأشبه بالنسك ، وأن الترقيع من الحزم ، وأن الاجتماع مع الحفظ ، وأن التفرق مع التضييع ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يَخْصف نعله ، ويرقِّع ثوبه ، ولقد لَفَقَتْ سُعدى بنت عوْف إزار طلحة وهو جواد قريش ، وهو طلحة الفياض » .

وما من ريب فى أن صوت سهل قد اتضح لنا الآن بجميع خصائصه ، فهو يعمد إلى الجدل والدقة فى الحوار كما يعمد إلى شىء طريف فى أسلوبه ، إذ نرى الألفاظ تتوازن لكن لا فى شكل سجع بل فى شكل تقطيعات دقيقة ، وكأنى بسهل لم يكن يعمد إلى أداء أفكاره بلفظ فصيح فقط كما كان يصنع ابن المقفع ، بل كان يعمد إلى ضروب من التوقيع الصوتى فى اللفظ حتى تستقيم لأسلوبه فنون من الجمال المادى الذى يخلب سامعيه ، كى يؤثر فى وجدانهم وعواطفهم ، بجانب ما يؤثر به فى عقولهم من حِجاجه وجدله والتماسه للبراهين والأدلة على أفكاره .

وهذا التقطيع الصوتى فى أسلوب سهل اقترن به عنصر آخر فى صنعته ، هو عنصر الترادف الذى أشرنا إليه ، وارجعْ إلى هذه القطعة التى رويناها له فسترى كل معنى لا يؤدَّى أداء واحداً فى عبارة واحدة ، بل يؤدى أداءين أو أكثر حتى يتم لسهل ما يريد من توقيع صوتى وتعادل موسيقى بين ألفاظه وعباراته ، وقد جرّه ذلك إلى ضروب من الترادف فى تراكيبه ، ولكنه ترادف طريف أو قل بعبارة أدق إنه ترادف فنى فقد كان سهل يريد أن يؤدِّى به خصائص فنية بجانب ما يؤدى من خصائص ذهنية . وعلى هذا النحو كانت تندمج فى أساليبه

خصائص موسيقية فى خصائص أخرى عقلية نلمحها فى هذا الجدل وهذا الحوار وما يبدو عليه من تلاوين عقلية أحدثتها الثقافة الفلسفية فى تفكيره وأدائه لمعانيه ، وقد كان يعرف كيف يوازن بين هذه التلاوين العقلية وما سبقها من تلاوين موسيقية فتخرج أساليبه وقد التمعت عليها شيات من التأمل والعقل الدقيق ، كما التفَّت عليها شيات أخرى من التوقيع والترادف الموسيقى ، وسنرى هذه الشيات جميعاً تمتد تحت أعيننا فى كل ما دبج الجاحظ وحبَّره من كتب ورسائل ، وإنه ليتأثر فى هذه النزعة سهلا من طرف ، وبيئة المتكلمين الذين نشأ فيهم من طرف آخر ، وكأنما كان أسلوبُ العصر هو أسلوب الجدل والحوار . ولعل مما يشهد لذلك عند سهل ما يروى من أن شخصًا مدح الذهب فأطنب ، ثم قام النظام فذم الزجاج وأطنب ، فاعترضهما سهل يفضل الزجاج على الذهب فى رسالة طويلة لم يبق لنا منها إلا هذه اللُّمعة[1] :

« الزجاج مجلوٌّ نوريّ ، والذهب متاع سائر ، والشراب فى الزجاج أحسن منه فى كل معدن ، لا يُفْقَدُ معه وجه النديم ، ولا يُثقل اليد ، ولا يرتفع فى السَّوْم . واسم الذهب يتطيّر منه ، ومن لؤمه سرعته إلى اللئام ، وهو فاتن فانك (غالب) لمن صانه ، وهو أيضاً من مصايد إبليس ، ولذلك قالوا أهلك الرجال الأحمران (الذهب والزعفران) . والزجاج لا يحمل الوضَر ، ولا يداخله الغَمَر[2] ، ومتى غُسل بالماء وحده عاد جديداً ، وهو أشبه شىء بالماء ، وصفته عجيبة ، وصناعته أعجب » .

ونحن لا نجد أى فارق بين هذه الطريقة فى الحجاج وبين طريقة الجاحظ فى حجاجه ، إذ كان يركب مثل هذا المركب فى كل ما يكتب ويؤلف ، كأنه يريد أن يغرب عن الناس دائمًا بتفكيره ، فهو يخرج على مألوفهم ومعتادهم بآراء شاذة يسوقها فى جدل عنيف . وقد رُويت فى البيان والتبيين لسهل قطعة فى الخطابة والخطباء ، وهى من هذا اللون ، إذ نرى سهلا فيها يفضِّل الخطيب قبيح السَّمْت على الخطيب حسن السمت على هذا النحو[3] :

---

(١) سرح العيون ص ١٣٥ .

(٢) الغمر : الدسم ، والوضر : وسخه .

(٣) انظر البيان والتبيين ١ / ٨٩ .

« لو أن رجلين خطبا أو تحدثا ، أو احتجا أو وصفا ، وكان أحدهما جميلا ، بهيًّا ، ذا لباس نبيلا ، وذا حسب شريفًا ، وكان الآخر قليلا قميئًا ، وباذَّ الهيئة دميا ، وخامل الذكر مجهولا ، ثم كان كلاهما فى مقدار واحد من البلاغة ، وفى وزن واحد من الصواب ، لتصدَّع عنهما الجَمْعُ ، وعامَّتهم تقضى للقليل الدميم ، على النبيل الجسيم ، وللباذِّ الهيئة على ذى الهيئة ، ولشَغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه ، ولصار التعجُّب منه سبباً للعَجَب به ، ولكان الإكثار من شأنه علة للإكثار فى مدحه ، لأن النفوس كانت له أحقر ، ومن بيانه أيأس ، ومن حسده أبعد ، فإذا هجموا منه على ما لم يحتسبوه ، وظهر منه خلاف ما قدَّروه ، تضاعف حسن كلامه فى صدورهم ، وكبر فى عيونهم ، لأن الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب كان أبعد فى الوهم ، وكلما كان أبعد فى الوهم كان أطْرف ، وكلما كان أطرف كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع ، وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان ، ومُلَح المجانين ، فإنَّ ضحك السامعين من ذلك أشد ، وتعجبهم به أكثر ، والناس موكّلون بتعظيم الغريب ، واستطراف البديع ، وليس لهم فى الموجود الراهن المقيم ، وفيما تحت قدرتهم من الرأى والهوى مثل الذى لهم فى الغريب القليل ، وفى النادر الشاذ ، وكل ما كان فى ملك غيرهم . وعلى ذلك زهد الجيرانُ فى عالمهم ، والأصحاب فى الفائدة من صاحبهم ، وعلى هذا السبيل يستطرفون القادم عليهم ، ويرحلون إلى النازح عنهم ، ويتركون من هو أعم نفعاً ، وأكثر فى وجوه العلم تصرُّفاً ، وأخف مئونة وأكثر فائدة ، ولذلك قدم بعض الناس الخارجىَّ على العريق[1] ، والطارف على التَّليد ، وكان يقول : إذا كان الخليفة بليغاً والسيد خطيباً فإنك تجد جمهورَ الناس وأكثرَ الخاصة فيهما على أمرين : إما رجلا يعطى كلامهما من التعظيم والتفضيل ، والإكبار والتبجيل ، على قدر حالهما فى نفسه ، وموقعهما من قلبه ، وإما رجلا تعرض له التّهمة لنفسه فيما ، والخوفُ من أن يكون

---

(١) الخارجى : يخرج ويشرف بنفسه من غير أن يكون له قديم .

تعظيمه لهما ، يوهمه من صواب قولهما ، وبلاغة كلامهما ما ليس عندهما ، حتى يفرط فى الإشفاق ، ويسرف فى التهمة ، فالأول يزيد فى حقهما للذى لهما فى نفسه، والآخر ينقصهما من حقه لتهمته لنفسه . وإذا كان الحب يعمى عن المساوئ فالبغض يعمى عن المحاسن ، وليس يعرف حقائق مقادير المعانى ومحصول حدود لطائف الأمور إلا عالم حكيم، ومعتدل الأخلاط عليم، وإلا القوىُّ المُنّة ، والوثيق العُقْدة، والذى لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظمَ والسواد الأكبرَ » .

وأنت ترى فى هذه القطعة المجموعتين من التلاوين العقلية والصوتية تلتقيان فى أسلوب سهل فى غير مشقة ولا تكلف، إذ تندمج فى صياغته القدرة على التحليل والتعليل بالقدرة على صوغ اللفظ وتحبيره والاتساع به حتى يؤدى ضروباً من التوقيع الصوتى والترادف الموسيقى، وما من شك فى أن ذلك كله كان خطوة نحو أسلوب الجاحظ الذى سنراه ينهض نهوضاً واسعاً بالطرفين من التلاوين العقلية والصوتية . ومهما يكن فقد كان سهل يوفر لألفاظه ومعانيه عناية واسعة ، وهى عناية جعلته أحد بلغاء عصره فى صنع الرسائل الطويلة وتحبيرها، إذ كان ما يزال يحتال على الرسالة من رسائله بتلاوينه العقلية وتحاسينه الصوتية، فإذا هى تستوى فى صورة بديعة من الفن والصناعة ، والجمال والطلاوة .

٦

الجاحظ : نشأته وثقافته وحياته

يوضع الجاحظ على رأس كتّاب العصر العباسى غير مدافَع ولا منازَع ، وهو يرجع — فيما يظهر — إلى أصل غير عربى [١] ، وولد فى البصرة حول عام ١٥٩ هـ ونشأ فيها نشأة متواضعة إذ يزعم الرواة أنه نشأ يبيع الخبز والسمك بسَيْحان [٢]

---

(١) نزهة الألبا فى طبقات الأدبا لابن الأنبارى ص ٢٥٤ وانظر أمالى المرتضى ١/١٩٤ ومعجم الأدباء لياقوت ١٦/٧٤ .

(٢) معجم الأدباء ١٦/٧٤ .

أحد أنهار بلدته ، وهذا هو كل ما لدينا عن نشأته وحداثته، على أننا لا نمضى معه فى حياته حتى نراه يترك نهر سيحان إلى أنهار الثقافة فى عصره فهو يغدو على المِرْبَد يسمع من الأعراب الفصحاء، ويختلف إلى حلقات العلماء فى المسجد الجامع ، يأخذ عن علماء اللغة وغيرهم ، وكانت أهم حلقة تعجبه حلقة المتكلمين وأقبل على قراءة كل ما تُرجم من الثقافات الأجنبية، ويقصُّون عن شغفه بالقراءة قصصًا كثيرة، فهم يقولون إنه كان لا يقع فى يده كتاب إلا ويقرأه من أوله إلى آخره[١]، ويروى صاحب الفهرست أنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر[٢] .

وهذا العكوف على القراءة هو الذى جعل كتبه ورسائله أشبه ما تكون بدوائر معارف ، فليس هناك جدول من جداول الثقافة فى عصره إلا وتسربت منه فروع ومنعطفات إلى كتاباته وتأليفاته، وإن كتبه من هذه الناحية لتشبه تمام الشبه معارضنا الحديثة، فأنت منذ دخولك فى فواتح هذه المعارض تلقى صناعات مختلفة من كل جنس، وكذلك أنت منذ دخولك فى كتب الجاحظ تجده يعرض تحت بصرك جميع ألوان الثقافة التى عاصرته من هندية وفارسية ويونانية وعربية، وهو يجمع ذلك فى شكل مشعَّث إذ بينما تراه يتحدث إليك عن حديث شريف أو آية قرآنية، إذ هو يتحدث عن حكمة يونانية ، وبينما يحدثك عن زرادشت والمانوية، إذ هو يحدثك عن الإسلام والنبوة. وبينما يحدثك عن العرب وشعرهم إذ هو يحدثك عن نظرية الكمون عند المعتزلة أو عن نظريته فى أن المعارف طباع ، وحتى هو إن كتب فى البيان عند العرب تجده يبحث لك عن رأى الهند واليونان والفرس فى البلاغة .

وكان الجاحظ من المعتزلة ، وهو تلميذ النظام فى اعتزاله[٣] ، وأشاد به مرارًا فى حيوانه كما أشاد بغيره من المعتزلة أمثال بشر بن المعتمر وثمامة بن الأشرس وأبى الهُذَيْل العلاَّف وأضرابهم. وقد استطاع خلال اعتزاله أن ينفذ إلى تأليف

(١) أمالى المرتضى ١/١٩٤ .
(٢) الفهرست ص ١٦٩ وانظر معجم الأدباء ١٦/٧٥ .
(٣) نزهة الألبا ص ٢٥٤

مجموعة من الآراء تعصبت لها طائفة من المعتزلة سميت باسم الجاحظية[١]، ومهما يكن فقد كان الجاحظ من طائفة المعتزلة، وهى طائفة عُرفت فى هذا العصر بكثرة الجدل والحوار كما عرفت بسعة ثقافتها واتصالها بجميع ألوان المعارف لعصرها وخاصة المعارف اليونانية .

ولم يشتهر المعتزلة فى العصر العباسى بجدلهم وثقافتهم فقط، بل اشتهروا بشىء مهم أيضاً وهو فصاحتهم و بلاغتهم حتى ليقول الجاحظ : «إن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء»[٢] . وقد وصفهم صاحب الانتصار فقال: « إن الكلام لهم دون سواهم»[٣]. ويقول صاحب المقابسات : « إن طريقتهم مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ ، وموازنة الشىء بالشىء والاعتماد على الجدل »[٤]. ويظهر أيضا أنهم كانوا يعتمدون فى جدلهم على الاستشهاد بالشعر ، ويقول المرتضى عن أبى الهُذَيْل العلاف : « كان يحفظ كثيراً من الشعر العربى ويستشهد به فى مجالسه، قال المبرد : ما رأيت أفصح من أبى الهذيل والجاحظ ، وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة، شهدته فى مجلس وقد استشهد فى جملة كلام بثلاثمائة بيت »[٥] . وتوفى أبو الهذيل حوالى عام ٢٣٢هـ . وربما كان من تأثيره ما نجده عند الجاحظ فى كتبه من كثرة استشهاده بالشعر ، وقد يكونان هما جميعاً يتأثران بطريقة غيرهما من المعتزلة فى هذا الاستشهاد، بمعنى أنه استقر قبلهما عند أبناء مذهبهما .

ومهما يكن فقد لَقِفَ الجاحظ فى بيئة المعتزلة الجدلة اللَّسِنة فصاحته وبيانه متأثراً بكتابات عصره وخاصة كتابات سهل بن هرون الذى كان يشغف به كما لاحظ ابن النديم فى فهرسته . ونحن لا نصل إلى القرن الثالث حتى نجده وقد استوتْ له شهرة فائقة بين كُتَّاب عصره، ولعل ذلك ما جعل المأمون يطلب

---

(١) انظر الفرق بين الفرق لأبى منصور البغدادى طبع مطبعة المعارف ص ١٦٠-١٦٢ حيث عرض للرد على الجاحظية وآرائها .

(٢) البيان والتبيين ١/١٣٩ .

(٣) الانتصار لابن الخياط (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٧٢ .

(٤) المقابسات (طبع مصر) ص ٢٢٣ .

(٥) المنية والأمل ص ٢٦ .

إليه أن يكتب له رسالة فى العباسية والاحتجاج لها، ويقال إنه أقيم على ديوان الرسائل غير أنه لم يمكث فيه سوى ثلاثة أيام[١] وكأنه لم يستطع الخضوع لنظم الدواوين وما يقتضيه سير العمل فيها فوجدناه يهجرها إلى داره وما عكف عليه من إدمان القراءة والتأليف، ويظهر أن كبراء الدولة كانوا يكْفونه حاجته فقد رُوى أن ابن الزيات أعطاه فى كتاب الحيوان خمسة آلاف دينار وأعطاه ابن أبى دؤاد فى البيان والتبيين خمسة آلاف دينار ثانية ، كما أعطاه إبراهيم بن العباس الصولى خمسة آلاف ثالثة فى كتاب الزرع والنخل[٢] . أما الفتح بن خاقان وزير المتوكل الذى صنف له رسالته فى فضائل الترك فقد أجْرَى عليه راتبًا شهريًّا كان يتقاضاه من خزانة الدولة[٣] .

وعلى هذا كان الجاحظ يتصل بكبار رجال الدولة العباسية وكانوا يوادّونه ويصادقونه، ويقال إنه كان صديقاً لابن الزيات مقربًا منه فلما قُبض عليه وأودع فى التنُّور فرَّ الجاحظ هارباً خوفاً من أن يناله نفس عقابه ، ولما قُبض عليه وقُدِّم إلى ابن أبى دؤاد عدوِّ ابن الزيات لقيه لقاءً جافًّا فاعترضه قائلا: « خفِّض عليك — أيدك الله ! — فوالله لأن يكون لك الأمرُ علىّ خيراً من أن يكون لى عليك، ولأن أسيء وتحسن أحسنُ فى الأحدوثة من أن أحسن وتسيء ، ولأن تعفو عنى فى حال قدرتك أجملُ بك من الانتقام منى ، فعفا عنه »[٤] وعاد إلى البصرة يؤلف ويكتب هذه المصنفات والكتب التى كان يتعلق بها العامة والخاصة تعلقاً شديداً[٥] وربما كان من أسباب ذلك ما امتاز به من ميل إلى التندر والدعابة حتى ليقول بن أبى دؤاد: « إنى أثق بظرفه»[٦] . ويصف من جاءوا بعده كتبه فيقولون: إنها مكتوبة فى ضروب من الجد والهزل[٧] . ومن طُرف الجاحظ فى ذلك أنه قال عن نفسه : نسيت كنيتى

(١) معجم الأدباء ١٦/ ٧٩ .

(٢) انظر فى ذلك نفس المصدر ١٦/ ١٠٦.

(٣) انظر معجم الأدباء ١٦/ ٩٩ .

(٤) أمالى المرتضى ١/ ١٩٥ ومعجم الأدباء ١٦/ ٧٩ .

(٥) معجم الأدباء ١٦/ ٩٨ .

(٦) نزهة الأليا ص ٢٥٨ .

(٧) معجم الأدباء ١٦/ ٧٦ .

ثلاثة أيام حتى أتيت أهلى فقلت لهم: بم أُكْنَى؟ فقالوا : بأبى عثمان[١]، ويروى أنه حفّظ رجلا أعجمياً نسباً يدّعيه لنفسه فى العرب فلما حفظه قال له: الآن لاتتِه علينا فقال الرجل: سبحان الله ! إن فعلت ذلك فأنا إذاً دعىّ[٢]. وهذا جانب واسع فى الجاحظ ومن خير ما يصوره كتاب البخلاء وما رواه فيه من نوادرهم وفكاهاتهم .

والحق أن الجاحظ كان شخصية فكهة كما كان شخصية لَسِنَة، وقد عنى بتأليف الكتب والرسائل ، وأكثرَ من ذلك، حتى قالوا إنه ترك نيفاً ومائة وسبعين كتاباً ، ومن يرجع إلى الثبت الطويل الذى كتبه فى أول حيوانه عن مؤلفاته يندهش لكثرة ما ألّف وكتب، ولعل ذلك هو أساس شهرته فقد طار اسمه فى الآفاق حتى فى عصره وزمنه . قصّ الرواة أنه قيل لأبى هفان: لم لاتهجو الجاحظ وقد ندّد بك وأخذ بمخنقك فقال: أمثلى يُخْدَعُ عن عقله، والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمستْ إلا بالصين شهرة، ولو قلت فيه ألف بيت لما طنّ منها بيت فى ألف سنة[٣]، ويروون أن أندلسيًّا قرأ فى موطنه كتابيه (البيان والتبيين) و (التربيع والتدوير) فهاجر إليه يريد لقاءه، ويزعمون أن هذا الأندلسى قال فى بعض حديثه كان طالبُ العلم بالمشرق يشرف عند ملوكنا بلقاء أبى عثمان[٤] .

ومن المحقق أن الجاحظ نال شهرة مدوية فى عصره و بعد عصره، إذ نجد النقاد والأدباء يلهجون دائماً بمدحه والثناء عليه حتى ليقولون إن كتبه رياض زاهرة ورسائل مثمرة[٥]. وكان ابن العميد يقول : إن الناس عيال عليه فى البلاغة والفصاحة واللَّسَنِ والعارضة[٦]، وكان يقول أيضاً : إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانياً[٧]. ومع ذلك كان الجاحظ يشكو من حساده وأنه كان فى أوائل

---

(١) نزهة الألبا ص ٢٥٥ .
(٢) معجم الأدباء ١٦/ ٩٤ .
(٣) نفس المصدر ١٦/ ٩٩ .
(٤) نفس المصدر ١٦/ ١٠٤ .
(٥) نفس المصدر ١٦/ ٩٨ .
(٦) معجم الأدباء ١٦/ ١٠٣ .
(٧) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٣٨٩.

حياته إذا أخرج كتابا معنوناً باسمه نقموه عليه وأظهروا له الازدراء فكان كثيراً ما يؤلف كتباً وينسبها إلى ابن المقفع والخليل والعتابى وسلم صاحب بيت الحكمة فيأتونه لكتابتها وروايتها عنه[١] !!

وقد عاش الجاحظ نحو ستة وتسعين عاماً وتوفى سنة ٢٥٥ هـ[٢]؛ وأكبر الظن أن هذه السن الطويلة هى التى ساعدته على كثرة التأليف وأيضاً فقد كان مشوه الخلق جاحظ العينين[٣] فانصرف عنه الناس وعُنى هو بصناعة الكتب، ومما ساعده على ذلك أنه مرض شطراً طويلا من حياته فاضطر إلى ملازمة بيته وقطْع فراغه بالكتابة والتأليف، وقد ألف أثناء هذا المرض أشهر كتبه، ونقصد كتاب الحيوان الذى شكا فيه من مرضه[٤]، والذى قدمه لابن الزيات المتوفى عام ٢٣٣ هـ وإنه ليقول له متفكهاً فى إحدى رسائله وقد أشار عليه أن يجلد كتبه: «جعلت كتبي مصحفاً مصحفاً . . . ورأيت أن أنظر فيها وأنا مستلق ولا أنظر فيها وأنا منتصبٌ، استظهاراً على تعب البدن، إذ كانت الأسافل مثقلة بالأعالى، وإذا كان الانتصاب يسرع فى إدخال الوهن على الأصلاب»[٥]. ويظهر أن هذا المرض الذى شكا منه الجاحظ فى رسائله وحيوانه هو الفالج، ومن يرجع إلى الحصرى فى ذيل زهر الآداب يجده يؤكد أن الجاحظ ألف الحيوان وهو مفلوج[٦]. وقد صرح الجاحظ فى كتاب البخلاء بأنه ألفهُ وهو مصاب بالفالج إذ يقول: «صحبنى محفوظ النقاش من المسجد الجامع ليلا، فلما صرت قرب منزله، وكان منزله أقرب إلى المسجد الجامع من منزلى سألنى أن أبيت عنده، وقال أين تذهب فى هذا المطر والبرد ومنزلى منزلك، وأنت فى ظلمة وليس معك نار، وعندى لبأٌ لم ير الناس مثله، وتمْرٌ، ناهيك به جودة؛ لا تصلح إلا له، فملت معه، فأبطأ ساعة، ثم جاءنى بجام لبأٍ وطبق تمر، فلما مددت يدى

---

(١) مجموعة رسائل الجاحظ (نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٠٨ .

(٢) أمالى المرتضى ١/١٩٩ .

(٣) وفيات الأعيان ١/٣٨٨ .

(٤) انظر الحيوان ٤/٢٠٨ .

(٥) مجموع رسائل الجاحظ ص ٧٤ .

(٦) ذيل زهر الآداب للحصرى (طبع الخانجى) ص ١٦٥ .

قال يا أبا عثمان ! إنه لبأ وغِلظه وهو الليل وركوده، ثم ليلة مطر ورطوبة، وأنت رجل قد طعنت فى السن، ولم تزل تشكو من الفالج طرفا »[١] . وكما أصيب الجاحظ بالفالج أصيب بالنقرس ويظهر أن ذلك كان فى أواخر حياته، قال المبرد : « دخلت على الجاحظ فى آخر أيامه فقلت له كيف أنت ، قال كيف يكون من نصفه مفلوج لو حُزَّ بالمناشير ما شعر به ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه»[٢] ويقال إن المتوكل وجّه فى طلبه سنة ٢٤٧ هـ يريد أن يُحمَل إليه فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بامرئ ليس بطائل، ذى شِق مائل ولعاب سائل ، وعقل زائل ولون حائل»[٣] . ويروون أن طبيباً عاده فقال له : « اصطلحت الأضداد على جسدى ، إن أكلت بارداً أخذ برجلى وإن أكلت حارًّا أخذ برأسى»[٤] . وأخيراً وبعد مرض قاس طويل انهالت الكتب على الجاحظ يوماً وهو جالس بينها يقرأ فقضت عليه[٥] ، وهكذا ذهب الجاحظ ضحية آثر الأصدقاء وأعزهم لديه[٦].

٧

الصنعة الجاحظية

يمتاز الجاحظ بأنه لم يترك موضوعاً عامًّا إلا وكتب فيه رسالة أو كتاباً، وإن من يرجع إلى رسائله وكتبه يجده قد ألّف فى النبات وفى الشجر وفى الحيوان وفى الإنسان وفى المعاد والمعاش وفى الجد والهزل وفى الترك والسودان وفى المعلمين والقيان وفى الجوارى والغلمان وفى العشق والنساء وفى النبيذ وفى الشيعة والعباسية وفى

---

(١) البخلاء (نشر وزارة التربية والتعليم) ٢/٤٥ .

(٢) معجم الأدباء ١٦/١١٣ .

(٣) أمالى المرتضى ١/١٩٩ .

(٤) أمالى المرتضى ١/١٩٩ .

(٥) انظر تاريخ أبى الفدا فى سنة ٢٥٥ هـ ، وانظر أيضاً شذرات الذهب لابن العماد (نشر مكتبة القدسى) ٢/١٢٢ .

(٦) الحيوان ١/٣٨ .

الزيدية والرافضة وفى الرد على النصارى وفى حجج النبوة ونظم القرآن وفى البيان والتبيين وفى حيل لصوص النهار وحيل سرّاق الليل وفى البخلاء واحتجاج الأشحّاء . وإن فى هذا ما يدل على أن الجاحظ خطا بالكتابة الفنية عند العرب خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات فى خلابة وبيان عذب ، وكأنى به لم يكن يفهم أن الكتابة الأدبية ألفاظ ترصف ، وإنما كان يفهمها على أنها معان تنسق فى موضوع خاص مما يتصل بالطبيعة أو بالإنسان . وكان لذلك صبغته الخاصة فى كتابته ، فإنها كتابة ذات موضوع قبل أن تكون ذات أسلوب ، وليس معنى هذا أنه كان يهمل ألفاظه وتراكيبه ، بل لقد كان يعنى بهما عناية شديدة ، وقد صرّح بذلك غير مرة فقال إنه يعنى بتأليف كتبه ويتأنق فى ترصيفها[1] . ويقول : « لربما خرج الكتاب من تحت يدى مُحصَفاً كأنه متن حجر أملس بمعان لطيفة محكمة ، وألفاظ شريفة فصيحة »[2] . ولكن عناية الجاحظ على هذا النحو بكتبه ورسائله وأسلوبه فيهما لم تكن تجعله يخرج إلى التماس الألفاظ من حيث هى ألفاظ ، فقد كان يرى أن « شر البلغاء من هيّأ رسم المعنى قبل أن يهيئ المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ وشغفاً بذلك الاسم حتى صار يجر إليه المعنى جرّا ، ويلزقه به إلزاقا ، حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره »[3] . فالجاحظ كان يكره العناية البالغة باللفظ تلك العناية التى تسوق صاحبها إلى حفظ أساليب محفوظة بذاتها يبنى عليها معانيه ويصوغ عليها أفكاره ، فإن ذلك يقود الكاتب إلى أن يصبح عبداً لمجموعة من الألفاظ يجرّ إليها المعانى ويشدها شدّاً .

وهذا هو الطابع العام للجاحظ فى كتاباته فهو يعنى بألفاظه ومعانيه جميعاً دون أن يجور أحد الفريقين على الآخر أو يحيف عليه ، وقد دفعه ذلك إلى أن يعنى بآرائه وأدلته وبراهينه ومقدماته ونتائجه متأثراً فى ذلك بما لقف من منطق وفلسفة ومعرفة بالجدل والحوار اللذين كانا شائعين فى بيئته ، ونقصد بيئة المعتزلة ،

---

(١) مجموع رسائل الجاحظ ص ١٠٢ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٩ .

(٣) رسائل الجاحظ (طبع الساسى) ص ١٥٩

وبجانب ذلك نجده يعنى أيضاً بألفاظه وأساليبه عناية من شأنها أن تجعله يدقق فى انتخاب ألفاظه وأن يقطع عباراته تقطيعات صوتية طريفة، وهى تقطيعات انزلقت به إلى فنون من التكرار الموسيقى ، كى تتم له الموازنة بين لفظه ومعناه، تلك الموازنة التى انتهت به إلى أن يعشق الأداء الدقيق لمعانيه وأن يعشق معه الوصف الحسى الصحيح لما شاهد، مما آذن بظهور الواقعية فى كتبه ، وأيضاً فإنه كان يرى أن يخرج دائماً فى رسائله وكتاباته من باب إلى باب حتى لا يمل القارئ ، مما طبع أعماله جميعاً بطابع الاستطراد، وأكبر الظن أننا لا نبعد إذا قلنا إن الصفات الفنية الأساسية فى كتابات الجاحظ هى الواقعية والاستطراد وضروب من التلوين الصوتى وأخرى من التلوين العقلى بحيث لا تقرأ أى أثر من آثاره إلا وتجد هذه العناصر الأربعة لصنعته ماثلة تحت عينيك إذ يسعى الجاحظ دائماً إلى أن يروى لك الوقائع كما هى دون تمويه، كما يسعى إلى الاستطراد فى تآليفه حتى لا يسأم القارئ ولا يناله شىء من الكد والسَّوْق العنيف، وأيضاً فإنه كان يشفع كتاباته دائماً بتلوين صوتى أنيق وتلوين عقلى بديع ، وسنقف لنفصل هذه العناصر الأربعة لصنعة الجاحظ وهى الواقعية والاستطراد والتلوين الصوتى والتلوين العقلى .

الواقعية

من يتابع الجاحظ فى صنعة كتبه ورسائله يجده يشغف بحكاية الواقع ، لا يتستر ، ولا يتخفى ، حتى إنه ليذكر السوءات والعورات فى غير مواربة ولا مداجاة ، وكأنه كان يرى أن يذكر الحقائق عارية دون أن يسدل عليها أى ستر أو أى حجاب ، ودافع مراراً عن هذا المنهج وقال إن من يعدل عنه لا بد أن يكون صاحب رياء ونفاق ، وهو ليس من أهل الرياء والنفاق ، بل هو من أهل الصراحة ، أو هو بعبارة أدق من أصحاب منهج الواقعية (Realism) الذين لا يداجون ولا ينافقون بل يصفون الأشياء كما هى فى غير تحرج ولا تأثم حتى إنهم لا يخجلون من وصف بعض النزعات الجنسية لأنهم يريدون أن يصفوا

الحياة كما هى بدون تغيير ولا تبديل إلا فى حدود التعبير الفنى .

وهذه النغمة من الواقعية فى آثار الجاحظ أثرت فى كتاباته آثاراً مختلفة ، ولعل أول هذه الآثار أننا نجده يعنى بحكاية عصره وتمثيله تمثيلا دقيقاً بحيث تُعد أعماله أهم مراجع تكشف لنا حقائق العصر الذى عاش فيه ، إذ نراه يصور هذه الحقائق بكل ما فيها من طُهْرٍ ووِزْرٍ، ودين وزندقة ، وجد ولهو ،وبالغ فى ذلك حتى إنه ليروى كلام المجانين الموسوسين وكلام أهل الغفلة من النَّوْكى والحَمْقَى[١] . وإنه ليروى أيضاً عن الغلمان والصعاليك والزُّطّ واللصوص كما يروى عن الخلفاء والأمراء والوزراء وقواد الدولة وكبار كتّابها. وارجع إلى كتاب البخلاء فإنك تراه يعرض عليك بخلاء عصره من مثل سهل بن هرون والكندى وابن غزوان والحارثى والحرامى فى غير تصنع ولا مداراة ، وفيم يتصنع الجاحظ ويدارى؟ إنه يريد أن يجعل الأدب صورة من الواقع ، وهو لذلك لا يستعين على كتابة بخلائه بالتاريخ أو ذاكرة الماضى، إنما يستعين بمفكرة الحاضر والعصر الذى يعيش فيه وقد عرف كيف ينقله إلينا بجميع طبقاته وأفراده وملامحهم وخصائصهم النفسية.

وأثر ثانٍ أثرته الواقعية فى كتابات الجاحظ وهو ما يلاحظ عليه من تدقيقه فى ألفاظه وانتخابها بحيث تلائم ما يصفه أو يصوره حتى إنه ليحكى كلام المولدين والعوامّ بما فيه من لحن وخطأ لينقل إليك الواقع بكل ما فيه . يقول فى البخلاء : « وإن وجدتم فى هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معْرَب أو لفظاً معدولا عن جهته فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغّض هذا الباب ويخرجه من حَدِّه إلا أن أحكى كلاماً من كلام متعاقلى البخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هرون وأشباهه»[٢] . فهو يحكى دائماً أخباره وحوادثه بلغتها الدقيقة، وأكبر الظن أن هذه النزعة فيه هى التى حملته على أن يَلْهَج فى كتبه ورسائله كثيراً بفكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال[٣] . ومن قوله بصدد ذلك : « إن

(١) انظر البيان والتبيين ٢/٢٢٥ وكذلك ٢/٣٤٤ . وأيضاً ٤/٥ وما بعدها .

(٢) البخلاء ١/٧٨ .

(٣) الحيوان ٣/٤٣ وانظر البيان والتبيين ١/١٣٨ .

لكل معنى شريف أو وضيع ، هزل أو جد ، حرفة أو صناعة ، ضرباً من اللفظ هو حقه ونصيبه الذى لا ينبغى أن يجاوزه أو يقصر دونه »[١] . وفى هذا ما يدل على شدة عنايته بالملاءمة بين الألفاظ ومعانيها ، ولعله من أجل ذلك كان يدعو إلى « النظر فى مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب »[٢] .

وأثر ثالث أثرت به الواقعية فى كتابات الجاحظ وأعماله ، وهو ما يمتاز به من عدم عنايته بالتشبيهات والاستعارات إلا ما جاء عفو الخاطر أو كان الغرض منه تمثيل الواقع ، وهذا طبيعى عند الجاحظ لأنه لم يكن يعمد إلى زينة لفظية عشقاً للزينة من حيث هى على نحو ما سنعرف فيما بعد عند أصحاب مذهب التصنيع ؛ فالكتابة عنده ليست زخرفاً خالصاً يراد به إلى الوشى والحلى وما يندمج فى ذلك من صور وتشبيهات واستعارات ، بل هى معان تؤدى فى دقة ، تفسر الوقائع والأحداث تفسيراً لا تستره أسجاف الاستعارات والأخيلة . وليس معنى ذلك أن الجاحظ لم يكن دقيق التصوير ، فإنه إنما عزف عن الأخيلة ، لما تضع أمام القارئ من مبالغات ، أما بعد ذلك فإنه كان مصوراً عظيما ، إذ كان يعرف كيف ينقل المشاهد بجميع تفاصيلها ودقائقها تسعفه فى ذلك قدرة غريبة على الملاحظة ، وهى قدرة جعلته يحسن التصوير من جهة كما يحسن القصص من جهة أخرى . ويتضح ذلك فى كتابه البخلاء حين يرسم جشع النهمين وحركات أيديهم وقسمات وجوههم ، كما يتضح فى كتاب الحيوان وما أودعه من قصص . ومن قصصه البارعة فيه التى تصور دقة تصويره ما حكاه عن عبد الله بن سوّار القاضى ووقاره فى قصصه الدينى ووعظه وأنه كان لا يحرك أثناء كلامه رأسه ولا يديه حتى كأن كلامه يخرج من صَدْع صخرة ، فألح الذباب عليه يوماً ، وما زال به حتى أخرجه عن طبعه ، فاستعان بتحريك أجفانه ، ولم يُجْده ذلك نفعاً فذبّه عن وجهه بيديه ، فابتعد عنه قليلا ثم عاد إليه ، فدفعه بطرف كمّه ، وما زال يتابع ذلك . يقول[٣] :

---

(١) رسائل الجاحظ (طبع الساسى) ص ١٥٩ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ٢٠ .

(٣) الحيوان ٣/ ٣٤٣ .

«كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سَوَّار لم ير الناس حاكماً قط ولا زِمِّيتاً(١) ولا رَكيناً(٢) ولا وقوراً حليماً ضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذى ضبط وملك . كان يصلى الغداة فى منزله، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتى مجلسه ، فيحتبى ولا يتكئ ، فلا يزال منتصبا لا يتحرَّك له عضو ولا يلتفت ولا يحلُّ حُبْوته (٣) ولا يحوِّل رجلا عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شِقَّيه، حتى كأنه بناء مبنىٌّ أو صخرة منصوبة . فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر ثم يرجع إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة المغرب . . . كذلك كان شأنه فى طِوال الأيام وفى قصارها وفى صيفها وفى شتائها، وكان مع ذلك لا يحرِّك يده ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم فيوجز ويبلغ بالكلام اليسير المعانى الكثيرة . فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه وفى السِّماطين(٤) بين يديه إذ سقط على أنفه ذباب فأطال المُكْث ، ثم تحول إلى مُؤق(٥) عينه، فرام الصبر فى سقوطه على المؤق وعلى عضِّه ونفاذ خرطومه كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته أو يغضِّن وجهه أو يذبَّ بإصبعه . فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافلَ أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض (الذباب) فدعاه ذلك إلى أن والى بين الإطباق والفتح، فتنحَّى ريثما سكن جفْنه . ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مَرَّته الأولى فغمس خرطومه فى مكان كان قد أوْهاه قبل ذلك، فكان احتماله له أضعف وعجزه عن الصبر فى الثانية أقوى، فحرَّك أجفانه و زاد فى شدة الحركة وفى فتح العين وفى تتابع الفتح والإطباق ، فتنحَّى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يُلحُّ عليه حتى استفرغ صبره و بلغ مجهوده . فلم يجد بدًّا من أن يذبَّ عن عينيه بيده، ففعل، وعيونُ القوم إليه ترمقه . فتنحَّى عنه بقدر ما ردَّ يده وسكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذبَّ

---

(١) زميتا : وقوراً .

(٢) ركيناً : رزيناً .

(٣) الحبوة : أن يجمع الرجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

(٤) السماطين : مثنى سماط وهو الصف .

(٥) المؤق : طرف العين مما يلى الأنف .

عن وجهه بطَرَف كمّه ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك . وعلم أن فعله كله بعين مَنْ حَضَرهُ من أُمنائه وجُلسائه . فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألجُّ من الخنفساء وأزهى من الغراب! وأستغفر الله! فما أكثر من أعجبتْه نفسُه، فأراد الله عز وجل أن يعرِّفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً . وقد علمتُ أنى عند الناس من أَزْمَت(١) الناس ، فقد غلبنى وفضحنى أضعفُ خلقه ، ثم تلاقوله تعالى : (وإن يَسْلُبُهُم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضَعُفَ الطالب والمطلوب) » .

وواضح أن القصة تعتمد على دقة التصوير ، وهى دقة ترسم الواقع رسما أميناً ، بدون تهويل أو مبالغة أو اعتماد على استعارات وتشبيهات إلا ما يأتى عفواً للإيضاح لا للتجميل والتزيين .

الاستطراد

وإذا كانت الواقعية عنصراً أساسيًّا فى أعمال الجاحظ فإن هناك عنصراً آخر عمَّ آثاره، وربما كان أهم من عنصر الواقعية، وهو عنصر الاستطراد إذ يلاحظ كل من يقرأ فى الجاحظ حالا من التشعث فى التأليف ، فهو دائماً ينتقل من باب إلى باب ومن خبر إلى خبر ومن شعر إلى فلسفة ومن جد إلى هزل فى تشعب هائل، حتى ليقول كارّا دى ڤو : إن الموضوع عند الجاحظ ليس إلا وسيلة للاستطراد(٢) ، وقد أشار إلى هذا الاستطراد قديماً المسعودى فى كتابه مروج الذهب(٣) ، وقد كان الجاحظ يتخذه منهجاً فى تأليفه وخاصة فى حيوانه وبيانه ، واعترف به مراراً واحتج له . انظر إليه يقول فى الحيوان : « قد عزمتُ — والله الموفق — أنى أوشِّح هذا الكتاب وأفصِّل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل، فإنى رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة والأغانى الحسنة والأوتار الفصيحة

(١) أزمت الناس : أشدهم وقاراً وسكوناً .

(٢) Carra de Vaux, Les Penseurs De L'Islam Vol. 1, p. 295.

(٣) مروج الذهب ٤/١٣٦ .

إذا طال ذلك عليها، وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أورثت الغفله، وإذا كانت الأوائل قد سارت فى صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح»(١) . ويقول أيضاً : « ولولا أنى أتكل على أنك لا تملّ باب القول فى البعير حتى تخرج إلى الفيل، وفى الذرة حتى تخرج إلى البعوضة ، وفى العقرب حتى تخرج إلى الحيَّة، وفى الرجل حتى تخرج إلى المرأة ، وفى الذبان والنحل حتى تخرج إلى الغربان والعِقْبان، وفى الكلب حتى تخرج إلى الديك ، وفى الذئب حتى تخرج إلى السبع ، وفى الظِّلف حتى تخرج إلى الحافر ، وفى الحافر حتى تخرج إلى الخفّ، وفى الخف حتى تخرج إلى البرثن، وفى البُرْثُن حتى تخرج إلى المِخْلَب ، وكذلك القول فى الطير وعامة الأصناف، لرأيت أن جملة الكتاب وإن كثر عددُ ورقه، أن ذلك ليس مما يُمِلُّ ويعتدُّ علىّ فيه بالإطالة ؛ لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة، وكل مصحف منها فهو أمٌّ على حدة، فإن أراد قراءة الجميع لم يَطُل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثانى ولا الثانى حتى يهجم على الثالث، فهو أبداً مستفيد ومستطرف ، وبعضه يكون جِماماً لبعض، ولا يزال نشاطه زائداً ، ومتى خرج من آى القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ، ثم يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سِداد ، ثم لا يترك هذا البابَ ، ولعله أن يكون أثقل والملال إليه أسرع ، حتى يفضى به إلى مَزْح وفكاهة ، وإلى سُخْف وخرافة، ولست أراه سخفاً إذ كنت إنما استعملت سِيرة الحكماء وآداب العلماء »(٢) .

وإذاً فالجاحظ يعترف بأنه يستطرد وبأنه يعمد إلى ذلك عمداً خشية ملل القارئ وسآمة السامع ، واحتجَّ لصنيعه بأن الأوائل قد سارت فى كتبها هذه السيرة ، إذ يقول : إنه إنما يستعمل سيرة الحكماء وآداب العلماء . ولسنا ندرى أى حكماء وعلماء يشير إليهم إلا أن يكون قد أشار بذلك إلى بعض ما تُرجم للعرب من كتب الهند التى يشبِّه البيرونى ما فيها «بصدف مخلوط بخزف ، أو

(١) الحيوان ٣/٧ . (٢) الحيوان ١/٩٣ .

بدّر ممزوج ببَعْر ، أو بمهى مقطوب بحصى »[١] وإن من يتصفح كتاب كليلة ودمنة يجد ظاهرة الاستطراد واضحة فيه . على أن هناك علة لاستطراد الجاحظ ذكرها صراحة فى حيوانه إذ يقول : « قد صادف هذا الكتابُ منى حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه : أولُ ذلك العلة الشديدة ، والثانية قلة الأعوان ، والثالثة طول الكتاب . . فإن وجدت فيه خللا من اضطراب لفظ ، ومن سوء تأليف ، أو من تقطيع نظام ، ومن وقوع الشيء فى غير موضعه فلا تنكره بعد أن صورت لك حالى التى ابتدأت عليها كتابى »[٢] . فهو يعترف بأن مرضه أدخل الخلل على تأليف حيوانه ، ومرّ بنا أنه ألفه وهو مفلوج ، وألف بعده كتاب البيان والتبيين[٣] فظهر فيه الخلل والاستطراد بأوسع مما ظهرا فى كتاب الحيوان ، لا لسبب إلا لأن العلة طالت عليه ، وكأن ما أمضّه منها كان له أثره فى بلبلة أفكاره واضطرابها وحدوث كثير من النشاز فيها ، فهو برم بمرضه قلق ، وهو برم أيضاً بما يعرض فى بيانه لا يكاد يستقر عند موضوع يصفه ، وإنه ليقول فيه : « كان التدبيرُ فى أسماء الخطباء وحالاتهم وأوصافهم أن نذكر أسماء أهل الجاهلية على مراتبهم ، وأسماء أهل الإسلام على منازلهم ، ونجعل لكل قبيلة منهم خطباء ونقسم أمورهم باباً باباً على حدته ، ولكنى لما عجزت عن نظمه وتنضيده تكلفت ذكرهم فى الجملة »[٤] . فهو يقرّ بعجزه عن التنظيم والتنسيق لما كان من مرضه ، ولما كان أيضاً من قلة الأعوان كما يقول فى الحيوان ، ومن ثمّ كان من يقرأ فى كتبه يخيَّل إليه أنه لم يكن يعرف التركيز فى تأليفه ، إذ ما تزال الأفكار تندفع علينا من كل صوب فى غير نظام ولا سياق مطرد ، بل فكرة من هنا وفكرة من هناك فى صورة واضحة من التشعب والتشعث ، وقد ساعده على ذلك ثقافته الواسعة بجميع معارف عصره من هندية وفارسية ويونانية وإسلامية وعربية ، وإن الإنسان ليعجب إذ يقرأ الصفحة فى حيوانه فيجد هذه الثقافات

---

(١) تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٢ .

(٢) الحيوان ٤/٢٠٨ .

(٣) ذكر الجاحظ فى البيان أنه ألفه بعد الحيوان . انظر البيان والتبيين ٣/٣٠٢ .

(٤) البيان والتبيين ١/٣٠٦ .

كلها قد وُضع بعضها بجانب بعض ، وكأنه حين كان يكتب — بل حين كان يملى كما سنرى بعد قليل — كانت تنطلق إليه سيول المعرفة من كل واد فيتركها تنزلق إلى آثاره بطبيعتها التى أطبقت بها عليه .

التلوين الصوتى

هذا هو العنصر الثالث فى كتابات الجاحظ ، فنحن لا نقرأ له أى عبارات من تأليفه حتى نجده يعنى بأصواته عناية تُفضى إلى ضروب مختلفة من الإيقاعات الصوتية ، ولم يكن يستعين على تجميل هذه الإيقاعات بشىء من البديع وألوانه ، بل كان يكتفى بها لتعبِّر عن كل ما يريد من جمال لأسلوبه وطلاوة . وليس معنى ذلك أنه كان يستخدم السجع أو أسلوباً مقارباً منه ، فإن السجع لم يكن يصلح له فى تأليف كتبه ورسائله الطويلة ، لذلك عَدل عنه إلى ضروب من الإيقاعات ، وهى إيقاعات كان يستعين عليها بصور مختلفة من التكرار والترداد . واستمعْ إليه كيف يستهلّ حيوانه[1] :

«جنّبك الله الشبهة ، وعصَمك من الحَيْرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً ، وبين الصدق سبباً ، وحبّب إليك التثبت ، وزيّن فى عينيك الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عِزّ الحق ، وأودع صدرك بَرْدَ اليقين ، وطرد عنك ذُلّ اليأس ، وعرّفك مافى الباطل من الذلّة وما فى الجهل من القِلّة » .

وهذه هى النغمات الأولى فى الكتاب ، وعلى أساسها ينصبّ جميع النغم الذى نقرؤه فيه ، إذ نرى الجاحظ يحاول دائماً أن يُجَوِّدَ لفظه ، وهو لا يكتفى بذلك ، بل يسعى دائماً إلى إحداث ضروب من التوقيع ، وهو توقيع كان يلتمسه من معادلة ألفاظه معادلة لا تنتهى إلى السجع ، ولكنها تنتهى إلى هذا التوازن الصوتى الدقيق ، فكل جملة تقابل أختها فى موازين الجاحظ الموسيقية ، وهى موازين تحقق لصيغه هذا اللون من الجمال الموسيقى الذى كان يسميه القدماء ازدواجاً ونسميه إيقاعاً وتلويناً صوتيًّا بديعاً ، وهو تلوين كان يدفع الجاحظ دفعاً

(١) الحيوان ١/٣ .

إلى ضروب من التكرار والترادف ، واستمر مع الجاحظ فى الحيوان فستراه يقول بعد هذه النغمات الأولى من الكتاب بقليل[1] :

« إن كل من التقط كتاباً جامعاً، وباباً من أمهات العلم مجموعاً كان له غُنْمه ، وعلى مؤلفه غرْمه ، وكان له نفعه، وعلى صاحبه كدّه ، مع تعرّضه لمطاعن البُغاة، ولاعتراض المنافسين، ومع عَرْضه عقلَه المكدود على العقول الفارغة ، ومعانيه على الجهابذة ، وتحكيمه فيه المتأوّلين والحسَدة . . وهذا كتابٌ تستوى فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم . ويشتهيه الفتيان كما يشتهيه الشيوخ ، ويشتهيه الفاتك ، كما يشتهيه الناسك ، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو، كما يشتهيه المجد ذو الحزم، ويشتهيه الغُفْل، كما يشتهيه الأريب ، ويشتهيه الغبى ، كما يشتهيه الفَطِن » .

وهكذا ينطلق الجاحظ فى كتاباته — على نحو ما نرى الآن فى حيوانه — بهذا النَّفَسِ الواسع المسترسل الذى لا يتعثر ولا يتلجلج، بل ينطلق فى هذا الفَيْض العذب ، وكأنما لا يعوقه فى طريقه عائق لا من لفظ ولا من تعبير ، وانظرْ إليه يقول بعد ذلك فى وصف الكتاب[2] :

« الكتاب وعاءٌ مُلِئَ علماً، وظَرْفٌ حُشِى ظَرْفاً ، وإناء شُحن مُزاحاً وجِدًّا، وإن شئتَ كان أبْيَن من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت ضحكتَ من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت ألهتْك طرائفه، وإن شئت أشْجَتْكَ مواعظه، ومن لك بواعظ مُلْهٍ، وبزاجرٍ مُغْرٍ، وبناسك فاتك ، وبناطق أخرس، وببارِدٍ حارّ ، ومن لك بطبيب أعرابى ، ومن لك برومى هندى، وبفارسىّ يونانى ، وبقديم مولّد ، وبميت ممتع ، ومن لك بشىء يجمع لك الأول الآخر ، والناقص والوافر، والخفى والظاهر، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغثّ والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده » .

(١) الحيوان ١/ ١٠ .

(٢) الحيوان ١/ ٣٨ وما بعدها .

وعلى هذا النمط يسوق الجاحظ عباراته ومزاوجاته ، وإن الإنسان ليخيل إليه كأنما سُخِّرت له ألفاظ اللغة تسخيراً ، فهو يختار منها ما يشاء ويهوى فى غير عنت ولا تكلف ، بل فى مهارة وحذق ، فإذا هو يصل إلى هذه الأصوات الفخمة أو قل هذه المركبات الموسيقية ، فالموسيقى أساسية فى جواهر عباراته وأعراضها وما يَسِمُها فى باطنها وظاهرها . وإذا أنت رجعت تحلل هذه المركبات وجدتها تنحل إلى ظاهرتين أصيلتين فى كل ما يؤلف ، وهما : التقطيع الصوتى من طرف ، والتكرار والترداد الموسيقى من طرف آخر ، أما التقطيع فهو الذى يتيح له هذه المعادلات الصوتية التى تجعل العبارات تتعادل هذا التعادل الموسيقى البديع ، وكأنما قد فُصِّلت تفصيلاً وقسِّمت تقسيما ، وأما التكرار والترداد فقد كانا شائعين فى بيئة المتكلمين بسبب محاضراتهم ومناظراتهم ، وأيضاً فقد شاعا على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع عند وعاظ العصر الأموى ومن خلفوهم فى العصر العباسى وعند عبد الحميد الكاتب وسهل بن هرون ، ولكن الشيء الذى يلفت حقًّا هو أن الجاحظ وسعهما إلى أبعد طاقة يمكن أن تحتملها الأساليب . وما من ريب فى أن هذا التكرار يضفى على أساويه ضروباً من الجمال ، إذ نراه يستعين به على ما يريد من تقطيعات وتوقيعات صوتية ، فإذا الفكرة لا تؤدَّى فى عبارة واحدة ، ولكن فى عبارتين أو أكثر ، لا لسبب إلا لأن الجاحظ يريد لها أداءً موسيقيًّا بجانب أدائها المعنوى .

ومن يتابع درس الجاحظ يعرف أن هناك سبباً مهمًّا لتكراره فى كتبه وترداده ، وهو أنه لم يكن يكتب بل كان يملى ، وقد ذكر ذلك صراحة فى إحدى رسائله لابن الزيات إذ قال له : « إن الورّاق أصبح لا يخط سطراً »[١] ، ويذكر ياقوت أن هذا الوراق كان يسمى زكريا بن يحيى[٢] ، وإن فى هذا مايدل على أن الجاحظ لم يكن يكتب كتبه ورسائله منذ ابن الزيات المتوفى عام ٢٣٣هـ ، بل كان يملى على شخص أو أشخاص لما قدمنا من مرضه ، وطبع هذا الإملاء كتبه بطابع المحاضرة ، ومن ثم طبعها بطابع التكرار والترادف ، كما طبعها

(١) مجموع رسائل الجاحظ ص ٧٧ .
(٢) معجم الأدباء ١٦/١٠٦ .

بطابع كتب الإملاءات من حيث الخلل والاستطراد والإيجاز فى بعض الأشياء المهمة ، والإطناب والتفصيل فى بعض الأشياء التافهة . ومهما يكن فقد كان الجاحظ يعنى بأساليبه عناية توفر لها ضروباً من التقطيع الصوتى ، وقد ذهب يستعين فى ذلك بتكراره وترداده حتى تستوفى أساليبه كل ما يمكن من هذا التلوين الصوتى الذى يكسب تعبيره جمالاً خاصًّا يتفوق به على جميع الكتّاب فى عصره .

التلوين العقلى

ربما كان هذا العنصر أهم العناصر الأربعة التى تكوّن فن الجاحظ وصنعته ، إذ كان يشفع كتابته دائماً بضروب من التحاسين العقلية ، وهى ليست تحاسين فنية فى أصلها ، إنما هى تحاسين منطقية وفلسفية ، واستطاع الجاحظ فى رسائله وكتبه أن يحولها إلى تحاسين فنية خالصة أو تكاد ، إذ كان يدخلها فى جميع أوعيته الصوتية . وطبيعى أن تظهر هذه التحاسين عند الجاحظ لأنه كان متكلماً ، ووصف هو نفسه المتكلمَ لعصره فقال كما مرّ بنا فى غير هذا الموضع : « لا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً فى الصناعة ، يصلح للرياسة ، حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلاسفة » ، ولعل من الطريف أنه أضاف الفلسفة فى حيوانه إلى بعض المتكلمين فقال : « ورأيت ناساً من فلاسفة المتكلمين »[١] وقد قال فى الحيوان صراحة إن هذا الكتاب « أخذ من طُرف الفلسفة[٢] ، وإضافة الطُّرف إلى الفلسفة إحساس من الجاحظ بما تدخله فلسفة العقل على تعبير صاحبه من تحاسين وتلاوين ، ولعل ذلك ما جعله يعد المذهب الكلامى من ألوان البديع[٣] ، وهو لا يريد بهذا المذهب إلا ما أدخله المتكلمون من طرق جدل وحوار وسفسطة وأدلة وبراهين ومقدمات وأقيسة . وانظرْ فى الحوار الطويل الذى رواه فى الحيوان عن النظام ومعبد فى تفضيل الكلب

(١) الحيوان ٢/١٤٠

(٢) الحيوان ١/١١ .

(٣) البديع لابن المعتز (طبع كراتشقوفسكى) ص ٥٣ .

على الديك أو العكس تـرَ حوارهما يمتد فى عشرات الصحف ، وقد استعان كل منهما بما يمكن من براهين حسية وعقلية على التدليل لرأيه ، وإن الإنسان ليخيل إليه كأن كلاً منهما قد استعار شخصية الحيوان الذى يدافع عنه ، وهو لذلك يتسلح لخصمه بكل ما يستطيع العقل أن يسعفه به من براهين صحيحة وغير صحيحة فى افتنان وبراعة يدلان على مبلغ ما فتقت الفلسفة من عقول المتكلمين وألسنتهم .

وقد تربَّى الجاحظ فى هذه البيئة على يد أستاذه النظَّام فأخرجه لَسِناً جدلاً يعرف كيف يحاور ويداور وكيف يستعين بالمنطق الصحيح، وكيف يستعين بالمنطق السقيم ليدعم رأيه ، وينصر فكرته، وقد تشبث بطريقة الحوار والجدل وما يتعلق بهما من مغالطة وسفسطة، فتكلم كثيراً عن محاسن الأشياء ، ثم عاد فتكلم عن مساويها ، ولعل خير ما يفسر ذلك كتاب المحاسن والأضداد الذى ينسب إليه ، وقد لا يكون هذا الكتاب له ، ولكن من يقرأ فيه يؤمن بأنه إما أن يكون من صنع الجاحظ نفسه أو من صنع شخص استمده من مغالطات الجاحظ فى كتبه .

والجاحظ كما يعتمد على المغالطة أحياناً نراه أيضاً يعتمد على صحة الأدلة وصدق المقدمات أحياناً أخرى ، بل إن هذا هو الغالب عليه ، وقد تلوَّم فى حيوانه من لا يعنون بصحة مقدماتهم [١] ، وعاب النظَّام كما مرَّ بنا بأنه لا يصحح الأصل الذى يبنى عليه قياسه، وقد جعله ذلك يمتاز من كتَّاب عصره باستخدام المنطق استخداماً واسعاً فى تضاعيف أسلوبه، فهو دائماً يعرض أفكاره فى صورة حجاج يقوم على براهين وأدلة ومقدمات وأقيسة، ولا غرابة ، فقد كان يعتد بذلك كلون عباسى بديع ينبغى أن يدخل فى دوائر النثر وأن تحلَّى نماذجه به حتى تنبسط الكتابة ويتسع التعبير فيها اتساعاً يرفده العقل الدقيق والمنطق الوثيق، وإن الجاحظ ليتشبث بذلك فى أبلغ صورة يمكن العقل أن يتصور بها عبَّاسيًّا فى القرنين الثانى والثالث يريد أن يسيطر المنطق على كل ما يكتب ، بل أيضاً على كل ما يعمل

---

(١) الحيوان ٣/٣٧٩ .

فقد روى الرواة أنه اجتمع مع يوحنا بن ماسويه على مائدة بعض الوزراء، وكان فى جملة ماقُدِّم مَضيرة عقب سمك، فامتنع يوحنا من الجمع بينهما، فقال له الجاحظ: « أيها الشيخ لايخلو أن يكون السمك من طبع اللبن أو مضاداً له، فإن كان أحدهما ضد الآخر فهو دواء له وإن كانا من طبع واحد فلنحسب أنا قد أكلنا من أحدهما إلى أن اكتفينا »، فقال يوحنا: والله ما لى خبرة بالكلام ولكن كُلْ يا أبا عثمان، وانظر ما يكون فى غد، فأكل الجاحظ انتصاراً لدعواه، ففُلج فى ليلته، فقال: هذه والله نتيجة القياس المحال »[١]. وإن هذه القصة لترمز إلى عنايته بالمنطق فى كل ما يتصل به من قول وفعل. ونحن لا نبعد إذا قلنا إنه أهم كاتب فى العصر العباسى الأول حكَّم المنطق فى كل ما يصنع، فقد كان يعتمد عليه اعتماداً بالغاً فى جميع كتاباته، واقرأ له هذه القطعة التى يتحدث فيها عن الخير والشر وأنهما ضروريان لصلاح الكَوْن[٢]:

«اعلم أن المصلحة فى أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مُدَّتها امتزاج الخير بالشر، والضارِّ بالنافع، والمكروه بالسار، والضَّعة بالرفعة، والكثرة بالقلة، ولو كان الشرُّ صِرْفاً هلك الخلق، أو كان الخير مَحْضاً سقطت المحنة. وتقطعت أسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدمُ الحكمة، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز، ولم يكن للعالم تثبتٌ وتوقف وتعلم، ولم يكن علم، ولا يُعْرَفُ باب تبيُّنٍ، ولا دَفْعُ مضرّة، ولا اجتلاب منفعة، ولا صَبْرٌ على مكروه، ولا شكر على محبوب، ولا تفاضلٌ فى بيان، ولا تنافس فى درجة، وبطلتْ فرحةُ الظفر وعِزّ الغلبة، ولم يكن على ظهرها مُحِقٌّ يجد عزّ الحق، ومبطل يجد ذلّة الباطل، وموقن يجد بَرْدَ اليقين، وشاكٌّ يجد نَقْصَ الحيرة وكَرْبَ الوجوم، ولم تكن للنفوس آمال، ولم تتشعبها الأطماع، ومن لم يعرف كيف الطمع لم يعرف اليأس، ومن جَهِلَ اليأس، جهل الأمن، وعادت الحالُ من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياء والأولياء حال السَّبُعِ والبهيمة، وإلى حال الغباوة

---

(١) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ١/١٨١.

(٢) الحيوان ١/٢٠٤.

والبلادة وإلى حال النجوم فى السُّخْرة فإنها أنقص من حال البهائم فى الرَّتْعَةِ ، ومن هذا الذى يسره أن يكون الشمس َوالقمر والنار والثلج أو بُرْجاً من البروج أو قطعة من الغيم ، أو يكون المجرّة بأسرها ، أو مكيالاً من الماء ، أو مقداراً من الهواء . . وأين تقع لذةُ البهيمة بالعَلوفة ولذة السبع بلطْع الدم وأكْل اللحم ، من سرور الظفر بالأعداء ، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان القَرْع ؟ وأين ذلك من سرور السُّؤْدد ومن عِزِّ الرياسة ؟ ولو استوت الأمور بطل التمييز ، وإذا لم تكن كلفةٌ لم تكن مثوبة . . ولو كان الأمر على ما يشتهيه الغرير والجاهل بعواقب الأمور لبطل النظر وما يَشحذ عليه ، وما يدعو إليه ولتعطلت الأرواح من معانيها والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياءُ حظوظها وحقوقها ، فسبحان من جعل منافعها نعمة ، ومضارها ترجع إلى أعظم المنافع ، وقسَّمها بين مُلِذٍّ ومؤلم ، وبين مؤنس وموحش ، وبين صغير حقير ، وجليل كبير ، وبين عدو يرصدك ، وبين عقل يحرسك ، وبين مسالم يمنعك ، وبين معين يعضُدك ، وجعل فى الجميع تمام المصلحة ، وباجتماعها تم النعمة ، وفى بطلان واحد منها بطلان الجميع ، قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً فإن الجميع إنما هو واحدٌ ضُمّ إلى واحد ، وواحد ضُمّ إليهما ، ولأن الكل أبعاض ، ولأن كل جثة فمن أجزاء ، فإذا جوَّزت رفع واحد والآخر مثله فى الوزن ، وله مثل علته وحظه ونصيبه ، فقد جوّزت رفع الجميع ، لأنه ليس الأول بأحق من الثانى فى الوقت الذى رجوت فيه إبطال الأول ، والثانى كذلك والثالث والرابع حتى تأتى على الكل وتستفرغ الجميع » .

أرأيت إلى هذا الدفاع القوى عن ضرورة بقاء الشر فى الكون ؟ وإنه لدفاع يستمده الجاحظ من التفكير الدقيق فى حقائق الكون ، وهو تفكير يقوم على المنطق والاستدلال والقياس كما يقوم على التأثر ببعض آراء المتكلمين الذين يرفضون الجبر والتسخير فى الحياة ويضعون مكانهما الاختيار والتمكين ، وهذا كله يُبْسَط فى ضروب من تلاوين الصوت وتحاسينه ، وإنها لضروب تشيع فى أسلوب منطقى منقطع القرين . ومن هذين المفتاحين ؛ جمال الصوت وجمال المنطق ، تسقط النغمات التى تميز الجاحظ فى جميع فنه وصنعته ، إذ ما يزال

يتداخل التفكير العقلى وما يُشْفَعُ به من قدرة على البرهان والاستدلال مع التفكير الفنى وما يشفع به من قدرة على تقطيع الصوت ، وما ينطوى فى هذا التقطيع من تكرار وترداد ، وبذلك يلتئم هذا الفن الجاحظى الذى يشيع فيه جمال العقل كما يشيع فيه جمال الصوت. وارجعْ إلى هذه القطعة الجميلة فإنك ترى الجاحظ يحسن التدليل على فكرته التى يذهب فيها إلى أن العالم يتألف من الخير والشر جميعاً ، بحيث إذا سقط الشر منه سقط الحائط الذى يؤلفه ، وكذلك الشأن إن سقط الخير ، وإن الجاحظ ليجعل القضية قضية العقل ، فإن تغيير الكون عما هو ، يجعلنا نفقد آلة التفكير ، ومتى فقدناها أصبحنا لا نستطيع التأمل فى علم ، ولا الشعور بشىء ملذ أو مؤلم ، إذ نصير كالحيوان فى الرتعة ، بل لقد نتحول إلى الجماد فى السخرة : « ومن هذا الذى يسره أن يكون الشمس والقمر والنار والثلج أو بُرْجاً من البروج أو قطعةً من الغيم؟» إن الكون يجب أن يستمر كما هو : خير ونفع ، وشر وضر وإن كل جزء من أجزاء الخير ، ومثله كل جزء من أجزاء الشر ، يجب أن يظل كما هو لأن العالم يتألف من جميع هذه الأجزاء وما الجميع ؟ «إنما هو واحد ضُمَّ إلى واحد ، وواحد ضم إليهما ، ولأن الكل أبعاض ، ولأن كل جثة فمن أجزاء ، فإذا جوزت رفع واحد والآخر مثله فى الوزن ، وله مثل علته وحظه ونصيبه ؛ فقد جوزت رفع الجميع ، لأنه ليس الأول بأحق من الثانى فى الوقت الذى رجوت فيه إبطال الأول ، والثانى كذلك ، والثالث ، والرابع حتى تأتى على الكل وتستفرغ الجميع » فأىُّ عقل هذا الذى يكتب بتلك المقدرة على توليد الأفكار من جهة والإدلاء بكل ما يمكن من حجج و براهين من جهة أخرى؟ إنه عقل الجاحظ وهو العقل الذى جعل ابن العميد — كما مر بنا — يقول : « إن كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانياً » . فالعقل عند الجاحظ هو أساس صنعته الذى يستمد منه أدلته كما يستمد منه توليده للأفكار والمعانى ، وأيضاً فإنه يستمد منه قياسه ومقابلاته ، وقد كان مشغوفاً بالمقابلة فى معانيه وأفكاره شغفاً شديداً ، وإن الإنسان ليخيل إليه كأنما سُخِّر العقل بجميع مقوماته للجاحظ ، وهو يختار ما يشاء من هذه المقومات فى رسائله وكتبه ، ولعل ذلك

ما جعل المأمون يقول له وقد قرأ كتبه فى الإمامة: « قد كان بعض من نرتضى عقله ، ونصدّق خبره، خبَّـرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثْرة الفائدة ، فقلت له : قد تُرْبى الصفة على العِيان، فلما رأيتها رأيت العيان قد أرْبَى على الصفة فلما فَلَيْتُها أربى الفَلْىُ على العِيان كما أربى العيان على الصفة»[1]. ونحن مهما وصفنا من عقل الجاحظ وما يشفع به كتابته من تلاوينه وتحاسينه، فإن ذلك لن يكون شيئاً بجانب ما يحسه القارئ له حين يتصفح أعماله، ويقف على مدى استعانته بالعقل فى تأليفها وصوغها ، والحق أن هذا عمل أوسع من أن نحيط به فى صفحات معدودة، وغاية ما يمكننا هو أن نجمل هذا الصنيع فى أن الجاحظ كان يُدمج إدماجاً بديعاً بين التلوين الصوتى والتلوين العقلى فى آثاره، فإذا هى تصور طرافة التفكير فى أعلى صورة كما تصور طرافة الصوت ، وما ينساق مع هذه الطرافة من تكرار وترداد كان يستعين بهما دائماً على تدبيج أساليبه وتحبيرها ؛ وإنهما ليتجليان دائماً فى كل ما يملى ويكتب كما يتجلى جمال التفكير وجمال التعبير .

٨

رسالة التربيع والتدوير

ونحن نقف عند رسالة للجاحظ تجمع بين دفتيها محاسن التفكير الدقيق والتعبير الأنيق، وهى رسالة أنشأها فى هجاء أحمد بن عبد الوهاب أحد أصحاب محمد بن عبدالملك الزيات[2] وقد وصفه بأنه من بجيلة ومن أصحاب صالح بن على وسليمان بن وهب وندماء جعفر الخياط[3]، وقال إنه من الرافضة المشبِّهة[4]، ونعته بأنه « يعد أسماء الكتب ولا يفهم معانيها، ويحسد العلماء من غير أن يتعلق فيهم بسبب، وليس

(١) البيان والتبيين ٣/ ٣٧٤ .

(٢) أغانى (طبع الساسى) ٢١/ ٣٢ .

(٣) رسائل الجاحظ (طبع الساسى) ص ١٠٠ .

(٤) رسائل الجاحظ ص ١٤٢ .

فى يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأدب »[١] . وذكر أنه كان يخاشنه ويطاوله[٢] . ومن أجل هذه المخاشنة والمطاولة وما ركب فيه من الحسد ألّف له هذه الرسالة يسأله فيها عن بعض معارف عصره المشكلة سواء فى المنطق والفلسفة ، أم فى الكيمياء والصنعة ، أم فى الإنسان والحيوان ، أم فى تاريخ العرب وتاريخ غيرهم من الأمم ، وهو ينهى هذه الأسئلة الكثيرة التى امتدت فى خمسين صحيفة من القطع الكبير بقوله : « وقد سألتك وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيراً ، فإن أردت أن تعرف حَقّ هذه المسائل وباطنها وما فيها خرافة وما فيها محال ، وما فيها صحيح وما فيها فاسد ، فألزم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابى[٣] . وحقًّا إن من يتصفح الرسالة يجد أن كثيراً مما عرض له الجاحظ فيها ذكره فى حيوانه ، ولعل فى هذا ما يدل على أنها ألفت بعد كتاب الحيوان : أى فى أوقات مرضه وعلته ، ويشهد لذلك أننا نجده يُنحى على أحمد بن عبد الوهاب باللائمة على ما يدعيه من علم بالحيوان وأنه يعرف فى الخفاش سبعين أعجوبة[٤] ، وأيضاً فقد تحدث فيها عن ابن الزيات الذى قدم له كتاب الحيوان بصيغة الماضى[٥] ، مما يدل على أن عهده كان قد انقضى حين كتابة هذه الرسالة ، والمسألة لا تحتاج كل هذا الاستنتاج ، لأن الرسالة مبنية على سنة الاستطراد التى عرفناها للجاحظ ، والتى زعمنا أنها جاءت فى الغالب نتيجة لعلته وعجزه عن ترتيب كتبه ورسائله التى ألفها حينئذ ، وهو يستهلها على هذا النمط[٦] :

« كان أحمدُ بن عبد الوهاب مُفْرِطَ القِصَر ويدعى أنه مفرط الطول ، وكان مربّعاً وتحسبه لسعة جُفْرته واستفاضة خاصرته مدوّراً ، وكان جَعْدَ الأطراف قصير الأصابع ، وهو فى ذلك يدّعى السَّباطة والرشاقة ، وأنه عَتيق الوجه ،

---

(١) رسائل الجاحظ ص ٨٣ .
(٢) نفس المصدر ص ٩٥ .
(٣) نفس المصدر ص ١٤٢ .
(٤) نفس المصدر ص ١٤٠ .
(٥) نفس المصدر ص ١٠٩ .
(٦) ارجع إلى الرسالة بأكملها فى نفس المصدر السابق وفى طبعتها الأخيرة بتحقيق شارل بلات .
(٧) الجفرة : جوف الصدر .

آخْمَص[1] البطن ، معتدل القامة ، تام العظم ، وكان طويل الظهر ، قصيرَ عظم الفخذ ، وهو مع قِصَر عظم ساقه يدعى أنه طويل الباد[2] ، رفيع العِماد ، عادىَ القامة ، عظيم الهامة ، قد أعطى البسطة فى الجسم ، والسعة فى العلم ، وكان كبير السن متقادم الميلاد ، وهو يدّعى أنه معتدل الشباب حديث الميلاد » .

ونحن منذ هذه السطور الأولى للرسالة نحس أننا بإزاء فن جديد في الهجاء يستعين فيه صاحبه بضروب من المفارقات ، فأحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول ، وهو مربع وتحسبه لسعة جوف صدره واستفاضة خاصرته مدّوراً ثم هو جَعْد الأطراف قصير الأصابع ومع ذلك يدعى السّباطة والرشاقة ، وأيضاً فإنه طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، ويدعى أنه طويل الباد رفيع العماد ، عادى القامة عظيم الهامة ، وفى هذا كله مناقضات ومفارقات مختلفة ، ومن هذه المناقضات والمفارقات يستمد الجاحظ هجاءه لأحمد ابن عبد الوهاب وقد استطاع أن ينفذ من ذلك إلى تشويهه تشويهاً ربما كان يتفوق فيه على أصحاب فن التصوير الساخر « الكاريكاتورى » فى العصر الحديث ، إذ نراهم يشوّهون الأجسام بطرق مختلفة ، عمادُها بعض الحقائق المادية فيها وإنهم ليتعلقون بهذه الحقائق : يكبّرونها ، ويستمدون منها ما يشاءون من هزل وسخرية . وكذلك كان الجاحظ فى تلك الرسالة هَجّاءً ساخراً يعتمد على جسم أحمد بن عبد الوهاب وما يَسِمه من قصر وتبعُّج ليستخرج ما يريد من هزله ؛ فهو تارة صاحب أصابع قصيرة جعدة كأصابع الحيوان وتارة هو طويل الظهر . قصير عظم الفخذ . وهو لا يكتفى بتشويه جسمه ، بل نراه يعمد أيضاً إلى تشويه عقله بواسطة ما يعرضه من أسئلة يهزأ به فيها كما يهزأ بتفكيره وكل ما يتصل به وهو يستعين على ذلك كله بفكرة الطول والقصر والتربيع والتدوير يستمد منهما كل ما يمكن من مفارقات ومناقضات ، فتارة يدعى له الطول فى الباطن ، وتارة ثانية يصفه بالقصر ، وتارة ثالثة ينفيهما عنه ، ويدعى له التربيع والتدوير ، ساخراً من جسمه وشكله .

---

(١) أخمص : ضامر .   (٢) الباد : باطن الفخذ .

فى هذا ما يجعلنا نفهم لماذا سمِّيت الرسالة باسم رسالة التربيع والتدوير ، فقد بناها الجاحظ على هذه الفكرة التى نؤمن بأنه استعارها من فكرة الأوساط اليونانية المعروفة فى الأخلاق ، لكن بعد أن حوّرها وعدلها على هذا النحو ، فإذا هى لا تثار فى الأخلاق وإنما تُثار فى الأجسام وفى هجاء أحمد بن عبد الوهاب . وقد كان الجاحظ يعجب إعجاباً شديداً بهذه الفكرة ، وذكرها مراراً فى كتبه ورسائله ، بل ذكرها فى هذه الرسالة نفسها ، إذ يقول لابن عبدالوهاب : « اعلم أن الحسد اسم لما فضل عن المنافسة ؛ كما أن الجبن اسم لما فضل عن التوقِّى ، والبخل اسم لما قَصَّر عن الاقتصاد ، والسَّرَف ما جاوز الجود ، وأنت — جُعلت فداك — لا تعرف هذا ، ولو أدخلتك الكور ، ونفخت عليك إلى يوم يُنْفَخُ فى الصور » . وما من ريب فى أن الجاحظ عبَّر عن طرافة مدهشة حين استطاع أن يستغل هذه النظرية اليونانية فى تعبيره الفنى هذا الاستغلال القيِّم ، فإذا به يخرجها من دوائرها الفلسفية إلى دوائره هو الفنية ، مستعيناً على ذلك بمجاميع من الأخطاء وبما يمتاز به من مرونة فى الجدل والحوار والسفسطة وما يُطْوَى فى ذلك من ضروب تناقض وتقابل ، واستمعْ إليه يعرض ابن عبد الوهاب على هذه الفكرة فيقول :

« وبعد فأنت — أبقاك الله — فى يدك قياس لا ينكسر ، وجواب لا ينقطع ، ولك حَدٌّ لا يُفَلُّ ، وغَرْبٌ لا ينثنى ، وهو قياسك الذى إليه تُنْسَبُ ، ومذهبك الذى إليه تذهب : أن تقول : وما علىَّ أن يرانى الناس عريضاً ، وأكون فى حكمهم غليظاً ، وأنا عند الله طويل جميل ، وفى الحقيقة مقدود رشيق ، وقد علموا — أبقاك الله — أن لك مع طول الباد راكباً طول الظهر جالساً ، ولكن بينهم فيك — إذا قمت — اختلاف ، وعليك لهم — إذا اضطجعت — مسائل ، ومن غريب ما أعطيت ، وبديع ما أوتيتَ أنا لم نر مقدوداً واسع الجُفْرة غيرك ، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك ، فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب ، فيا شعراً جمع الأعاريض ، ويا شخصاً جمع

---

(١) الكور : مجمرة الحداد .

الاستدارة والطول ! بل ما يهملك من أقاويلهم ، ويتعاظمك من اختلافهم ، والراسخون فى العلم والناطقون بالفهم يعلمون أن استفاضة عَرْضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سَمْكك ، وأن ما ذهب منك عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولا ، ولئن اختلفوا فى طولك لقد اتفقوا فى عرضك ، وإذ قد سلموا لك بالرغم شطراً ، ومنعوك بالظلم شطراً ، فقد حصلت ما سلموا ، وأنت على دعواك فيما لم يسلموا ! ولعمرى إن العيون لتخطئ وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل إذ كان زماماً على الأعضاء ، وعياراً على الحواس... ولو لم يكن فيك من العجب إلا أنك أول من تعبده الله بالصبر على خطأ الحس ، وبالشكر على صواب الذهن لقد كنت فى طولك آية للسابلين وفى عرضك مناراً للمضلين. وقد تظلم المرْبُوعُ مثلى من الطويل مثل محمد ومن القصير مثل أحمد . . . والمرْبوعُ — بحمد الله — اعتدلت أجزاؤه فى الحقيقة كما اعتدلت فى المنظر ، فقد استغنى بعِزّ الحقيقة عن الاعتذار ، وبحكم الظاهر عن الاعتلال ! وقد سمعنا من يذم الطوال كما سمعنا من يزرى على القصار ولم نسمع أحداً ذم المربوع ولا أزْرى عليه ، ولا وقف عنده ولاشك فيه . . وبعد فما يحوجك إلى هذا ، وما يدعوك إليه ، وأشباهك من القصار كثير ، ومن ينصرك منهم غير قليل ، وقد رأيتك زماناً تحتج بالنعمان بن المنذر وبضَمْرة .. وبرجال ناهيك بهم رجالا ، وبأعلام كفاك بهم أعلاماً ، ورأيتك تقول : إن كان الفضل فى النكاية وفى الشدة والصلابة فصغار كل شىء أشد ضرراً وأدق مدخلا ، وأظهر قوة وجلداً ، كالحجارة أصلبها الحصى ، وكالحيات أقتلها الأفعى.. وقلت إن كان الفضل فى العدد فمنا يأجوج ومأجوج ومنا الذَّرُّ والفَراش ، ومنا الدعاميص والبعوض والرمل والتراب وقطر السحاب» .

وعلى هذا النحو يسوق الجاحظ حديثه فى الرسالة متلاعباً بفكرة الطول والقصر وما ينبغى أن يكون من التوسط بين الطرفين ، وإنه ليتسع بالحوار والجدل فى ذلك اتساعاً شديداً ، فإذا هو يقف تارة فى جانب القصر يحتج له ، وتارة يقف فى جانب الاعتدال ، وقد يقف فى جانب الطول ، يُدلى فى كل

جانب بالحجج والبراهين كأنه يناقش مسألة علمية دقيقة. وتهديه هذه المناقشة دائماً إلى فكرة التربيع والأخذ به حتى لا يخرج مهجوّه عن حدود الاعتدال إلى حدود التقصير أو التبذير، وكأنى بالجاحظ أحال أحمد بن عبد الوهاب إلى مشكلة من مشاكل الاعتزال أو قل إلى مشكلة من مشاكل الفلسفة، إذ نراه يحقق فيه مسألة التوسط بين الطرفين تحقيقاً دقيقاً، وهو تحقيق يطوى كل ما يريد من سخرية به وتهكم عليه إذ يتناوله مرة بالطول ومرة بالعرض وهو فى أثناء تناوله يمده تارة ويقصره تارة أخرى وتارة ثالثة يبعّجه فى مناظر تستخرج منا الضحك على ما يصنعُ بصاحبه من تشويه، وانظرْ إليه يحتج لطرفى الطول والقصر فيقول :

«وقلت: والناس وإن قالوا فى الحسن كأنه طاقة ريحان، وكأنه خوط[1] بان، وكأنه قضيب خَيْزُران، وكأنه غُصْن بان، وكأنه رُمْحٌ رُدَيْنِىٌّ، وكأنه صفيحة يمانية، وكأنه سيف هُنْداوانى، وكأنها جانّ، وكأنها جَدْل عِنان[2]، فقد قالوا كأنه المُشترى[3]، وكأن وجهه دينار هِرَقْلِى، وما هو إلا البحر، وما هو إلا الغيث، وكأنه الشمس، وكأنها دارة القمر، وكأنها الزهرة، وكأنها درة، وكأنها غمامة، وكأنها مهاة، فقد تراهم وصفوا المستدير العريض بأكثر مما وصفوا به القضيف[4] والطويل. وقلت: وجدنا الأفلاك وما فيها، والأرض وما عليها، على التدوير دون التطويل، وكذلك الورق والتمر والحب والثمر والشجر، وقلت: والرمح إن طال فإن التدوير عليه أغلب، لأن التدوير قائم فيه موصولا ومفصلا؛ والطول لا يوجد فيه إلا موصولا، وكذلك الإنسان وجميع الحيوان، وقلت: ولا يوجد التربيع إلا فى المصنوع دون المخلوق، وفيما أكره على تركيبه دون ما خُلِّى وسُوِّمَ[5] وطبيعته، وعلى أن كل مربع ففى جوفه مدور، فقد بان المدوّر بفضله وشارك المطوّل فى حصته. ومن العجب أنك تزعم أنك طويل فى الحقيقة، ثم تحتج للاستدارة والعرض فقد أضربت عما عند الله صَفْحاً، ولهجتَ بما عند الناس».

---

(١) الخوط: الغصن الناعم. البان: شجر

(٢) جدل عنان: أى مفتولة فتل العنان وهو زمام الدابة كناية عن أنها مجدولة الخلق طويلة.

(٣) المشترى: كوكب.

(٤) القضيف: الضامر.

(٥) سوم: ترك.

أرأيت إلى هذا الاحتجاج ؟ إنه من أهم سمات الجاحظ فى كل ما يؤلف ويكتب ويملى إذ نرى عقله دائماً مشغوفاً بالأدلة يسوقها على ما يقوله فى هذا النحو البديع من الجدل والبحث . ألا تراه يحاول أن يتتبع الشعراء والأدباء فى نعتهم للأشياء بالحسن والجمال ليرى هل ما يضيفون إليه هاتين الصفتين من باب القصار أو هو من باب الطوال أو هو منهما جميعاً ؟ والجاحظ لا يكتفى بذلك فى احتجاجه وجدله ، إذ نراه يعمد إلى المغالطة عن طريق الرمح ، لأنه أجزاء موصول بعضها ببعض ، وإذن فالتدوير عليه أغلب ! ليس الرمح طويلا ، وإن تراءى ذلك فى الظاهر ، إنما هو مدور ، أما ما قد يبدو من طوله فغير صحيح ، لأنه يخالف الحقيقة التى تـُطـْوَى وراءه ، وكذلك قِصَرُ أحمد بن عبد الوهاب غير صحيح ، لأنه يخالف الطول الذى يُطْوَى خلفه وينبغى أن لا نحكم بالظاهر بل ينبغى أن نحكم بالباطن وما وراء الظاهر !

وإذاً فليس بين أيدينا حقيقة يمكن أن نطمئن إليها ، وكل آرائنا التى نكوّنها عن بعض الأشياء وأنها طويلة أو قصيرة قابلة للنقض فى رأى الجاحظ كى يرضى ابن عبد الوهاب ويمده بأسباب من القول للاحتجاج على طوله المستتر وراء قصره ، وهذا هو معنى أنه يلهج بما عند الناس ويترك ما عند الله . وما من ريب فى أن الجاحظ وصل إلى هذا كله عن طريق المغالطة التى يسوقها فى الرمح إذ يقول إنه يبدو طويلا ، وهو فى حقيقة الأمر قصير ، أو هو كما يقول الجاحظ مدوّر ، وذلك لسبب بسيط وهو أنه يتألف من مدورات ! وعلى هذا النحو ينتهى الجاحظ إلى أن كل مربع فهو فى جوفه مدور . وواضح أنه يعتمد فى ذلك كله على السفسطة ، وهو ينفذ منها إلى عرض صاحبه على فكرة القبح والحسن ، فإذا هو يصفه بالقبح تارة وما يلبث أن يصفه بالحسن تارة أخرى ، وجاء فى ذلك بطُرف لا تـُحْصَى على شاكلة قوله :

« ولو لم يكن لك إلا أنا لا نستطيع أن نقول فى الجملة ، وعند الوصف والمدحة : هو أحسن من القمر ، وأضوأ من الشمس وأبهى من الغيث . وأنا لا نستطيع أن نقول فى التفاريق : كأن عنقه إبريق فضة ، وكأن قدمه لسانُ حية ، وكأن عينه

ماويّة[1] ، وكأن بطنه قُبْطية[2] ، وكأن لسانه ورقة ، وكأن أنفه حَدُّ سيف ، وكأن حاجبه خَطٌّ بقلم ، وكأن لونه الذهب ، وكأن عوارضه البَرَدُ ، وكأن فاه خاتَم ؛ وكأن جبينه هلال وهو أطهرُ من الماء ، وأرق طباعاً من الهواء وهو أمضى من السَّيْل ، وأهدى من النجم ، لكان فى ذلك البرهان النيِّر ، والدليل البَيِّن ، وكيف لا يكون كذلك وأنت الغاية فى كل فضل ، والنهاية فى كل شكل ، وأما قول الشاعر :

يَزيدكَ وجهُهُ حسْنًا إذا ما زدتَهُ نَظَرَا

وقولُ الدمشقيين : (ما تأملنا قط تأليف مسجدنا وتركيب محرابنا وقُبَّة مصلاّنا إلا أثار لنا التأمل واستخرج لنا التفرُّس غرائبَ حسن لم نعرفها وعجائب صنعة لم نقف عليها ، وما ندرى أجوهرُ مقطّعاته أكرم فى الجواهر ، أم تنضيد أجزائه فى تنضيدات الأجزاء) فإن ذلك معنى مسروق منى فى وصفك ، ومأخوذ من كتبى فى مدحك . . ومن يطمع فى عَيْبك ، بل من يطمع فى قدرك ، وكيف وقد أصبحتَ وما على ظهرها خَوْدٌ[3] إلا وهى تتعثّر باسمك ولا قينة إلا وهى تغنى بمدحك ، ولا فتاة إلا وهى تشكو تباريحَ حُبِّك ، ولا محجوبة إلا وهى تثقب الخروق لمَرِّك ، ولا عجوز إلا وهى تدعو لك ، ولا غيور إلا وقد شقى بك ، فكم من كبد حَرّى مُنْضَجَة ومصدوعة مُفْرَثة[4] ، وكم من حشا خافق وقلب هائم ، وكم من عين ساهرة وأخرى جاهدة ، وأخرى باكية ، وكم من عَبْرى مولهة ، وفتاة معذبة — قد أقرح قلبَها الحزنُ ، وأجهد عينها الكمدُ — قد استبدلتْ بالحلى العُطْلة ، وبالأنس الوحشة ، وبالتكحيل المَرَه[5] فأصبحت والهة مبهوتة ، وهائمة مجهودة بعد طَرْف ناصع ، وسن ضاحك ، وشكل ساحر ، وبعد أن كانت ناراً تتوقد ، وشعلة تتوهج . . . وما ندرى فى أى الحالين أنت أجمل ، وفى أى المنزلتين أنت أكمل : إذا فرقناك أو إذا جمعناك ، وإذا ذكرنا كلك ، أو إذا تأملنا بعضك ، فأما

---

(١) ماوية : مرآة .

(٢) قبطية : ثياب كانت تصنع بمصر من نسيج الكتان الرفيع .

(٣) الخود : الشابة الجميلة .

(٤) مفرثة : مشقوقة .

(٥) المره : عدم التكحيل وتقرح الجفون .

كـفك فهى التى لم تخلق إلا للتقبيل والتوقيع ، وهى التى يحسن بحسنها كل ما اتصل بها ، ويختال بها كل ما صار فيها ، وكما أصبحنا وما ندرى آلكأس فى يدك أحسن ، أم القلم ، أم الرمح الذى تحمله ، أم المِخْصَرة ، أم العنان الذى تمسكه ، أم السوط الذى تعلقه ؟ وكما أصبحنا وما ندرى أى الأمور المتصلة برأسك أحسن ، وأيها أجمل وأشكل ، آللِّمَّةُ ، أم خطّ اللحية ، أم الإكليل ، أم العصابة ، أم التاج ، أم العمامة ، أم القِناع ، أم القلنسوة ؟ فأما قدمك فهى التى يعلم الجاهل كما يعلم العالم ، ويعلم البعيدُ الأقصى كما يعلم القريب الأدنى ، أنها لم تخلق إلا لمنبر ثغر عظيم أو ركاب طِرْف كريم ، وأما فوك فهو الذى لا ندرى أى الذى تتفوّه به أحسن ، وأى الذى يبدو منه أجمل ، آلحديث ، أم الشعر ، أم الاحتجاج ، أم الأمر والنهى ، أم التعليم والوصف ؟ . . . وقد علمنا أن القمر هو الذى يضرَبُ به الأمثال ، ويشبَّه به أهل الجمال ، وهو مع ذلك يبدو ضئيلا نِضْواً ، ومعوَّجاً شَخِتاً(١) ، وأنت أبداً قمر بدر فخم غَمْر ، ثم هو مع ذلك يحترق فى السِّرار(٢) ، ويُتشاءَم به فى المحاق ، ويكون نحساً كما يكون سعداً ، ويكون نفعاً ، كما يكون ضرًّا . . . وأنت دائم اليمن ظاهر السعادة ، ثابت الكمال ، شائع النفع ، تكسو من أعراه ، وتكِنّ من أشحبه ، وعلى أنه قد محق حُسْنُه المَحاق ، وشأنه الكَلَفَ(٣) ، وليس بذى توقد ولا اشتعال ، ولا خالص البياض ، ولا بمتلألئ ، ويعلوه القَيْم ، ويكسوه ظل الأرض ثم لا يعتريه ذلك إلا عند كماله ، وليلة فخره واحتفاله ، وكثيراً ما يعتريه الصغار من بخار البحار ، وأنت ظاهر التمام ، دائم الكمال ، سليم الجوهر ، كريم العنصر ، نارى التوقد ، هوائى الذهن ، دُرِّى اللون ، روحانى البدن ، وعلى أن ضياءه مستعار من الشمس وضياءك عارية عند جميع الخلق . . فكم بين المعير والمستعير ، والمتبيِّن والمتحيِّر ، وبين العالم ومن لا حسّ فيه ، فلا زالت الأرض بك مشرقة ، والدنيا معمورة ،

---

(١) شختا : ضامراً . نضوا : مهزولا .

(٢) السرار : الليالى التى يختفى فيها القمر فلا يرى .

(٣) الكلف : ما يعترى القمر من حمرة الخسوف . والمحاق : آخر الشهر أو ثلاث ليال من آخره .

ومجالس الخير مأهولة ونسيم الهواء طيباً ، وتراب الأرض عَبِقاً » .

والحق أن الجاحظ بلغ من سخريته بابن عبد الوهاب ما لم يبلغه كاتب ولا شاعر فى اللغة العربية من سخريته بشخص من الأشخاص ، والطريف أنه يصل إلى ذلك لا عن طريق السب والشتم والقذف وإنما عن طريق ما يسوقه من تهكم وسخرية لاذعة بصاحبه ، فإذا هو يحتكم معه إلى نظرية الأوساط اليونانية يستمد منها متناقضاته ، كما يحتكم إلى قبحه وما يضفيه عليه من هذا الحسن الحادث ، ليستخرج كل ما يمكن من مفارقات فيه ، وإنه ليستعين على ذلك بضروب من الجدل والاحتجاج والحوار ، كما يستعين عليه بضروب من السفسطة والمغالطة والمقابلة بين الحقائق بعضها وبعض ، أو المقابلة بينه وبين أشياء أخرى على نحو ما يصنع به فى هذه القطعة من المقابلة بينه وبين القمر هذه المقابلة الساخرة الطريفة التى يعبث فيها به ما شاء له هواه ، وهو عبث يستخرجه من التناقض بين قبحه الحقيقى وحسنه الذى ادعاه له ، كما يستخرجه من قِصَره ، وما ادعاه له من طول وتربيع . ومعنى ذلك أن الجاحظ بنى رسالته على فن المفارقة ، هذا الفن الذى رَشَّحت له نظرية الأوساط اليونانية عنده ، وقد أخذ يضم إلى ذلك ضميمات أخرى من أسئلته الكثيرة حتى تتم له سخريته من صاحبه ، وإن هذه الأسئلة لتشغل الجزء الأكبر من رسالته ، وانظرْ إليه يقول :

« يا تَقْعِيد الفلك كيف أمسيت ؟ ويا قوة الهَيولا كيف أصبحت ؟ حدِّثْنِي كيف رأيت الطوفان ، ومتى كان سَيْل العَرِم ، ومذ كم مات عُوج ؟ ومتى تبلبلت الألسن ؟ وما حبَس غرابَ نوح ؟ وكم لبثتم فى السفينة ؟ ومذ كم ظهرت الجبال ونضب الماء عن النجف ؟ وأى هذه الأودية أقدم : أنهر بلخ أم النيل أم الفرات أم دجلة أم جيحان أم سيحان ؟ . . وخبِّرنى عن هِرْمِس أهو إدريس ؟ وعن أرْميا أهو الخضر ؟ وعن يحى بن زكريا أهو إيليا ؟ وعن ذى القرنين أهو الإسكندر ؟ . . وخبرنى عن قحطان ألِعَابر هو أم لإسماعيل ؟ وعن قضاعة ألمعد ابن عدنان أم لملك من حمير ؟ وما القول فى هاروت وماروت ؟ وما عداوة ما بين الديك والغراب ؟ . . . وخبرنى عن بحار نيطَس وعن قُبَيْس وعن الأصم وعن

المظلم وعن جبل الماس وعن قاف وأين كنت عام الجحاف ؟ وأين كان ملك الأزد من ملك الأشكان ؟ وأين كانا من ملك بنى ساسان ؟ وأين كان أبرويز من أنوشروان ؟ وخبرنى عن الفراعنة أهم من نسل العمالقة ؟ وعن العمالقة أهم من قوم عاد ؟ . . . وخبرنى كيف كان أصل الماء فى ابتدائه فى أول ما أفرغ فى إنائه ، أكان بحراً أجاجاً استحال عذباً زُلالا أم كان زلالا عذباً استحال بحراً ؟.. وكيف طمع — جُعلت فداك — الدهرىُّ فى مسألة البيضة والدجاجة مع تقادم ميلادك، ومرور الأشياء على بَدَنك وكيف كان بَدْءُ أمر البَدِّ فى الهند وعبادة الأصنام فى الأمم؟ وخبرنى ما عنقاء مُغْرب وما أبوها وما أمها ؟ وهل خُلقت وحدها ، أم من ذكر وأنثى؟ ولِمَ جعلوها عقيما وجعلوها أنثى؟ . . . وفيك أمران غريبان وشاهدان بديعان : جوازُ الكون والفساد عليك ، وتعاورُ النقصان والزيادة إياك ، جوهرك فلكى وتركيبك أرضى ، ففيك طول البقاء ، ومعك دليل الفناء ، فأنت علة للمتضاد وسبب للمتنافى . جعلت فداك قد شاهدت الإنس مذ خلقوا، ورأيت الجِنّ قبل أن يحتجبوا . . وشهدت العلل وهى تولد ، والأسباب وهى تصنع . . خبرنى ما السحر وما الطلسم ؟ وما صداقة ما بين الخنفساء والعقرب ؟ ولم مُلِّح الحمض ؟ ولم طُوِّقت الحمامة ؟ وما بال السواد يصبغ ولا ينصبغ والبياض ينصبغ ولا يصبغ ؟ وخبرنى ما جرى بينك وبين هرمس فى طبيعة الفلك وعن سماعك من أفلاطون ، وما دار فى ذلك بينك وبين أرسطاليس . . وخبرنى أين كان إقليدس من فيثاغورس ؟ وأين تلامذته من تلامذته ؟ ومن صاحب الشطرنج ؟ ومن صاحب كليلة ودمنة ؟ ولولا أنك — جعلت فداك — مسئول فى كل زمان ، والغاية فى كل دهر لما أفردتك بهذا الكتاب ، ولما أطمعت نفسى فى الجواب ، ولكنك قد كنت أذنت فى مثلها لهِرْمِس ثم لأفلاطون ثم لأرسطاليس ثم أجبت معبدا الجُهَنى وغَيْلان الدمشقى وعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وإبراهيم بن سَيَّار (النظام) وعلى بن خالد الأُسْوَارى ، فتربية كُفْئك والناشئ تحت جناحك أحقُّ بذلك وأولى ، وقد كان يجب أن تكون على ذلك أحرص وبه أعْنَى . . وزعم بعض تلاميذك أنك تعلم لم كان الفرس لا طِحال لها ، ولم صار البعير لا مرارة له ، ولم كانت السمكة لا رئة لها . . . ولم قيل أعق من ضبّ

وأبرُّ من هِرّة، وهما جميعاً يأكلان أولادهما، ولم عال الذئبُ أولاد الضبع إذا قُتلت أو ماتت؟ . ولم نامت الأرنب مفتوحة العينين؟ ولم أكل الذئب صاحبه إذا رأى به دماً ؟ .. ولم زعمتَ أن عمر نوح أطول الأعمار مع قولك : إن جميع الأنبياء قد حذّرت من الدجال وأن الدّجّال إنسان ؟ ! » .

ويحاول الجاحظ بهذه الأسئلة وأمثالها أن يقمع مراء أحمد بن عبدالوهاب ويظهر جهله وتمويهه ، وهو يخرجها هذا الإخراج الفكه الذى احتال عليه بمناقضاته، وخاصة بما كان من تربيع ابن عبد الوهاب وتدويره، وقبحه وجماله، وما من ريب فى أنه بلغ من ذلك كل ما كان يريد من سخرية بصاحبه. ونحن لا نُبعد إذا جعلنا الجاحظ إمام الهجائين فى العصر العباسى إذ استطاع أن يلعب لعباً واسعاً بما كان من قصر مهجوه وضيق عقله . والطريف أنه أخرج ذلك كله مخرج الجدل والحوار ومسح عليه بالسفسطة والمغالطة ، وهذا اللسان الذى فتقته الفلسفة ، وهذا البيان الذى شحذته الثقافة، وهو يعرض ذلك كله عرض محدث لبق ، ما يزال يخرج من باب إلى باب ومن فكرة إلى فكرة . وهى طريقة عامة فى كتابات الجاحظ بعد مرضه إذ تبدو فى شكل إملاءات ومحاضرات ، وهى لذلك تتصف بالتكرار والترداد والاستطراد كما تتصف بالسمات الأخرى التى تميزه من تقطيع صوتى بديع وتلوين عقلى طريف، وهو ينزلق إلى ذلك كله فى الرسالة التى بين أيدينا – عن طريق فكرة الأوساط فإذا زاد الجسم طولا، أو نقص قصراً ، أو اتسع عرضاً ، أصابته مساوئ الإفراط والتفريط، واستطاع الجاحظ أن يمثل بصاحبه وأن يشوهه ما استطاع من تمثيل وتشويه ، ونراه يعرض ذلك كله فى معارض بيانية ممتازة تجعلنا نؤمن بأنه تفوق فى صنعته على جميع كُتّاب عصره ، إذ كان يؤصلها على التلوين العقلى من طرف، والتلوين الصوتى من طرف آخر ، فإذا أساليبه تنهض بهذه الثروة العقلية الباهرة، وتلك الموسيقى الرصينة الرائعة ، والحق أن الجاحظ استطاع أن يدمج إدماجاً حسناً بين ثقافته وأسلوبه وأن يخرج من ذلك إلى هذه الصنعة الجاحظية البديعة التى تقوم على التجانس بين اللفظ الموسيقى الرشيق ، والمعنى العقلى الدقيق ، تجانساً يمتع العقل والفكر ، كما يمتع الحس والشعور .

الكتاب الثانى

ا – مذهب التصنيع

ب – مذهب التصنع

الفصل الأول

التصنيع والدواوين

١

التصنيع في الحياة العربية

لا نكاد نمضى فى العصر العباسى حتى نحس أن الحياة العربيّة تغيّر إطارها تغيراً تامًّا ، بل لقد تهدم إطارها القديم وحل محله إطار جديد من الزخرف والتصنيع ، فقد أخذ الناس يعيشون معيشة حضارية مترفة لا تتصل بالبادية ولا بالحياة العربية القديمة ، إنما تتصل بالأناقة والترف والزينة . وقد كانت بغداد حاضرة الخلافة العباسية أهم مدينة فى العالم العربى تعبّر عن هذه الحياة الجديدة وما يتصل بها من زخرف وتصنيع إذ «كانت تسمى بحق مدينة القصور المشيدة بالمرمر ، وكانت العمائر فيها مؤلفة من عدة طبقات ، وكان تأثير الذوق الفارسى ظاهراً جليًّا فى زخرفها ، وكانت تعلّق على النوافذ والأبواب ستور مزركشة وحرائر مشجرة ، أما الغرف فكانت مزدانة بالدواوين النفيسة والمناضد الثمينة والزهريات الخزفية والمرصّعات والمذهبات ، وكانت قصور الخليفة تتألق بالجواهر البراقة »[١] . وقد وصف بعض العباسيين داراً للواثق فقال : « إنها كانت مُلَبَّسة الحيطان بالوَشْيِ المنسوج بالذهب» . ويقول : « إنه رآه يجلس على سرير مرصع بالجواهر ، وعليه ثياب منسوجة بالذهب ، وإلى جانبه فريدة تغنيه ، وعليها مثل ثيابه »[٢] . ويُروى عن الوزير أبى الحسن بن الفرات أنه أنفق على الدار التى كان ينزلها فى وزارته الثانية ثلثمائة ألف دينار ، وأنه أمر

---

(١) مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى لسيد أمير على ترجمة رياض رأفت ص ٣٨٤.

(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٤/ ١١٦ .

بإصلاحها فبلغت النفقة خمسين ألف دينار [١] . ولعل مما يدل على ترف العباسيين من بعض الوجوه ما يُرْوَى عن السيدة زبيدة زوج هرون الرشيد من أن الثوب من الوشي الذى كان يُتَّخَذُ لها كانت تبلغ نفقته خمسين ألف دينار [٢] ، ويتصل بذلك ما يروى من أن أم المقتدر كان يُشْترى لها ثياب دَبيقية لتصنع منها نعالها ، وكانت تطلى بالمسك والعنبر المذاب وتجمد [٣] ، فإذا كان المسك والعنبر يجمدان فى نعالها فما بالنا بثيابها وطعامها وما كان يتخذ فيها !

والحق أن الحياة العباسية كانت تقوم على الترف والزينة وما يتصل بهما من تصنيع وزخرف ، وقد ساعد الناس على ذلك ارتفاعُ مستوى المعيشة وما كانوا عليه من بذخ وثراء ، وربما كان مما يصور هذا الجانب من بعض الوجوه ما يروى من أن بعض العباسيين ورث عن مولى لأبيه وابن عم له ماتا فى يوم واحد ما قيمته أربعون ألف دينار ، ويقولون إنه عمّر داراً بألف واشترى جوارى وآلات وفرشاً وثياباً بسبعة آلاف ، وأعطى لتاجر ألفين يتجر له فيهما ، وأودع فى بطن الأرض عشرة آلاف للشدائد ، وابتاع بالباقى ضيعة تُغلّ فى كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته [٤] . ومن يرجع إلى ما كتبه العباسيون عن عصرهم يجد صوراً مستفيضة لترفهم وحضارتهم وتنميقهم ، وإننا لنجد هذا التنميق فى كل مكان ، نجده فى قصورهم وحماماتهم إذ كانت تزين بالصور [٥] كما نجده فى مساجدهم ، وحتى الأبواب كانوا يزخرفونها ، يقول آدم متز : إن أبواب الدور كانت تصنع من الخشب المحلّى بالنقوش ، وكانت تعلق البسط على الحيطان تتنافس بألوانها وزركشتها [٦] . ولعل من الطرف التى تعبر عن التصنيع فى هذا العصر تعبيراً دقيقاً ما يروى عن المقتدر بالله وقصوره وما كان فيها من بذخ إذ يقولون : إنه كان بقصره شجرة من الفضة زنتها خمسمائة

(١) كتاب الوزراء للهلال بن المحسن (طبع بيروت) ص ١٧٩ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى (طبع دار الرجاء) ٤/٢٤٤ .

(٣) نشوار المحاضرة (بتصحيح مرجليوث) ١/١٤٣ .

(٤) الفرج بعد الشدة للتنوخى ٢/١٧ .

(٥) الحضارة الإسلامية لآدم ميتز (طبع لجنة التأليف) ٢/١٦٢ .

(٦) نفس المصدر ٢/١٦٠ .

ألف درهم ، وكانت تقوم وسط بركة مدورة صافية المياه ، وكان لها ثمانية عشر غصناً ، على كل غصن الطيور والعصافير من كل نوع مذهّبة ومفضضة ، وكان بها ورق مختلف الألوان ، وكانت تتمايل فى أوقات لها فيتحرك هذا الورق وتصفر الطيور وتهدر . ويبالغ المؤرخون فيما كان بقصور المقتدر من ستور الديباج المذهبة بالطرز الجليلة المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع ، ويقال إنه كان بأحد قصوره بركة رصاص حولها بستان بميادين فيه نخل ، قيل إن عدده أربعمائة نخلة وطول كل واحدة خمسة أذرع قد لَبِسَ جميعها ساجاً منقوشاً من أصلها إلى حد الطّلع بحلاق من شَبَه مذهبة[1].

ووقف ابن خلدون فى مقدمته عند ترف العباسيين وأكبر من شأنه مستدلا بما كان من إعراس المأمون ببوران بنت الحسن بن سهل وما نثره أبوها من بنادق المسك وفيها الرقاع بأسماء الضياع والجوارى التى وزعها على المدعوين ، ونثر أيضاً كثيراً من الدنانير والدراهم ونوافج المسك ، ثم يقول : إن المأمون أعطى بوران مهراً لها ليلة زفافها : ألف حصاة من الياقوت ، وبسط لها فُرُشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب ، مكللا بالدر والياقوت ، ويفيض ابن خلدون فيما اتخذ بهذا العرس من أطعمة[2]. وإن فى كتاب البخلاء للجاحظ ما يدل على مدى ترف العباسيين فى أطعمتهم وأوانيهم وتأنقهم فى ذلك . وكما تأنقوا فى طعامهم تأنقوا فى ثيابهم وملابسهم ، فكانوا يلبسون الثياب المصبغة ، وخاصة فى شرابهم[3]. وما من ريب فى أن ما انتشر فى هذا العصر من غناء وشراب ولهو كان له أثره فى هذا الذوق المترف الذى يميل إلى أن يسرى التصنيع والزخرف فى جميع جوانب الحياة من عمارة أو أطعمة أو فُرُش . وطبيعى أن يسرى هذا الذوق من حياة العباسيين الاجتماعية إلى حياتهم الأدبية لأنه تعبير عصرهم الذى عاشوا فيه ، وإن الإنسان ليخيل إليه كأن الناس فرغوا للتنميق

---

(١) انظر تاريخ الخطيب البغدادى (طبع مصر) ١٠٠/١ .

(٢) مقدمة ابن خلدون (طبع المطبعة البهية) ص ١٢١ .

(٣) انظر الفخرى فى الآداب السلطانية (طبع المطبعة الرحمانية) ص ١٥٣ .

والتصنيع ، فهم يصنِّعون وينمِّقون فى دورهم وفى ملابسهم وفى طعامهم وفى كل ما يتصل بهم .

٢

التصنيع ودواوين الخلافة العباسية

ونحن لا نمضى فى تتبع أصحاب الدواوين فى الخلافة العباسية حتى نجدهم منصرفين إلى العناية بكتابتهم ، إذ كانت هذه العناية هى التى توفِّر لهم أسباب النجاح فى حياتهم . ونحن نعرف ما كان من مشاركة البرامكة فى الأدب والعلم ومعرفتهم بالبيان والبلاغة ، وسنرى أنه كان لهم الأثر الأول فى الاتجاه إلى التصنيع فى الكتابة ، كان الفضل بن سهل يسمى ذا الرياستين لجمعه بين رياسة السيف ورياسة القلم ، وقد روى الرواة أن عمرو بن مسعدة وقَّع على رقعة رُفعت إلى جعفر بن يحيى البرمكى ، فأعجب بها جعفر ، وضرب بيده على ظهره ، وقال له : أى وزير فى جلدك[1] . وقد وصل محمد بن عبد الملك الزيات إلى الوزارة عن طريق أدبه وبيانه وما يحققه فيه من تنميق وتصنيع .

ويظهر أن جماعة كتاب الدواوين كانت تأخذ نفسها بثقافة واسعة ، وقد رأينا فى غير هذا الموضع كيف كان عبد الحميد الكاتب ينصح الكتّاب بمعرفة كتاب الله والفرائض والثقافة العربية من الشعر وأيام العرب وكذلك الثقافة الفارسية وما يتصل بتاريخ الفرس . ويظهر أن هذا كله لم يكن يكتفى به كتاب الدواوين فى العصر العباسى إذ كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة فلسفية واسعة كما كانوا يأخذون أنفسهم بالثقافة الفارسية والهندية ، ومن أجل ذلك نَعَى عليهم ابن قتيبة أنهم يهملون النظر فى اللغة بينما يشغفون «بالنظر فى النجوم والمنطق والفلسفة » ، والحديث عن « الكون والفساد وسمع الكيان والكيفية والكمية

---

(١) ابن خلكان ١ / ٣٩٠ .

والجوهر والعرض، ورأس الخط النقطة، والنقطة لا تنقسم»[١] إلى غير ذلك مما كانوا يتشدَّقون به مما عرفوه من الفلسفة والثقافات الأجنبية .

وهذا كله يدل على أن كتَّاب الدواوين كانوا يوسِّعون ثقافتهم ما استطاعوا، وعُنوا خاصة بالثقافة الفلسفية حتى يعمقوا أفكارهم ويرتبوا معانيهم ترتيباً دقيقاً. وهم كما عُنوا بمعانيهم عنوا أيضاً بألفاظهم عناية قد تفوق عنايتهم بمعانيهم حتى ليقول الجاحظ : « أما أنا فلم أر قط أمثلَ طريقة فى البلاغة من الكتَّاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشيًّا ولا ساقطاً سوقيًّا »[٢] . ويقول أيضاً : إن الكتَّاب لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة وعلى المخارج السهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق : وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عَمرتها وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت إلى حسان المعانى[٣] .

وما من ريب فى أن هذه شهادة قيمة من الجاحظ لطائفة الكتاب وما كانوا يوفِّرون لألفاظهم من عناية، وإنها لعناية تستمر بهم فإذا هم ينقلون حرفة الكتابة من أسلوبها القديم: أسلوب الصنعة إلى أسلوب جديد من التصنيع ، وبعبارة أخرى من السجع والبديع . وبدأت هذه العناية واضحة منذ عصر البرامكة الذين روت كتب التاريخ عنهم ترفاً واسعاً ، وكأن هذا الترف دفعهم هم والكتَّاب من حولهم إلى التأنق فى حياتهم الاجتماعية، والتأنق أيضاً فى حياتهم الأدبية ، وخير من يصور ذلك جعفر بن يحيى البرمكى صاحب الدواوين فى عهد الرشيد فقد أشاد السابقون ببلاغته . يقول الجهشيارى : « كان جعفر بليغاً كاتباً ، وكان إذا وقَّع نُسخت توقيعاته ، وتُدورست بلاغاته »[٤]. ويقول ابن خلدون عنه : «وإن الناس كانوا يتنافسون فى الحصول على توقيعاته

---

(١) انظر أدب الكاتب لابن قتيبة (طبع مطبعة الوطن) ص ٣ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٣٧ .

(٣) البيان والتبيين ٤/٢٤ .

(٤) الوزراء والكتاب ص ٢٠٤ .

ليقفوا منها على أساليب البلاغة وفنونها حتى قيل إنها كانت تباع كل توقيع بدينار »[١] . ووصفه ثُمامة بن أشرس فقال : «كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة ، وإفهاماً يغنيه عن الإعادة ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة »[٢]. وفيه تقول عنان جارية النّاطفى[٣] :

بـديهتُـه وفكرتُـه سـواءٌ إذا التبستْ على الناس الأمورُ

وقد كان جعفر يبالغ فى تنميق عباراته ، وهو تنميق كان يستمده من حياته التى بنيت بناء من التنميق والتصنيع والزينة حتى قالوا إنه كان يُتَّخَذ فى عصره مثلا للتصنيع والزخرف فى ثيابه[٤] ، فكان طبيعيًّا أن يسقط ذلك إلى أدبه وبيانه . ولعل أهم ما يلاحظ من ذلك أنه كان يلتزم السجع فى كتبه وتوقيعاته ، روى ابن خلكان أنه وقّع إلى بعض عمّاله : «قد كثر شاكوك وقل شاكروك ، فإما اعتدلت ، وإما اعتزلت »[٥]. وأكبر الظن أن جعفراً كان يبنى عباراته على السجع ، وهذا أول مظهر من مظاهر مذهب التصنيع . ويبدو أن هذا الاتجاه فى صناعة النثر لم يقتصر حينئذ على جعفر البرمكى ودواوينه بل أخذ ينتشر وخاصة عند طلاب الحاجات الذين يرفعون ظلاماتهم أو يقدمون توسلاتهم ، فقد روى الجاحظ أن ابن سَيَابة الشاعر كتب إلى يحيى بن خالد البرمكى برسالة بليغة كان عامةُ أهل بغداد يحفظونها وهى رسالة بُنيت كلها على السجع[٦] ومرّ بنا فى الفصل الثانى من الكتاب الأول أن كثيراً من الوعاظ كانوا يستخدمون السجع فى أواخر عصر بنى أمية ، وقد استمر ذلك فى العصر العباسى الأول ، وفى عيون الأخبار لابن قتيبة نماذج من ذلك فى مقاماتهم بين أيدى الخلفاء[٧] .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٣ .
(٢) البيان والتبين ١/١٠٦ .
(٣) الوزراء والكتاب ص ٢٠٤ .
(٤) أنظر دائرة المعارف الإسلامية المجلد الثالث ص ٤٩٥ وانظر أيضاً الوزراء والكتاب ص ٢١٥ .
(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/١٠٥ .
(٦) البيان والتبيين ٣/٢١٥ .
(٧) عيون الأخبار ٢/٣٣٢ - ٣٤٤ .

وإذاً فنحن لا نُبعد إذا قلنا إن عنصر السجع وهو العنصر الأول فى مذهب التصنيع أخذ يظهر منذ القرن الثانى الهجرى ، وإذا تركنا هذا القرن إلى القرن الثالث وجدنا هذا العنصر يظهر فى الرسائل السياسية وعند كُتَّابها ، ولعل أقدم نموذج يصور ذلك وصية[١] طاهر بن الحسين مؤسس الدولة الطاهرية المتوفى سنة ٢٠٧ للهجرة لابنه عبد الله عند ما عيِّن والياً على ديار ربيعة فى سنة ٢٠٦ هـ . ويستمر السجع عند الكتَّاب وعلى رأسهم عمرو بن مسعدة الصولى الذى كان يلى شئون الدواوين لعهد المأمون ، وكان جده صول من ملوك جرجان وهم ترك[٢] ، وقد نشأ عمرو فى دواوين البرامكة وتربَّى على أساليبهم ، ولذلك لم يكن غريباً أن نجده يحتذى أحياناً على أمثلتهم من السجع والتنميق فى عباراته ، ولعله من أجل ذلك كان المأمون يعجب برسالاته[٣] . وانظرْ إليه يكتب إلى الحسن بن سهل[٤] :

« أما بعد فإنك ممن إذا غَرس سَقَى ، وإذا أسس بنى ، ليستتمَّ تشييد أسِّه ، ويجتنى ثمار غرسه ، وبناؤك عندى قد شارف الدروس ، وغَرْسُكَ مُشْفٍ على اليبوس ، فتداركْ بناء ما أسَّسْتَ ، وسَقِ ما غرست إن شاء الله» .

وهذه الرسالة القصيرة تدلنا على ضميمة أخرى أخذت تُضَمّ إلى سجع أصحاب الدواوين فى القرن الثالث ، ونقصد ما يتشح به سجعهم من صور بيانيه ، وضميمة ثانية تلاحَظ عند عمرو وهى سَعة الحيلة فى كتاباته مع الإيجاز الشديد . رَوَى الرواة أن المأمون أمره أن يكتب لشخص كتاباً إلى بعض العمال بالوصية عليه والاعتناء بأمره فى سطر واحد فكتب إليه[٥] :

« كتابى إليك كتابُ واثقٍ بمن كُتب إليه ، مَعْنِىّ بمن كُتب له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله ، والسلام » .

وما من ريب فى أن هذا الكتاب – على قصره – يصور المهارة العقلية

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/١٠٤٦ والكامل لابن الأثير ٦/٢٦٨ .
(٢) معجم الأدباء طبع مصر ١/١٦٥ .
(٣) وفيات الأعيان ١/٣٩٠ .
(٤) معجم الأدباء ١٦/١٣٠ .
(٥) وفيات الأعيان ١/٣٩٠ .

التى كان يحتاجها كاتب الديوان فى العصر العباسى ، فهو يحتال فى كتاباته ، وهل فى هذا الخطاب سوى الاحتيال بصورة طريفة عن الفكرة التى يريد الكاتب أن يؤديها ؟ اتسع هذا الاحتيال واتسع ما يُطوَى معه من عناية باللفظ كلما تقدمنا مع الزمن فى العصر العباسى . وممن اشتهر فى هذا الجانب كاتب آخر من الصوليين كان يكتب للمتوكل وهو إبراهيم بن العباس الصولى ، وكان يشبه عمرو بن مسعدة فى دقة التعبير وحَبْكَته وما يُطْوَى فى ذلك أحيانا من سجع ، وانظر إليه يكتب لابن الزيات مستعطفاً[1] :

« كتبتُ وقد بلغت المُدْية المحزّ ، وعدت الأيامُ على بعد عَدْواى بلك عليها ، وكان أسوأ الظن وأكثرُ خوفى أن تسكن فى وقت حركتها ، وتكف عنى أذاتها ، فصرت أضرّ علىّ منها ، كَفَّ الصديق عن نصرتى خوفاً منك ، وبادر إلىّ العدوُّ تقرباً إليك » .

وأنت ترى عند إبراهيم عمق التفكير وطرافته كما ترى تأنقه فى لفظه ، ويظهر أن ذلك كان سمة عامة بين الكتّاب فهم جميعاً يبالغون فى العناية بألفاظهم . ولكن ينبغى ألا يُفْهَم من ذلك أنهم كانوا يعمدون إلى السجع دائماً ، إنما هذه رسائل أخترناها لهؤلاء الكتَّاب ، ولهم رسائل أخرى لاسجع فيها . ومعنى ذلك أن الكتَّاب حتى منتصف القرن الثالث كانوا يسجعون أحياناً وأحياناً لا يسجعون ، وقد استمر ذلك شأنهم حتى أواخر هذا القرن . ومن أبرعهم فى هذا الجانب أبو العباس بن ثوابة المتوفى عام ٢٧٧ للهجرة ، وهو من أصل نصرانى[2] ، وكان يسجع أيضاً فى بعض رسائله[3] ، وكان له أخ يسمى جعفر بن محمد بن ثوابه تولّى ديوان الرسائل فى عهد الوزير عبيد الله ابن سليمان وتوفى عام ٢٨٤هـ ، وقد بقى أبناؤه يتوارثون من بعده ديوان الرسائل فى بغداد حتى تسلمه منهم أبو إسحق الصابى عام ٣٤٩[4] . ومما لاشك فيه أن هذه الأسرة لعبت دوراً مهمًّا فى استخدام السجع والتزامه .

---

(١) معجم الأدباء ١/١٧٠ .

(٢) نفس المصدر ٤/١٤٤ .

(٣) نفس المصدر ٤/١٤٧ .

(٤) معجم الأدباء ٧/١٨٨ .

وقد يكون من الطريف أن نلاحظ أن أهم الكتّاب الذين نموا السجع فى القرنين الثانى والثالث كانوا من الأجانب وعلى رأسهم أسرة البرامكة الفارسية ، وأسرة الصوليين التركية ، وأكبر الظن أن الجنس لم يكن له دخل فى المسألة ، فنحن نعرف كما مر بنا فى القسم الأول من هذا الكتاب أن السجع قديم فى اللغة العربية ، وغاية ما هنالك أنه اختفى أول الأمر فى الكتابة الديوانية ثم أخذ يظهر فيها من حين إلى حين منذ القرن الثانى . على أننا لا نصل إلى أواخر القرن الثالث حتى نجد دوافع كثيرة تدفع بعض الناس إلى التزامه فى كتاباتهم ، وكأنما حياتهم المليئة بالزخرف والتصنيع هى التى دفعتهم إلى ذلك دفعاً ، وممن كان يلتزم ذلك أبو العيناء المتوفى عام ٢٨٢ هـ ، فقد كتب له أبو على البصير رسالة جاء فى آخرها : « وقد نفذت لى إليك رسالة العتاب ، على مخرج ألفاظ الكتّاب . وقد ملت إلى السجع على علمى بخساسة حظه ، وركاكة معانيه ولفظه ، إذ كنت تلوى به لسانك ، وتثنى إليه عنانك ، قطعاً لحجتك ، وإزاحة لعلتك »[١] . وبيّنٌ أنه ينص على أن أبا العيناء يلتزم السجع فى رسائله كما ينص على أن السجع خسيس الحظ ، ركيك اللفظ ، وقد يكون فى ذلك ما يدل على أنه لما يشع وينتشر .

على أننا لا نصل إلى عصر المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠هـ) حتى نجد السجع يصبح عامّاً فى كل ما يصدر عن دواوينه ، فليس هناك وزير ولا كاتب إلا وهو يتخذ السجع فى صياغته . وارجعْ إلى كتاب تاريخ الوزراء للهلال بن المحسّن ، وهو الكتاب الذى يؤرخ هذه الحقبة من خلافة المقتدر ، فستجد كل ما يصدر عن هذا العهد يصدر مسجّعاً ، سواء فى ذلك ما يصدر عن كاتب الرسائل من آل ثوابة وما يصدر عن الوزراء أمثال ابن الفرات ، وهو أول وزراء المقتدر ثم على بن عيسى الذى كان يتداول معه الوزارة لهذا العهد ، وقد روى له الهلال طائفة كبيرة من الكتب والرسائل وكلها مسجوعة[٢] ؛

---

(١) اختيار المنظوم والمنثور ، ورقة ٢٣٣ .

(٢) انظر تاريخ الوزراء للهلال بن المحسن (طبع بيروت) ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ . وانظر أيضاً معجم الأدباء ٧/١٣٦١ .

وكذلك كان شأن الوزير الثالث فى هذا العهد وهو الخاقانى فقد كان صَبًّا بالسجع مغرماً به ، وله فى ذلك نوادر كثيرة ، منها أن عامل النيل تأخر فى حمل غلّة إليه فكتب له : « احمل الغلّة ، وأزح العِلّة ، ولا تجلس متودِّعا فى الكِلّة » . ثم التفت إلى الكاتب وقال له : أفى النيل بقّ يحتاج إلى كِلل ؟ فقال : إى والله وأىُّ بقٍّ ومن أجله يلزم الناس الكِلل نهاراً وليلا.[١] ووقّع فى كتاب إلى بعض عُمّاله : « الزمْ — وفقك الله — المنهاج ، واحذر عواقب الاعوجاج ، واحمل ما أمكن من الدَّجاج إن شاء الله » فحمل العامل دجاجاً كثيراً على سبيل الهدية ، فقال : هذا دَجاج وفَّرته بركة السجع[٢] . وكما كان يسجع الوزراء لعهد المقتدر كان يسجع الكتاب فى دواوينه وعلى رأسهم محمد بن جعفر بن ثوابة ، وقد احتفظ له ياقوت بمنشور وجّهه عن الخليفة إلى العمال فى الأقاليم المختلفة ، وهو مسجوع كله[٣] ويظهر أن الولاة أخذوا يقلدون هؤلاء الكتّاب والوزراء وما كان من سجعهم ، فقد روى الهلال أن أبا الحسن بن نيداد — وكان يتقلد كُوَرَ الأهواز — كتب إلى على بن عيسى كتاباً سجع فيه سجعاً زاد فيه فكتب إليه : « عَوّلتَ بنا على كلام ألفته ، وخطاب سجّعته ، أوجب صَرْفك عما توليته »[٤] . وفى هذا كله أكبر الدلالة على أن السجع عم فى الكتابة الديوانية منذ عصر المقتدر . وربما كان من الأدلة على ذلك أننا نجد الخليفة القاهر الذى ولى الخلافة بعد المقتدر يطلب إلى بعض من يقفون على أخبار بنى العباس أن يصفهم ثم يقول له : « ولا تغيِّب عنى شيئاً ، ولا تحسِّن القصة ، ولا تسجع فيها »[٥] . وكأن الخليفة ملّ كثرة ما يقرأ من السجع الخالص ، فهو يطلب كتاباً لا سجع فيه ونرى من كل ما سبق أن السجع — وهو أحد الجوانب المهمة فى التصنيع وزخرف الأساليب — أخذ يظهر من حين إلى حين منذ القرن الثانى ، وما يزال ينمو

(١) تاريخ الوزراء ص ٢٧٧ .
(٢) نفس المصدر ص ٢٧٧ .
(٣) معجم الأدباء ١٨/٩٧ .
(٤) تاريخ الوزراء ص ٣٣٥ .
(٥) مروج الذهب للمسعودى ٤/٢٤١ .

ويتسع استخدامه فى القرن الثالث ، حتى إذا وصلنا إلى عصر المقتدر أصبح عاماً بين كل الكتاب فى ديوان الخلافة ، فليس هناك شىء يُكْتَبُ إلا ويصاغ فى أسلوب السجع وبذلك يتكامل أحد الجانبين الأساسيين فى مذهب التصنيع وهما : السجع والبديع ، وسنرى — عما قليل — الكتّابَ يحققون له جميعاً الجانب الثانى : جانب البديع والترصيع .

٣

التصنيع ودواوين الإمارات الفارسية

إذا تركنا عصر المقتدر طلع علينا عصر جديد هو عصر الإمارات التى تقسمت فيما بينها إيران وخراسان ، ونقصد إمارة السامانيين الذين امتد نفوذهم فى خراسان وما وراء النهر من سنة ٢٦١ﻫ إلى سنة ٣٨٩ﻫ ، ثم إمارة البويهيين الذين بسطوا نفوذهم على الولايات الجنوبية الغربية من إيران كما بسطوه على العراق وبغداد نفسها إذ كان الخليفة ألعوبة فى أيديهم ، وقد استمر سلطانهم من سنة ٣٢١ ﻫ إلى سنة ٤٤٧ .ﻫ. وبجانب هاتين الإمارتين الكبيرتين كانت توجد إماراتان صغيرتان : إحداهما فى خوارزم ، والثانية فى طبرستان وجرجان حيث أسرة الزياريين ، ثم تظهر الدولة الغزنوية فى أواخل القرن الرابع فتستولى على ما كان بيد السامانيين . والغزنويون يرجعون إلى أصل تركى بينما يرجع السامانيون والبويهيون والزياريون إلى أصول فارسية ، وأسس الغزنويون لهم أول الأمر إمارة فى أفغانستان ثم توسعوا فاستولوا على إمارة السامانيين.

وقد هيأت هذه الإمارات والدول المختلفة لحركة أدبية وعقلية واسعة ، بحيث يمكن أن يُعَدَّ هذا العصر — على الرغم مما كان فيه من انقسام الدولة العباسية على هذا النحو — أحفل العصور العربية بالنشاط الأدبى والعلمى والفلسفى . ويكفى أنه ظهر فى هذا العصر أشهرُ فلاسفة الإسلام وعلمائه من مثل ابن

سينا الذى خدم فى بلاط السامانيين ، والبيرونى الذى خدم أولا فى بلاط ملوك خوارزم ثم خدم فى بلاط ملوك الدولة الغزنوية .

على أن الجانب العقلى لا يهمنا إنما يهمنا الجانب الأدبى وما لقى الأدب حينئذ من تشجيع ورواج . والغريب أن الحياة الأدبية ازدهرت فى هذا العصر ازدهاراً لم تعرفه فى أى عصر سابق ، إذ كان كل حاكم فى إمارة من هذه الإمارات السابقة يختار فى حاشيته جماعة من الأدباء الممتازين لينافس بهم حكّام الإمارات والدول الأخرى ، وبذلك ظهر فى كل مركز من مراكز هذه الإمارات حركة أدبية أو قل سوقاً أدبية ، وساعد على ذلك أن هؤلاء الحكام استوزروا كبار الأدباء فى أقاليمهم ، ومن ثَمّ أصبحنا نسمع فى كل إمارة باسم أديب بل باسم أدباء ممتازين يلون شئونها ويشرفون على مرافقها ، فعند السامانيين نجد العميد والد ابن العميد الكاتب المشهور كما نجد الإسكافى الكاتب المعروف ، ونجد أيضاً أسرة بنى ميكال النيسابورية ، وقد ولى كثير منها دواوين السامانيين ، وعند البويهيين نجد ابن العميد كما نجد الصاحب بن عباد ، وهما أهم كتّاب العصر ، وفى الدولة الزيارية نجد أميراً من أمرائها يشتهر بالكتابة وهو قابوس بن وشمكير . ولم يقف هذا الامتياز للأدباء وصلتهم بالحكام عند أصحاب الإمارات الكبيرة ، فقد كان بعض حكام البلدان الصغيرة يتخذون كتّاباً مشهورين مثل البُسْتى كاتب أمير مدينة بست فى أفغانستان ثم كاتب الدولة الغزنوية ، وإن الإنسان ليخيل إليه أن كل حاكم فى مدينة أو مقاطعة بإيران لم يعد يشغله إلا أن يجمع حوله بطانة من الكتّاب تعيش فى بلاطه ، ويكفى للدلالة على اعتداد الحكام بالكتاب أن نجدهم فى بغداد يستخدمون على ديوان الرسائل كاتباً صابئاً ليس من المسلمين ، هو أبو إسحق الصابى لما عرف من بلاغته ومهارته البيانيه . ومما يدل على ما كان للكتابة الجيدة فى هذا العصر من شأن حتى فى السياسة نفسها ما رواه صاحب اليتيمة من أن ابن العميد « كتب رسالة إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة وخروجه عليه ، فلما قرأها ابن بلكا رجع وأناب ، وقال لقد ناب كتاب

ابن العميد عن الكتائب فى عَرْك أديمى واستصلاحى وردّى إلى طاعة صاحبه»[١] . وهذه القصة تدل على قيمة الكتب المحبرة فى القرن الرابع وأنها كانت تقوم مقام الجيوش فى الظفر بالأعداء ، لذلك اهتم كل أمير بوزرائه وكتّابه ، واهتم الوزراء والكتاب أنفسهم بصناعة كتبهم وتحبيرها ، وإدخال كل ما يمكن من ضروب التصنيع والتجميل عليها ، وقد كانت حياتهم تؤهل لذلك إذ كانت تقوم على التصنيع والتنميق . يقول بعض الشعراء فى هجاء كُتّاب الدولة السامانية[٢] :

أكتّاب ديوانِ الرسائل ما لكم تجمّلتمُ بل متُّم بالتّجمُّلِ

وكذلك كان كتّاب الدولة البويهية يتأنقون ويتصنعون فى حياتهم، وكان الصاحب بن عباد خاصة يعجب بالخزّ ويأمر بالاستكثار منه على خدمه وغلمانه فكانوا يبدون فى الخزوز الفاخرة الملونة[٣] . وغير كُتّاب السامانيين والبويهيين كانوا يتأنقون تأنقهم ، ولا غرابة فهم يعيشون فى قصور هؤلاء الحكام والأمراء معيشة مترفة تقوم على التصنيع والتنميق ، ولذلك كان طبيعيًّا أن يسقط هذا الجانب الذى يتصل بحياتهم إلى أدبهم وفنهم ، بحيث أصبح التصنيع أساسيًّا فى كل ما تنتجه هذه القصور ومن يعيشون فيها من هؤلاء الكتّاب والأدباء.

ومهما يكن فإن الإمارات الفارسية هيأت لنهضة أدبية واسعة ، وقد اقترنت هذه النهضة بمذهب التصنيع ، ولعل من الطريف أن نذكر هنا أن كل إمارة من هذه الإمارات اشتهرت بمراكز مختلفة للنهضة الأدبية ، ففى الإمارة السامانية نجد نيسابور التى أخرجت الثعالبى ، كما نجد بخارى العاصمة التى « كانت مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء العصر »[٤] . وفى الإمارة البويهية نجد همذان التى أخرجت بديع الزمان ،

---

(١) اليتيمة (طبعة الصاوى) ٣/١٤٧ .
(٢) اليتيمة ٤/٧٤ .
(٣) اليتيمة ٣/١٧١ .
(٤) اليتيمة ٤/٩٥ .

وأصبهان التى أخرجت الصاحب بن عباد ، والتى يقول فيها صاحب اليتيمة : « لم تزل أصبهان مخصوصة من بين البلدان بإخراج فضلاء الأدباء وفحولة الكتّاب والشعراء »[١] . كما نجد الرّىّ دار عضد الدولة البويهى ومستقر ابن العميد . وأخرجت خوارزم لهذا العصر أبا بكر الخوارزمى الكاتب المشهور ، كما أخرجت طبرستان قابوس بن وشمكير ، ولعل من الطريف أن الثعالبى فى اليتيمة لم يَبْنِ كلامه على أدباء هذا العصر حسب الإمارات ، بل بناه حسب المدن والبلدان. على أن هذا لا يجعلنا ننسى ما كان من تشجيع الأمراء والحكام للحركات الأدبية فى هذه المراكز ، وخاصة بنى بويه ، إذ كان كثير منهم أدباء ، وقد فتح لهم الثعالبى فى يتيمته فصولا لاستعراض هذا الجانب فيهم[٢] . والحق أن أمراء الدول الإيرانية عامة شجعوا — بكل وسيلة تمكنهم — الأدباء والكتاب . ومن الظواهر المهمة التى اقترنت بهذا العصر أننا نجد الأدباء ينتقلون من بلاط إلى بلاط يرفعون كتبهم ومؤلفاتهم إلى الملوك والأمراء ، على نحو ما لاحظ براون فى كتابه (تاريخ الفرس الأدبى) إذ ذكر أن الثعالبى ألف كتاب «لطائف المعارف» للصاحب بن عباد «والمبهج» و«التمثل والمحاضرة» لشمس المعالى قابوس بن وشمكير ، و«سحر البلاغة» و«فقه اللغة» للأمير أبى الفضل الميكالى ، و«النهاية فى الكناية» و«نثر النظم» «واللطائف والظرائف» لمأمون بن مأمون أمير خوارزم[٣] . وهؤلاء الأمراء والملوك لم يُكرموا فقط من كانوا يرحلون إليهم ، بل كانوا يكرمون أيضاً أبناء أقاليمهم من فقهاء وشعراء وأدباء ولغويين وفلاسفة ، ولذلك كنت تجد حول كل قصر طائفةً من الشعراء والأدباء والعلماء . ولعل مما يدل على مدى حرص هؤلاء الأمراء على العلماء والأدباء ما رواه براون عن السلطان محمود الغزنوى من أنه علم أن فى بلاط ملك خوارزم طائفة من العلماء والفلاسفة مثل ابن سينا والبيرونى وأبى سهل المسيحى وأبى الخير الحسن بن الخمار وأبى نصر بن العرّاق ، فكتب إليه أن يبعثهم حتى يَتشرفوا بحضرته ويفيد هو من ثقافتهم ومهارتهم ،

---

(١) اليتيمة ٣/٢٦٧ .

(٢) اليتيمة ٢/١٩٥ وما بعدها .

(٣) E.G. Browne, A Literary History of Persia, 1928, vol. II, p. 101

وقد لبى الدعوة البيرونى والخمار والعرّاق ، ورفضها ابن سينا وأبو سهل المسيحى . وغير محمود الغزنوى من ملوك السامانيين الذين سبقوا دولته وملوك البويهيين والزياريين والخوارزميين كانوا يعنون هذه العناية بحشد العلماء والأدباء فى بلاطهم وحول قصورهم ، وكان ذلك كله مبعث نهضة أدبية لا نغلو إذا قلنا إنها — من وجهة الكتابة والصناعة الديوانية — تعلو على كل نهضة سبقتها فى هذا الجانب ، وتتفوق على كل حركة تقدمتها ، إذ أترف الذوق الكتابى لهذا العصر بسبب ترف الملوك والأمراء الذين كانوا يقومون عليه ، وأصبحنا نجد أساس البلاغة أن تكون حلية وزينة ، فهى تستخدم استخداماً زخرفيًّا ، تستخدم كأداة من أدوات الترف والزينة ، وكل أمير يفخر بما حصل عليه من هذه الأدوات والطُّرَف الزخرفية . وبذلك يصل مذهب التصنيع إلى الغاية التى كان يَرْنُو إليها منذ القرن الثانى ، وهى غاية كلها زخرف وتصنيع ، وسنقف قليلا عند أهم كاتب أثر فى هذا الجانب ، وهو ابن العميد كاتب البويهيين ، فهو يعتبر أستاذ المذهب الذى خطا به نحو هذه الغاية من التجميل والزينة ، وعلى مثاله كان يَحْتذى الكتَّاب فى عصره وبعد عصره .

٤

ابن العميد : حياته وثقافته

هو أبو الفضل محمد بن الحسين ، وهو فارسى من مدينة قُم [١] ، وهى مدينة شيعية ، ولذلك لا نعجب إذا رأيناه شيعيًّا على مذهب الإمامية . وقد نشأ فى بيت أدب وكتابة ، إذ كان أبوه كاتباً لماكان بن كاكى ، ولما قتله السامانيون فى بعض مواقعهم معه أخذوا كاتبه أبا عبد الله الحسين بن محمد المعروف بكلَّة والد صاحب الترجمة أسيراً معهم ، ثم أفرجوا عنه وأكرموه ، ورتبوه فى الدار

(١) انظر فيها معجم البلدان لياقوت .

السلطانية ، وسرعان ما تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر ولُقِّبَ الشيخ كالعادة فيمن يلى ذلك الديوان كما لقب بالعميد ، ويقول أبو إسحق الصابى فى كتابه التاجى : إن رسائل العميد لا تقصر فى البلاغة عن رسائل ابنه أبى الفضل ابن العميد[١]. ويظهر أن العميد لم يأخذ ابنه معه إلى بلاط السامانيين ، بل تركه فى رحاب البويهيين . يقول صاحب اليتيمة : « ولم يزل أبو الفضل فى حياة أبيه وبعد وفاته بالرىّ وكُوَرِ الجبل وفارس يتدرج إلى المعالى ويزداد على الأيام فضلا وبراعة حتّى بلغ ما بلغ واستقر فى الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل »[٢] . وكان تقلده هذه الوزارة عام ٣٢٨ ﻫ وظل يتقلدها إلى وفاته عام ٣٦٠ ﻫ .

ولسنا نعرف شيئاً ذا قيمة عن أساتذة ابن العميد سوى ما عرفناه عن أبيه ، ثم ما ذكره صاحب الفهرست عن أستاذ له يسمى محمد بن على بن سعيد المعروف باسم سمكة[٣] ، وقد سماه صاحب اليتيمة ابن سمكة[٤] ، ويقول صاحب الفهرست إن له كتاباً فى أخبار العباسيين[٥] . على كل حال ليس بين أيدينا ما يدل دلالة واضحة على المنابع الثقافية التى نهل منها ابن العميد ، غير أننا لا نتابعه فى آثاره وفى حياته أثناء وزارته حتّى نجده يلم بجميع ضروب الثقافة لعصره ، ولعله من أجل ذلك سمى باسم الجاحظ الثانى[٦] ، وألمع مسكويه قَيِّم دار كتبه فى كتابه (تجارب الأمم) إلى ثقافته فقال : إنه « أكتبُ أهل عصره وأجمعهم لآلات الكتابة حفظاً للغة والغريب وتوسعاً فى النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام ، فأما القرآن وحفظُ مشكله ومتشابهه ، والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار ، فكان منه فى أرفع درجة وأعلى رتبة » . ويقول

---

(١) اليتيمة طبع الصاوى ٣/١٣٨ .
(٢) اليتيمة ٣/١٣٩ .
(٣) الفهرست لابن النديم (طبع مصر) ص ٢٠٠ .
(٤) اليتيمة ٣/١٤٣ .
(٥) الفهرست ص ٢٠٠ .
(٦) وفيات الأعيان ٢/٥٧ .

مسكويه : «أما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جَسر أحد فى زمانه أن يدعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قَصْد التعلم» .
ويروى مسكويه أن أبا الحسن العامرى الفيلسوف النيسابورى قصد إليه ، وقرأ عليه عدة كتب مستغلقة من كتب الفلسفة ، وليس هذا كل ما ذكره مسكويه عن ثقافة ابن العميد ، بل إنه يقول أيضاً : «كان ابن العميد يختصُّ بغرائب من العلوم الغامضة التى لا يدعيها أحد كعلوم الحِيل (الميكانيكا) التى يُحتْاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، والحركات الغريبة ، وجر الثقيل ، ومعرفة مركز الأثقال ، وإخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل»[1] .
وأكبر الظن أن هذا الاتساع فى الثقافة الفلسفية وما يتصل بها من علوم الطبيعة والهندسة والحِيل هى التى جعلت الرَّازِىّ يتقدم إليه بتفسيره للمقالة العاشرة فى أصول الهندسة من كتاب إقليدس بعد أن نسقها وجوّدها[2] وأكبَر الشعراء فى ابن العميد هذا الجانب كما أكبروا فيه بلاغته وفصاحته ، وقد عبّر عن ذلك المتنبي تعبيراً بديعاً فى قصيدتيه الرائية والدالية ، ومن قوله فى الأولى :

مَنْ مبلغُ الأعرابِ أنى بعدهم شاهدتُ رَسْطاليس والإسكندرا
وسمعت بطليموس دَارس كُتْبهِ متملِّكاً ، متبدِّياً ، متحضرا
ولقيتُ كلَّ الفاضلين كأنَما ردَّ الإلهُ نفوسَهم والأعصُرا

ويقول فى الثانية :

عربىٌّ لسانهُ ، فلسفىٌّ رأيُهُ ، فارسيةٌ أعيادُهُ
خلق الله أفصح الناس طُرًّا فى بلادٍ أعرابهُ أكرادُهُ

وهذا كله يؤكد أن ابن العميد أتاح لنفسه ثقافة واسعة . وكما عمل على تثقيف نفسه عمل أيضاً كل ما يستطيع فى خدمة ركن الدولة ثم ابنه عضد الدولة ، كان يقود الجيوش بنفسه ، واستطاع بمقدرته أن ينشر نفوذ عضد

---

(١) انظر فى هذه النصوص فصلا طويلا كتبه مسكويه عن ابن العميد فى كتابه تجارب الأمم الجزء الثانى من ص ٢٧١ – ٢٨٢ .
(٢) الفهرست ص ٣٧٢ .

الدولة على بغداد والعراق . وقد خرج فى أواخر حياته على رأس جيش لقتال الزعيم الكردى حسنويه ، ولكنه توفِّى فى الطريق فى صفر عام ٣٦٠هـ[١]. وقد نَيَّفَ عمره على ستين سنة[٢] .

٥

تصنيع ابن العميد

وهذا الوزير المثقف ثقافة واسعة يُعَدُّ أستاذ عصره فى فن التصنيع ، وقد أقرَّ له ببراعته وفصاحته وامتيازه فى كتابته كل من تصدَّوا لترجمته ، يقول صاحب اليتيمة : « هو عين المشرق ولسان الجبل ، وعماد ملك آل بويه ، وصدر وزرائهم ، وأوحد العصر فى الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة ، والضرب فى الآداب بالسهام الفائزة ، والأخذ من العلوم بالأطراف القوية ، يُدْعَى الجاحظ الأخير ، والأستاذ والرئيس ، ويضرب به المثل فى البلاغة ، وينتَهى إليه فى الإشارة بالفصاحة والبراعة ، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستها ، إلى براعة المعانى ونفاستها ، وما أحسن وأصدق ما قال له الصاحب وقد سأله عن بغداد عند منصرفه عنها : بغداد فى البلاد كالأستاذ فى العباد ، وكان يقال : بُدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد »[٣]. وفى هذه الفقرة ما يدل دلالة واضحة على مدى ما وصل إليه ابن العميد فى عصره من مكانة أدبية ممتازة ، وهى مكانة لم يأخذها عن طريق مركزه السياسى ، وإنما أخذها عن طريق فنه الخالص إن كان ينحو نحواً بديعاً من التصنيع والزخرف فى كتابه ، وقد مر بنا فى غير هذا الموضع أن الكتاب اصطلحوا منذ عصر المقتدر على أن يعمموا السجع فى كل ما يكتبون ، واستمر ذلك من بعدهم ،

---

(١) انظر ترجمة ابن العميد فى دائرة المعارف الإسلامية المترجمة ، المجلد الأول ص ٢٤٤ .

(٢) تاريخ ابن الأثير (طبع أوربا) ٨/٤٤٦

(٣) اليتيمة ٣/١٣٧ .

وكان ابن العميد يسجع فى كتابته ولكن ليس هذا ما يلفتنا عنده، إنما الذى يلفتنا حقـًّا هو أن مذهب التصنيع تماثل على يديه فى الصورة التى كانت تنتظره منذ القرن الثانى ، ونقصد صورة السجع من جهة والاحتكام إلى البديع فيما ينشئ الكاتب من جهة أخرى ؛ ومن أجل ذلك إذا قلنا : إن ابن العميد هو أستاذ مذهب التصنيع بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة لم نُبعد ؛ لأنه أول كاتب – فيما نعرف – احتكم إلى السجع فى كتابته، كما احتكم إلى البديع من جناس وطباق وتصوير ، وقد هيأه لذلك أنه كان ذا عين تصويرية ، بل لقد كان ذا شغف بفن التصوير نفسه . يقول مسكويه : « لقد رأيته يتناول فى مجلسه الذى يخلو فيه بثقاته وأهل أنسَته التفاحة وما يجرى مجراها، فيعبث بها ساعة ثم يدحرجها ، وعليها صورة وجه ، وقد خطّها بظفره ، لو تعمد لها غيره بالآلات المعدة ، وفى الأيام الكثيرة ما استوفى دقائقها ، ولا تأتى له مثلها » . ولا شك فى أن هذه النزعة التصويرية فيه كان لها أثر مهم فى نثره ، إذ جعلته نثراً مصَّوراً يهتم صاحبه يصنع الصور والرسوم فى كتاباته ، كما جعلته يهتم بألوان البديع الأخرى من طباق وجناس وغيرهما ، وكأنه كان يحسُّ بأن هذه الألوان جميعاً من تصوير وغير تصوير تقوم من نثره مقام الألوان الحسية من لوحة الرسام . وانظرْ إليه يكتب إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة ، فيستهل رسالته على هذا النمط[1] :

« كتابى ، وأنا متأرجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تدل بسابق حُرمة ، وتمتّ بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب حقـًّا ورعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحديث غُلول[2] وخيانة ، وتتبعهما بآنف[3] خلافٍ ومعصية ، وأدنى ذلك يَحْبط أعمالك ، ويمحق كل ما يُرْعى لك . لا جرم أنى وقفت بين ميل إليك وميل عليك أقدم رجلا لصدّك ، وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لاصطلامك[4] واجتياحك ، وأثنى

---

(١) اليتيمة ٣/١٤٥ .

(٢) غلول : خيانة .

(٣) آنف : أشد .

(٤) الاصطلام : الاستئصال .

ثانية لاستبقائك واصطلاحك، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ، ضناً بالنعمة عندك ومنافسة فى الصنيعة لديك، وتأميلا لفيئتك[1] وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك ، فقد يغرُب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللبّ ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويُضاع الرأى ثم يستدرَك، ويَسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة فإلى رخاء ، وكل غمرة فإلى انجلاء ، وكما أنك أتيت من إساءتك ، بما لم تحسبه أولياؤك فلا بدع أن تأتى من إحسانك بما لا ترتقبه أعداؤك، وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت ، واخترت ما اخترت ، فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت ، وسوء ما آثرت ، وسأقيم على رسمى فى الإبقاء والمماطلة ما صلح ، وعلى الاستيناء[2] والمطاولة ما أمكن، طمعاً فى إنابتك وتحكيماً لحسن الظن بك ، فلست أعدم فيما أظاهره من إعذار ، وأرادفه من إنذار ، احتجاجاً عليك ، واستدراجاً لك، فإن يشأ الله يرشدك، ويأخذ بك إلى حظّك ويسدّدك » .

والرسالة كلها تمضى على هذا النحو من السجع والعناية بالبديع ، فكلها تحف من السجع وطرف من الجناس والطباق والتصوير ، فهى وشى خالص ، هى بديع وتطريز وترصيع ، إذ ما يزال ابن العميد يدمج وشى السجع فى وشى البديع من التصوير والطباق والجناس ، فإذا أساليبه وكأنها ثروة زخرفية هائلة ، وهل هناك عبارة فى هذه القطعة لم تُحلَّ بلون من ألوان البديع ، وهو يضع هذه الألوان الرائعة على ألفاظه المسجعة فإذا هى تختال فى هذه المقدرة البديعة من الزخرف والتصنيع . وأكبر الظن أن ابن العميد قد تأثر فى صناعته بصناعة السجاد فى إقليمه ، فهو يعانى فى كل لفظة ما يعانيه صانع السجاد فى كل خيط ، ثم هو بعد ذلك يعنى بالوشى الذى تعبر عنه ألفاظه ، كما يعنى صانع السجاد بالوشى الذى تعبر عنه خيوطه . وعلى هذا النمط تحولت صناعة الكتابة عند ابن العميد إلى تطريز خالص ، وهو يحتال على هذا التطريز

---

(١) الفيئة : الرجوع . (٢) الاستيناء : التأنى .

بحيل كثيرة ، ولم لا ؟ ألم يتعلم فن الحيل؟ وإذاً فلماذا لا يشفع فنه بكل ما يمكنه من حيل ، وقد استطاع أن يصل عن هذه الحيل إلى بِدْع طريف فى سجعه ، وذلك أنه كان يعمد إلى تقصير عباراته ، وهذا التقصير أو هذا القصر من أهم الفروق بين سجعه وسجع أصحاب الدواوين من قبله ، وقد نظرَ فرأى نفسه يضطر فى أحوال كثيرة إلى عبارات طويلة ، فكيف يوفق بين رغبته فى القصر وبين طول هذه العبارات ؟ لقد فكر طويلا فى هذه الصعوبة ، وسرعان ما هداه تفكيره إلى حيلة طريفة : هى أن يوازن بين كل لفظة وقرينتها فى العبارتين المتجاورتين ، وبذلك يرفع ما قد يحسه القارئ أو السامع من بعد الزمن فى موسيقى الجملتين ، وكأنى بابن العميد كان يعرف معرفة دقيقة أنه كلما طال الزمن الذى تنتظره الأذن فى سماع العبارات المسجوعة نقص التلاؤم الموسيقى . وهو لذلك يعمد كما ترى فى أول القطعة إلى السجع القصير الذى لا يأخذ من قارئه زمناً طويلا ، ولكن استمر فى القراءة تَرَهُ يضطر إلى الطول فى عباراته ، فماذا يصنع إزاء هذا الطول الذى يثقل على أذن سامعه ؟ لقد وصل إلى حيلة طريفة من الموازنة بين العبارتين المتجاورتين موازنة تجعل ألفاظهما وكأنها جميعاً قد نُغِّمت وسجِّعت على نحو ما نرى فى مثل قوله : «فإنك تُدْلى بسابق حرمة ، وتمتّ بسالف خدمة» ، وقوله : « وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك ، وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك » . وما من ريب فى أنها حيلة لطيفة تلك التى احتال بها ابن العميد على مثل هذه العبارات فإذا هى تصبح وكأنها قصيرة لما تكامل فيها من حلاوة الموسيقى . وما تلك الحلاوة إلا ما يتخذه من المعادلة بين ألفاظ عباراته معادلات تجعل فيها هذا الائتلاف الموسيقى الطريف ، فكل كلمة تتعادل مع قرينة لها فى الكلمة الأخرى وكأنما تطلبها لتعزف معها هذا العزف البديع الذى تمتاز به موسيقى ابن العميد . ولعل فى هذا ما يشهد بأن ابن العميد كان يصنِّع فى سجعه إلى أقصى حدود التصنيع التى يستطيعها وهو يحتال على ذلك بوشى البديع من جهة كما يحتال عليه بقصر الزمن فى سجعه من جهة أخرى ، فإن طال زمن العبارتين المسجوعتين قصره بهذه الحيلة

من إحداث المعادلات والموازنات بين ألفاظ العبارتين حتى لا تخرج الأذن من ألفاظ العبارة الأولى إلا وتحس براحة صوتية إزاء كل كلمة من كلمات العبارة الثانية لأنها تماثل قرينة لها فى العبارة السابقة من الوجهة الصوتية تمام التماثل.

وهذه هى صورة التصنيع فى الكتابة الديوانية عند ابن العميد ؛ فهو يعمد إلى زخرف البديع يوشّى به لفظه ، وهو دائماً — كما تصوره يتيمة الثعالبى — يتخذ لفظاً مرصعاً بالسجع ، وإنه ليحتال فى تحسين سجعه والإكثار من وشى بديعه حيلا مختلفة ، أما سجعه فكان يحتال عليه بالقصر فإن كان طويلا قصره بما مرن عليه من المعادلة بين ألفاظه حتى لكأنها تتشابك تشابك توقيعات الراقصين ، وأما بديعه فإنه كان يكثر منه ، وكان ما يزال يحتال على اللفظة حتى يحمّلها وشى الطباق من جهة ووشى التصوير أو الجناس من جهة أخرى . ومن أجل هذه الحيل كلها وما اقترن بها من مهارة وتفنن كان ابن العميد زعيم مذهب التصنيع فى عصره غير مدافَع ولا منازَع ، ومع ذلك فسنقف عند الصاحب بن عباد تلميذه وخرّيجه لنرى هل استطاع أن يضيف من جديد إلى تصنيع أستاذه .

٦

الصاحب بن عباد وتصنيعه

هو كافى الكفاة إسماعيل بن عباد ، ولد فى إصطخر وقيل فى الطالقان بين قزوين وأبهر سنة ٣٢٤ أو ٣٢٦ هـ وكان أبوه كاتب ركن الدولة وعضد الدولة البويهيين وكان شيعيّاً غير غال ، وتوفى فى السنة التى توفى فيها ابنه .

وابن عباد هو الوزير الثانى الذى لمع اسمه فى بلاط البويهيين ، وقد درس على أبيه وأخذ عنه مذهبه الدينى والسياسى ، وأخذ الأدب عن أحمد بن فارس اللغوى المعروف وأكمل دراسته ببغداد . ولما عاد إلى وطنه فى الرىّ خدم فى دواوين أبى الفضل ابن العميد ، ويظهر أنه أعجب به فقرّبه منه ، وما

لبث أن اختاره ليكون مربياً لمؤيد الدولة أخى عضد الدولة ، وكانت إقامة مؤيد الدولة بأصبهان فأقام معه فيها ولقب بالصاحب لصحبته له صغيراً . ولما تقلد شئون الدولة بعد أخيه عضد الدولة اتخذ الصاحب وزيراً له واستمر على وزارته حتى توفى، فوزر من بعده لأخيه فخر الدولة ، وظل فى الوزارة حتى وافته منيته عام ٣٨٥ هـ . وقد قضى فى الوزارة نحو ثمانية عشر عاماً [١] ، ويقال إن أباه ألف كتاباً نصر فيـــه الاعتزال وكان محدثاً روى عنه ابنه وغيره [٢] ، ويظهر أن ابن عباد ورث هذه الجوانب فى أبيه ، فقد نشأ على الاعتزال [٣] كما نشأ على التشيع ومحبة العلم ، ويقال : إنه خرج يوماً — وهو وزير — متطلساً متحنكاً بزى أهل العلم لرواية الحديث وإملائه على الناس . وكما كان يولع بالحديث كان يولع باللغة، وقد ألف فيها كتاب المحيط فى سبع مجلدات ، وله كتاب الإمامة يذكر فيه فضائل على بن أبى طالب ، وأيضاً رسالة صغيرة فى الكشف عن مساوئ المتنبى [٤] . وما من ريب فى أنه لو لم يشغل بالوزارة والكتابة لكان عالماً ممتازاً من علماء عصره ، ولعله من أجل ذلك كان يشجع على التأليف ، كما كان يشجع على الشعر ، وكان يعجب بالكتابة الرفيعة ، ومدحه مكاتبةً الشريف الرضى وأبو إسحق الصابى « واحتفَّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى وملك رقّ المعانى » [٥]. وحدَّث ابن بابلك قال : « سمعت الصاحب يقول : مُدحت بمائة ألف قصيدة شعر ، عربية وفارسية ، وقد أنفقت أموالى على الشعراء والأدباء والزوار والقُصَّاد » [٦] . وكان ينافسه فى هذه الحركة — على ما يظهر — سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى ، الذى فتح الثعالبى فى يتيمته فصلا لمُدَّاحه من الشعراء ، وقد أنشأ داراً للعلم

(١) معجم الأدباء (طبع مصر) ١٧١/٦ .
(٢) نفس المصدر ١٧٢/٦ .
(٣) اليتيمة ١٧٩/٣ ومعجم الأدباء ١٧٤/٦ .
(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ٧٥/١ .
(٥) اليتيمة ١٦٩/٣ .
(٦) معجم الأدباء ٢٦٣/٦ .

فى الكرخ ببغداد، كل ذلك منافسة لإسماعيل بن عباد[١]. ويقول ابن خلكان عن تلقبه بلقب الصاحب، وهو« أول من لُقِّبَ بذلك اللقب من الوزراء لأنه كان يصحب أبا الفضل بن العميد، وذكر الصابى فى كتاب التاجى أنه إنما قيل له الصاحب لأنه صحب مؤيد الدولة ابن بويه منذ الصبا وسماه الصاحب، فاستمر عليه هذا اللقب واشتهر به »[٢].

وقد كان الصاحب معجباً بفنه تياهاً به واستغلّ فيه هذا الجانب خصمه أبو حيان التوحيدى فثلبه أقبح ثلب[٣]، ومن ثَلْبه له ما يقصُّه من أن رجلا من أهل الشام « ورد إليه، فكان فيما استخبره عنه : رسائل من تُقْرأ عندكم ؟ فقال : رسائل ابن عبد كان، قال : ومن ؟ قال : رسائل الصابى. وغمزه أحد جلسائه ليقول رسائل الصاحب فلم يفطن الرجل، ورآه الصاحب، فقال : تغمز حماراً لا يحسُّ »[٤]. ويقول التوحيدى أيضاً : إنه كان فى مجلسه شخص يسمى أبا طالب العلوى « وكان إذا سمع منه كلاماً يسجع فيه، وخبراً ينمقه ؛ ويرويه، يبلق عينيه، وينشر مِنْخَرَيه، ويُرِى أنه غُشى عليه حتى يرش على وجهه ماء الورد، فإذا أفاق قيل ما أصابك، ما عراك، ما الذى نالك وتغشاك ؟ فيقول : ما زال كلام مولاى يروقنى ويونقنى حتى فارقنى لُبِّى وزايلنى عقلى وتراخت مفاصلى وتخاذلت عُرَى قلبى وذَهل ذهنى وحِيل بينى وبين رشدى، فيتهلل وجه ابن عباد عند ذلك وينتفش »[٥]. ويظهر أنه كان يسجع فى حديثه وكلامه، ويقص الرواة طُرفاً له فى ذلك كثيرة[٦]. يقول أبو حيان : « وكان كلفه بالسجع فى الكلام والقول، عند الجد والهزل، يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد، قلت لابن المسيّبى : أين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة تنحلّ بموقعها عروة

(١) Nicholson, lit. Hist. of Arabs, p. 267.
(٢) وفيات الأعيان ١/٧٥.
(٣) معجم الأدباء ٦/١٧٦.
(٤) معجم الأدباء ٦/٢٥٨.
(٥) معجم الأدباء ٦/٢٣٧.
(٦) نفس المصدر ٦/٢١٣.

الملك ويضطرب بها حبل الدولة، ويُحتاج من أجلها إلى غُرْم ثقيل وكلفة صعبة وتجشم أمورٍ وركوب أهوال لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها، بل يأتي بها ويستعملها، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها »[١] . وكانوا يزعمون أن سجعة اضطرته إلى عزل قاضي مدينة قُم : فإنه قال يوماً : أيها القاضي بقم ثم حاول أن يكمل السجع فأعنَتَه ذلك فقال : قد عزلناك ، فقم . ويبدو أن إغرامه بالسجع على هذا النحو كان قديماً فيه ، فقد روى الرواة عن ابن العميد أنه قال : « خرج ابن عباد من عندنا من الريّ متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين . . فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا لشيء إلا ليكتب إلينا : كتابي هذا من النّوبهار ، يوم السبت في نصف النهار »[٢] .

ولعل أول ما يلاحظ في سجع الصاحب أنه يمتاز بالخفة والعذوبة فهو في لفظه أكثر صفاء وأكثر تنغيما من معاصريه من كتّاب الدواوين، واستمعْ إلى هذه الرسالة القصيرة التي كتب بها إلى أحد القضاة وقد وفد عليه في الرّيّ[٣] :

«تحدثت الركابُ بِسَيْرِ (أرْوَى) إلى بلدٍ حططتُ به خيامي
فكدت أطير من شوق إليها بقادمةٍ كقادمة الحمام

أفحقٌّ ما قيل من أمر القادم ؟ أم ظنٌّ كأمانيّ الحالم ؟ لا والله ! بل هو دَرْك العِيان ، وإنه ونيل المنى سيان، فمرحباً أيها القاضي براحلتك ورحلتك، بل أهلا بك وبكافة أهلك ، ويا سرعة ما فاح نسيم مَسْراك ، ووجدنا ريح يوسف من ريّاك، فحُثَّ المطيّ تُزل غُلَّتي برؤياك، وتزح علّتي بلقياك، ونُصّ على يوم الوصول نجعله عيداً مشرّفا، ونتخذه موسماً ومعرّفاً، ورُدّ الغلام ، أسرع من رجع الكلام، فقد أمرته أن يطير على جناح نَسر، وأن يترك الصَّبا في عِقال وأسْر :

سقى الله دارات مررتَ بأرضها فأدْنتك نحوي يا زيادُ بنَ عامر
أصائلُ قربٍ أرتجي أن أنالها بلُقياك قد زحزحن حَرَّ الهواجر»

---

(١) معجم الأدباء ٦/٢٠٧ .
(٢) معجم الأدباء ٦/٢٢٠ .
(٣) اليتيمة ٣/٢٢٨ .

أرأيت إلى هذه الرسالة القصيرة وما فيها من عذوبة اللفظ وجمال النغم ؟ إن الصاحب حقًّا أستاذ ماهر من أساتذة فن التصنيع فى القرن الرابع ، وإنه ليتخذ فى هذا الفن جميع المفاتيح الموسيقية التى عثر عليها ابن العميد ، فهو من جهة يعنى بقصر سجعاته ، فإن طالت عادل بين ألفاظها معادلات تخرج بها من شذوذ الطول إلى ما يشبه القصر ، ثم هو من جهة أخرى يعنى بألوان البديع يحلِّى بها جيد أساليبه ، وقد كان يعنى عناية خاصة بلونى التصوير والجناس ، ولعل ميله إلى الجناس هو الذى جعله يكثر فى رُقَع رسائله من الجناس الناقص . أما ميله إلى التصوير ، فقد جعله يبرع فى أوصاف الطبيعة حتى لتتحول جوانب من رسائله إلى ما يشبه الشعر المنظوم كقوله فى رسالة له : «كتابى هذا وقد أرخى الليل سُدوله ، وسحب الظلام ذيوله»[1]. وقوله فى أخرى يصف مجلس أنس : «قد قابلتنى شقائق كالزنوج تجارحت فسالت دماؤها، وضعفت فبقى ذماؤها، وسامتتنى أشجار كأن الحور أعارتها أثوابها ، وكستها أبرادها ، وحضرتنى نارنجات ككرات من سفن ذُهِّبت ، أو ثُدِىّ أبكار خُلِّقت»[2] . وهذا جانب واضح فى تصنيعه، وقد استطاع به أن يطرف قراءه وسامعيه بضرب من الشعر المنثور الذى تمتلئ سجعاته بالرشاقة والخفة . وقد كان بهذا التصنيع وما يندمج فيه من وشى السجع والترصيع يأخذ مكانته فى عصره ، وهى مكانة جعلت أصحاب الإمارات الفارسية يحسدون أصحاب الرىّ والجبل من البويهيين عليه ، ويتمنون أن لو صار إليهم . روى الثعالبى أن نوح ابن منصور صاحب خراسان السامانى أرسل إليه رقعة يريده فيها على الانحياز إلى حضرته ، ليُلقى إليه مقاليد مملكته ، ويعتمد لوزارته ، فاعتذر له بأنه لا يستطيع الانتقال إليه لكثرة حاشيته وأثقاله ، وما لديه من كتب تحتاج فى نقلها إلى أربعمائة بعير[3] . وقد قالوا إنه لما توفى لقى من الإعظام والإكبار

---

(١) اليتيمة ٣/٢٢٧ .

(٢) اليتيمة ٣/٢٢٣ . وخلقت : من الخلوق وهو ضرب من الطيب .

(٣) اليتيمة ٣/١٧٣ وانظر معجم الأدباء ٦/٢٥٩ .

ما لم يلقه أحد من وزراء عصره ، فقد سار فخر الدولة فى جنازته ، وقام الناس بأجمعهم فقبلوا الأرض بين يديه وخرّقوا ثيابهم ولطموا وجوههم ، وبلغوا فى البكاء والنحيب عليه جهدهم[١] ، وقد رثاه الشعراء — على نحوما يروى العتبي — رثاء حارًّا[٢] . والحق أن الصاحب بن عباد كان أحد أساتذة البلاغة فى عصره ، وبلغ بمذهب التصنيع مبلغاً عظيما من الزخرف والتنميق وما يتصل بذلك من الزركشة والتطريز .

٧

تصنيع أبى إسحاق الصابى

هو إبراهيم بن هلال الحرانى الصابى الذى اشتهر بالبيان والبلاغة لهذا العصر . ولد سنة ٣١٣ هـ ولاه الوزير المهلبى ديوان الرسائل ببغداد عام ٣٤٩ هـ[٣] ، فخدم بذلك الخلفاء كما خدم الأمراء من بنى بويه الذين استولوا على بغداد منذ عام ٣٣٤ هـ ، ويُحكى أن مولاه عز الدولة البويهى عرض عليه الوزارة إن أسلم فامتنع[٤] . ويقول الرواة : إنه كان حسن العشرة للمسلمين حتى قالوا إنه كان يصوم شهر رمضان مساعدة وموافقة لهم ، وقالوا إنه كان يحفظ القرآن حفظاً يدور على لسانه ، وبرهان ذلك واضح فى رسائله[٥] . وقد استمر على ديوان الرسائل حتى عام ٣٦٧ هـ إذ « ورد عضد الدولة إلى بغداد وكان نقم عليه أشياء من مكتوباته عن الخليفة وعز الدولة فحبسه ، فسُئل فيه ، وعُرّف بفضله ، وقيل له : مثل مولانا لا ينقم على مثله ما كان منه ، فإنه كان فى خدمة قوم لا يمكنه إلا المبالغة فى نصحهم ، ولو أمره مولانا بمثل ذلك — إذا استخدمه — فى أبيه ما أمكنه المخالفة ، فقال عضد

---

(١) معجم الأدباء ٦/٢٥٩ .
(٢) انظر اليمينى للعتبى مع شرح المنينى ١/٢٠٢ .
(٣) معجم الأدباء ٢/٦٢ .
(٤) اليتيمة ٢/٢١٩ ومعجم الأدباء ٢/٢١ .
(٥) اليتيمة ٢/٢١٩ .

الدولة : قد سوّغته نفسه ، فإن عمل كتاباً فى مآثرنا وتاريخنا أطلقته ، فشرع فى محبسه فى كتاب « التاجى فى أخبار بنى بويه » . وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو فى تبييض وتسويد فى هذا الكتاب فسأله عما يعمله ، فقال : أباطيلُ أنمقها ، وأكاذيب ألفقها . فخرج الرجل وأنهى ذلك إلى عضد الدولة ، فأمر بإلقائه تحت أرجل الفيلة ، فأكبّ أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ونصر بن هارون على الأرض يقبلانها ويشفعان إليه فى أمره ، حتى أمر باستحيائه ، وأخذ أمواله واستصفائه ، وتخليد السجن بدمائه ، فبقى فى السجن بضع سنين إلى أن تخلص منه »[١] عام ٣٧١ هـ[٢] ، وتوفى عضد الدولة سنة ٣٧٢ فعاد إلى العمل فى الدواوين حتى توفى عام ٣٨٤ .

وقد اتصل الصابى فى مطلع حياته بالثقافة الفلسفية ، فهم يرون أنه بدأ أمره بدراسة الطب ثم انصرف عنه إلى الأدب والكتابة[٣] ، ويقول القفطى : إنه كان عالماً بالهندسة والهيئة والرياضيات[٤] ، وهو إلى ذلك كان مثقفاً ثقافة واسعة باللغة والشعر قديمه وحديثه . واستطاع أن يحقق لنفسه قدرة بيانية جعلته يرتفع على أقرانه من المسلمين إلى رياسة ديوان الرسائل ، ولعل مما يدل على قدرته فى هذا الجانب أننا نرى كبار الأدباء فى عصره يعظمونه ويجلّونه . يقول ياقوت : « كان بينه وبين الصاحب أبى القاسم إسماعيل بن عباد مراسلات ومواصلات ومتاحفات ، وكذلك بينه وبين الرضى أبى الحسن محمد بن الحسين الموسوى مودة ومكاتبات ، مع اختلاف الملل ، وتباين النِّحَل ، وإنما كان ينظمهم سلك الأدب مع تبدد الدين والنسب »[٥] . ويقول صاحب اليتيمة : إن شعراء العراق مدحوه فى جملة الرؤساء[٦] . وهم يروون عن الصاحب أنه كان يقول : « ما بقى من أوطارى وأغراضى إلا أن أملك العراق وأتصدر ببغداد وأستكتب أبا إسحق الصابى ، ويكتب عنى ، وأغيّر عليه »[٧] . وكل ذلك

(١) معجم الأدباء ٢ / ٢١ .
(٢) نفس المصدر ٢ / ٣٥ .
(٣) نفس المصدر ٢ / ٥٥ .
(٤) أخبار الحكماء ص ٥٤ .
(٥) معجم الأدباء ٢ / ٢٣ .
(٦) اليتيمة ٢ / ٢١٨ .
(٧) معجم الأدباء ٦ / ٣٠٦ .

لما كان من براعته ومهارته فى البيان والبلاغة ، وقد كان يعرف ذلك من نفسه وفنه ، فعبَّر عنه أجمل تعبير إذ يقول[١] :

وقد علم السلطان أنى أمينهُ   وكاتبه الكافى السديدُ الموفَّقُ
فيمناىَ يمناهُ ولفظىَ لفظهُ   وعينى له عينٌ بها الدهرَ يرمقُ
ولى فِقرٌ تَضْحَى الملوك فقيرةً   إليها لدى أحداثها حين تطرُقُ

والحق أن الصابى كان علماً من أعلام البلاغة فى عصره ، ومن يرجع إلى رسائله يجده يعنى عناية شديدة بانتخاب ألفاظه وصقل عباراته وتنقيح سجعاته ، وكان ما يزال فى تسويد وتبيض وتنميق حتّى تخرج الرسالة مرصعة بكل ما يمكن من حلى ووشى . ولم يكن يأتى بحلى ووشى جديدين ، بل كان يخضع فى ذلك لما اصطلح عليه أصحاب مذهب التصنيع من السجع والتصوير والتجنيس وألوان البديع وإن كان لم يغرق فى استخدام هذه الألوان إغراق الصاحب ، ولا إغراق ابن العميد ، إذ كان همه الأول التسجيع والعناية به حتّى يحصل من ذلك على طرف بديعة ، وانظرْ إليه يقول من رسالة كتبها عن معز الدولة بعد ظفره ببعض أعدائه[٢] .

« وكان الغامطَ لإنعامنا ، الجاحد لإحساننا ، المتردِّى من ذروة طاعتنا ، الهاوى فى هوّة معصيتنا ، الخالع رِبْقَةَ ذمتنا ، النازع جُنَّة[٣] مشايعتنا ... ونحن نحمل أمره على ظاهره ، ونظن غائبه مثل حاضره ، وباطنه مثل عالنه ، حتّى جذبنا بضَبْعه[٤] من المسقط المنحطّ ؛ إلى المرفع المشتط ، وانتهينا فى الإناقة[٥] بقدره ؛ والإشارة بذكره ، والتفخيم لأمره ، والتقديم لقومه ، إلى الغاية التى لا تسمح بها نفسُ باذل ، ولا تسمو إليها همة آمل ، فلما عز بعد الذلة ، وكثر بعد القلة ، وبَعُدَ صيته بعد الخمول ، وطلع سعده بعد الأفول ، وجمّت

---

(١) رسائل الصابى (طبع بعبدا بلبنان) ١/ ٨ .
(٢) رسائل الصابى ١/ ٣٣ .
(٣) الجنة : ما استترت به ، والربقة : العروة .
(٤) جذب بضبعه : نعشه ونوه به .
(٥) الإناقة : الارتفاع .

عنده الأموال ، ووطئت عقبة الرجال[١] ، وتضرمت بحسده جوانح الأكفاء ، وتقطعت بمنافسته أنفاس النظراء ، نزتْ به بِطْنته[٢] ، وأدركته شِقْوته ، ونزغ له شيطانه ، وامتدت في الغيّ أشطانه[٣] ، فنصب أشراكه وحبائله ، وأعمل مكايده ومخاتله » .

وأول ما نلاحظ على هذه القطعة أن الصابي يعنى بتقصير سجعه ، فإن هو أطاله نغم العبارتين تنغيما يجعلك تظن أنهما قصيرتان ، فالألفاظ تتعادل وتتوازن على نحو ما مر بنا عند أستاذ المذهب ابن العميد ، وملاحظة ثانية هي أنه يعنى بالتصوير كما يعنى قليلا بالجناس . وهذه هي صورة كتابة الصابي ، فهو يشغف بحلية السجع ؛ وهو يوفر لها ضروباً مختلفة من النغم ، وإن هذا التوفير ليتمادى به فإذا هو يعنى بالمقابلة الدقيقة بين أول العبارتين حتى تتشابه السجعتان في أطرافهما : في أولهما وآخرهما ، وهو لا يعمم ذلك في رسائله ولكنه يجنح إليه كثيراً على نحو ما نرى في نفس هذه القطعة ، وكل ذلك ليستتم ما يريد من صوت وموسيقى ، واستمعْ إليه يكتب إلى عضد الدولة يهنئه بسنة جديدة على هذه الشاكلة[٤] :

« أسأل الله تعالى مبتهلا لديه ، مادًّا يديّ إليه ، أن يحيل على مولانا هذه السنة وما يتلوها من أخواتها بالصالحات الباقيات ، وبالزائدات الغامرات ، ليكون كل دهر يستقبله ، وأمد يستأنفه ، موفياً على المتقدم له ، قاصراً عن المتأخر عنه ، ويوفيه من العمر أطوله وأبعده ؛ ومن العيش أعذبه وأرغده ، عزيزاً منصوراً ، محميًّا موفوراً ، باسطاً يده فلا يقبضها إلا على نواصي أعداء وحسَّاد ، سامياً طرفه فلا يغضه إلا على لذة غمض ورقاد ، مستريحة ركابه فلا يُعملها إلا لاستضافة عز ومُلك ، فائزة قِداحه فلا يُجيلها إلا لحيازة مال ومِلك ، حتى ينال أقصى ما تتوجَّه إليه أمنيته جامحاً ، وتسمو إليه همته طامحاً » .

---

(١) وطئت عقبه الرجال : كثرت أتباعه .

(٢) البطنة : الامتلاء من الطعام .

(٣) أشطانه : حباله .

(٤) اليتيمة ٢/٢٢٢ .

وأنت تراه يعنى عناية شديدة بهذا الجانب الموسيقى من تصنيعه ، فما يزال يقابل ويعادل ويدقق فى مقابلاته ومعادلاته حتى تخرج عباراته متساوية فى أصواتها تمام المساواة ، وكأنه لا يؤلف نثراً ، وإنما يؤلف شعراً . والواقع أن ابن العميد وتلاميذه من أمثال الصابى وابن عباد رفعوا الحواجز التى كانت تفصل بين أسلوب الشعر وأسلوب النثر ، أو قل على الأقل إنهم رفعوا كثيراً من هذه الحواجز ، فقد أحالوا نثرهم إلى موسيقى خالصة ، فكله ألحان وأنغام ، وما الفارق الذى يفرق بين مثل هذا السجع والشعر ؟ إنه يعتمد مثله على الموسيقى كما يعتمد مثله على البديع ، وما يزال الكاتب به حتى يخرجه زخرفاً خالصاً ، فكله حلى وتنميق وتصنيع ، وهو من أجل ذلك لا يشبه النثر الذى كنا نألفه قبل ذلك عند كتاب الدواوين فى القرنين الثانى والثالث ، وإنه يشبه الشعر ، ففيه جميع شياته من موسيقى وبديع ، ولكنه مع ذلك نثر لأنه لا يجرى فى موسيقاه على أوزان الخليل ، ومن ثمّ كنا لا نستطيع أن نسميه شعراً ، ونحن أيضاً لا نستطيع أن نسميه نثراً خالصاً ، هو فى الواقع شىء بين الشعر والنثر ، ولذلك كان النقاد يسمونه شعراً منثوراً ، وتفنن ابن العميد وتلاميذه بصور مختلفة فى إنتاج هذا الضرب من الشعر المنثور ، وذهبوا يحققون له كل ما يمكن من زخرف وتصنيع . ومهما يكن فإن الصابى كان علماً من أعلام البيان فى عصره ، وقد أقرّ له معاصروه ومن جاءوا بعدهم بذلك ، يقول الثعالبى : « إنه أوحدُ العراق فى البلاغة ومن به تُثْنَى الخناصر فى الكتابة ، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية فى البراعة والصناعة »[1] . ويقول ياقوت : إنه « أوحد الدنيا فى إنشاء الرسائل »[2] . ويقول ابن الأثير : « كيف أضع من الصابى وعَلَم الكتابة قد رفعه ، وهو إمام هذا الفن والواحد فيه »[3] ولما توفى رثاه الشريف الرضى بقصيدة طنانة مطلعها[4] :

أرأيتَ من حَملوا على الأعوادِ   أرأيتَ كيف خَبَا ضياءُ النادى

(١) اليتيمة ٢/٢١٨ .
(٢) معجم الأدباء ٢/٢٠ .
(٣) المثل السائر لابن الأثير ص ١٤٨ .
(٤) اليتيمة ٢/٢٨١ .

وما من ريب فى أن هذا كله يدل على ما كان للصابى من منزلة رفيعة بين معاصريه ومن جاءوا على إثرهم إذ كان أستاذاً ماهراً فى فن التصنيع لعصره ، وكان وما يزال يتفنن فى رسائله حتى يخرجها فى صورة بديعة من الزخرف والتنميق .

٨

التصنيع عام بين كتاب الدواوين

إذا تركنا الصابى والصاحب إلى من عاصروهما من كتَّاب الدواوين وجدناهم جميعاً يذهبون هذا المذهب من التصنيع للسجع والبديع ، ومن ينظر فى كتاب اليتيمة للثعالبى وما عرَض فيه من كتَّاب الدواوين يعرف أنهم كانوا جميعاً يلتزمون هذا المذهب فى صِناعة نثرهم ، إذ كان بِدْعاً عامًّا بينهم ، وكان كل منهم يحاول أن يكون له شأن أى شأن فى هذا البدع الجديد ، ويتضح من اليتيمة أن أشهر الكتَّاب الذين عاشوا فى هذا العصر وكانوا امتداداً لهذا المذهب هم : عبد العزيز بن يوسف ، وأبو العباس الضبى ، وعلى بن محمد الإسكافى ، وأبو الفتح البُسْتى ، إذ كانوا جميعاً يعنون برسائلهم عناية شديدة .

أما عبد العزيز بن يوسف فقد تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة ، وتقلد الوزارة للبويهيين عدة مرات ، وفيه يقول صاحب اليتيمة : « أحد صدور المشرق ، وفرسان المنطق ، وأفراد الكرم الكبار ، والآثار والأخبار ، وأعيان الممدوحين المقدَّمين فى الآداب والكتابة والبراعة والكفاية ، وجميع أدوات الرياسة »(١) . ساق الثعالبى جملة من نثره وهى جميعها موشحة بألوان التصنيع وأصباغه كقوله يصف رسالة كتبها إليه أبو إسحاق الصابى : « علمتُ كيف تنتظم فرق البلاغة ، وتتلاقى طرق الخطابة ، وتتراءى أشخاص البيان ، وتمايل أعطاف الحسن والإحسان ، وقرأتُ لفظاً جليًّا ، حوى معنى خفيًّا ، وفصولا

---

(١) اليتيمة ٢/٢٨٧ .

متباينة ، كساها الائتلاف صور المشاكلة ، ومنحها الامتزاج صيغة المضارعة ، ولحمة الموافقة ، فصارت لدلالة الأول منها على الثانى وتعلق العَجُز بالهادى فيها أولاد أرحام مبرورة ، وذوات قُرْبى موصوله ، تتعاطف عيونها ، وتتناصف أبكارها وعُونها »[1].

وأما أبو العباس الضَّبّى فهو خليفة الصاحب بن عباد وتلميذه ، وفيه يقول الثعالبي : « هو جذوة من نار الصاحب أبى القاسم ، ونهر من بحره ، وخليفته النائب مَنابه فى حياته ، القائم مَقامه بعد وفاته ، وكان الصاحب استصحبه منذ الصبا ، واجتمع فيه الرأى والهوى ، فاصطنعه لنفسه ، وأدبه بآدابه ، وقدّمه بفضل الاختصاص على سائر صنائعه وندمائه ، وخرج منه صدراً يملأ الصدور كمالاً ، ويجرى فى طريقه ترسماً وترسّلا ، وفى ذُرَى المعالى تَوَقُّلاً[2] . . . وقد كانت بلاغة العصر بعد الصاحب والصابى بقيت متماسكة بأبى العباس ، فأشرفت على التهافت بموته ، وكادت تشيب بعده لِمَمُ الأقلام ، وتجفّ غُدُرُ محاسن الكلام »[3]. وقد روى الثعالبي له غُرراً من رسائله كقوله فى صدر أحد كتبه : « قد أتانى كتاب شيخ الدولتين فكان فى الحسن روضة حَزْن ، بل جنة عَدْن فى شرح النفس ، وبسط الأنس ، بل بَرْدَ الأكباد والقلوب ، وقميصَ يوسف فى أجفان يعقوب »[4] .

وأما على بن محمد الإسكافى فكان كاتب الدولة السامانية ووزيرها ، وفيه يقول الثعالبي : « هو لسان خراسان وغُرَّتها ، وعينها وواحدها ، وأوحدها فى الكتابة والبلاغة ، ومن لم تُخرج مثله فى البراعة والصناعة ، وكان تأدّب بنيسابور عند مؤدب بها ، يعرف بالحسن بن المهرجان ، من أعرف المؤدبين بأسرار التأديب والتدريس ، وأعلمهم وأدراهم بطرق التدريج فى التخريج ، ثم حرَّر مُديدة فى بعض الدواوين ، فخرج منقطع القرين »[5] . ثم يقول

---

(١) اليتيمة ٢/٢٩٥ . وعونها : جمع عوان وهى الثيب .
(٢) التوقل : الصعود فى الجبل .
(٣) اليتيمة ٣/٢٦١ .
(٤) اليتيمة ٣/٢٦٢ .
(٥) اليتيمة ٤/٩٠ .

الثعالبي : « إنه كان أكتب الناس فى السلطانيات ، فإذا تعاطى الإخوانيات كان قاصر السعى ، قصير الباع » [١] . وقد لاحظ ابن الأثير نفس هذه الملاحظة على الصابى[٢] . ويروى الثعالبي طائفة من نثر الإسكافى ، وهى كلها تنهج نهج التصنيع ، وما يُطْوَى فيه من سجع وبديع ، ويختم الحديث عنه بقوله : « إنه لما انتقل إلى جوار ربه غدتْ لفراقه الكتابة شعثاء ، والبلاغة غَبْراء ، وأكبرَ فضلاء الحضرة رزيته ، وأكثروا مرثيته، وفيه يقول بعض الشعراء :

ألم تر ديوان الرسائل عطلتْ لفقـــدانه أقلامهُ ودفاترُهْ
كثغرٍ مضى حاميه ليس يسره سواه وكالكسر الذى عَزَّ جابره
ليَبكِ عليه خطهُ وبيانهُ فذامات واشيه وذامات ساحره »[٣]

وأما أبو الفتح البُسْتى فكان ــ فى أول أمره ــ كاتباً لباى توز أمير مدينة بُسْت، وهى من مدن أفغانستان ، فلما استولى عليها الأمير سبكتكين ألحقه بخدمته « وصار من بعد ينظم بأقلامه منثور الآثار عن حسامه ، وينسج بعباراته وشائع فتوحه ومقاماته، وهلم جرًّا، إلى زمان السلطان يمين الدولة وأمين الملة (محمود بن سبكتكين) فقد كتب له عدة فتوح إلى أن زحزحه القضاء عن خدمته ، ونبذه إلى ديار الترك من غير قصده وإرادته »[٤] . واشتهر البستى بكثرة الجناس فى كلامه ، يقول العتبى : « هو صاحب التجنيس »[٥] ، ويقول الثعالبي : « هو صاحب الطريقة الأنيقة فى التجنيس الأسيس ، البديع التأسيس، وكان يسميه المتشابه ، ويأتى فيه بكل طريقه لطيفة »[٦] . ولم يَرْوِ الثعالبي شيئاً من رسائله ، وإنما اكتفى ببعض ما فى كتبه من أمثال وحكمة كقوله : « عادات السادات ، سادات العادات. من سعادة جَدِّك ،

---

(١) اليتيمة ٤/٩٢ .
(٢) المثل السائر ص ١٤٨ .
(٣) اليتيمة ٤/٩٤ .
(٤) انظر تاريخ اليمينى للعتبى مع شرح المنينى ١/٧١ .
(٥) نفس المصدر ١/٦٧ .
(٦) اليتيمة ٤/٢٨٤ .

وقوفك عند حدّك . الدعة رائد الضعة . إذا بقى ما قاتك ، فلا تأس على ما فاتك . الخلاف غلاف الشر ، عسى تحظى فى غدك برغدك » . وهى كلها أمثال مسجعة نمقت بوشى التجنيس ، وكأنما كان يعمد البستى إلى هذا الوشى عمداً كى يتفوق على معاصريه فى استخراج كل ما يمكن من بدائعه وطرائفه . وأكبر الظن أننا لا نغلو بعد ذلك إذا قلنا إن الكتابة الديوانية قد تحولت على أيدى هؤلاء الكتاب وأضرابهم إلى تحف فنية خالصة .

الفصل الثانى

التصنيع والتصنع

١

اشتداد موجة التصنيع

رأينا — فى الفصل السابق — كتّاب الدواوين فى القرن الرابع للهجرة، وكل منهم يحاول أن يبلغ من تصنيعه وتجميله لأساليبه ما لم يبلغه كاتب آخر من كتاب الحكام والأمراء المجاورين له، إذ كان هؤلاء الأمراء والحكام يعتدون بالكتابة المصنّعة التى شاعت فى تلك العصور، وكان كل منهم يحاول أن يكون فى بلاطه ودواوينه أهم كاتب فى عصره حتى تشتهر دولته بتلك الطرف الزخرفية التى يخرجها هذا الكاتب. وما من ريب فى أن هذه الحال دفعت الكتّاب إلى أن يصلوا بنثرهم وتنميقه إلى مرتبة تكاد ترفع الحواجز بينه وبين الشعر، فهو نثر منظوم أو هو شعر منثور، وماذا يفصل بينه وبين الشعر؟ إنه يعتمد على الموسيقى: موسيقى السجع، كما يعتمد على زخرف البديع، وإنهم ليبالغون فى ذلك حتى تتحول رسائلهم إلى ما يشبه الوشى الخالص؛ فهى حَلى وتنميق، وبديع وترصيع.

وإن الإنسان ليخيّل إليه كأنما تحولت صناعة النثر فى تلك العصور عن طبيعتها الأولى تحولا تامًّا، إذ أصبحت أشبه ما تكون بصناعة أدوات الترف والزينة فهى تحف تنمّق فى أروع صورة للتنميق، وكل كاتب يتوفر على إحداث هذه التحف توفراً يتيح له أن يشارك فى آياتها وبدائعها، وإنه ليُعنت نفسه فى سبيل ذلك إعناتاً بعيداً. ونحن — فى الواقع — لانكاد نتصور الآن ما كان يحدث فى تلك العصور فى أثناء صناعة هذه التحف والطرف لبعد العهد

بيننا وبينها ، ولأننا أصبحنا عجلين فى إحداث النماذج الفنية وما تحتوى عليه من زخارف دقيقة، بل لقد أصبحنا ننفر من التصنيع وما يُطْوَى فيه من سجع وبديع . ومن يقرأ فى آثار القرن الرابع يحس أن هذا المذهب من التصنيع لم يقف عند كتاب الدواوين ، بل لقد أخذ ينتشر بين غيرهم من كتاب الرسائل الشخصية ، وعلى رأسهم أبو بكر الخوارزمى وبديع الزمان الهمذانى ، فقد تركا مجموعتين كبيرتين من الرسائل ، ذهبا فيهما هذا المذهب من السجع والبديع أو من التصنيع والترصيع ، ولم يكن الخوارزمى وبديع الزمان هما اللذين يذهبان هذا المذهب فقط ، بل كان يذهبه جميع الكتاب من حولهما . يقول الخوارزمى فى كتاب إلى أبى محمد العلوى : « قرأت الفصل المسجَّع فشغلنى الاقتباس منه ، عن الجواب عنه » . وهو يتقدم ذلك بوصف هذا الفصل فيقول : « ورد كتاب السيد . . فرتع الطرف منه بروضة ممطورة ، وحُلَّة منشورة ، ولآلىء فرائد منثورة »[١] ، وهكذا كانت كتابة الأدباء فى هذا العصر ، فقد كانوا دائماً ينمقون كتبهم ويزخرفونها حتى تصبح كأنها الرياض المنمقة والحلل المنشَّرة .

والحق أن موجة التصنيع فى القرن الرابع كانت حادة حدة شديدة فلم يسلم منها أحد إلا فى القليل الأقل حتى كتَّاب التاريخ أنفسهم رأينا بينهم من يختار لنفسه هذا الأسلوب الجديد من التصنيع ، وبدأ هذه الحركة الصابى فى كتابه « التاجى فى أخبار بنى بويه » ثم تبعه المؤلفون فى التاريخ أمثال العتبى فى كتابه « اليمينى » نسبة إلى محمود بن سبكتكين الغزنوى إذ لقبه الخليفة « يمين الدولة وأمين الملة » . وهو كتاب فى تاريخ سبكتكين وابنه محمود ، وقد نال شهرة كبيرة فى عصره وبعد عصره، يقول السبكى : « كان أهل خوارزم وما والاها يعتنون بهذا الكتاب ويضبطون ألفاظه أشد من اعتناء أهل بلادنا بمقامات الحريرى »[٢] . وما من شك فى أن الصابى من جانب والعتبى من جانب آخر

---

(١) انظر رسائل أبى بكر الخوارزمى (طبع الجوائب) ص ٣٧ .

(٢) طبقات الشافعية ٤/ ١٣ .

كانا سبباً فى شيوع السجع والتصنيع فى الكتابة التاريخية عند العماد الأصبهانى ومن لفّ لفّه . وقد كان للثعالبي أيضاً أثره فى هذا الجانب فقد قدم للأدباء من كتاب وشعراء فى يتيمته بمقدمات مسجوعة ، اعتمد فيها على زخرف البديع .

على أننا نلاحظ أن هؤلاء الكتّاب جميعاً من أصحاب مذهب التصنيع والسجع والبديع أخذت تظهر على أسَلات أقلامهم شِيات مذهب آخر هو مذهب التصنع ، إذ نراهم يعمدون إلى تعقيد أساليبهم الزخرفية أو إلى اتخاذ فنون جديدة فى نثرهم لا تمت إلى التجميل والتصنيع بصلة ، إنما تمت إلى التحذلق والتكلف ، ويظهر أنه كان لكتّاب الرسائل الشخصية الأثر الأول فى هذا الجانب فإن موضوع رسائلهم عادة تهنئة أو عتاب أو رثاء أو اعتذار أو استمناح ، وهى موضوعات محدودة بطبيعتها ، فماذا يصنع الكاتب المصنّع الذى يريد أن يثبت براعته وتفوقه ؟ هل يقتصر على سطور معدودة ؟ إن الاقتصار على سطور قليلة لا يُعطى فرصة لبيان مهارة الكاتب وإذن فلا بد له من أن يطيل، ولكن كيف يطيل ومعانيه محدودة؟ لم يجد سبيلا إلى ذلك إلا أن يمد معانيه بكل وسيلة ممكنة، ولم ير مانعاً أثناء هذا الامتداد عن اللجوء إلى المبالغات والتهويلات والاعتداد بكثرة العبارات حتى ليخيل إلى الإنسان وهو يقرأ رسالة للخوارزمى أو للبديع أنه يقرأ فى أساليب كتبت لتُحفظ لا لتعبر عن معنى ، فالمعانى فقدت قيمتها ولم يعد لها أهمية ، إنما الأهمية كلها للألفاظ وما تطرّز به من وَشْى وحَلْى ، وحتى المقامات التى ابتكرها بديع الزمان تَسِمها هذه المياسم ، فهى لا تعبر عن قصص كما يفهم منها ، وإنما تعبر عن عبارات مرصوصة يمكن للأديب أن يستخدمها فى أعماله .

والحق أننا لا نمضى فى قراءة الخوارزمى وبديع الزمان وهما أهم المصنِّعين بين كتّاب الرسائل الشخصية لتلك العصور حتى نحس بأن تأليف الرسائل أصبح لا يقصَد به إلى التعبير عن معان خاصة إنما يقصد به إلى التعبير عن غايات تعليمية ، فهى رسائل يقرؤها المؤدبون ليحفظوها ويحوكوا على مثالها لأنفسهم

آثاراً تشبهها ، وقد أعدّت هذه الحال إلى ظهور فكرة الأساليب المحفوظة التى تورث وتكرر وتردّد بين الكتّاب . على أننا لا نترك الخوارزمى وبديع الزمان إلى قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان وجرجان حتى نجده يحقق ضروباً من التعقيد لزخرف التصنيع لم تكن معروفة من قبله ، وهى ضروب تجعله أقرب كتاب عصره إلى ذوق التصنع والمتصنعين . ونحن نقف عند هؤلاء الثلاثة : الخوارزمى وبديع الزمان وقابوس . لنفسر نمو مذهب التصنيع من جهة وتحول الكتاب قليلا قليلا إلى مذهب التصنع من جهة أخرى ، حتى تنكشف لنا هذه الدورة فى تاريخ النثر العربى وما يتصل بها من فن وصناعة انكشافاً تاما .

٢

أبو بكر الخوارزمى وتصنعه

كان أبو بكر كاتباً كبيراً كما كان شاعراً كبيراً أيضاً ، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ المعروف[١] ، وأصله من طبرستان ، ومولده ومنشؤه خوارزم[٢] ، وإليها ينسب ، وقد « فارقها فى ريعان عمره وحداثة سنه ، وهو قوى المعرفة ، قويم الأدب ، نافذ القريحة ، حسن الشعر ، ولم يزل يتقلب فى البلاد ، ويدخل العراق والشام ، ويأخذ عن العلماء ، ويقتبس من الشعراء ، ويستفيد من الفضلاء ، حتى تخرج وخرج فَرْدَ الدهر فى الأدب والشعر ، ولقى سيف الدولة وخدَمه ، واستفاد من يُمْن حضرته ، ومضى على غُلَوائه فى الاضطراب والاغتراب ، وشرق بعد أن غرب ، وورد بخارى . . ووافى نيسابور . . ثم قصد سجستان . . ثم إنه عاود نيسابور ، وأقام بها إلى أن وفق التوفيق كله بقصد حضرة الصاحب بن عباد بأصبهان ولقائه بمدحه ، فأنجحت سَفْرته ، وربحت تجارته ، وسعد جَدّه بخدمته ، ومداخلته ، والحصول فى جملة

(١) وفيات الأعيان ١/٥٢٣ .
(٢) اليتيمة للثعالبى (طبع الصاوى) ٤/١٩٢ .

ندمائه المختصين به ، فلم يخل من طَلّ إحسانه ووابله، وغامر إنعامه ونائله، وتزوّد من كِتابه إلى حضرة عضد الدولة بشيراز ما كان سبباً لارتياشه ويساره ، فإنه وجد فيها قبولا حسناً ، واستفاد منها مالا كثيراً . ولما انقلب عنها بالغنيمة الباردة إلى نيسابور استوطنها واقتنى بها ضياعاً وعقاراً ، ودَرّتْ عليه أخلاف الدنيا من جميع الجهات ،وحين عاود شيراز ورد منها عَلَلاً بعد نَهَل، فأجْرِى له عند انصرافه رَسْمٌ يصل إليه فى كل سنة بنيسابور مع المال الذى كان يحمل من فارس إلى خراسان ، ولم يزل بحسن حال . . يقيم للأدب سوقاً ، ويعيده غضًّا وريقاً ، ويدرس ويملى ، ويشعر ويروى ، ويقسم أيامه بين مجالس الدرس ومجالس الأنس . وكان يتعصب لآل بويه تعصباً شديداً ويغضّ من سلطان خراسان ، ويطلق لسانه بما لا يقدر عليه »(١) . وتعصُّب الخوارزمى للبويهيين طبيعى لما ذكره الثعالبي من تكريمهم له وبذلهم ، على أن ذلك كان سبباً فى أخذه وحبسه واستخراج بعض المال منه إلا أنه احتال يوماً وهرب إلى حضرة الصاحب متنكراً ، واستمر عنده حتى تولى الوزارة فى خراسان صديقه أبو الحسن المزنى « فاستدعاه وأكرم مورده ومصدره ، وكتب إلى نيسابور فى رد ما أخذ منه عليه ، ففُعِل، وزادت حالته ، وثبتت قدمه ، ونظر إليه ولاة الأمر بنيسابور بعين الحشمة والاحتشام، والإكرام والإعظام ، فارتفع مقداره ، وطاب عيشه »(٢) . ويظهر أنه كانت بنيسابور جماعة مستوحشة منه جداً ، فاستغلوا الفرصة حين وفد بديع الزمان على بلدتهم فى أخريات أيام الخوارزمى ، وعقدوا مناظرات بينهما ، وأعانوا البديع عليه(٣) . ولم يحل الحَوْل حتى توفّى، وكانت وفاته سنة ٣٨٣هـ ، ومولده سنة ٣٢٣هـ(٤) . ويبالغ بديع الزمان فى وصف هزيمته للخوارزمى حين دعى لمناظرته . على أنه ينبغى أن نتلقى هذه المبالغة بشىء من الاحتياط ، لأن البديع هو الذى رواها

---

(١) اليتيمة ١٩٥/٤ .

(٢) اليتيمة ١٩٦/٤ .

(٣) اليتيمة ١٩٦/٤ .

(٤) اليتيمة ١٩٦/٤ وانظر وفيات الأعيان ٥٢٣/١ .

فى رسائله من جهه[١] ، ولأن الخوارزمى كان له خصوم فى نيسابور وقفوا ضده فيها من جهة أخرى . ولعل صاحب اليتيمة كان دقيقاً فى حكمه حين قال فى ترجمة بديع الزمان : « ثم شجَر بينه وبين أبى بكر الخوارزمى ما كان سبباً لهبوب ريح الهمذانى وعلو أمره ، وقرب نُجْحه ، وبعد صيته ، إذ لم يكن فى الحسبان والحساب أن أحداً من الأدباء والكتاب والشعراء ينبرى لمباراته ، ويجترئ على مجاراته ، فلما تصدى الهمذانى لمساجلته ، وتعرض للتحكك به ، وجرت بينهما مكاتبات ومقامات ، ومناظرات ومناضلات ، وأفضى السِّنان إلى العنان ، وقَرْع ِ النَّبْع ِ بالنبع[٢] ، وغلَّبَ هذا قوم ، وذاك آخرون ، وجرى من الترجيح بينهما ما يجرى بين الخصمين المتحاكمين ، والقرنين المتصاولين ، طار ذكر الهمذانى فى الآفاق ، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء ، وظهرت أمارات الإقبال على أموره ، وأُدرِّ له أخلاف الرزق . وأجاب الخوارزمى داعى ربه ، فخلا الجو للهمذانى ، وتصرفت به أحوال جميلة »[٣] فصاحب اليتيمة يرى أن نجاح البديع فى هذه المناظرات لم يجئ من أنه انتصر على الخوارزمى وإنما جاء من أنه استطاع أن يثبت له ، وسرعان ما أتى الحادث المفاجئ فتوفى الخوارزمى وخلا الجو للبديع .

ومهما يكن فقد كان الخوارزمى من كبار الأدباء فى عصره . روى ابن خلكان أنه استأذن على الصاحب فى أرّجان وهو لا يعرفه ، فقال لحاجبه : قل لهذا المستأذن قد ألزمتُ نفسى أن لا يدخل علىّ أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فخرج إليه الحاجب وأعلمه بذلك ، فقال له أبو بكر الخوارزمى : ارجع إليه وقل له هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ فدخل الحاجب ، فأعلم الصاحب بما قال ، فقال الصاحب : هذا يكون أبا بكر الخوارزمى[٤] . والحق أن أبا بكر كان أستاذاً كبيراً فى

---

(١) انظر هذه المناظرات فى رسائل بديع الزمان (طبع بيروت سنة ١٩٢١) ص ٢٨ وما بعدها.

(٢) النبع : شجر للقسى والسهام .

(٣) اليتيمة ٤/٢٤١ .

(٤) وفيات الأعيان ١/٥٢٣ .

عصره ، ولعله من أجل ذلك أسند إليه منصب تخريج التلاميذ فى نيسابور [١] ، ويظهر أنه كان متشيعاً غالياً فى تشيعه ، ففى رسائله رسالة شيعية صَبَّ فيها جام غضبه على الخلفاء من الأمويين والعباسيين [٢] . وإن من يرجع إلى رسائله يجدها تستحوذ على خصائص مذهب التصنيع لعصره فى صورة بالغة من السجع والبديع ، وانظرْ إليه يكتب إلى أبى على البلعمى لما طال عَتْبه وكثرت رقاعه [٣] :

« الكريم — أيد الله تعالى الشيخ — إذا قدر ، غفر ، وإذا أوثق أطلق ، وإذا أسر أعتق ، ولقد هربت من الشيخ إليه ، وتسلحت بعفوه عليه ، وألقيت ربقة حياتى ومماتى بيديه ، فليذقنى حلاوة رضاه عنى ، كما أذاقنى مرارة انتقامه منى ، ولتلُحْ على حالى غُرّة عفوه ، كما لاحت عليها مواسم غضبه وسَطْوه ، وليعلم أن الحر كريم الظفر إذا نال أقال ، وأن العبد لئيم الظفر إذا نال استطال ، وليغتنم التجاوز عن عثرات الأحرار ، ولينتهز فرص الأقدار ، وليحمد الله تعالى الذى أقامه مقام من يُرْجَى ، ويخشى ، وركَّب نصابه فى رتبة شاب الزمان ومجدها فتىّ ، وأخلق العالم وذكرها طرىّ ، فجعله فى الميلاد كريمها وسليلها ، وفى الرتبة قدوتها وجليلها ، وليعتقد أنه قد هابه من استتر ، ولم يذنب إليه من اعتذر ، وأن من رد عليه عذره فقد خرج إلى الشجاعة بعد الجبن ، وأخرج ذنبه إلى صحو اليقين من سترة الظن ، وفق الله تعالى الشيخ لما يحفظ عليه قلوب أوليائه ، وعصمه بما يزيد به فى جماجم أعدائه ، وليس بين الموالاة والمعاداة ، إلا لقية بشعة ، أو لفظة قذعة » .

وأنت ترى فى هذه الرسالة أن الخوارزمى يعتمد على السجع اعتماداً يشبه ما رأيناه سابقاً عند ابن العميد والصاحب ، فهو ينتخب لفظه كما ينتخب أسجاعه ، وهو يعنى بالسجع القصير حتى لا يطول الزمن على الأذن ، فتتخرج من الجو

---

(١) فى رسائل الخوارزمى ما يدل على كثرة تلاميذه ، فهو يراسلهم ويوصى بهم الأمراء والرؤساء . انظر الرسائل (طبع الجوائب) ص ١٠ ، ١٢ ، ٣٧ ، ٥٠ ، ٧٥ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ، ١٨٠ .

(٢) رسائل الخوارزمى ص ١٣٠ .

(٣) رسائل الخوارزمى ص ٩٦ .

الموسيقى الذى يريده الكاتب ، وقد يأتى بالسجع الطويل ولكنه يحدث فيه من المعادلات الداخلية ما يعود به قصيراً ، كقوله : « وليعلم أن الحر كريم الظفر إذا نال أقال ، وأن العبد لئيم الظفر إذا نال استطال » ، فإن هاتين السجعتين طويلتان فى الظاهر ؛ ولكنك إذا تأملتهما وجدتهما تنحلان إلى أربع سجعات ، ففيهما سجعتان داخليتان ، وكان يلجأ إلى ذلك كثيراً فى رسائله . وهو لا يلجأ إلى السجع وحده كما نرى فى تلك الرسالة ، بل نراه يلجأ إلى ألوان البديع وخاصة لون التصوير ولون الطباق حتى يرصِّع سجعه ترصيعاً ، وكان يعنى أيضاً بلون الجناس ، ولكنها عناية أقل من عنايته بالطباق ، ومن أمثلة جناسه قوله فى مطلع إحدى رسائله : « وَعْد الشيخ يُكتَبُ على الجَلْمد ، إذا كُتب وعد غيره على الجَمد ، ولكن صاحب الحاجة سيئ النظر بالأيام ، مريض الثقة بالأنام » [١] ، وقوله فى أخرى : « ورد علىَّ خبر وفاة فلان ، فدارت بى الأرض حيرة ، وأظلمت فى عينى الدنيا حسرة ، وملك الوله والوهل قلبى وساوسَ وفكرة ، وتذكرت ما كان يجمعنى وأباه من سُكْرى الشباب والشراب » [٢] . وعلى هذا النحو كان الخوارزمى يعتمد فى تصنيعه على ما عُرف عند ابن العميد وتلامذته من سجع وبديع ، وإنه ليحاول أن يبلغ من ذلك أوسع درجة ممكنة من الحلية ، فهو يقصر سجعه ، وهو يخلع عليه ضروباً من الرشاقة بفضل ما يلجأ إليه من الصور والجناس والطباق ، وكل ذلك ليجلب أبدع ما يمكن من طُرف وتحف فى هذا الباب ، وإن الإنسان ليحس عنده حقًّا بأن التصنيع قد وصل إلى غايته من التجميل ، فكل عبارة كأنها زخرف مستقل بما تحمل من وشى البديع وزينته ، وإنه ليتطرف فى ذلك تطرفاً ينتهى به إلى ظهور بعض سمات التصنع فى كتابته .

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ١٢ . والجلمد : الصخر ، والجمد : الثلج .

(٢) نفس المصدر ص ١٥ .

٣

التصنع وتصنيع الخوارزمى

كانت صناعة الخوارزمى فى رسائله تقوم على التصنيع وما يطوى فيه من سجع وبديع ، على أن من يتأمل فى هذه الصناعة يحس تسرب ضروب من التصنع إليها ، إذ كان الخوارزمى يعمد إلى ضروب من التهويلات والمبالغات ، وكأنما قِصَر الموضوعات التى كان يعالجها هو الذى أداه إلى هذه الصورة من التعبير ، وانظر إليه يكتب إلى أحد تلاميذه فيصف أيامه الماضية معه على هذا النحو [1] :

« كانت أرق من حاشية البُرْد، ومن طلوع السعد، وأحلى من إنجاز الوعد، وأعذب من القَنْد[2] ، بل من النقد، وأعبق من الورد، وما أردت إلا ورد الخدّ ، بل من المسك والنَّدّ ، وأطيب من القرب بعد البعد، ومن الوصل فى إثر الصدّ ، بل كانت أرق من نسيم الزهَر ، فى السَّحَر ، ومن قضاء الوَطر ، على الخطر ، بل كانت أقصر من ليل السكارى ، أو نهار الحيارى » .

وأنت ترى أساس هذه التعبيرات كلها أنه يهوّل ويبالغ فى وصف الأيام الماضية وما كان من حسنها وجمالها ، ولكن انظرْ كيف أطال فى نعته لها، وهى إطالة مقصودة إذ كان يقصد بها إلى بيان مهارته فى صوغ هذه الأسجاع التى تتقابل تقابلا بديعاً على هذا النحو ، فإذا هى تتألف من أسجاع دالية أول الأمر حتى إذا أثبت تفوقه فى استخدام الدال وأسجاعها انتقل إلى الراء يحوك منها ما يريد من سجع ، وهو يوشى هذا السجع كله بالجناس والطباق والتصوير. ونحن نتساءل : ما هذه الأوصاف كلها التى « يرصُّها الكاتب رصًّا» ؟ والحق أن هذا « الرصّ » وما يتبعه من تراكم العبارات أصبح أصلا من أصول صناعة

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ١١ .

(٢) القند : عسل قصب السكر .

الخوارزمى فى رسائله ، وإنا لنلمح فيه جانباً من جوانب التصنع ، وهل التصنع إلا الخروج عن الطرق الطبيعية فى التعبير الفنى ، إما بمثل هذا التراكم للعبارات ، أو بما قد يحدث من تعقيد فى زخرف السجع والبديع ، أو بما قد ينجم من اجتلاب ألفاظ العلوم ومصطلحاتها ، ومهما يكن فنحن نقع عند الخوارزمى على هذه الحال الجديدة التى أخذت تظهر فى مذهب التصنيع ، ونقصد هذه العبارات المرصوفة التى يتراكم بعضها على بعض ، والتى يحس الإنسان أنها لا تؤدى شيئاً سوى أسجاع وضروب من بديع ، واستمعْ إليه يصف قصيدة بعث له بها أحد تلاميذه (١) :

« وصلت القصيدة الغراء ، الزهراء ، فكانت أرقّ من الماء ، بل من الهواء ، وألذ من الصَّهْباء ، وأسرّ من اللقاء بين الأحبّاء ، ومن هجوم السَّراء ، غِبّ الضرّاء ، وأعذب من مغازلة النساء ، ومن مجالسة الندماء ، ومن مساعدة القضاء ، ومن معاقرة الشراب على الغناء ، ومن استماع فوائد الحكماء ، وخطب البلغاء ، وقلائد الشعراء ، ومن أَخْذ جوائز الأمراء ، وتحصيل مراتب الخلفاء ، فكانت معانيها أبدع من الوفاء ، وأعز من السخاء ، وأغرب من النصفة فى الأصدقاء ، ومن الأمانة فى الشركاء ، بل أغرب من المُغْرِب العنقاء ، وألفاظها أحسن من البدر فى الظلماء ، وأطيب من وصال الحسناء ، ومن الشماتة بالأعداء » .

أرأيت إلى هذه المبالغات والتهويلات و « رصّ » العبارات ؟ إنه الأسلوب الجديد ، أسلوب الرسائل الشخصية عند الأستاذ الأديب أبى بكر الخوارزمى الذى اشتهر بالبلاغة والبيان فى عصره ، لما كان يسوق فى رسائله من مثل هذه العبارات المرصوصة التى تدل على التطرف والمبالغة ، كما تدل على ضرب من الإفراط فى استخدام الجمل والتراكيب المسجوعة . وأكبر الظن أنه كان يعمد إلى ذلك عمداً حتى يجمع لتلاميذه فى رسائله جميع صور التعبير التى يمكن أن يستخدموها فى فكرة من الأفكار ، وكأنه كان يحس أن مهمته ليستهى

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٣٧ .

أن يعبر عن معان ، بل هى أن يعبر عن أساليب يحفظها الطلاب . وما من شك فى أن هذا كان أحد الأسباب فى شيوع العبارات المحفوظة فى اللغة العربية، إذ نجدها تميل منذ الخوارزمى إلى الاحتفاظ بصيغ خاصة من التعبيرات، يرددها الأدباء فى كتاباتهم .

وليس هذا كل ما يلاحَظ على تصنيع الخوارزمى وتطرفه فيه ، بل إننا نلاحظ عليه أشياء أخرى لعل فى مقدمتها أنه يكثر من الإشارات التاريخية(١) ، كما يكثر من ذكر الشعر ، وهى حال أوسع من أن ندل عليها ، وأيضاً فإنه كان يكثر من نثر الشعر وإدماجه فى كتابته ، بل إنه ليعترف بأنه يكثر من إغارته على الكتَّاب الذين سبقوه إذ يقول صراحة : « مازلت أسرق من هذا كلمة، وأنظر من ذاك فقره ، وأستعير من هناك نادرة وثيقة ، أغصب الأحياء على بيانهم، وأنبش المرتى من أكفانهم »(٢) . ونراه فى مقدمة إحدى رسائله يقول : « كتابى وأنا فى سلامة إلا من الحرّ الذى يذيب دماغ الضبّ، ويشبه قلب الصبّ ، وهذا سرقته من رسائل الوزير الجليل ابن عباد ، وليس بأول غارة الكردى على الحاجى ، ولا بأول أخذ الطرَّار ، مال التجار »(٣) . ولعل هذه السرقة وأمثالها هى التى جعلته يصف أسلوبه بأنه « سجع ملزق وكلام ملفق »(٤) . والحق أننا نجد عند الخوارزمى ميلا واضحاً إلى الحذلقة فى التعبير ؛ وإنها لحذلقة تؤديه أحيانًا إلى أن يتصنع لبعض ألفاظ من النجو ، إذ يقول لصديق له : « وكيف صرتُ المستثنى ، وقعدتُ على طريق إلا »(٥) . وقد نحس هذه الحذلقة نفسها فى وسائل التصنيع كقوله فى إحدى رسائله : « لقد أراحنى الشيخ ببِرِّه ، لا بل أتعبنى بشكره ، وفزّعنى بصادق قيامه لا بل شغلنى بتعديد إحسانه وإنعامه ، وخفّف ظهرى من ثقل المحن، لا بل أثقله بأعباء المِنَن ، وأحيانى بتحقيق الرجاء، لا بل أماتنى بفرط الحياء »(٦) . وعلى

---

(١) رسائل الخوارزمى ص ٣٥ ، ٩٧ .
(٢) رسائل الخوارزمى ص ٣٦ .
(٣) نفس المصدر ص ٧٩ .
(٤) نفس المصدر ص ٣٤ .
(٥) نفس المصدر ص ٢٦ .
(٦) نفس المصدر ص ١٠٦ .

هذا النحو نحس دائماً بضروب من التصنع تتسرب إلى صناعة الخوارزمى ، وهى صناعة كانت تقوم على التصنيع ، ولكنها أخذت تظهر فيها بعض شيات التصنع وسماته ، مما يدل على أننا وصلنا من التصنيع إلى هذه المنطقة التى يختلط فيها المذهب بمقدمات مذهب آخر ، وهى مقدمات ما تزال تتسع حتى ينفذ منها الأدباء إلى إحداث المذهب الجديد . ونحن لا نصل إلى أواخر القرن الرابع حتى نجد الرغبات تتكامل للخروج من مذهب التصنيع القديم إلى مذهب جديد من التصنع ، وهو مذهب كان يقوم على التعقيد فى الأسلوب والأداء . وما من ريب فى أن الخوارزمى يعبّر عن شىء من هذه الرغبات مع أن فنه عامة يندمج فى مذهب التصنيع .

٤

بديع الزمان وتصنيعه

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين ويعرف باسم بديع الزمان ، أصله من همذان وإليها ينسب ، وقد تركها عام ٣٨٠ ﻫ وعمره نحو اثنتين وعشرين سنة ، ويظهر أنه لم يكن معجباً بها ، فقد جاء فى إحدى رسائله لأستاذه أحمد بن فارس اللغوى المعروف الذى «أخذ عنه جميع ما عنده واستنفذ علمه»[١] قوله[٢] :

لا تلمنى على ركاكة عقـــلى إن تيقّنتَ أننى همَذانى

وقد روى له ابن خلكان — مع شىء من الشك — بيتين يذم فيهما همذان وأهلها ذمّاً قبيحاً على هذا النحو[٣] :

همذانُ لى بلدٌ أقول بفضلهِ لكنه من أقبح البلدانِ
صبيانهُ فى القبح مثلُ شيوخِهِ وشيوخُه فى العقل كالصبيانِ

---

(١) اليتيمة ٤/٢٤١ .

(٢) رسائل بديع الزمان (طبع بيروت سنة ١٩٢١) ص ٤١٩ .

(٣) وفيات الأعيان ١/٣٩ .

وقد يكون فى هذا الشعر — إذا صحت نسبته إليه — ما يعلل لمفارقته بلده فى مقتبل حياته ، وقد تركها إلى حضرة الصاحب بن عباد زعيم أدباء عصره حينئذ فتزود من ثماره وحسن آثاره [١] . ونراه يترك الصاحب إلى جرجان إذ « أقام بها مدة على مداخلة الإسماعيلية والتعيش فى أكنافهم والاقتباس من أنوارهم . ثم قصد نيسابور فوافاها فى سنة ٣٨٢ ﻫ ونشر بها بَزَّه ، وأظهر طَرْزه وأملى أربعمائة مقامة! نحلها أبا الفتح الإسكندرى فى الكُدْية وغيرها » [٢] . على أنه لا يستمر طويلا فى نيسابور إذ نراه يرحل عنها متجولا فى خراسان وسجستان وغزنة وما حواليها . ويقول الثعالبى : إنه « لم يبق من بلدة فى هذه الأنحاء إلا دخلها وجنى وجبى ثمرتها ، واستفاد خيرها وميرتها ، ولا ملك ولا أمير لا وزير ولا رئيس إلا استمطر بنَوْئه ، وسَرى فى ضوئه ، ففاز برغائب النعم ، وحصل على غرائب القِسَم ، وألقى عصاه بهراة واتخذها دار قراره ، ومجمع أسبابه ، واقتنى ضياعاً فاخرة ، وعاش عيشة راضية ، وحين بلغ أشده وأربى على الأربعين ناداه الله فلباه ، وفارق دنياه سنة ٣٩٨ ﻫ » [٣] .

واشتهر بديع الزمان بحافظة قوية قوة شديدة ، يقول صاحب اليتيمة : « إنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب ، فمنها أنه كان يُنشد القصيدة التى لم يسمعها قط وهى أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ، ويؤديها من أولها إلى آخرها ، لا يخرم حرفاً ، ولا يخل بمعنى ، وينظر فى الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ، ثم يهذُّها عن ظهر قلبه هذًّا ، ويسردها سرداً » [٤] . وكما اشتهر بديع الزمان بحافظته اشتهر بسرعة ارتجاله [٥] وكان يعرف الفارسية ويترجم بعض أشعارها إلى العربية ، ويقال إن الصاحب بن عباد اختبر مهارته فى هذا الجانب [٦] ويقول صاحب اليتيمة :

---

(١) اليتيمة ٢٤١/٤ .

(٢) اليتيمة ٢٤١/٤ .

(٣) اليتيمة ٢٤٢/٤ .

(٤) اليتيمة ٢٤٠/٤ .

(٥) اليتيمة ٢٤٠/٤ .

(٦) Browne, Lit. Hist. of Persia. vol. II, p. 112.

إنه «كان يترجم ما يُقتَرَحُ عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعانى الغريبة بالأبيات العربية ، فيجمع فيها بين الإبداع والإسراع »[١] .

وليس هناك كاتب فى القرن الرابع نال من التمجيد والثناء ما ناله بديع الزمان، وحتى اسمه لا يعرفه الناس وإنما يعرفونه بلقبه الذى أطلقه عليه معاصروه، وإنه ليفصح عن مدى إعجابهم به ، يقول الثعالبى : « هو معجزة همذان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطارد ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يُلْقَ نظيره فى ذكاء القريحة وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس ، ومن لم يُدْرَكْ قرينه فى طُرَف النثر ومُلَحه وغرره . . ولم يُرَ ولم يُرْوَ أن أحداً بلغ مبلغه من لبِّ الأدب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره »[٢] ويقول الحصرى وقد ذكر اسمه (البديع) : « هذا اسم وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه ، كلامه غضّ المكاسر، أنيق الجواهر ، يكاد الهواء يسرقه لطفاً، والهوى يعشقه ظرفاً »[٣] وكان الحصرى يتعصب له على الخوارزمى ، وبلغ من تعصبه أنه لم يرو للخوارزمى شيئاً فى كتابه بينما أكثر من روايته عن البديع ، إذ كان يعجب به وبمقدرته على التجويد والتحبير إعجاباً شديداً. وقد ترك بديع الزمان مجموعة كبيرة من الرسائل نَيَّفت على مائتين وثلاثين ، وأكثرها فى علاقاته الشخصية وبعضها فى مسائل أدبية وقد تحدث فى الرسالة رقم ١٦٧ عن انتشار التشيع ومن يتصفح هذه الرسائل يحسُّ فيها أثر الاحتفال والجهد الشديد ، واستمعْ إليه فى هذه الرسالة القصيرة[٤] :

« يعز علىّ – أطال الله بقاء الرئيس – أن ينوب فى خدمته قلمى ، عن قدمى ، ويسعد برؤيته رسولى ، دون وصولى ، ويرد مَشْرَعَةَ الأنس به كتابى ، قبل ركابى ، ولكن ما الحيلة والعوائق جمَّة :

وعلىّ أن أسعى وليـ ... س علىّ إدراك النجاحْ

(١) اليتيمة ٤/٢٤١ .
(٢) اليتيمة ٤/٢٤٠ .
(٣) زهر الآداب للحصرى ١/٣٠٧ .
(٤) رسائل بديع الزمان ص ١٠٣ .

وقد حضرت داره، وقبَّلت جداره ، وما بي حُبُّ الجدران، ولكن شغفاً بالقُطَّان ، ولا عشق الحيطان ، ولكن شوقاً إلى السُّكان » .

وأكبر الظن أنه استقرت فى نفسك الآن صورة من تصنيع البديع فهو يعتمد فى تصنيعه على السجع القصير ، وإنه ليبعد فى ذلك ، فإذا سجعاته لا تتألف من عبارات ، وإنما تتألف من ألفاظ وكلمات ، فـ « قلمى » تتبعها « عن قدمى» و « رسولى » يليها « دون وصولى » و « كتابى » تجيء فى إثرها « قبل ركابى » . وما من شك فى أنه بلغ من ذلك مبلغاً لم يصل إليه ابن العميد ولا من تبعوه فى مذهب التصنيع ، وهو يضيف إلى ذلك كل ما يمكنه من ترصيع بالبديع ، وكان يعتمد — فى أغلب الأمر — على الجناس ، بينما كان يعتمد الخوارزمى فى الأكثر على الطباق ، وهما يشتركان بعد ذلك فى العناية بالتصوير . على أن البديع كان يهتم بلون لم يأبه له الخوارزمى وهو « مراعاة النظير » بين ألفاظه وكلماته، وكان يبالغ فى ذلك حتى يضم اللفق إلى لفقه ، والشكل إلى شكله ، كقوله فى تهنئة بمولود : « حبذا الأصل وفرعه ، وبورك الغيث وصَوْبه، وأينع الروض ونَوْره، وحبذا سماء أطلعت فَرْقداً وغابة أبرزت أسداً »(١) فإنه حين ذكر الأصل وفرعه استطرد إلى ذكر الغيث وصوبه والروض ونوره أو زهره، والسماء وفرقدها والغابة وأسدها . ومن ذلك قوله فى إحدى رسائله : « وردتُ من ذلك السلطان حضرته التى هى كعبة المحتاج لا كعبة الحجاج ، ومَشْعر الكرام، لا مشعر الحرام ، ومُنَى الضيف ، لا مِنَى الخَيْف وقبلة الصِّلات ، لا قبلة الصَّلاة »(٢) فإنه حين ذكر الكعبة والحجاج ذكر المشعر الحرام ومنى الخيف وقبلة الصلاة ، وكل ذلك ليجانس ويناظر بين ألفاظه وكلماته . على أن هناك ظاهرة تختص بها رسائل بديع الزمان ، ولا توجد فى رسائل الخوارزمى ، وهى ظاهرة القصص ، وهى أوسع من أن نمثل لها بأمثلة ، لأنها تنتشر فى جميع رسائله . ومهما يكن فقد كان بديع الزمان معجباً بمذهب التصنيع ، وكان يسعى دائماً إلى تطبيقه فى رسائله وكتاباته وإنه ليغالى فى هذا

---

(١) رسائل بديع الزمان ص ٥١٥ . (٢) رسائل بديع الزمان ص ١٥١ .

التطبيق فإذا هو يحاول أن يقصّر عبارات سجعه تقصيراً شديداً كما يحاول أن يفرط فى استخدام ألوان البديع إفراطاً بعيداً .

٥

التصنع وتصنيع بديع الزمان

رأينا بديع الزمان يعنى فى رسائله بتطبيق أساليب التصنيع عناية واسعة ، وقد أفرط فى ذلك إفراطاً أتاح لضروب من التصنع أن تتسرب إلى كتاباته ، ولعل فى مقدمة هذه الضروب ما نحسه عنده من مبالغات وتهويلات تشبه تهويلات الخوارزمى ومبالغاته ، بل لعل الخوارزمى لم يفرط إفراطه . على أن هذا ليس هو الجانب الأهم فى تصنع البديع ، بل هناك جوانب كثيرة نحسها لأول مرة عنده ، وإنها لتجعله قريباً من ذوق أصحاب التصنع إذ كان يحاول دائماً أن يأتى بجديد فى فنه ، وأدته هذه المحاولة إلى فنون من التصنع لا عهد لأصحاب التصنيع بها ، واستمعْ إلى هذه الرسالة التى كتبها يصف نهب اللصوص له فى أثناء رحيله من جُرْجان إلى نَيْسابور (١) :

« كتابى وأنا أحمد الله إلى الشيخ وأذم الدهر فما ترك لى فِضَّة إلا فَضَّها ، ولا ذهباً إلا ذهب به ، ولا عِلْقاً إلا عَلِقه ، ولا عَقاراً إلا عَقره ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا مالاً إلا مال إليه ، ولا حالاً إلا حال عليه ، ولا فرساً إلا افترسه ، ولا سَبَداً إلا استبَدّ به ولا لبَداً إلا لبد (٢) فيه ولا بِزّة إلا بزَّها ، ولا عارية إلا ارتجعها ، ولا وديعة إلا انتزعها ، ولا خلعة إلا خلَعها ، وأنا داخل نيسابور ، ولا حِلْية إلا الجلدة ، ولا بُرْدة إلا القشرة » .

ألا تشعر بأن البديع فى هذه الرسالة قد تجاوز الطرق الطبيعية فى الزخرفة

---

(١) الرسائل ص ١٠٤ .

(٢) السبد واللبد من قولهم : ما له سبد ولا لبد ؛ أى لا قليل ولا كثير .

بزينة الجناس ، إذ أعنتَ نفسه هذا العنت فى طلبه ، فكل عبارة تخرج محملة به . وهذا هو معنى ما نقوله من أن الإفراط فى استخدام ألوان التصنيع يقود الكاتب إلى فنون من التصنع والتكلف الشديد . ولم يكن الخوارزمى ولا غير الخوارزمى من أصحاب مذهب التصنيع يضيِّقون على أنفسهم كل هذا الضيق ، فإذا هم لا يصنعون عبارة إلا ويوشُّونها بزخرف من زخارف البديع ، ولكن ما لبديع الزمان وللخوارزمى وأصحابه ؟ إنه يريد أن يتفوق عليهم ، وهو لذلك يعمد إلى إعنات نفسه فى صناعته حتّى يقع عمله من أهل عصره موقعاً غريباً ، وكأنما الإغراب أصبح هو البدع الجديد ، ولذلك نراه يلجأ إلى مثل هذه الجناسات التى نراها فى القطعة السابقة ، وانظرْ إليه يقول فى إحدى رسائله مفضلا العرب على العجم(١) :

« العرب أَوْفَى وأوفر ، وأوقى وأوقر ، وأنكى وأنكر ، وأعلى وأعلم ، وأحلى وأحلم ، وأقوى وأقوم ، وأبلى وأبلغ ، وأشجى وأشجع ، وأسمى وأسمح ، وأعطى وأعطف ؛ وألطى وألطف ، وأحصى وأحصف ، وأنقى وآنق ، ولا يُنكر ذلك إلا وقح وَتِح ، ولا يجحده إلا نَغِلٌ نغِر »(٢) .

أرأيت إلى هذه الكثرة من الجناس الناقص ؟ إنها دليل آخر على ما نذهب إليه من أن زخرف الجناس عند البديع أخذ يفقد بعض قيمته القديمة لأن الكاتب يجعلنا نشرف على ضرب من التصنع فى استخدامه ، ومع أنه زخرف حقًّا ولكننا نحس أن طاقته القديمة فقدت بعض مميزاتها وما كان يسمها من حسن وجمال . والحق أن التطرف فى استخدام أدوات التصنيع على هذ النحو ينتهى بصاحبه إلى الخروج إلى مذهب التصنع ، والبديع لم يكن من أصحاب هذا المذهب ، ولكنه كان مغالياً فى تصنيعه مغالاة جعلته يدنو من ذوق أصحاب التصنع الذين يصعِّبون فى تعبيرهم كما سنرى فيما بعد ، وقد كانوا

(١) الرسائل ص ٢٧٩ .

(٢) ألطى : أثقل على العدو . وتح : تافه ، نغل : فاسد ، نغر : غاضب .

يلتمسون هذا التصعيب – من بعض الوجوه – فى تعقيد زخرف التصنيع على نحو ما نرى الآن عند البديع . على أنه ينبغى أن نعرف أن البديع لم يكن يكثر من ذلك لأنه لم يكن يتخذه مذهباً ، ولكننا على كل حال نجده عنده ، وكأنه تعبير عن هذا التحول الذى أخذ يظهر قليلا قليلا فى ميادين التصنيع ، وهو تحول كان يراد به الانتقال إلى المذهب الجديد، مذهب التصنع .

وليس كل ما نجده عند البديع من الشعور بهذ التحول هو استخدامه للجناس على هذا النحو ، فنحن نجد عنده مظاهر أخرى ، لعل من أهمها جنوحه للغريب فى نثره ، كأن الغريب غاية يسعى إليها الكاتب ليحقق ضرباً من الجمال فى صناعته ، وأكبر الظن أنه كان للجناس واهتمامه به أثر فى استخدامه لهذا الغريب . وبجانب هذه الظاهرة التى تدل على التصنع والتكلف لأن استخدام الغريب لايُعَدّ جمالا فى ذاته، نجد عنده ظاهرة أخرى، وهى كثرة الأمثال فى نثره ، وأيضاً فقد كان يكثر من اقتباس القرآن الكريم فى كتابته . ولا يقف البديع عند ذلك بل نراه يكثر من تضمين الشعر ، وانظرْ إلى هذه الرسالة التى أرسل بها إلى الخوارزمى أول قدمه إلى نيسابور[1] :

« أنا لقرب الأستاذ – أطال الله بقاءه – (كما طرب النَّشْوان مالت به الخَمْرُ) ومن الارتياح للقائه (كما انتفض العصفور بلَّله القَطْر) ومن الامتزاج بولائه (كما التقت الصهباءُ والبارد العذب) ومن الابتهاج بمرآه (كما اهتز تحت البارِحِ[2] الغُصن الرَّطْبُ) فكيف نشاط الأستاذ لصديق طَوَى إليه ما بين قصبتى العراق وخراسان ، بل ما بين عتبتى نيسابور وجرجان ، وكيف اهتزازه لضيف فى بردة جَمَّال ، وجلدة حَمَّال .

رَثّ الشمائل مُنْهَج الأثوابِ بكرتْ عليه مُغيرةُ الأغرابِ[3]

وهو – أيده الله – ولىّ إنعامه ، بإنفاذ غلامه إلى مستقرى ، لأفضى إليه بسرّى ، إن شاء الله تعالى » .

---

(١) رسائل بديع الزمان ص ١٢٨ .

(٢) البارح : الريح الحارة فى الصيف .

(٣) منهج : بالى .

وواضح أن البديع استعان أربع مرات فى أوائل رسالته بهذه الشطور من الشعر التى وضعناها بين أقواس، وما من ريب فى أنه جاء بها ليدلّ الخوارزمى على مهارته ، وهذا هو نفسه ما يجعلنا نشعر بأن البديع كان يستظهر شارات من التصنع فى عمله ، وهى شارات تضطره إلى الجناس المسرف أو الجناس المعقد ، كما تضطره إلى استخدام الغريب ، وأيضاً فإنها تضطره إلى هذا التضمين لشطور الشعر فى كلامه .

والواقع أننا نحس فى هذه الظواهر كلها أثراً من التصنع الذى أخذ القرن الرابع يعدّ لظهوره ، ويهيئ لخروجه بما كان يصنعه البديع والخوارزمى فى آثارهما. وقد كان البديع أقرب من الخوارزمى إلى ذوق التصنع ، ولعل ذلك ما جعله يميل إلى اللعب والعبث فى صناعته ، فقد روى الثعالبى فى يتيمته أنه «كان يكتب الكتاب المقترَح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ثم هلم جرًّا إلى الأول »[1] ، وقد روى بديع الزمان نفسه فى رسائله صوراً كثيرة من هذا اللعب إذ نراه يُدِلّ على الخوارزمى بأنه يستطيع أن يقترح عليه أربعمائه صنف فى الترسل ، ثم يستطرد فيصف بعض هذه الأصناف فيقول : إنه يستطيع أن يكتب كتاباً يـُقـْرَأ منه جوابه ، أو كتاباً يُقرأ من آخره إلى أوله ، أو كتاباً إذا قرئ من أوله إلى آخره كان كتاباً ، فإن عُكست سطوره مخالفة كان جواباً ، أو كتاباً لا يوجد فيه حرف منفصل من راء يتقدم الكلمة أو دال ينفصل عنها ، أو كتاباً خالياً من الألف واللام ، أو كتاباً خالياً من الحروف العواطل ، أو كتاباً أول سطوره كلها ميم وآخرها جيم ، أو كتاباً إذا قرئ معرّجًا وسُرد معرّجًا كان شعراً، أو كتاباً إذا فُسِّر على وجه كان مدحاً وإذا فسر على وجه كان قدحاً[2] .

ولعل من الطريف أن الخوارزمى حين سمع من بديع الزمان هذه الأصناف

---

(١) اليتيمة ٤/٢٤٠ ونجد فى معجم الأدباء أديباً معاصراً للبديع يسمى الصخرى يحاول أن يقلده فى هذا الجانب . انظر معجم الأدباء (طبع مصر) ٥/٢١ .

(٢) رسائل بديع الزمان ص ٧٤ .

الجديدة فى الكتابة قال : إنها شعبذة ، وحقاً ما يقوله الخوارزمى فإنها لا تفصح عن جمال ، وإنما تفصح عن لعب ، والخوارزمى لم يكن يفهم هذا اللعب لأنه ليس من قبيل زخرف التصنيع الذى يعهده ، غير أننا لا نمضى عند بديع الزمان حتى نحس تحولا فى هذا الزخرف ، وهو تحول لا يتصل به مباشرة إنما يتصل بطرق أدائه ، فإذا هذه الطرق تصعّب هذا التصعيب الذى يحس فيه الخوارزمى ضرباً من ضروب الشعبذة ، وردّ البديع عليه حين أنكر منه ذلك بقوله : « إنك لا تحسن من الكتابة إلا هذه الطريقة الساذجة ، وهذا النوع الواحد المتداوَل بكل قلم ، المتناوَل بكل يد وفم » [1] . ويقصّ علينا بديع الزمان أنه قرأ على الخوارزمى ومن حضروا مناظرتهما كتاباً منكوساً ثم سرده معكوساً وقال : «إن الجماعة بُهتت والعيون زَرَقَتْ» [2] وفى إعجاب هذه الجماعة بشعبذته ما يدل على أننا أصبحنا على وشك الانتقال إلى مرحلة التصنع ، إذ أخذ الناس يعجبون بالطرق الغريبة فى التعبير كأن الإغراب من حيث هو شيء له جلاله وخطره فى صناعة الرسائل . وحقاً إن البديع لم يتحول فى عمله كله إلى هذه الوجهة ، ولكننا نجد عنده بعض عناصرها وبعض مقدماتها ، بحيث لا نبعد إذا قلنا : إنه كان من أهم من رشّحوا لمذهب التصنع وظهوره .

٦

مقامات البديع وما فيها من تصنع

ونحن نعرض لضرب جديد من الكتابة ابتكره بديع الزمان لنرى ما فيه من تصنع ، وهو ما اشتهر به من مقاماته ، وهى نوع من القصص القصيرة تحفل بالحركة التمثيلية ، وفيها تدور المحاورة بين شخصين سُمِّى أحدهما عيسى بن

---

(١) رسائل بديع الزمان ص ٧٦ .

(٢) الرسائل ص ٧٨ . وزرقت : انقلبت وظهر بياضها عجباً وحيرة .

هشام والآخر أبا الفتح الإسكندرى ، وهو من الأدباء السيَّارين أو المُكْدين السائلين يطوف من مكان إلى مكان يستجدى الناس بفصاحته وبيانه ، يتقابل دائماً هذا الشخص المسمى بأبى الفتح الإسكندرى مع راوٍ له يحكى أخباره ، وهو عيسى بن هشام ، ويقول بديع الزمان — كما مر بنا — إنه أصنع أربعمائة قصة من هذا النوع أو كما يسميها هو مقامة[1] ، غير أنه لم يصلنا منها إلا نيف وخمسون فقط وأكبر الظن أن بديع الزمان كان بصدد الافتخار والتزيد فى عمله ، ولذلك ينبغى أن لا نفهم العدد الذى ذكره بمعناه الحرفى .

ويقف الباحثون عند كلمة مقامات التى أطلقها البديع على قصصه ويتساءلون عن المعانى التى جاءت فيها قبله[2] ، وإن من يرجع إلى الشعر الجاهلى يجدها تستعمل فيه بمعنى المجالس ، يقول زهير بن أبى سُلمى فى بعض شعره[3] :

وفيهم مقاماتٌ حسانٌ وجوهها ... وأنديةٌ ينتابها القــول والفعلُ
وإن جئتهم ألفيتَ حول بيوتهم ... مجالس قد يُشفَى بأحلامها الجهل

ثم توسع العرب فى معنى الكلمة فأصبحوا يطلقونها على خطبهم وأحاديثهم التى يقولونها فى مجالسهم ، وقد يفهم بيت زهير على هذا المعنى . واستمرت الكلمة تدل على المعنيين حتى عصر بديع الزمان نفسه ، إذ نجده يستخدمها فى رسائله بمعنى المجالس[4] ، كما استخدمها الثعالبى بنفس المعنى[5] ، وفى أخبار البديع أنه كان يختم مقامه أو مجلسه فى نيسابور بقصة من هذه القصص ، ولعله من أجل ذلك اختار لها اسم المقامات .

---

(١) الرسائل ص ٣٩٠ ، ٥١٦ وانظر اليتيمة ٢٤١/٤ .

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية فى ترجمة بديع الزمان وفى كلمة مقامة أيضاً .

(٣) ديوان زهير (طبع دار الكتب) ص ١١٣ . وانظر ديوان لبيد (طبع بريل) ص ٣٩ والمفضليات (طبعة لايل) ص ١٢٢ والحماسة (طبع أوربا) ص ٩٥ .

(٤) رسائل بديع الزمان ص ١٠٦ .

(٥) انظر ما نقله ياقوت عن الثعالبى فى معجم الأدباء (طبع مصر) ١٦٦/٢ .

وذكر الحصري أن بديع الزمان ألف هذه المقامات معارضة لابن دُرَيْد المتوفى عام ٣٢١ هـ إذ يقول إن البديع «لما رأى أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، وانتخبها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها إلى الأفكار والضمائر ، فى معارض حوشية ، وألفاظ عُنْجُهِيَّة ، فجاء أكثرها يَنْبُو عن قبول الطباع ، ولا تُرْفَعُ له حجب الأسماع . . . عارضه بأربعمائة مقامة فى الكُدْيَة تذوب ظرفاً ، وتقطر حسناً »[1] على أنه ينبغى أن نلاحظ أحاديث ابن دريد تخالف مقامات الهمذانى فى موضوعها ، إذ أن ما رواه له القالى فى كتابه الأمالى منها يدور غالباً حول حكايات عربية قديمة ، للتاريخ والحب فيها نصيب ، بينما أقاصيص بديع الزمان تدور على التسول والكُدْيَة ومع ذلك فالعلاقة بين العملين واضحة أولا من حيث الاسم فإن من معانى كلمة مقامة التى اختارها بديع الزمان لقصصه « حديثاً » وتجمع على أحاديث وهو نفس الاسم الذى اقترحه ابن دريد لأقاصيصه ؛ وثانياً من حيث الغاية فأحاديث ابن دريد ومقامات بديع الزمان أُلِّفتا لغاية واحدة ، هى تعليم الناشئة اللغة .

والمقامات تصور حياة الأدباء السيارين الذين كانوا يسمون باسم الساسانيين نسبة إلى ساسان وهو شخص فارسى قديم يقال إن أباه حرمه من الملك ، فهام على وجهه محترفاً للكدية . ومن يقرأ فى اليتيمة يجد طائفة الساسانيين هذه تحتل حيزاً فى الحياة الأدبية للقرن الرابع الهجرى ، وهى تشبه تمام الشبه طائفة «الأدباتية» التى اشتهرت عندنا بمصر فى القرن التاسع عشر الميلادى ، إذ كانوا يتخذون الأدب والشعر وما يتصل بهما من فصاحة وبلاغة وسيلة إلى كسب المال وابتزازه ، ومن يرجع إلى بخلاء الجاحظ يجده يعرض لهذه الطائفة وحيلها[2] . وقد تحدث عنها البيهقى فى القرن الرابع[3] ، وإذا استمررنا فى هذا القرن إلى عصر بديع الزمان وجدنا هذه الطائفة تتضح شخصيتها فى الحياة الاجتماعية بأوسع

---

(١) زهر الآداب للحصرى ١/٣٠٧ .

(٢) البخلاء ١/٨٦ .

(٣) المحاسن والمساوىء للبيهقى طبع أوربا ص ٦٢٢ .

مما كانت عليه قبل ذلك ، اشتهر من شعرائها حينئذ الأحنف العكبرى وأبو دلف الخزرجى ، أما الأحنف فيقول عنه صاحب اليتيمة : إنه « شاعر المُكْدين وظريفهم ، ومليح الجملة والتفصيل منهم » ، وروى له بعقب ذلك قصيدة دالية طويلة عرض فيها لحرفة الكُدْية عرضاً واسعاً[١] ، وأما أبو دلف فيقول فيه صاحب اليتيمة : « شاعر كثير المُلَح والطُّرَف ، مشحوذ المُدْية فى الكُدْية ، خنَّق التسعين فى الإطراب والاغتراب ، وركوب الأسفار الصعاب ، وضرْب صفحة المحراب بالجراب ، فى خدمة العلوم والآداب . . وكان ينتاب حضرة الصاحب ويكثر المقام عنده . ولما أتحفه بقصيدته التى عارض بها دالية الأحنف العكبرى فى المناكاة وذكر المكْدِين والتنبيه على فنون حرفهم وأنواع رسومهم . . . اهتز ونشط لها ، وتبجح بها ، وتحفظها كلها وأجزل صلته عليها »[٢] . وهى قصيدة طويلة رواها صاحب اليتيمة ، وفيها ذكر الأحنف الألفاظ الاصطلاحية لأهل الكدية وما كانوا يتخذونه فى مناكاتهم أى كلامهم الذى يتكدون به من مصطلحات خاصة ، كما ذكر حيلهم وتفننهم فى هذه الحيل على صور شتى[٣] وعرض بديع الزمان فى مقاماته لكثير من هذه الحيل[٤] ، كما سمى مقامة له باسم المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة ، وما لنا نذهب بعيداً ، وقد كان البديع نفسه راوية لأبى دلف[٥] فقد نسب إلى أبى الفتح الإسكندرى بطل مقاماته هذه الأبيات[٦] :

ويحك هذا الزمان زورُ ... فلا يغرنَّك الغرورُ
زوِّق ومخرِق وكُلْ وأطْبقْ ... واسرقْ وطَبِّق لمن يزورُ
لا تلتزم حالةً ولكنْ ... دُرْ بالليالى كما تدورُ

وهى من شعر أبى دلف[٧] . وكل ذلك يؤكد الصلة ويوثقها بين بديع

(١) اليتيمة ٣/١٠٤ .
(٢) اليتيمة ٣/٣٢١ .
(٣) اليتيمة ٣/٣٢٤ .
(٤) انظر المقامة الرصافية فى مجموع مقاماته وهى تعتبر من بعض الوجوه نثراً لقصيدة أبى دلف المذكورة .
(٥) اليتيمة ٣/٣٢٣ .
(٦) انظر المقامة الأولى من مقاماته وهى المقامة القريضية .
(٧) اليتيمة ٣/٣٢٣ .

الزمان فى مقاماته وبين أهل الكُدْية فى زمنه، ومهما يكن فقد استطاع بديع الزمان أن ينفذ من نمو هذه الطائفة فى عصره وما اشتهرت به من حِيلها إلى صنع مقاماته. ويسوق البديع هذه المقامات فى شكل قصص درامية صغيرة، يمكن أن تعتبر المقامات كلها قصة واحدة تعبر عن أطوار مستقلة من حياة بطلها أبى الفتح الإسكندرى، أو قل إنها تعبر عن حوادث مستقلة من أيامه. صيغت فى أسلوب قصصى يشيع فيه الحوار، وفيها نرى أبا الفتح يحتال على الناس بطرق مختلفة من بلاغته، ليبتزّ أموالهم، وفى أغلب أمره يلتقى به عيسى بن هشام فيعجب بفصاحته ويكشف اللثام عن وجهه، وفى كل مرة لا يخطئه، فهو دائماً أبو الفتح الإسكندرى! . . وما من ريب فى أن هذه الصورة تخرج فى كثير من جوانبها بالمقامات عن أسلوب القصص المشوق إلى أسلوب السَّرْد، وإن كنا لا نعدم فيها القصص الدرامية الطريفة.

وكان هَمُّ بديع الزمان الأول أن يجمع فى كل مقامة من مقاماته طائفة من الأساليب البلاغية المصنّعة التى تعتمد على السجع والبديع، وإنه ليسرف فى تجميل كل مقامة بأوسع طاقة ممكنة من الزخرف والزينة والتنميق، ومن ثَمَّ انصرف عن الموضوع إلى الأسلوب وذهب يجمله ويرصعه فنوناً من التجميل والترصيع، فالترصيع والتجميل هما غايته من عمله حتى تستوى له طُرَفٌ إنشائية بليغة تروع معاصريه، وقد كان القدماء أنفسهم يعرفون ذلك، يقول ابن الطقطقى: «إن المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الإنشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر»[1]. وإن من يتابع البديع فى مقاماته يحس حقًّا أنه ألفها لغرض التمرن على الكتابة والإنشاء، فإنه يعنى دائماً بالوصف، ولا يصف شيئاً إلا راكم فيه العبارات «ورصّها رصًّا» ليختار منها الكاتب ما يريد، وانظرْ إليه يصف الخَمْر على لسان ربة حانة فيقول[2]:

«هذه خمر كأنما اعتصرها من خدّى، أجداد جدّى، وسربلوها من القار

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية (طبع المطبعة الرحمانية) ص ١٠.

(٢) انظر فى ذلك المقامة الخمرية.

بمثل هجرى وصدّى ، وديعة الدهور ، وخبيئة جَيْب السرور ، وما زالت تتوارثها الأخيار ، ويأخذ منها الليل والنهار ، حتى لم يبق إلا أرَجٌ وشعاع ، ووَهجٌ لذّاع . ريحانة النفس وضرّة الشمس ، فتاة البرْق [١] ، عجوز الملْق ، كاللهب فى العروق ، وكبرد النسيم فى الحلوق ، مصباح الفكر ، وترياق سمّ الدهر ، بمثلها عُزّر الميت ، فانتشر ودُوِىَ الأكمه فأبصر » .

ألا تحس بأن بديع الزمان يحاول هنا أن يجمع أكثر ما يمكنه من أوصاف الخمر ليسلكها فى عقد مقاماته ، وهو ينظر إلى كل عبارة كأنها جوهرة يريد أن يضعها فى هذا العقد حتى تتلألأ بقوة أوسع من قوة جارتها ، وما يزال يحتال على هذه الجواهر يضمها بعضها إلى بعض حتى ينال استحسان سامعيه فى نيسابور موطن الخوارزمى وموطن فصاحته ، وما اشتهر به من بلاغته ، وكأنه يريد أن يصرف تلاميذه عنه بما يروعهم به من هذه الأساليب المصنّعه التى تتراكم فى مقاماته تراكماً ، وانظرْ إليه يقول فى المقامة الأسدية :

« اتفقت لى حاجة بِحِمْص ، فشحَذَت إليها الحِرْصَ ، فى صحبة أفراد كنجوم الليل ، أحْلاس [٢] لظهور الخيل ، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته ، ونستأصل شأفته ، ولم نزل نفْرى [٣] أسْنمة النِّجاد ، بتلك الجياد ، حتى صِرْنَ كالعصىّ ، ورَجَعْنَ كالقِسىّ ، وتاح [٤] لنا واد فى سفح جبل ، ذى ألاء وأثْل [٥] ، كالعذارى يسرِّحن الضّفائر ، وينشرْنَ الغدائر ، ومالت الهاجرة بنا إليها ، ونزلنا نغوِّر ونغور [٦] ، وربطنا الأفراس بالأمراس [٧] ، وملنا مع النعاس ، فما راعنا إلا صهيل الخيل ، ونظرت إلى فرسى وقد أرهف أذنيه ، وطَمَحَ بعينيه ، يَجُذّ قوى الحبل بمشافره ، ويخدّ خدّ الأرض بحوافره ، ثم اضطربت الخيل فتقطعت الحبال ، وأخذتْ نحو الجبال ، وطار كل واحد منا إلى سلاحه فإذا السبع

---

(١) البرق : التزيين : يريد أن الخمر كالفتاة فى زينتها ثم هى كالعجوز فى تملقها وتوددها .

(٢) أحلاس : جمع حلس وهو الملازم .

(٣) نفرى : نقطع ، والنجاد : جمع نجد وهو ما ارتفع من الأرض .

(٤) تاح : عرض .

(٥) ألاء وأثل : من أشجار البادية .

(٦) نغوّر : نهبط فى الأودية ، نغور : ننام .

(٧) الأمراس : الحبال .

فى فَرْوة الموت ، قد طلع من غابه ، منتفخاً فى إهابه ، كاشراً عن أنيابه ، بطرْف قد ملِئ صَلَفا ، وأنف قد حُشى أنَفاً ، وصَدْرٍ لا يبرحه القلب ، ولا يسكنه الرُّعْب ، وقلنا خطب مُلِم ، وحادث مهم ، وتبادر إليه من سرعان الرفقة فتى :

أخضرُ الجِلْدَةِ فى بيت العرب يملأ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ[١]

بقلب ساقه قدر ، وسيف كله أثر ، وملكته سوْرة الأسد ، فخانته أرض قدمه ، حتى سقط ليده وفمه ، وتجاوز الأسد مصرعه ، إلى من كان معه ، ودعا الحيْن[٢] أخاه ، بمثل ما دعاه ، فصار إليه ، وعَقَلَ الرعب يديه ، فأخذ أرضه ، وافترش الليث صدره ، ولكنى رميته بعمامتى وشغلت فمه ، حتى حقنت دمه ، وقام الفتى فوجأ[٣] بطنه حتى هلك الفتى من خوفه ، والأسدُ للوجأة فى جوفه » .

وأنت ترى أن بديع الزمان يعنى عناية واضحة برصف أسجاعه مضيفاً عليها ألواناً من البديع وخاصة من الجناس والتصوير ، إذ كان يهتم بهما اهتماماً واسعاً ، كما كان يهتم بشىء آخر وهو كثرة حشده للغريب فى مقاماته على نحو ما نرى فى المقامة النَّهدية . وارجع إلى المقامة الحمدانية فستراه هناك يصف فرساً فيعنت نفسه فى الإتيان باللفظ الغريب حتى إذا استوفى من ذلك ما يريد ، عاد فشرح لفظه كأنه أستاذ من أساتذة اللغة ، لا أديب ينشئ قصة ، وهذا نفسه أحد الأدلة على أنه لم يرد بكثير من مقاماته إلى غاية قصصية خالصة ، إنما أراد بها إلى غاية تعليمية ، وقد أدته هذه الغاية إلى أن يكثر من الأساليب المصنَّعة ، كما أدته إلى أن يكثر من اللفظ الغريب ، وقد تلوّم من أجلهما الجاحظ وحمل عليه حملة شعواء فى مقامة سماها المقامة الجاحظية ، وفيها يقول عنه : إنه « قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقاد لعريان

---

(١) أخضر هنا : أسمر . والسمرة هى اللون الخاص بالعرب . الكرب : قطعة حبل تربط فى الخشبتين المعترضتين فى فم الدلو : والشطر مثل يضرب للمغلوب فى أى شىء .

(٢) الحين : الموت .

(٣) وجأ بطنه : شقها .

الكلام يستعمله ، نفور من مُعْتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة » . ونحن لا نلوم البديع على اهتمامه بالاستعارات لأنها كانت إحدى زخارف مذهب التصنيع ، ولكن نلومه على اهتمامه بالكلمات المعتاصة الغريبة غير المسموعة ، فإن إغراب الكلمات من حيث هو لا يمكن أن يعتبر زخرفاً أو تجميلا وتصنيعاً ، بل إنه يعتبر عيباً وآفة حين يحتكم إليه الكاتب فى فنه ، وما الجمال الذى يستهويه فيه ؟ إنه يخلو من كل جمال ، وإنه لدليل على أن وسائل الأداء فى النثر أخذت تتعقد منذ البديع ، إذ يجنح الكاتب إلى وسائل لا تتصل بالفن وإنما تتصل بالإغراب من حيث هو ، ومن أجل ذلك كنا نزعم أن بديع الزمان — على الرغم من أنه علم من أعلام فن التصنيع — أخذ التصنع يتسرب إلى آثاره ونماذجه فى رسائله ومقاماته ، وهل أدل على ذلك من أنه كان يتخذ اللفظ الغريب كطرفة فنية يعيب بها الجاحظ وغيره من سابقيه ، وحقًّا إنه لم يطبق ذلك على كل مقاماته ولا على كل جوانبها ، ولكنه على كل حال عُنى به فيها كما عنى به فى رسائله .

وبجانب عنايته باللفظ الغريب فى المقامات نجده يعنى بما سبق أن عرضنا له من كثرة تضمين الشعر ، وكثرة الاقتباس من القرآن الكريم ، وحَشْد بعض الأمثال . وكل هذه المظاهر سنراها واضحة عند أصحاب مذهب التصنع ، وأيضاً فإنه كان يعنى فى المقامات بتعقيد أداة التصنيع التى كان يعجب بها وهى أداة الجناس ، وربما كانت أحد الأسباب التى جعلته يعنى بالغريب فإن المعجم العادى قد لا يعطيه الكلمة التى يريدها ، فيبحث عنها فى المعجم الغريب ، وحينئذ لا يهمه إبهامها ولا اعتياصها كقوله : « أميس مَيْسَ الرجلة ، على شاطئ الدجْلة »[1] ، فإن مجانسته لكلمة الدجلة هى التى اضطرته إلى كلمة الرجلة ، وهى جمع رجل ، وهو جمع شاذ ، لكنه عدل إليه من أجل جناسه ، ومثل ذلك أيضاً قوله : « فأخذه الجُفّ ، وملكته

---

(١) مقامات بديع الزمان (الطبعة الثانية ببيروت) ص ١٠١ .

الأكف » (١) ، والجف : العدد الكثير من الناس ، ومثله قوله : « الإكراه مرة بالمِرّة ، ومرة بالدِّرّة » (٢) ، والمرة هنا العقل، وقد استخدمها لغرض الجناس بينها وبين الدرة . وعلى هذا النحو كانت تضطره المجانسة أحياناً إلى ما يركب من لفظه الغريب ، وليس ذلك كل ما يلاحظ فى جناسه ، فإننا نلاحظ عليه أيضاً الإفراط فيه حتى ليعدل كثيراً إلى الجناس الناقص من جهة كما يعدل إلى الجناس المعكوس من جهة أخرى على نحو ما نرى فى مثل قوله : « ولكنى أبو العجائب عاينتها وعانيتها ، وأم الكبائر قايستها وقاسيتها » (٣) ، فقد قلب عاينتها فخرجت له عانيتها ، وقلب قايستها فخرجت له قاسيتها ، ومن ذلك قوله : « بينما أنا أسير فى بلاد تميم مرتحلا نجيبة ، وقائداً جنيبة » (٤) ، فقد قلب نجيبة فخرجت له جنيبة ، ومن ذلك قوله : « أعانى الفقر ، وأمانى القفر » (٥) ، فقد قلب الفقر فخرجت له القفر ، ومثل ذلك أيضاً قوله : « يزهى بحليته ، ويباهى بلحيته » (٦) فقد قلب حليته فخرجت له لحيته .

وما من ريب فى أن هذه الجوانب كلها عند البديع هى التى تجعلنا نزعم أنه كان مقدمة من مقدمات مذهب التصنع ، وليس معنى ذلك أنه يخرج عن مذهب التصنيع وإطاره ، بل هو أحد أساتذته فى عصره ، حتى لتشبه المقامة من مقاماته واجهة أحد المساجد المزخرفة لعهده ، لكثرة ما شُغل فيه بالتنميق والتصنيع والترصيع ، وغاية ما فى الأمر أنه وجد فى هذه المرحلة التى أخذت تتحول فيها صناعة النثر العربى من مذهب التصنيع إلى مذهب التصنع ، فتسربت شيات وسمات من ذلك إلى عمله ، وإنها لشيات وسمات تدل على أننا أصبحنا على وشك التلاقى بمذهب التصنع وكبار أنصاره وأصحابه .

---

(١) المقامات ص ١٠٦ .

(٢) مقامات بديع الزمان ص ١٢٩ . والدرة : العصا .

(٣) نفس المصدر ص ٢٦ .

(٤) نفس المصدر ص ٤٣ .

(٥) نفس المصدر ص ٥٣ . وأمانى : أدارى من فزعى .

(٦) نفس المصدر ص ١٩٣ .

٧

قابوس بن وشمكير وتصنعه

هو أمير من أمراء الأسرة الزيارية التى كانت تحكم طبرستان وجُرْجان ، وهما ولايتان تقعان فى الجنوب والجنوب الشرقى لبحر طبرستان ، أو كما يسمى الآن بحر الخزر ، والزياريون ينحدرون من بيت عظيم من بيوت الفرس ، إذ يقال إنهم ينتسبون إلى ملك ساسانى هو قُباذ[١] . وقد ولى قابوس الحكم عام ٣٦٧ هـ[٢] ولقبه خليفة بغداد — على عادته فى تلقيب حكام الولايات الفارسية ألقاباً مختلفة — بلقب شمس المعالى[٣] ، واستهدف فى أوائل حكمه لغارات كثيرة من بنى بويه ، وما زالوا به حتى فر من إمارته عام ٣٧١ هـ إلى السامانيين ، حيث عاش مكرماً حتى عام ٣٨٨ وهو العام الذى توفى فيه فخر الدولة البويهى ، وفيه استرد ملكه[٤] . على أن جنده وقواده حاصروه فى أواخر حياته ، لما كان فيه من بطش شديد ، واضطروه إلى التنازل عن ملكه لابنه منوجهر ، يقول العتبى : « قد كان قابوس على ما خُصَّ به من المناقب ، والرأى البصير بالعواقب ، والمجد المنيف على النجم الثاقب ، مُرّ السياسة ، لا تستساغ كأسه ، ولا تؤمن بحال سطوته وبأسه ، يقابل زلة القدم بإراقة الدم . . . وما زالت هذه حاله حتى استوحشت النفوس منه . . وتآمر أعيان العسكر على خلعه »[٥] فخلعوه ، واضطر ابنه أن ينزل على إرادتهم وأن يخلع أباه ، بل لقد حبسه فى إحدى القلاع بجرجان واستمر بها حتى اغتيل عام ٤٠٣ هـ[٦] .

وكان قابوس واسع المروءة ، عالى النفس ، بعيد الهمة ، لا يحب الملق

---

(١) Browne, Lit. Hist. of Persia, II, pp. 91, 103.

(٢) معجم الأدباء ١٦/٢٢٠ .

(٣) نفس المصدر ١٦/٢٢٠ .

(٤) نفس المصدر ١٦/٢٢٧ .

(٥) اليمينى للعتبى مع شرح المنينى ٢/١٧٢ .

(٦) نفس المصدر ٢/١٧٥ ومعجم الأدباء ١٦/٢٢١ .

ولا المداهنة ، حتى قالوا إنه كان يأبى أن يستمع إلى مدائح الشعراء له ، مع عطفه عليهم ، وبذله لهم الجوائز والمكافآت [١]. وقد زاره البيرونى وقدم له كتابه «الآثار الباقية» ، كما قدم له الثعالبى « كتابى المبهج» و«التمثل والمحاضرة». ومعنى ذلك أنه كان يشجع الأدباء والعلماء . وكان أديباً ممتازاً نال حظاً واسعاً من ثقافة عصره وخاصة الفلسفة وعلم الفلك والنجوم [٢] . يقول الثعالبى : « جمع الله له إلى عزة الملك بسطه العلم » [٣] ، ويقول العتبى : « لم يسمع فى شيوخ الملوك بأبرع منه فى الآداب والحكم » [٤] ، وقد مدحه أحد الشعراء مستغلا لقبه « شمس الدولة » فقال [٥] :

لله شمسان تذكيرٌ لخيرهما ... وللمؤنثة النقصانُ ملتزمُ
أزْرَى بتلك سَناً من غير معرفة ... فيها وزيَّن هذا العلم والكرمُ
يا أيها الملك الميمونُ طائرُهُ ... وخير من فى الورى يمشى به القدمُ
لو كنتَ من قبل ترغانا وتكنفنا ... لما تهدى إلينا الشيب والهرمُ

واشتهر قابوس ببيانه وفصاحته ، يقول الثعالبى : « إنى أتوج هذا الكتاب بِلُمع من ثمار بلاغته » [٦] ويقول العتبى : « إن رسائله موجودة فى البلاد ، عند الأفراد لكنى أكتفى منها بلامعة من بوارق بيانه ، وزهرة من حدائق إحسانه » [٧] . وقد جمع اليزدادى فى عصر قريب من عصر قابوس هذه الرسائل وسماها كمال البلاغة ، وقدم لها بمقدمة طريفة أشاد فيها ببلاغته ، ثم حاول أن يحلل هذه البلاغة فاستخرج منها أربعة عشر نوعًا فى طريقة التسجيع واستخدام القرائن واللوازم المتصلة بالسجعات ، وإن نظرة فى هذا الكتاب تجعل القارئ يحس مدى التعقيدات التى كان يتخذها قابوس فى حرفته ، ولسنا ندرى من أين جاءته هذه التعقيدات إلا أن يكون للفراغ الذى

(١) معجم الأدباء ١٦/٢٢٩ .
(٢) انظر كتاب براون السابق ٢/١٠٣ .
(٣) اليتيمة ٤/٥٦ .
(٤) اليمينى مع شرح المنينى ٢/١٧ .
(٥) اليتيمة ٤/٤٧ واليمينى ٢/١١٥ .
(٦) اليتيمة ٤/٥٦ .
(٧) اليمينى ٢/١٧ .

أصابه وهو معزول عن حكمه أثر فى ذلك ، وهو فراغ طال طولا شديداً ، نحو ثمانية عشر عاماً لم يكن له فيها أى عمل ، فماذا يصنع ؟ وكيف يمضى أوقات فراغه ؟ هل يعمد إلى اللهو ؟ كلا فإن العتبي يقول : « إنه فطم نفسه عن رضاع الملاهى »[١] . إذاً فكيف يصنع بهذا الفراغ الهائل الذى امتد أياماً بل أسابيع وشهوراً ، بل أعواماً ، بل ثمانية عشر عاماً ؟ لقد اتجه إلى الأدب يقطع به هذا الفراغ ، فهو يتخذه لهوه ، أو قل يتخذه لُعبته ، وقد تحولت عنده هذه اللعبة إلى ما يشبه لعبة الشطرنج التى كانت شائعة فى عصره ، فهو يمضى فيه الساعات الطوال ، بل قل الأشهر الطوال والسنين الطوال ، يعبث به ويلعب بأسجاعه ، ويحاول أن يصل فى أثناء هذا العبث واللعب إلى ما لم يصل إليه أى كاتب فى عصره ، أليس هو الأمير ابن الأمراء الذى كان آباؤه يجلسون على أسرّة من ذهب[٢] ؟ إنه ليصنّع — على طريقة كتاب عصره — فيحسن التصنيع ، ولكنه يرى ذلك شيئاً عاديًّا بالقياس إليه وهو لا يعطيه ما يريده من تفوق عليهم ، لذلك نراه يجنح إلى فنون من التعقيد فى أداء تصنيعه ، وهى فنون تنتقل به وبعمله إلى مذهب جديد هو مذهب التصنع وهو مذهب جرَّه إليه إغرامه بالإغراب فى استخدام أدوات التصنيع ، واستمعْ إليه يكتب إلى خاله الإصْبَهْبذ ، وهو أحد قائدين أيداه فى العودة إلى ملكه ، إلا أنه عاد فأخلد فى أحد الحصون إلى جانب المجانبة[٣] ، فكتب إليه بهذه الرسالة[٤] :

« الإنسانُ خُلق ألوفاً ، وطبع عطوفاً فما للإصبهبذ سيدى لا يُحْنَى عُوده ، ولا يُرجى عَوْده ، ولا يخال لفَيْئته مَخيلة ، ولا يحال تنكره بحيلة ، أمن صخر تدمر قلبه فليس يُلينه العتاب ، أم من الحديد جانبه فلا يُميله الإعتاب ، أم من صفاقة دهرٍ مجَنٌّ نُبوّه فقد نبا عنه غَرْب كل حجاج ، أم من قساوته مزاج إبائه فقد أبَى على كل علاج . ما هذا الاختيار الذى يعد الوهم فهماً ،

(١) اليمينى ٢/١٦ .
(٢) معجم الأدباء ١٦/٢١٩ .
(٣) اليمينى ٢/١٤ .
(٤) انظر كمال البلاغة وهو يتضمن رسائل شمس المعالى قابوس بن وشمكير (طبع المطبعة السلفية) ص ٥٣ .

وهذا التمييز الذى يحسب الخير شرًّا ؟ وما هذا الرأى الذى يزيّن له قبح العقوق ، ويُمقت إليه رعاية الحقوق ؟ وما هذا الإعراض الذى صار ضربة لازب ، والنسيان الذى أنساه كل واجب ؟ أين الطبع الذى هو للصُّدود صَدود ، وللتألف ألوف ودود ؟ وأين الخُلُق الذى هو فى وجه الدنيا البشاشة والبشر ، وفى مبسمها الثنايا الغُرّ ؟ وأين الحياء الذى يجلّى بمحاسنه الكرم ، وتحلَّى بمحاسنه الشيم ؟ كيف يُزْهَد فيمن ملك عِنان الدهر فهو طوع قياده ، وتبع مراده ، يُنْظَر أمره ليمتثل ، ويُرْقَبُ نهيه فيعتزل ؟ وكيف يُعرَض عمن تُعرض رفاهة العيش بإعراضه ، وتنقبض الأرزاق بانقباضه ، ومن أضاء نجم الإقبال إذا أقبل ، وأهلّ هلال الجدِّ إذا تهلل ؟ وكيف يُزْهَى على من تحقر فى عينه الدنيا ، ويرى تحته السماء العليا ، قد ركب عنق الفلك ، واستوى على ذات الُحبك ، فتبرّجت له البروج ، وتكوكبت لعبادته الكواكب ، واستجارت بعزته المجرّة ، وأثْرت بمآثره أوضاحُ الثريَّا ؟ بل كيف يهوّن من لو شاء عقد الهواء ، وجسّم الهباء ، وفصل تراكيب السماء ، وألف بين النار والماء ، وأكمد ضياء الشمس والقمر ، وكفاهما عناء السير والسفر ، وسد مناخر الرياح الزعازع ، وطبق أجفان البروق اللوامع ، وقطع ألسنة الرعود بسيف الوعيد ، ونظم صوب الغمام نظم الفريد ، ورفع عن الأرض سطوة الزلازل ، وقضى بما يراه على القضاء النازل ، وعرض الشيطان بمعرض الإنسان ، وكحل الحور العين بصور الغيلان ، وأنبت العشب على البحار ، وألبس الليل ضوء النهار ؟ ولم لا يعلم أن مهاجرة من هذه قدرته ضلال ، ومباينة من هذه صفته خبال ، وأن من له هذه المعجزات يُشْترى رضاه بالنفس والحياة ، ومن أتى بهذه الآيات يبتغى هواه بالصوم والصلاة ؟ . .

وليس إلحاحى على سيدى مستعيداً وصاله ، ومستصلحاً خصاله ، وعَدّى عليه هذه العجائب ، ووثوبى لاستمالة من جانب إلى جانب ، لأنى كنت ممن يرغب فى راغب عن وصلته ، أو ينزع إلى نازع عن خلَّته ، أو يؤثِّل حالا عند من ينحت أثْلتَهُ ، أو يقبل بوجهه على من لا يجعله قِبْلته ، فإنى لو علمت أن الأرض لا تسفُّ تراب قدمى لجنّبتها جنبى ، وأن السماء لا تتوق إلى تقبيل

هامتى لقلبت عن ذكرها قلبى ، لكنى أكره أن يَعْرى نَحْرُه من قلائد الحمد، ويجتنب جبينَه إكليل المجد . . ولا يعجبنى أن يكسو ضوء مكارمه كَلَفُ الخمول ، ويأذن لطوالع معاليه بالأفول ، فإن فضّل سيدى الخمود على الوقود ، والعدم على الوجود ، ونزل من شاهق إلى خفض ، ومن حالق إلى أرض ، وهاجر بهجره ، وأصرّ على صرمه ، ومال إلى الملال ، ولم يَصِلْ نار الوصال ، حللتُ عنه معقود خنصرى ، وشغلت عن الشغل به خاطرى ، بل محوت ذكره عن صفحة فؤادى ، واعتددت ودّه فيما سال به الوادى :

فنى الناس إن رَثَّتْ حبالك واصلٌ   وفى الأرض عن دار القِلَى متحوَّلُ »

وأنت ترى شِيات التصنع واضحة فى هذه الرسالة ، لا بما يعمد إليه قابوس من مبالغات وصور غريبة فحسب ، بل بما يعمد إليه من استخدام الجناس استخداماً معقداً ، وإنه لتعقيد يبدو فى جميع جوانب الرسالة ، وانظرْ إليه فى مستهلها يجانس بين عُوده وعَوْده ، وهو جناس نراه فى جميع رسائله ، إذ يعمد إلى المغايرة فى بعض الحركات أو بعض الحروف ، فإذا هو يقع على مثل هذا الجناس الذى يمكن أن نسميه جناس الخطّ ، وقد يكون لجمال خطه أثر فيه ، يقول العتبى : « أما خطُّه فسمةٌ إن شئت وشياً محبوكاً ، أو تبراً مسبوكاً ، أو درًّا مفصّلا ، أو سحراً محصلا ، وكان إسماعيل بن عباد (الصاحب) إذا قرأ خطه يقول : هذا خَطٌّ قابوس أم جناح طاووس »[1] . وأفرط فى استخدام هذا الجناس الخطى ، إذ تعود أن يعيد الكلمة التى كتبها بشكل جميل مرة أخرى مع إعطائها حركة جديدة أو مع تبديل بعض حروفها ، فإذا هو يكثر من هذا الجناس فى رسائله إكثاراً ، واستمر فى قراءة الرسالة فسترى هذه السجعة « ولا يخال لفيئته مخيلة ، ولا يحال تنكره بحيلة » . وواضح أنه جانس هنا جناساً خطيًّا بين يخال ويحال كما جانس نفس الجناس بين مخيلة ومحيلة . وليس ذلك كل ما عُنِى به ، فقد عُنِى بشىء

(١) اليمينى مع شرح المنينى ٢/ ٢٦ .

آخر لعله أكثر من ذلك تعقيداً ، وهو أنه جانس بين أول كلمة فى السجعة الأولى وآخرها أى بين يخال ومخيلة ، وكذلك صنع بالسجعة الثانية إذ جانس بين يحال وبحيلة ، وإن فى ذلك ما يجعلنا نحس أنه يصعب على نفسه الممرات التى يسلكها إلى نهاية قرائنه وأسجاعه ، فهو يبدأ عبارته بكلمة ثم يطلب الجناس بينها وبين آخر كلمة فيها ، وهو يتخذ ذلك مصرًّا عليه ، إذ نراه يعدل إليه مراراً فى هذه الرسالة وفى رسائله الأخرى، وتأمل هذه السجعة الطويلة فى الرسالة: «أم من صفاقة الدهر مجِنٌّ نُبُوِّه، فقد نبا عنه غرب كل حِجاج ، أم من قساوته مزاج إبائه ،فقد أبى على كل علاج » ، فإنك تراه يسجع العبارتين تسجيعاً داخليًّا فإذا هما تنحلان إلى أربع سجعات لا إلى سجعتين كما يبدو فى الظاهر . ولكن ليس هذا ما يلفتنا عند قابوس ، إنما يلفتنا أنه أنهى السجعة الداخلية الأولى بكلمة اشتق منها أخرى فى مطلع الجملة التالية لها ، وكذلك صنع السجعة الداخلية الثانية . أرأيت إلى الممرات كيف تعقَّد وتصعب بطرق شتّى ؟ واستمر فى الرسالة فستراه يأتى بطريقة ثالثة ؛ إذ يجانس بين كلمة فى داخل العبارة وبين نهايتها كقوله : « أضاء نجم الإقبال إذا أقبل ، وأهل هلال المجد إذا تهلل » . ولا تظن أن هذه طرفة بل هى عقدة ، فقد أصبح الفن فى رأى قابوس عقداً خالصة ، وهو لذلك يعقد عباراته هذا التعقيد الذى يصعِّب فيه الممرات إليها على نحو ما مر من أمثلة ، وكما نرى فى هذه العبارات بالرسالة نفسها « تبرجت له البروج ، وتكوكبت لعبادته الكواكب ، واستجارت بعزته المجرة ، وأثْرت بمآثره أوضاح الثريا » ، وما من ريب فى أن هذه الجناسات تحمل أوسع سمات للتصنع ، إذ نراه يلزِّق الجناس بكلامه تلزيقاً ، وإن الإنسان ليشعر كأنما فقد الجناس بهجته القديمة من الزخرف والتصنيع ، فقد تحول إلى صورة جديدة تستطيع أن تسميها صورة هندسية ولكنك لا تستطيع أن تسميها صورة زخرفية لأنها لا تحوى حسناً ولا جمالا، وهل هناك حسن أو جمال فى قوله : « كنت ممن يرغب فى راغب عن وصلته ، أو ينزع إلى نازع عن خلّته » . أو قوله : « يؤثل حالا عند من ينحت أثلته ،

أو يقبل بوجهه على من لا يجعله قبلته » أو قوله : « هاجر بهجره ، وأصرّ على صَرْمه ، ومال إلى الملال ، ولم يَصْلَ نارالوصال» . وما نار الوصال هذه التي يريده أن يصلاها ؟ إنها صورة غريبة ، بل هي صورة شاذة نابية ، ولكن قابوس لا يعنى بما فيها من شذوذ ونبوّ ما دامت تحقق ما يريد من جناس بين كلمة الوصال وكلمة أخرى ، إلا فلتكن هذه الكلمة أى لفظة ، ولتحو أى صورة ، فإن ذلك لا يهم قابوس ما دام يحقق له غاياته من جناساته .

وأكبر الظن أننا لا نبعد – بعد ذلك – إذا قلنا إن صناعة قابوس كانت تقوم على التصنع وما يطوى فيه من تعقيد وتعمل ، إذ نراه يتعمل فى حركات الكلمة أو فى حروفها ليحدث بعض جناسات بينها وبين غيرها ، ثم هو لا يكتفى بذلك إذ نراه يعدل إلى تصعيب ممراته ليحدث جناساته اللفظية المعقدة ، وكأنما كانت غاياته دائماً هى التصعيب والتعقيد ، وإنه ليركب إليهما طرقاً وَعْرة .

٨

ذيوع التصنع وانتشاره

رأينا زخرف الجناس عند قابوس يتعقد تعقداً شديداً ، ومن قبله رأينا الخوارزمى وبديع الزمان يعقدان فى فنهما ألواناً من التعقيد ، مما دفعنا إلى القول بأن عناصر من التصنع أخذت تتسرب إلى آثار أصحاب مذهب التصنيع ، وإن الإنسان ليخيّل إليه كأن كل شىء فى الفن يريد أن يتعقد ويتصعب ، وليس هذا شيئاً غريباً فى تاريخ الحضارات ولا فى تاريخ الآداب فى الأمم المختلفة ، بل هو الشىء الطبيعى ، إذ نرى الأمم حينما ترقى عقليًّا وحضاريًّا تتحول من الأحوال الطبيعية فى التعبير إلى أحوال جديدة كلها تعقيد وتصعيب فى الأداء والأسلوب . وقد حدث ذلك قديماً عند اليونان فى القرنين الرابع والخامس

للميلاد ؛ إذ نرى شعراء الإسكندرية يحولون نماذجهم إلى مجاميع من التعقيدات ، وكذلك كان الشأن عند العرب فى أواخر القرن الرابع للهجرة ؛ إذ نراهم ينالون قبل هذا التاريخ كل ما كانوا يصببون إليه من ترف عقلى وحضارى ، حتى إذا بَشِموا رأيناهم يتحولون إلى تعقيدات مختلفة فى حياتهم من جهة وفى أدبهم من جهة أخرى ، ولعل من أروع ما يصور ذلك الجانب فى حياتهم ما يروى عن الوزير المهلبي المتوفى عام ٣٥٢ هـ من أنه كان « إذا أراد أكل شيء بملعقة كالأرز واللبن وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجاً مجروداً ، فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ، ثم يدفعها إلى غلام آخر قام فى الجانب الأيسر ، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى ، حتى ينال الكفاية ، لئلا يعيد الملعقة إلى فيه دفعة ثانية »[1]. وحقًّا إن الوزير المهلبي سبق ظهور مذهب التصنع فى النثر بنحو نصف قرن ، ولكنه على كل حال يرمز إلى لهذا الميل الجديد فى الحضارة العربية ، وأنها أخذت تتعقد على نحو تعقيد المهلبي لوسيلة طعامه ، فإذا هو لا يأكل بمعلقة واحدة وإنما يأكل بملاعق مختلفة !

وهذا التعقيد فى الحضارة العربية أخذ يتسرب إلى الكتابة الفنية أول الأمر فى شيء من الاستحياء ، فإن الخوارزمى يفزع إلى مبالغاته وتهويلاته كما يفزع إلى الإفراط فى استخدام ألوان البديع ، علّة يشفى غُـلَّـتَه من غالى التعقيد . ثم يأتى من بعده بديع الزمان فيتقدم خطوات فى هذه الطريق ، فإذا هو يعقد بعض وسائل التصنيع وخاصة وسيلة الجناس ، وإنه ليلجأ إلى وسيلة جديدة غير مفهومة هى اللفظ الغريب ، وهو لا يكتفى بذلك ، بل نراه يعمد إلى ما سماه الخوارزمى شعبذة ، إذ كان يحاول أن يكتب كتاباً يُقرأ من آخره إلى أوله أو كتاباً لا يوجد فيه حرف منفصل مثل الراء ، أو كتاباً خالياً من الألف واللام أو خالياً من الحروف العواطل أو أول سطوره كلها ميم وآخرها جيم ، إلى غير ذلك من الألاعيب كان يسوقها ليدل على مهارته ، ومع ذلك فقد كان

(١) معجم الأدباء ١٣/١٠٣ .

بديع الزمان من أصحاب مذهب التصنيع ، إذ كان يعمد إلى هذه الجوانب فى القلة ، ولم يكن يعممها فى آثاره ، بل هى تظهر من حين إلى حين دالة على أننا أصبحنا داخل مرحلة التحول إلى المذهب الجديد مذهب التصنع والتعقيد .

ونحن لا نترك البديع إلى قابوس حتى نجده يخطو خطوة جديدة نحو مذهب التصنع ، إذ نراه يعمد إلى التعقيد فى كل ما يكتب ، وقد اختار زخرف الجناس ليحدث فيه كل ما يستطيعه من هذا التعقيد وما يطوى فيه من تصعيب ، كان التصعيب شيء يقصد لذاته . وهذا هو الذى دفعنا إلى أن نسلكه فى أصحاب التصنع ، إذ كان يُعنى فى فنه بالتعقيد عناية جعلت هذا الفن أشبه ما يكون بالتمارين الهندسية ، وإنها لتمارين يجد فيها كل ما يريد من متعة بالفن ، فالفن عنده ليس إلا التصعيب والتعقيد . وقد أخذ هذا الذوق ينتشر فى الفن منذ قابوس ورسائله ، بل نحن نغلو إذا نسبنا إلى قابوس ابتكاره ، فقد كان شعوراً عامًّا فى الحضارة العربية نفسها والحياة الفنية معها ، وآية ذلك أننا لا نكاد نعثر على مجموعة من رسائل كاتب فى هذا العصر حتى نجد بها شيات من هذا التصنع ، وقد استمر ذلك دأب الكتاب حتى نفذ من بينهم بديع الزمان إلى كثير من سمات المذهب ، ثم جاء قابوس فأضاف سمات أخرى كما أضاف غيرهما من الكتاب بعض شارات وشيات . و من يرجع إلى اليتيمة يجد صناعة الألغاز تدخل فى النثر الكتابى [١] ، وهى ضرب من ضروب التعقيد ؛ كما يجد أداة الجناس التى أخذت تتعقد تخصَّص لها بعض الكتب تتحدث عن أنواعها وأجناسها [٢] . وأيضاً فإنهم كانوا يكثرون من ترصيع رسائلهم بالشعر والأمثال والغريب ؛ وكل ذلك كان دليلا على وشك جمود الحياة الفنية فى النثر العربى وأنه أصبح لا مفر من أن يصل إلى حال غريبة من التعقيد .

ونحن لا نترك القرن الرابع قرن بديع الزمان وقابوس وأضرابهما إلى القرن الخامس حتى نجد هذا المذهب يعم فى جميع كتابات الأدباء ، فقد أصبح

---

(١) اليتيمة ٤/٣٥٣ .   (٢) اليتيمة ٤/٣٩٦ .

هو البدع الجديد الذى يسعى إليه الكتاب كى يُطْرفوا قراءهم بما يستحدثون من عُقَده ، وقد بدأ هذا السعى أبو العلاء المعرى بدءاً عنيفاً فى آثاره ، إذ كان يفهم الفن على أنه عقد خالصة ، ثم جاء من بعده الحريرى والحَصْكفى ، فأضافا إلى ورق اللعب فى قصة هذه العقد أوراقاً ، وأدخلا فى أشكالها الهندسية أشكالا ، وسنفسر ذلك فى الفصل التالى تفسيراً دقيقاً .

الفصل الثالث

التصنع والتعقيد

١

أبو العلاء : حياته وذكاؤه وثقافته

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى المعروف باسم المعرى والملقب بأبى العلاء ، وقد ولد فى «معرة النعمان» سنة ثلاث وستين وثلثمائة[١] . والمعرة مدينة كبيرة بين حلب وحماة . وهو ينحدر من أسرة اشتهرت بالعلم والشعر والقضاء ، عرض ياقوت[٢] وابن العديم [٣] لهذه الأسرة وتحدثا عن هذه الجوانب فيها ، ويقول الرواة إنه لم يبلغ الرابعة من عمره حتى اعتل عِلّـة الجُدَرِىّ التى فقد فيها بصره ، وقد ذكر ذلك فى إحدى رسائله[٤] ، كما ذكر أنه لا يعرف من الألوان إلا الأحمر لأنه ألبس فى الجدرى ثوباً مصبوغاً بالعصفر [٥] .

وقد أقبل أبو العلاء منذ نشأته على التعلم والإلمام بالمعارف المختلفة ، وقد أشاد ابن العديم بهذه الناحية فيه[٦] ويقول القفطى : « لما كبر أبو العلاء ووصل إلى سن الطلب أخذ العربية عن قوم من بلده كبنى كوثر أو من يجرى مجراهم من أصحاب ابن خالويه وطبقته ، وقيّد اللغة عن أصحاب ابن خالويه أيضاً ، وطمحت نفسه إلى الاستكثار من ذلك فرحل إلى طرابلس الشام ، وكانت بها خزائن كتب قد وقفها ذوو اليسار من أهلها ، فاجتاز باللاذقية ، ونزل دير الفاروس ، وكان به راهب يشدو شيئاً من علوم الأوائل ، فسمع منه أبو العلاء كلاماً من أقوال الفلاسفة حصل به شكوك ، فعلق بخاطره ما حصل به بعض

---

(١) معجم الأدباء (طبع مصر) ٣/١٠٨ .

(٢) نفس المصدر ٣/١٠٨ وما بعدها .

(٣) تعريف القدماء بأبى العلاء (طبع دار الكتب) ص ٥١١ .

(٤) معجم الأدباء ٣/١٨٢ .

(٥) بغية الوعاة للسيوطى (طبع مطبعة السعادة) ص ١٣٦ .

(٦) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥١٤ .

الانحلال .... حتى فاه به فى أول عمره وأودعه أشعاراً له ثم ارعوى ورجع واستغفر واعتذر !» [١] وتصوير القفطى لشكوك أبى العلاء فى باكورة حياته وتعليله لها بلقائه لراهب دير الفاروس يغلب أن يكون قد أملاه عليه الخيال . وقد رحل أبوالعلاء أيضاً إلى بغداد ، وكانت سنه إذ ذاك نحو سبعة وثلاثين ؛ ولم يرحل إليها طلباً للدرس على بعض الأساتذة هناك ، وإنما رحل إليها طلباً للاطلاع على بعض الكتب ؛ وصرح بذلك فى إحدى رسائله إذ يقول : « منذ فارقت العشرين من العمر ما حدثت نفسى باجتداء علم من عراق ولا شآم . . والذى أقدمنى تلك البلاد — يريد العراق — مكانُ دار الكتب فيها » [٢] . ومدح أبو العلاء بغداد بكثرة ما فيها من علم ، إذ يقول فى إحدى رسائله : « وجدت العلم ببغداد أكثر من الحصى عند جَمْرة العقبة » [٣] ، ويظهر أنه لم يطل مقامه بها فقد رجع منها بعد قليل إلى موطنه حيث اعتزل الناس عزلته المعروفة التى استمرت نحو خمسين عاماً ، وأخذ نفسه فى هذه العزلة بقوانين صارمة فى حياته ، إذ عاش معيشة نباتية تعتمد على تحريم أكل اللحم والسمك وما يُشْتق منهما ، وردّ العرب هذه النباتية فيه إلى مذهب البراهمة! [٤] . ومهما يكن مرجعها فإنها تدل على أنه كان يأخذ نفسه بحياة زاهدة ، أما ما يزعمه ناصر خسرو من أنه كان واسع الثراء عنده كثير من العبيد [٥] فلا يقوم عليه دليل لأنه يخالف كل ما جاء عنه ، يقول القفطى : « كان لأبى العلاء وقف يشاركه فيه غيره من قومه ، وكانت له نفس تشرف عن تحمل المِنَن ، فمشى حاله على قدر الموجود ، فاقتضى ذلك خشن الملبوس والمأكل ، والزهد فى ملاذ الدنيا ، وكان الذى يحصل له فى السنة مقدار ثلاثين ديناراً قدّر منها لمن يخدمه النصف ، وأبقى النصف الآخر لمؤونته ، فكان أكله العدسَ ، إذا أكل مطبوخاً ، وحلاوته التين ، ولباسه خشن الثياب من القطن ،

---

(١) تعريف القدماء ص ٣١ .

(٢) رسائل أبى العلاء (طبع مرجليوث) ص ٣٢

(٣) رسائل أبى العلاء ص ٣٠ .

(٤) انظر نزهة الألبا فى طبقات الأدبا لابن الأنبارى ص ٤٢٧ ولسان الميزان لابن حجر ١/٢٠٤ وتاريخ أبى الفدا فى حوادث ٤٤٩ .

(٥) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز (طبع لجنة التأليف) ٢/١١٠ .

وفرشه من لباد فى الشتاء، وحصيره من البَرْدى فى الصيف وترك ما سوى ذلك »[١] ويقول أبو العلاء فى إحدى رسائله إلى داعى الدعاة : « إن الذى لى فى السنة نيف وعشرون ديناراً ، فإذا أخذ خادمى بعض ما يجب ، بقى لى ما لا يعجب فاقتصرت على فول وبُلْسُن ، وما لا يعذب على الألسن »[٢] وكل ذلك ينقض كلام ناصر خسرو كما ينقض ما زعمه نيكلسون من أن تلامذته الكثيرين الذين اجتذبتهم شهرته كانوا يمدونه بشىء من المال[٣] .

ظل أبو العلاء من عام ٤٠٠ هـ إلى عام ٤٤٩ هـ يأخذ نفسه بهذه الحياة الزاهدة الخشنة ، على أن هذا لا يهمنا إنما يهمنا ما اتصف به من ذكاء وثقافة كان لهما أثرهما فى صناعته لنثره ، أما ذكاؤه فإنهم يقولون : « إنه كان آية فى الذكاء المفرط ، عجباً فى الحافظة »[٤] . ويزعمون أنه استمع إلى حديث بالأذربية[٥] وآخر بالفارسية فحفظهما[٦] . ويقولون: إنه كان يحفظ المحكم والمخصص[٧] ، وإنه « لما ذهب إلى بغداد طلب أن تعرض عليه الكتب التى فى خزائنها فأدخل إليها وجعل لا يُقرأ عليه كتاب إلا حفظ منه جميع ما يقرأ عليه »[٨] ، ويبالغ الرواة فى وصف ذكائه فيقولون : إنه كان يلعب بالنرد والشطرنج[٩] ، وما من ريب فى أن أبا العلاء كان ذكياً ذكاء شديداً كما كان قوى الحافظة قوة شديدة أيضاً وقد كان — إلى ذلك — مثقفاً ثقافة واسعة جداً ، ومن يرجع إلى اللزوميات والفصول والغايات يجد أبا العلاء يستغل هذه الثقافة استغلالا واسعاً ، ففى كل جانب من الكتابين إشارات إلى معتقدات عصره ومعارفه وكل ما اتصل به من ثقافة . على أن هناك جانباً فى هذه الثقافة هو الذى ينبغى أن نقف عنده لأنه أثر فى كتبه ونثره آثاراً خاصة ، وهو جانب اللغة والتثقف

---

(١) تعريف القدماء ص ٣١ .

(٢) معجم الأدباء ١٨٩/٣ .

(٣) انظر ترجمة أبى العلاء فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) تعريف القدماء ص ٢٨٥ .

(٥) نفس المصدر ص ١٤ .

(٦) نفس المصدر ص ٢٢٤ .

(٧) النور السافر للعيدروسى (طبع بغداد) ص ٤٤١ .

(٨) تعريف القدماء ص ٢٢٤ .

(٩) نفس المصدر ص ٤ .

بها أوسع ما يمكن من التثقيف ، يقول تلميذه التبريزى : « ما أعرف أن العرب نطقت بكلمة ولم يعرفها المعرى »[١] . ويقول ابن فضل الله العمرى : «كان أبو العلاء مطلعاً على العلوم لا يخلو فى علم من الأخذ بطرف ، متبحراً فى اللغة ، متسع النطاق فى العربية »[٢] ، ويقول البغدادى . إنه « كان عالماً باللغة حافظاً لها »[٣] ، ويقول ابن الجوزى : إنه « سمع اللغة ، وأملى فيها كتباً ، وله بها معرفة تامة »[٤] ، ويقول الذهبي : إنه « كان عجباً فى الاطلاع الباهر على اللغة وشواهدها »[٥] ، ويقول له داعى الدعاة فى إحدى رسائله : « إنه جعل مواده كلها منصبة إلى أحكام اللغة العربية والتقعر فيها ، واستيفاء أقسام ألفاظها ومعانيها »[٦] . وهذه كلها نصوص تشهد بثقافته الواسعة فى اللغة ، إذ لم تكن هناك شاذة إلا وهو يعرفها ويعرف شواهدها من الشعر العربى قديمه وحديثه. وأكبر الظن أن هذا الجانب فى أبى العلاء هو الذى جعل التلاميذ يقبلون عليه من جميع الآفاق[٧] ، وقد عقد لهم ابن العديم فصلا ذكر فيه مشاهيرهم[٨] ، ويقول ابن فضل الله العمرى : « أخذ عن أبى العلاء خَلْقٌ لا يعلمهم إلا الله عز وجل ، كلهم قضاة وأئمة وخطباء ، وأهل تبحر وديانات . . وكان له أربعة من الكتّاب المجوِّدين يكتبون عنه ما يكتبه إلى الناس وما يمليه من النظم والنثر والتصانيف والإجازات والسماع لمن يسمع منه ويستجيزه ، وغير هؤلاء من الكتاب الذين يغيبون ويحضرون ، منهم جماعة من بنى أبى هاشم »[٩] . ويظهر أن هؤلاء الكتاب لم يكونوا يتقاضون شيئاً على كتابتهم ، فأبو العلاء يقول عن أحدهم إنه « أفنى فيه زمنه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنه »[١٠] .

وعلى هذا النحو كان أبو العلاء يملأ فراغه الطويل فى عزلته التى امتدت نحو خمسين عاماً بالبحث والدرس مع تلاميذه كما كان يملؤه بكتابة آثار فنية من

---

(١) أبو العلاء وما إليه للراجكوتى ص ٥٣ .
(٢) تعريف القدماء ص ٢٦٨ .
(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٤ / ٢٤٠ .
(٤) تعريف القدماء ص ١٨ .
(٥) تعريف القدماء ص ١٩٠ .
(٦) معجم الأدباء ٣ / ١٧٧ .
(٧) تعريف القدماء ص ٢٠٨ .
(٨) نفس المصدر ص ٥١٧ .
(٩) نفس المصدر ص ٢٢٣ .
(١٠) معجم الأدباء ٣ / ١٤٥ .

شعر ونثر ، وقد ذهب يغرب فى هذه الكتابة أوسع ما يكون الإغراب ، بل لقد ذهب يعقد فيها أوسع ما يكون التعقيد ، وكأنه كان يتخذ التعقيد غاية فى نفسه ولنفسه ، فهو يسرف فيه أشد ما يكون الإسراف وسنقف لتفسير ذلك فى آثاره النثرية تفسيراً واضحاً .

٢

أبو العلاء وتعقيده

تناول أبو العلاء كتابة النثر من الأدباء والكتاب الذين سبقوه وعاصروه، فعقدها تعقيداً شديداً، وهو تعقيد أتاحه له فراغه الطويل الذى أمضاه فى عزلته عن الناس ، وربما كان لضيقه بالحياة وبرمه بها أثر فى هذا التعقيد فقد انقلب هذا الضيق من حياته إلى فنه، فإذا هو يعقده على الناس حتى ينفس بتعقيده عن ضيقه، وأيضاً فإن فقده لبصره وإحساسه العميق بهذا الجانب جعله يطلب التفوق على معاصريه ، وقد ذهب يحاول هذا التفوق عن طريق تعقيد فنه تعقيداً لم يكن يستطيعه إلا صانع ماهر ، انبسط له ما انبسط لأبى العلاء من الزمن الطويل إذ أقام فى عزلته أو فى محبسه نحو خمسين عاماً ، فماذا يصنع فى هذا الحبس الطويل ، وكيف يمضى فراغه فيه ؟ لا بد أن يفزع إلى ضروب من العبث فى فنه ، وإنها لضروب تؤديه إلى تعقيد هذا الفن عقداً مختلفة ، وهى عقد يلتمسها تارة فى استخدامه الغريب وأوابد الكلام والأمثال والإشارات التاريخية ، وتارة أخرى يلتمسها فى تصعيب ممراته إلى أسجاعه، إذ نراه يُعنى بالتزام ما لا يلزم فيها ، فإذا هو يبنى أسجاعه لا على حرف واحد بل على حرفين أو أكثر ، وهو لا يكتفى بذلك ، بل نراه يعدل فى أحوال كثيرة إلى المجانسة ، وهو يستعين على هذه المجانسة باللفظ الغريب الذى كان يشغف به شغفاً شديداً، بحيث لا نغلو إذا قلنا إن أهم ما يميز أبا العلاء فى جميع نماذجه النثرية أنه كان يطلب الغريب من حيث هو كأن الإغراب زينة ينبغى أن يتحلّى

بها جيد أعماله ، واقرأ هذه الرسالة التى كتب بها إلى عبد السلام بن الحسين صاحب خزانة الكتب ببغداد بعد رجوعه منها[١] :

« أطال الله بقاء سيدى الشيخ إلى أن تنقل عُريّا ، وتنطق العرب بمكبّر الثريا[٢] ، وأدام عزّه إلى أن يصبح إراب[٣] ، وهو بازٌ فى الجو أو غراب ، كم أكتب فلا يصل ، وأنا من ذلك متنصّل :

يا حبّذا جبلُ الريّان من جبلٍ   وحبذا ساكنُ الريّان من كانا
وحبذا نفحات من يمانيةٍ   تأتيك من قِبَل الريّانِ أحيانا

ما عنيتُ بالريان ، إلا منزله حيث كان ، ولا بساكنه ، إلا شخصه حيث حلّ من أماكنه . . . وأسفى لفراق سيدى الشيخ — أدام الله عزه — أسف ساق حُرّ ، ساقه الطرب إلى الحرّ ، توارَى بالوريقة ، من حَرّ الوديقة ، كأنه قينة وراء ستر ، أو كبير حجب من الهِتْر ، فى عنقه طوق ، كرب يفصمه الشوق ، لو قدر لانتزعه باليد من المقلد ، أسفاً على إلف غادره للكمَد[٤] . . أى حلف أرسله فهلك نوح[٥] ، فالحمائم عليه تنوح ، يُسْمعك بالفِناء ، أصناف الغناء ، ويُظهر فى الغصون ، خبىّ الوجْد المصون ، إن سلك طريقة الغَريض ، ترك المشتاق بالجريض ، ويجىء بالبدىّ ؛ إن جاء بلحن معْبدىّ[٦] يدعو نوادب ، إلى الكلف أو ادب ، ويحهن ثاكلات ، لسَن على الأول بمتكلات . شجَب قعيدهن إثر ودّ[٧] ، فورثن بكاءه جدًّا بعد جدّ . عَمْرك لقد أسرفن ، والعيون

---

(١) رسائل أبى العلاء (طبع مرجليوث) ص ٤٦ .

(٢) كلمة عريا : كلمة غامضة ولعلها اسم موضع أما مكبر الثريا فيلاحظ أن العرب لم تنطق بالثريا إلا مصغرة .

(٣) إراب نبع من الصحراء انظر معجم البلدان لياقوت (طبع مطبعة السعادة) ١/١٦٧

(٤) ساق حر : ذكر الحمام . الوريقة : الشجرة المورقة . الوديقة . الهاجرة . الهتر : ما يهذى به العجوز .

(٥) يريد أى أليف قديم ذهب من عهد نوح إذ أرسله فهلك .

(٦) الغريض ومعبد : مغنيان مشهوران . والجريض : الغصة وفى أمثالهم : حال الجريض دون القريض يضرب لأمر حال دونه عائق ، والبدى : المبتكر .

(٧) صنم من أصنام العرب فى الجاهلية وقد ذكر فى القرآن الكريم ، شجب : صاح وهو يريد أن أباهن صاح على ود .

ما زَرفْن . لا أدرى والأمر أدْب ، أغناء ذلك أم نَدْب ، كل خضْباء[١] كخطيب فى الغصن الرطيب ، قد التثمت بقار ، فى المنقار ، ووطئت فى الدم بالقدم ، وأضرم نارَها الفؤاد ، فالقلادة حُمَم ، والثوب رماد ، بل أسف ورقاء لاح لها نجم الخَرْقاء ، وكانت يمانية الدار ، فهبط بها بعض الأقدار ، أرضاً تِهمة ، لا مُرْذَّة ولا مُرْهِمة فلما بصرت بِسُهَيْل ، ذكّرها أيام أُهيل ، عهدتهم فى بلاد القَرظ[٢] ، كلهم بها ليس بفظّ ، فضاق بغرامها الجيد ، فهى تهتف وتجيد ، تخفف بخروج الأصوات ، ما تجده من كرب الأموات ، ظنت أن لا مناص ، من ضَنْك الأقفاص ، فهى تود أن الله مسخها زرقاء نهارٍ مترنمة ، أو ورقاء[٣] ليل مهينمة ، لتفوز بالخلاص ، من بعض الحَصَاص . ومستقرى مَعَرّة النعمان والفتنة عندنا صمّاء ، طعان بالمُرّان ورِماء ، إنما يجىء الصيف وقد سلّ السيف ، ولو قدرت لم أقدح إلا بمرْخ[٤] ، ولا سكنت بلداً غير الكَرْخ ، ولكن نضوى[٥] معقول ، فرحم الله لبيداً حيث يقول :

لما رأى لُبَدُ النسورَ تطايرتْ   رفع القوادمَ كالفقير الأعزل[٦]

وأنا أهدى إلى سيدى الشيخ — جمّل الله الدنيا ببقائه — وإلى جماعة أصدقائه وغلمانه سلاماً يؤنس موحش الإمرات ، ويتصل من الشام إلى الصَّراة ، إذا مرّ بموقدى نار غضوية حسبوا غَضَاها[٧] قطراً ، لتركه الهواء عطراً » .

---

(١) الأدب : المبهم . الخضباء من الحمام هى التى يكون فى لونها خطوط .

(٢) بلاد القرظ : بلاد اليمن . وسهيل وأهيل : نجمان ومرذة : يسقط عليها الرذاذ ، وهو المطر الضعيف ، ومرهمة : من أرهمت السماء أتت بالمطر الدائم .

(٣) ورقاء الليل : الذئبة . وزرقاء النهار : الهرة .

(٤) المرخ : شجر يتخذ منه الزناد الذى يقتدح به . والمران : رماح صلبة لدنة .

(٥) النضو : البعير المهزول من كثرة الأسفار .

(٦) لبد : نسر لقمان ويضرب به المثل فى طول السلامة . القوادم : أربع ريشات فى مقدم الجناح . الفقير : المكسور فقار الظهر . الأعزل من الخيل : المائل الذنب فى أحد الجانبين .

(٧) الغضا : شجر معروف . والصراة : موضع . والإمرات : الإمارات .

وأنت ترى هذه الرسالة وقد غلا فيها أبو العلاء فى استخدام اللفظ الغريب ، وكان يفزع دائماً إلى ذلك فى آثاره ورسائله ، كأن اللفظ الغريب من حيث هو غاية ينبغى أن يطلبها الكاتب فى نماذجه وأعماله ، وإن أبا العلاء ليبلغ من ذلك فى بعض آثاره أن تصبح وكأنها متن من المتون اللغوية ، فهى تجمع كل ما يستطيعه من ألفاظ لغوية غريبة مغرقة فى الإغراب ، وإنه ليطلب أبعد الكلمات إغراباً مما عثر عليه فى الشعر القديم ؛ وليس يهمه بعد ذلك أن تكون الكلمة سُجِّلت فى المعاجم اللغوية ، بل إن عدم تسجيلها يدفعه إلى أن يسجلها هو فى أعماله ، ومن هناك كانت قراءة هذه الأعمال من أصعب الأشياء ، وخاصة حين تريد أن تقف وقوفاً دقيقاً على معانيه ، ولعله من أجل ذلك عُنى بشرح آثاره وتفسيرها من لزوميات وغير لزوميات فى الشعر ، ومن رسالة الغفران إلى الفصول والغايات فى النثر . وإذاً فالإغراب هو العُقْدة الأولى فى آثار أبى العلاء . وحقاً إنه يتخذ السجع والبديع فى عمله على نحو ما مرّ بنا عند ابن العميد وتلامذته ، ولكنه يعقدهما جميعاً لا بالتزام حرفين أو أكثر فى أواخر سجعاته ، فهذا شىء محتمل ، إنما بهذا اللفظ الغريب .

أرأيت إلى ما أصاب النثر العربى عند أبى العلاء ، لقد أصبح يقصَد به إلى إحداث طرائف لغوية وهى طرائف لا تعتمد على زخرف ولا على تنميق ، فهذا عهد مضى وانقضى ، إنما تعتمد على الإبهام والغموض ، أو بعبارة أخرى على الإغراب ، وهذه العقد اللغوية التى يذيعها أبو العلاء فى أعماله . وليس معنى ذلك أنه لم يكن يعتمد على أصول فن التصنيع ، بل لقد كان يعتمد عليها كما نرى فى هذه الرسالة ، ولكنا نحس أن تلك الأصول فارقت صورتها القديمة إذا تحولت إلى صورة جديدة من الإبعاد فى اللفظ الغريب وما من ريب فى أن هذا كان تحولا من مذهب التصنيع ، إلى مذهب جديد هو مذهب التصنع إذ نرى الكاتب يتعمد أن يخرج أساليبه موشاة بطرائف جديدة لا صلة بينها وبين التنميق والتصنيع ، وإنها لطرائف يؤصِّلها أبو العلاء على استخدام أكثر ما يمكن من الألفاظ الغريبة المهجورة ، كما يؤصِّلها على اللف والدوران وبسط الأساليب ،

حتى تتسع لأكثر ما يمكن من هذه الألفاظ ، وماذا فى رسالة أبى العلاء التى قرأناها الآن من معان سوى أنه أراد أن يصف شوقه إلى صاحبه فذهب يبالغ ويلف ويدور على هذا النحو، فإذا هو يصور أسفه على فراقه بأسف ساقٍ حر ينوح على إلف غادره، وإنه ليطيل فى هذا المعنى ويبعد، حتى يأتى بكل ما يستطيع من لفظ غريب .

وإذا كانت هذه الطرفة من إغراب اللفظ لا تروقك عند أبى العلاء فلا تظن أنه لا يستطيع أن يأتيك بطرفة أخرى ، فهو صاحب الطرف الحديثة فى فن النثر ، يأتى باللفظ الغريب ويأتى بما يشبه هذا اللفظ أحياناً أخرى ، ولكن أى شىء يشبه ذلك اللفظ ؟ لقد فكر أبو العلاء وقدر ، فإذا هو يقع على طرفة جديدة لم يسبقه أحد إليها ، أو على الأقل لم يتصنع لها أحد كما تصنع هو لها فى آثاره ، ونقصد طرفة المصطلحات العلمية ، وخاصة مصطلحات علوم اللغة ، فقد أكثر من تصنعه لها فى أعماله من رسائل وغير رسائل ، واستمع إليه يقول فى إحدى رسائله [1] :

« حرَس الله سيدنا حتى تُدْغَم الطاء فى الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء ، وذلك أن هذين ضدان ، وعلى التضاد متباعدان ، رِخْوٌ وشديد ، وهاوٍ وذو تصعيد ، وهما فى الجهر والهمس ، بمنزلة غد وأمس . وجعل الله رتبته التى كالفاعل والمبتدأ ، نظير الفعل فإنها لا تنخفض أبداً ، فقد جعلنى إن حضرتُ عُرِف شانى ، وإن غبت لا يُجْهل مكانى ، كيا فى النداء، والمحذوف من الابتداء إذا قُلت : زيد أقْبل ، والإبل الإبل ، بعد ما كنت كهاء الوقف، إن ألقيت فبواجب ، وإن ذُكرت فغير لازب. إنى وإن غدوت فى زمن كثير الدَّد (اللهو واللعب) كهاء العدد لزمت المذكر ، فأتتْ بالمنكر ؛ مع إلف يرانى فى الأصل ، كألف الوصل ، يذكرنى لغير الثناء ، ويطرحنى عند الاستغناء ، وحال كالهمزة تُبدل العين ، وتُجْعل بين بين ، وتكون تارة حرف لين ، وتارة مثل الصامت الرصين ،

---

(١) رسائل أبى العلاء ص ١٤ .

فهى لا تثبت على طريقة ، ولا تدرَك لها صورة فى الحقيقة ، وذوائب ألحقت الكبير بالصغير ، كأنها ترخيم التصغير ، ردّت المُسْتحلس إلى حُليس ، وقابوس إلى قُبيس ، لأمدّ صوتى بتلك الآلاء ؛ مدّ الكوفى صوته فى هؤلاء ، وأخفّف عن سيدنا الرئيس الحَبْر ، تخفيف المدنىّ ما قدر عليه من النَّبْر ، إن كاتبت فلا ملتمسَ جواب ، وإن أسهبت فى الشكر فلا طالبَ ثواب ، حسبى ما لدىّ من أياديه ، وما غمَر من فضل السيد الأكبر أبيه ، أدام الله لهما القدرة ما دام الضرب الأول من الطويل صحيحاً ، والمنسرح خفيفاً سريحاً ، وقبض الله يمين عدوهما عن كل مَعْن (معروف) ، قبض العروض من أول وزن » .

وإن الإنسان ليذهل حين يقرأ هذه الصورة من الصياغة عند أبى العلاء ، كأنما ضاقت جميع صور التعبير عن أن تؤدى المعانى التى تجول فى نفسه ، فهو يبحث عنها فى طوايا علوم النحو والتجويد والقراءات والعروض على هذا النمط من التعقيد الجديد الذى يضيفه إلى آثاره وينثره فى جميع أطرافها نثراً ، وقد كنا نفهم — إلى حد ما — أن يتصنع أبو العلاء فى أعماله للفظ الغريب ، فاللفظ الغريب يدخل على كل حال فى نطاق التعبير الأدبى ، أما الآن فقد خرج عن هذا النطاق إلى نطاق جديد لا جمال فيه ولا فن إلا إذا كنا من ذوق أبى العلاء ، وكنا نريد أن نتعب الناس فى فهم ما نقول ، ولن نتعبهم هذه المرة عن طريق كثرة رجوعهم إلى المعاجم اللغوية ، بل سنتعبهم عن طريق رجوعهم إلى المصطلحات الخاصة بالعلوم العربية كى يفهموا ما يقرءون. وما للقراء وهذا العناء كله ؟ إنهم يريدون أن يصلوا إلى المعانى التى يقرءونها فى صورة سريعة أو على الأقل لا تبعد بهم كل هذا البعد ، ولا تغرب بهم كل هذا الإغراب ، ولكن أبا العلاء لا يفكر فى شىء من ذلك كله ، فقد جاء فى مرحلة جديدة من مراحل النثر العربى ، وهى مرحلة كانت تفترق افتراقاً شديداً مما سبقها من مراحل ، إذ كان أصحابها ما يزالون يصعّبون نثرهم ضروباً من التصعيب ، وقد ذهب أبو العلاء فى آثاره يعرض عليهم بعض ما استطاع أن يصل إليه من هذه الضروب كى يظفر بتفوقه عليهم واستعلاء آثاره على آثارهم ،

وأنه ليهدف إلى ذلك عن طريق اللفظ الغريب من جهة وحشد المصطلحات العلمية من جهة أخرى .

٣

التعقيد فى رسالة الغفران

ونحن نقف قليلا عند رسالة مهمة لأبى العلاء ، وهى رسالة الغفران التى تمتد إلى نحو مائتى صحيفة من القطع الكبير ، وقد كتبها إلى على بن منصور الحلبى المعروف بابن القارح ردًّا على رسالة كتبها إليه ، ويظهر أن أبا العلاء كان يعجب بابن القارح وأنه كان يتفق وهواه فى بعض الآراء التى تتصل بالأديان والنِّحل ، إذ امتلأت الرسالة بسخرية لاذعة من المعتقدات ، حتى قال الذهبى : إن بها مَزْدكة واستخفافاً[1] ، ولسنا نستطيع أن نزعم ما زعمه الذهبى من أن أبا العلاء كان مزدكيًّا على مذهب مزدك ، وأكبر الظن أن الذهبى لم يحقق هذه الكلمة حين أضافها إلى أبى العلاء ، إنما أراد بها أن يصفه بالزندقة لما فى رسالته من تهكم على بعض المعتقدات ، ولما فيها أيضاً من دفاع واضح عن الشعراء الذين عُرفوا بالزندقة إذ يزعم أبو العلاء دائماً أن الله غفر لهم ، وسُمِّيت الرسالة باسم رسالة الغفران من أجل ذلك .

والرسالة تنقسم إلى قسمين عامين : قسم يعتبر مقدمة وفيه نجد أبا العلاء يستطرد من وصفه لكلمات ابن القارح فى رسالته إليه بأنها تشبه أشجار الجنة إلى وصف الجنة نفسها وما بها من نعيم ، وفى أثناء ذلك يعرض لندماء ابن القارح من علماء اللغة ، ويتراءى له أن يجعله يتنزه فى الجنة ، فيلْقَى طائفة من شعراء الجاهلية ، ثم يعنّ له أن يرجع به إلى يوم الموقف فيردّه إليه ليصف ما هنالك من أهوال ، ويمر به على الصراط حتى يصل إلى الجنة فيحاور رضوان محاورة

(١) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ١٨٩ .

طريفة ، إذ يسأله : هل معك من جواز؟ فيقول : لا ، فيقول رضوان : لا سبيل لك إلى الدخول بغير جواز ، ويرى ابن القارح إبراهيم بن محمد صلوات الله عليه فيتشبّث به وهو يدخل الجنة . فيجذبه معه . ويدخل ابن القارح الجنة ويلتقى مرة أخرى بالشعراء ويحاورهم ويشترك معهم فى مأدبة وغناء وقصف ، ثم يركب بعض دوابّ الجنة ويسير فيصل إلى مدائن غريبة ، ويطّلع فيرى طائفة من الجنّ فيسألهم عن الأشعار التى تنسب فى العربية إليهم ، ثم يُرْخى من عنان دابته حتى يصل إلى أقصى الجنة ، حيث يلتقى بالحطيئة والخنساء وهى تنظر إلى أخيها صخر فى الجحيم ، وينظر كما تنظر الخنساء فيجد إبليس وبشاراً وبعض شعراء الجاهلية ويحاورهم جميعاً ثم يعود فيلتقى ببعض الحيّات التى ظُلمت فى الدنيا ثم كوفئت فى الآخرة بدخول الفردوس ، ويمر فى جنة الرُّجّاز ، وأخيراً يُقبل على كأس من كؤوس الجنة التى لا تُنْزف عقلا .

وهذا هو القسم الأول من الرسالة ، وهو يعطيها لوناً مدرسيًّا ، إذ قصد فيه أبو العلاء — من خلال حوار ابن القارح مع الشعراء — أن يظهر علمه بأشعارهم وما فيها من مسائل عويصة فى لفظها ونحوها ووزنها . وينتقل من هذا القسم إلى القسم الثانى وهو خاص بالرد على سؤال ابن القارح عن الزنادقة والزندقة ، وتعرّض فى أثناء هذا القسم لكثير من النِّحل فى عصره ، ومن ثَمَّ كان هذا القسم فى الرسالة ذا قيمة خاصة . على أن أهمية الرسالة إنما ترجع إلى القسم الأول منها ، إذ قرنها الباحثون بسببه إلى « الكوميديا الإلهية » لدانتى [1] ، محاولين النفوذ إلى بيان تأثره بها ومدى هذا التأثر ، وهو تأثر تقوم عليه أدلة كثيرة ، وبذلك لم يصنع أبو العلاء للعرب « كوميديا إلهية » فحسب بل أثر بها أيضًا أثراً عميقًا فى الآداب العالمية . ولسنا نريد الآن أن نتحدث عن هذا الجانب فى رسالته ، إنما نريد أن نتحدث عن صياغته فيها وطريقته فى التعبير ، ولعل من المهم أن نعرف أن أبا العلاء لم يجئ فى هذه

(١) انظر ترجمة أبى العلاء فى دائرة المعارف الإسلامية .

الرسالة بصياغة جديدة غير الصياغة التى رأيناها آنفاً ، ونراه يُعْنَى فيها بالتزام ما لا يلزم فى قرائن سجعه ، كما يعنى باللفظ الغريب ، وإنه ليعنى عناية خاصة بالجناس ، ولكن دائماً فى ثنايا ألفاظه الغريبة بل المهجورة أحياناً ، وهو يحشد مع ذلك كثيراً من الإشارات التاريخية ، واستمعْ إليه يصف أنهار الجنة فيقول : « إنها الراح الدائمة ، لا الذميمة ولا الذائمة » ، ويستطرد من ذلك إلى وصف الشعراء للخمر ثم يقول[1] :

«كم على تلك الأنهار من آنية زبرجد محفور ، وياقوت خُلق على خَلْق الفور (الظباء) من أصفر وأحمر وأزرق ، يُخال إن لُمس أحرْق ، كما قال الصنوبرى :

تخيَّلُهُ ساطعاً وهْجُهُ فتأبى الدنوَّ إلى وَهْجِهِ

وفى تلك الأنهار أوانٍ على هيئة الطير السابحة ، والغانية عن الماء السائحة ، فمنها ما هو على صور الكراكى ، وأخَرُ تشاكل المكاكى ، وعلى خَلْق طواويس وبَطّ ، فبعضٌ فى الجارية وبعضٌ فى الشط ، ينبع من أفواهها شراب ، كأنه من الرقة سَراب ، لوجرع جُرْعةً منه الحكمى (أبو نواس) ، لحكم بأنه الفوز القِدَمىّ ، وشهد له كل وصّاف للخمر ، من محدث فى الزمن وعتيق فى الأمر ، أن أصناف الأشربة المنسوبة إلى الدار الفانية كخمر عانةَ وأذْرعات ، وهى مظنَّة للنُّعَّات ، وغزّة وبيت راس ، والفِلَسْطِيَّة ذوات الأحْراس ، وما جُلب من بُصْرى فى الوسوق ، تُبْغَى به المرابحة عند سوق ، وما ذخَره ابن بُجْرة بوَجّ (الطائف) ، واعتمد به أوقات الحج ، قبل أن تحَرَّمَ على الناس القهوات ، وتُحْظَر لخوف الله الشهوات ، قال أبو ذؤيب :

ولو أنَّ ما عند ابن بُجْرَةَ عندها
من الخمر لم تَبْلُلْ لهاتِى بناطلِ[2]

وما اعتُصر بِصَرْخد أو أرض شام ، لكل ملاك غير عَبام (أحمق) ،

---

(١) رسالة الغفران (طبعة أمين هندية) ص ١١ .

(٢) اللهاة : أقصى سقف الحلق . والناطل : الجرعة من الخمر .

وما تردد ذكره من كميت بابل وصريفين ، واتُّخذ للأشراف المنيفين ، وما عُمل من أجناس المسكرات ، مفوِّقات للشارب وموكِّرات (مثقلات) ، كالجعة والبتع والمِزْر ، والسُّكُرْكة ذات الوِزْر [١] ، وماولِّد من النخيل ، لكريم يغترف أو بخيل ، وما صُنع فى أيام آدم وشيث ، إلى يوم المبعث من مُعتجِّل أو مَكيث . . . ويعارض تلك المُدامةَ أنهارٌ من عسل مصفى ، ما كسبته النَّحْلُ الغادية إلى الأنوار ، ولا هو فى موم (شمع) متوار ، ولكن قال له العزيز القادر كُنْ فكان ، وبكرمه أعطى الإمكان ، واهاً لذلك عسلا ، لم يكن بالنار مُبْسلا ، لوجعله الشارب المحرور غذاءه طول الأبد ، ما قُدر له عارض موم (الجدرى) ولا لبس ثوب المحموم ... فليت شعرى عن النَّمر بن تَوْلَب العُكْلى هل يُقْدَر له أن يذوق ذلك الأرْى ، فيعلم أن شهد الفانية إذا قيس إليه وُجد يشاكه الشَّرْى [٢] وهو لما وصف أم حصن وما رزقته فى الدعة والأمن ، ذكر حُوَّارى بسمن وعسلا مصفى ، فرحمه الخالق متوفَّى ، فقد كان أسلم وروى حديثاً منفرداً ، وحسبنا به للكلم مسرِّدا ، قال المسكين النمر :

ألمَّ بصحبتى وهمُ هجوعُ — خيال طارقٌ من أم حِصْنِ
لها ما تشتهى عسلا مصفَّى — إذا شاءتْ وحُوَّارى بسَمْنِ

وهو أدام الله تمكينه يعرف حكاية خلف الأحمر مع أصحابه فى هذين البيتين ، ومعناها أنه قال لهم : لو كان موضع أم حصن أم حفص ما كان يقول فى البيت الثانى ؟ فسكتوا ، فقال حوّارى بلمص يعنى الفالوذج » .

وهنا نجد أبا العلاء يغير قافية البيت الأول من أم حصن إلى أم جزء ، ويأتى بقافية فى البيت الثانى على نسقها ، ثم يستمر فيصنع ذلك بكلمات أخرى على سائر حروف المعجم عدا حرف الطاء . وما من شك فى أن هذا التصنيع يدل على حال هى حال الاستطراد ، وهى تعم فى الرسالة كلها ، وكان يريد

---

(١) أنواع خمور .

(٢) الشرى : الحنظل ، والأرى : العسل .

بها أن يدل على مقدرته فى رواية الشعر الغريب وما يتصل به من أصحابه، وإنه ليقف عند كثير من صعوباته ، وكما كان يعنى بالوقوف عند الشعر الغريب كان هو نفسه يلتزم الإغراب فى كثير من ألفاظ رسالته على عادته فى كل ما يكتب ، وهو يضيف إلى ذلك حقًّا زخرف السجع كما يضيف زخرف البديع وخاصة زخرف الجناس ، ولكن الإنسان يحس كأن هذه الزخارف تأتى عنده تابعة للفظ الغريب فهو الأساس أو هو الخيط الذى تنسج عليه هذه الزخارف أو هذا الوشى وما يطوى فيه من تنميق، وقد عبر هو عن ذلك خير تعبير إذ يقول فى إحدى رسائله : « قد كان فيمن مضى قوم جعلوا الرسائل ، كالوسائل ، تزينوا بالسجع ، تزين المُحْوِل بالرَّجْع ، ما رقوا فى درجته ، ولا وضعوا قدماً على محجته، لكنهم تعاينوا ، فما تباينوا، وتناضلوا ، فلم يتفاضلوا ولو طمعوا فى الوصول ، إلى مثل هذه الفصول، لاختاروا الرَّتب (الشدة) على الرُّتب ، ورضوا اعتساف السبيل ، وارتعاء الوَبيل »[1] . فانظر أين يضع أبو العلاء سابقيه من أصحاب مذهب التصنيع !هو يعترف لهم بالسجع ، فذلك شىء لا يستطيع أن يدفعه ، ولكنه يدَّعى عليهم بعد ذلك أنهم قصَّروا عن معرفة طرقه الصحيحة ، لأنهم لم يرقوا فى درجة مذهبه ، ولا وضعوا قدماً على محجته ، وحقًّا ما يقوله أبو العلاء من أنهم لو طلب إليهم أن يكتبوا على نسق كتابته لاختاروا عليها شظف العيش واعتساف السبيل وارتعاء الوبيل، لأنهم كانوا يفهمون الفن فى صورة أخرى تباين الصورة التى علقت بنفس أبى العلاء . إن الفن كان عندهم زخرفاً وتصنيعاً، أما عند أبى العلاء فقد تقدم الزمن وتطور الفن وأصبح الفنان يأبى أن يخرج نثره فى زخرف وزينة فقط ، بل لا بد أن يخرجه فى كُلَف وعقد، ولا بد له أن يبلغ من ذلك كل مبلغ ممكن . ومن أجل ذلك كان طبيعيًّا أن يلوم أبو العلاء الكتَّاب الذين سبقوه فى فن الكتابة لأنهم لم يكونوا من مذهبه ولا من ذوقه ، لم يكونوا يعقِّدون فنهم على هذا النحو الذى

---

(١) رسائل أبى العلاء ص ٦ . والوبيل : المرعى الوخيم .

تبدو فيه الآثار الفنية وكأنها متون صعبة يُرَاد بها إلى إظهار المهارة اللغوية، وإنها لمهارة يبث أبو العلاء بين طياتها كثيراً من الأمثال والإشارات التاريخية والأدبية ، حتى ليضطر أثناء ذلك إلى كثير من الاستطراد فى كتاباته، بل لقد اضطرَّ إلى شيء أهم من ذلك لم نتعوده من قبل وهو شرحه لكثير من آثاره النثرية، وما من شك فى أنه عمد إلى هذا الشرح لأنه يعرف أن آثاره لا تفهم إلا مع التفسير البَيِّن لكثرة ما يحشد فيها من ألفاظ عويصة .

ومهما يكن فإن اللغة هى أهم الجوانب التى استمد منها أبو العلاء أكثر عُقده فى صناعة نثره ، وقد أضاف إليها عقداً أخرى تتصل بها من كثرة الأمثال والإشارات التاريخية والاستشهاد بالشعر الغريب خاصة . وإذا نظرت بعد ذلك فى سَجْعه برسالة الغفران وجدته يلتزم فى أكثر جوانبه أن تكون نهاية السجعة لا حرفاً بل حرفين أو أكثر ، كما يلتزم — غالباً — الجناس فى عباراته ، ولكننا نحس إزاء استخدامه لهذا اللون من ألوان البديع أنه فارق بعض ألوانه البهيجة التى كنا نعرفها عند أصحاب مذهب التصنيع ، وما ذلك إلا لأن أبا العلاء يعتمد فى جناسه كثيراً على الإغراب فى الألفاظ ، ومن ثَمَّ كنا نشعر إزاء كثير من جناساته أنها جناسات لغوية أكثر منها فنية ، فهى إلى اللغة والإغراب اللغوى أقرب منها إلى الفن الخالص . والحق أن أبا العلاء عمد فى فنه إلى التعقيد من حيث هو ، ولذلك إذا ذهبنا إلى أنه زعيم مذهب التصنع لعصره لم نكن مبالغين ولا مغالين .

٤

التعقيد فى الفصول والغايات

لعل أهم كتاب عقّده أبو العلاء وصعبه هو كتاب الفصول والغايات ، وهو كتاب قصد به إلى تمجيد الله[١] ، ومع ذلك فقد كان سبباً فى حملة شعواء

---

(١) معجم الأدباء ١٤٦/٣ .

عليه ، إذ ذهب خصومه إلى أنه ألفه معارضة للقرآن ، ويظهر أنهم واجهوا أبا العلاء بهذه التهمة منذ أخرج الكتاب ، يقول ناصر خسرو الذى زار المعرة عام ٤٣٨هـ : « وضع أبو العلاء كتاباً سماه الفصول والغايات ذكر به كلمات مرموزة وأمثالا فى لفظ فصيح عجيب بحيث لا يقف الناس إلا على قليل منه ويفهمه من يقرؤه عليه ، وقد اتهموه بقولهم : إنك وضعت هذا الكتاب معارضة للقرآن »[١] . وقد استمرت هذه التهمة عالقة بأذهان الناس . يقول الباخرزى : « أبو العلاء ضرير ، ما له فى أنواع الأدب ضريب ، وإنما تحدثت الألسن بإساءته لكتابه الذى زعموا أنه عارض به القرآن وعنونه بالفصول والغايات فى محاذاة السور والآيات ، وأظهر من نفسه تلك الجناية ، وجذ تلك الهوسات كما يجذ العَيْر الصِّلِّيانة »[٢] . ويقول ابن الجوزى : « رأيت للمعرى كتاباً سماه الفصول والغايات ، يعارض به السور والآيات ، وهو كلام فى نهاية الركة »[٣] .

وإذاً فتهمة أبى العلاء بأنه عارض القرآن بكتاب الفصول والغايات تهمة قديمة وُجدتْ فى عصره واستمرت من بعده ، وقد أضاف الرواة إلى هذه التهمة أن بعض الأدباء قال له : إن كتاب الفصول والغايات جيد إلا أنه ليس عليه طلاوة القرآن ، فقال : حتى تصقله الألسن فى المحاريب أربعمائة سنة وعند ذلك انظروا كيف يكون[٤] . وأكثر الظن أن هذه الرواية لفقت على أبى العلاء كما لفقت عليه فكرة معارضة القرآن بالكتاب ، ولعل مما يشهد لذلك أن نجد تلميذه ابن سنان الخفاجى يردها رداً عنيفاً إذ يقول : « وهذا الكتاب إذا تأمله العاقل علم أنه بعيد عن المعارضة ، وهو بمعزل عن التشبيه بنظم القرآن العزيز والمناقضة »[٥] ومن يرجع إلى الكتاب يرفض رفضاً باتاً ما ادعاه خصومه عليه فيه من هذه المعارضة المزعومة إذ كله تسبيح وتمجيد فى الله ، وانظر إليه يقول : « علم ربنا

(١) سفر نامه لناصر خسرو (الترجمة العربية) طبع لجنة التأليف والترجمة ص ١١ .

(٢) دمية القصر للباخرزى (طبع حلب) ص ٥٠ والصليانة : نبت ضعيف ، والعير : حمار الوحش .

(٣) تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٢١ .

(٤) تعريف القدماء ص ٤٢٦ .

(٥) تعريف القدماء ص ٤٢٦ .

ما علم، أنى ألفت الكلم، آملُ رضاه المسلَّم، وأتقى سخطه المؤلم، فهبْ لى ما أبلغ به رضاك من الكلم والمعانى الغِراب »[١]، وتسيطر على الكتاب كله روح التقوى والزهد والخوف العظيم من ربه ، وقد انتشرت هذه الروح فى جميع صفحات الكتاب كقوله فى بعض الفصول : « إن كان الدمع يطفئ غضبك فهَبْ لى عَيْنين كأنهما غمامتا شتىٍّ تَبِلان الصباح والمساء »[٢]. ويقول فى مكان آخر : ليت أعظمى تحولت عيدان أراكٍ يتفلفل بها المتعبدون لله بالعَشِيّ والأبْكار ، وليت أدَمِى جُعل منه ذات طِراق يمسح عليها المسافرون فى سبيل الله أوقات الصلوات ، أو صُنع منه شَعِيبٌ يُحْمَلُ فيها الماء حتى تُعَدَّ فى الشنان الباليات ، وليت شَعْرِى عُشْبٌ عَبَثَتْ به رِكابُ الناسكين ، علّى أصلُ بذلك إلى الفلاح »[٣] ، وانظرْ إليه يقول فى موضع آخر[٤] :

« لو نقلتُ مياه اللُّجج على مَنْكِبى فى قُذافٍ، وأفرغته على مناكب الجبال، وجررت كُثبان الأرض وصرائمها فى جَرٍّ أو مِشْآة، فألقيتها فى الخُضَر الدائمات، حَفْداً لله كنت أحد العجزة المقصِّرين[٥] ، ولو أذن لى وأيِّدْتُ فابتنيت مراهِص من الثرى الأسفل إلى الثُّرَيَّا وحَضارِ ، ومن الوتد المتخَذ من عود، إلى ساحة وتِد السعود[٦] ، لم أؤدِّ ما يوجبه جلال الله، فكيف وأنا أقصُر الصلاة، وأدانى بين الركَعات » .

وأنت تحس هنا بروح رجل مؤمن مبالغ فى إيمانه يخاف ربه ويخشاه ، وإنه ليتصور نفسه يأتى بالمعجزات فى طاعة الله ، فلا ترفعه هذه المعجزات — إن استطاع أن يقوم بها — عن الشعور بأنه أحد العجزة المقصرين ، وإنه ليحس

---

(١) الفصول والغايات (طبعة محمود زناتى) ١/٦٢ .

(٢) نفس المصدر ١/٢٥٩ شتى : من الشتاء تبلان : تسحان من الوبل وهو المطر الغزير .

(٣) نفس المصدر ١/٣٩٠ . يتفلفل : يستاك . ذوات الطرق : النعال . الشعيب : القربة من أديمين .

(٤) نفس المصدر ١/٥٩ .

(٥) القذاف : الجرة . الجر : الزبيل . المشآة : زبيل من أدم . الخضر : اللجج . الحفد : الخدمة .

(٦) المراهص : المراتب . وتد السعود : سعد الأخبية : نجوم معروفة .

إحساساً عميقاً بأنه مهما صنع من آيات فلن يؤدى ما يوجبه جلال الله ، وعلى هذا النحو يمضى أبو العلاء فى كتابه يستشعر العجز والضعف أمام ربه معدداً لنعمه ومآثره ، مصوراً لإرادته وقدرته ، وقد جعله هذا الجانب يقف عند طائفة من المستحيلات فى وقائعنا المادية ، فيظهر كيف أن قدرة الله التى تسع كل شىء تستطيع أن تحولها من باب المستحيلات إلى باب الممكنات كقوله فى بعض فصوله[1] :

« يقدر ربنا أن يجعل الإنسان ينظرُ بقدمه ويسمع الأصواتَ بيده ، وتكون بنَانه مجارىَ دمعه ، ويَجد الطعم بأذنه ، ويشم الروائح بمنكبه ، ويمشى إلى الغرض على هامته ، وأن يقرن بين النَّير وسَنير ، حتى يُرَيا كفَرَسَىْ رهان ، ويُنزل الوَعِلَ الزَّعلَ من النِّيقِ ، ومجاوره السَّوْذَنيق[2] ، حتى يُشَدَّ فيه الغرض، وتُكْرَب عليه الأرض ، وذلك من القدرة يسير ، سبحانك ملك الملوك وعظيم الضعفاء » .

ونرى من ذلك أن الفصول والغايات لم يقصد بها إلى إلحاد ولا إلى زندقة ، ولا إلى معارضة للقرآن ومناقضة ، ومن أين يأتيها هذا وهى تنساق كلها فى التمجيد والتحميد والثناء على الله ، ولعله من أجل ذلك قال ابن سنان الخفاجى : إن العاقل إذا تأملها علم أنها بعيدة عن المعارضة ، وقد يكون السبب فى أن الناس واجهوا أبا العلاء بهذه التهمة أنهم رأوه يسمى كتابه باسم (الفصول والغايات فى محاذاة السور والآيات) فظنوا أنه يقصد بذلك إلى المعارضة فى الأسلوب وهو إنما يقصد إلى أن هذه الفصول محاذية للقرآن من حيث ما فيها من تسبيح وحمد وتمجيد وثناء على الله سبحانه وتعالى . وقد يكون من أسباب هذه التهمة ما فى الكتاب من بعض أقسام تشبه أقسام القرآن[3] . كقوله فى بعض فصوله[4] :

---

(١) الفصول والغايات ١ / ٣١ .

(٢) النير : جبل بأعلى نجد . سنير : جبل بين حمص وبعلبك . السوذنيق : الصقر أو الشاهين .

(٣) معجم الأدباء ٣ / ١٤٠ .

(٤) الفصول والغايات ص ٢٥٣ .

« أقسم بخالق الخيل ، والعيس الواجفة بالرحيل ، تطلب مواطن حليل[1] ، والريح الهابة بليل ، بين الشرط ومطامع سهيل ، إن الكافر لطويل الويل ، وإن العمر لمكفوف الذيل . شعر النابغة وهذيل ، وغناء الطائر على الغيل ، شهادة بالعظمة لمقيم الميل ، فانعش سائلك بالنيل ، وليكن لفظك بغير هيل[2] وإياك ومدارج السيل ، وعليك التوبة من قبيل ، تنجُ وما إخالك بناج » .

ومع ذلك فلم تأت هذه الصورة من الأقسام فى الكتاب كثيراً ، ولعل مما يتصل بها ما يلاحظ على الكتاب أحياناً من النسج على أساليب مشبهة للقرآن الكريم ، وقد لاحظ القدماء ذلك فى قوله[3] :

« أذلت العائذة أباها ، وأصاب الوحدة ورباها ، والله بكرمه اجتباها ، أولاها الشرف بما حباها ، أرسل الشمال وصباها ، ولا يخاف عقباها » .

وربما كان من الأساليب التى تدخل فى ذلك ما يلاحظ عليه أحياناً من استخدام صوره الفواصل فى بعض جوانب من كتابه كقوله[4] :

« إن الله إذا أذن أروى الشعب من القعب ، فسبحان مروى الهائمين والحليب ، يطلب من ذوات الصليب ، وربك رازق المترين[5] ، هل تقدر على التحجيب ، لأسد الحجيب ، وإذا شاء الله وسمت أنوف الأعزاء . من الرتب ، ركوب القتب ، والله منعم الخافضين[6] ، ذهبت شعوب ، وفى يدها لعوب ، وكل للمنية أكيل ، إلا ملك الملوك ومذل المتكبرين . يذهب الخلب ، ويبقى القلب ، وكل محدث من الذاهبين[7] ، يقع الشبب فى السبب ، وكذلك

---

(١) العين الواجفة : الإبل المسرعة . الرحيل : موضع بين مكة والكوفة . حليل : شخص كانت إليه سدانة الكعبة .

(٢) الشرط : واحد الشرطين وهما نجمان من برج الحمل . الغيل : الماء يجرى على وجه الأرض الميل : العوج . النيل : العطاء . الهيل : ضد الكيل

(٣) معجم الأدباء ٣/١٤٠ ، والعائذة : حديثة النتاج .

(٤) الفصول والغايات ١/٢٢٧ .

(٥) القعب : قدح صغير . الهائم : العطشان . ذوات الصليب : النوق .

(٦) التحجيب : سمة حول الحاجب . الحجيب : الأجمة . الرتب : غلظ العيش القتب : الرحل

(٧) شعوب : المنية . لعوب : امرأة . الخلب : الليف . القلب : قلب النخلة .

غاية المُطْلقين ، شكا الطِّلْبُ ، داء فى الحلْب ، وربُّك شافى المشتفين[١] ، قد تقف الطِّراب ، على رؤوس الظِّراب ، ترمُق آثار المتحمِّلين[٢] ولو شاء الله جعل جنَّاحاً كالحضْر وأبا مهديَّة مثل قُباث »[٣] .

ولكن هل ظهور هذه الأساليب وما يُطوَى فيها من صور مشبهة لبعض صور القرآن الكريم فى أساليبه تجعلنا ننطلق إلى اتّهام أبى العلاء بمعارضة القرآن الكريم ، أو ينبغى أن نتريث وأن لا نحكم هذا الحكم إلا إذا دعمناه بأدلة أشد من ذلك وضوحاً ؟ والحق أن تهمة أبى العلاء لا تثبت بمثل هذه الصور وخاصة أن أبا العلاء لم يُشيعها فى فصوله وغاياته ، بل لقد جاء بها فى القليل النادر جدًّا ، ومن يدرى ؟ ربما قلد أبو العلاء أساليب القرآن الكريم فى بعض جوانب من كتابه ، ولكنه لم يرد بتقليده إلى المعارضة والتحدى ، وإنما أراد مطلق التقليد الخالى من أى غرض من أغراض الإلحاد ، وقد يكون من الأدلة على ذلك أن الكتاب كله ينساق فى موجة عظيمة من تحميد الله وتمجيده ، وأيضاً فإننا إذا تركنا هذه الجوانب القليلة فى الكتاب ونظرنا فى أساليبه نظرة عامة وجدنا أبا العلاء يختار لنفسه فيه أسلوباً معقداً تعقيداً شديداً ، وهو تعقيد يقوم على استخدام اللفظ الغريب وما يُطوَى فيه من أمثال وكلمات رمزية ، وإن ذلك ليباعد الكتاب جملة عن أسلوب الذكر الحكيم ، ويجعله أسلوباً من طراز آخر هو طراز مذهب التصنع ، وما انتهى إليه هذا المذهب عند أبى العلاء من عُقَدٍ وكلف كثيرة .

ولعل أول ما يلاحظ من عقد أبى العلاء وكلفه فى هذا الكتاب أنه قسمه على حروف المعجم عدا حرف الألف ، فخرج له من ذلك ثمانية وعشرون فصلا ، وجعل كل فصل كالهمزة مثلا ينقسم إلى فقرات ، وكل فقرة تختم

---

(١) الشبب : الثور الوحشى . الطلب : الذى يطلب النساء . الحلب : غشاء القلب .

(٢) الظراب : الجبال الصغار . المتحملين : المسافرين .

(٣) جناح : بيت لأبى مهدية الأعرابى الذى يروى عنه أبو عبيدة . الحضر : حصن لملك يسمى الساطرون . قباث : ملك من ملوك الفرس يسمى قباذ .

بغاية هى الفصل ، ففصل الهمزة غاياته كلها الهمزة ، وأبو العلاء لا يكتفى بذلك ، بل يلتزم حرفاً قبل جميع غاياته هو الألف ، ولا تظن أنه يصنع هنا ما صنعه فى ديوان اللزوميات من التزام حرف قبل الروى وتوحيده فى المقطوعة التى ينظمها ، فهناك كان يستطيع أن يغير الحرف كما يريد ، أما هنا فهو يعينه بحرف الألف ، ففصل الهمزة مثلا تختتم فقراته كلها بجملة فيها ألف وهمزة ، وكذلك فصل الباء والتاء والثاء وهلم جرًّا . وانظر فى الفقرة السابقة التى عرضناها عليك فغايتها قباث وهى مختومة بثاء بعد الألف ؛ وكذلك جميع فقرات فصل الثاء تختتم على هذا النحو ، فإذا رجعت إلى الكتاب وجدتها تتوالى هكذا : ورّاث ، أحداث ، حثاث ، جثجاث . . . ويستمر على هذا النمط حتى يختتم الفصل .

وليست هذه العقدة هى كل ما فزع إليه أبو العلاء فى فصوله وغاياته ، فهناك عقد كثيرة كان يلجأ إليها ، لعل من أهمها أنه كان يلتزم داخل فقره كثيراً أن تتوالى السجعات وقد اشتركت نهايتها فى حرفين أو أكثر . على أن هذه العقدة سبق أن لاحظناها عنده فى رسالة الغفران . وربما كانت أهم عقدة استمد منها أبو العلاء كل ما يريد من تعقيد فى أسلوبه وتصعيب هى عقدة اللغة ، ولعل القارئ لاحظ ذلك فيما رويناه حتى الآن من الكتاب ، ولذلك عمدنا فى الهوامش إلى تفسير بعض الألفاظ ، وحقًّا ما قاله ناصر خسرو من أن هذا الكتاب أودع كلمات مرموزة وأمثالا وأنه لا يفهمه إلا من قرأه على أبى العلاء نفسه ، وقد قالوا إنه فسره بكتاب يسمى السادن[1] . ومن يرجع إلى القسم الذى نُشر من الكتاب يجد أنه يُصحَب بتفسير ، فالفقرة تكتب ثم يلحقها التفسير ، فإذا انتهى التفسير جاءت كلمة « رجع » للدلالة على الرجوع إلى أصل الكتاب وفِقره ، وأكبر الظن أن هذا التفسير من صنع أبى العلاء ، وقد يكون هو نفسه كتاب السادن الذى شرح به الكتاب ، ألحقه به أحد تلاميذه ، أو ألحقه به شخص متأخر .

---

(١) تعريف القدماء ص ٣٩ .

ومهما يكن فإن الإغراب اللغوى أهم أصل عقّد به أبو العلاء كتاب الفصول والغايات ، وإنه ليعقده حقًّا بالسجع والجناس ، ولكن الإنسان يحس أن هذه الأشياء تأتى تابعة للإغراب اللغوى ، وإنه لإغراب ينتهى به إلى استخدام أكثر ما يمكن من الألفاظ المهجورة . وهذا هو معنى ما نذهب إليه من أن أبا العلاء أخذ النثر العربى فى عصره بعُقد بل قل بأثقال ، وإنها لأثقال تعجز عنها العصبة من الأدباء الذين يبالغون فى تعقيد فنهم وتصعيبه ، وأى عصبة هذه التى تستطيع أن تبلغ من كُلَفها ما بلغه أبو العلاء فى فصوله وغاياته ، واختر لنفسك أى صحيفة منه ، ثم اقرأ ، فإنك لن تفهم وتحسن الفهم إلا إذا رجعت إلى المعاجم اللغوية مراراً ، ولن تشفى غُلّتك المعاجم دائماً ، فإن فى الكتاب كثيراً من الأمثال والإشارات التاريخية ، إذ كان أبو العلاء يرى أن هذه الأشياء ضرورية فى تجويد فنه وتحبيره ، ولذلك كان ينثرها فى كتابه نثراً كما كان ينثر كل ما يتصل بالعرب وتاريخهم وعلمهم بالنجوم والحيوان وما يعرفونه من أمكنة وآبار وأزهار ، وحتى أصنامهم نجده يسلكها فى بعض كلمة كقوله[1] :

« من عبد وَدًّا ، لم يجد عند الله وُدًّا ، والدَّسْر لمعظّم نسْر ، وصاحب سُواع ، ليس بواع ، ما أغاثهم يَغُوثُ ، بل عوّق خيرهم يعوق ، وأذلّت العُزّى — وهى ذليلة — مَنْ جعلها من الطّاغوت ، ولاتت القومَ اللاّتُ »[2] .

فقد ذكر أبو العلاء فى هذه الفقرة من أصنام العرب وَدًّا ونسراً وسواعاً ويغوث ويعوق والعزّى واللات ، ولم يكتف بكل هذا التصنع لذكر الأصنام وحَشْدها ، بل ذهب يجانس بين ودا وودا كما جانس بين الدسر ونسر ، وسواع وواع ، وأغاث ويغوث ، وعوق ويعوق ولات واللات ، ولم يكتف بذلك فقد طابق بين العزى والذلة ، وما من ريب فى أنه عانى كثيراً قبل أن يصل إلى كل هذه الصور من الجناس والطباق ، وحقًّا كان أصحاب مذهب التصنيع يستخدمون

---

(١) الفصول والغايات ١/١٤٨ .

(٢) الدسر : الهلاك . الطاغوت : ما يعبد من دون الله . لاته : نقصه حقه .

هذا الزخرف قبله ، ولكن الإنسان يحس عند أبى العلاء أنه فارق طاقته القديمة من الحلية والزينة إلى طاقة جديدة من الإغراب والتعمق فى تصعيب الأداء ، وإنه ليلتزم ذلك دائماً فى كل ما يكتب ، وهل هناك أثر نثرى لأبى العلاء لم يَبْنه على اللفظ الغريب وهذا الجناس المعقد وما يطوى فيهما من التزام حرفين فى روىّ سَجْعه غالباً . ثم يأتى بعد ذلك ما يستخدمه من أمثال وما يحشده من إشارات تاريخية . وهذا كله كان يلتزمه فى آثاره ، بحيث لا تكاد تخلو صحيفة من أعماله إلا وقد انبسطت عليها عُقد اللفظ الغريب أو قل اللفظ المهجور ، كما انبسطت عليها زخارف الجناس المعقد وما يندمج فى هذا الجناس من أمثال وإشارات .

وبجانب هذه العُقد الدائمة التى ينمق بها فنه تنميقاً نجده يقترح عقداً أخرى لم يكن يستعملها دائماً ولكنه كان يستعملها على كل حال ، وقد عرضنا لها فى بيان تعقيده لرسائله ، ونقصد ما كان يتصنع له فى كتاباته من ذكره لمصطلحات العلوم بطرق وصور مختلفة ، وقد غالى فى هذا الجانب فى أثناء صناعته للفصول والغايات غلوًّا بعيداً ، إذ نراه يحاول أن يرد كثيراً من أفكاره إلى علل أصحاب النحو والعروض ومصطلحاتهما كأنما أعياه التفكير المستقيم الصحيح فهو يفزع إلى النحو والصرف وما يتصل بهما يحاول أن يفسر آراءه ومشاكله كقوله[1] :

« لا أختار شبه الظالمين ، فإن الشيئين يتشابهان ، فينقلهما التشابه إلى الاتفاق كإنّ المكسورة المشددة أشبهت الأفعال فجاء بعدها اسمان آخرهما كالفاعل وأولهما كالمفعول ، وكذلك ما قاربها من الأدوات ، لا تجعلنى ربّ معتلا كواو يقوم ولا مبدلا كواو موقن تبدل من الياء ، ولا أحب أن أكون زائداً مع الاستغناء كواو جدول وعجوز ، فأما واو عمرو فأعوذ بك ربّ الأشياء ، إنما هى صورة لا جَرْس لها ولا غناء مُشْبِهها لا يحسَبُ من النَّسمات » .

وبين أن هذه الفقرة لا يستطيع أن يفهمها إلا من درس النحو والاشقاق

(١) الفصول والغايات ١/١٤٢ .

وعرف ما يقوله النحويون عن إن وأنها تشبه الأفعال لبنائها من ثلاثة أحرف ، ثم ما يقولونه فى الصرف عن الإعلال والإبدال ، وما يقولونه عن وزن الأسماء وحروف الزيادة . وكأنما سُدَّتْ أمامه جميع طرق التعبير ، فهو يلجأ إلى هذه الأشياء يحاول أن يفتح بها الأبواب المنسدة ، وأنها لتنفتح على هذه الكُلَف التى لم يكن يعرفها النثر على هذا النحو قبل أبى العلاء ، ولكن ما لأبى العلاء والكتَّاب من قبله ؟ إنه يريد أن يتفوق عليهم ، وهو يجد هذا التفوق فى مثل هذه الصور التى لم يكن يلجأ إليها الكتاب السابقون لأنهم كانوا يفهمون الفن فى كتابتهم بصورة أخرى ، كانوا يفهمونه على أنه تنميق وزخرف ، أما عند أبى العلاء فقد تطور الزمن وأصبح الفن يُفْهم على أنه قبل كل شىء عقد وكلف ، واستمعْ إليه يقول فى فقرة أخرى[١] :

« ألتفت إلى ذنوبى فأجدها متتابعة كحركات الفاصلة الكبرى ، واستقبل جرائم تَتْرَى ، طوالا كقصائد الكُمَيْت الأسدىّ ، مختلفة النظم كقصيدتى عَبيد وعدىّ ، وأجدنى ركيكاً فى الدين ، ركاكة أشعار المولدين سبقتهم الفصاحة وسبقوا أهل الصنعة ! وأعمالى فى الخير قصار ، كثلاثة أوزان رفضها المتجزِّلون فى قديم الأزمان ، ولا بد للوتد من حَذّ ، والسبب من جذّ[٢] ، ورب فَرِحٍ ، طُوِى طىّ المُنْسرح[٣] ، فارحمنى ربّ إذا صرتُ فى الحافرة ، كالمتقارب وحيداً فى الدائرة ، وهجرنى العَالَمُ هجْر النون العجُمات »[٤] .

أرأيت كيف يجنح أبو العلاء إلى علم العروض يستمد من مصطلحاته ما يُغرب به على الناس فى نسيج فصوله وغاياته ؟ ! ولا يكتفى بذلك ، بل نراه

---

(١) نفس المصدر ١/ ١٣١ .

(٢) الوتد : جزء التفعيلة المكون من حرفين بعدهما أو بينهما ساكن ؛ والحذ : القطع وهو حذف وتد من التفعيلة كحذف علن من متفاعلن فى الكامل . والسبب : جزء التفعيلة المكون من حرف متحرك بعده ساكن أو متحرك مثله ، والجذ : القطع ، ويقصد حذف السبب مثل تن فى فاعلاتن .

(٣) الطى : حذف الرابع الساكن من مستفعلن فى المنسرح فتصبح مستعلن .

(٤) النون : الحوت . العجمات : مجامع الرمل .

يشير إلى قصائد الكميت وما اشتهرت به من طول ، كما يشير إلى قصيدتين لعَبيد وعَدِىّ عُرفتا باضطراب الوزن ، وهما على الترتيب (أقْفَرَ من أهله مَلْحوبُ) و (قد حان أن تصحو لو تُقْصِر) كما يشير إلى الأوزان الثلاثة التى استحدثها الشعراء ولم يستخدمها القدماء وهى المجتث والمقتضب والمضارع ، أما الدائرة التى يشير إليها فهى إحدى دوائر الخليل واضع علم العروض ، إذ جعل كل مجموعة من أوزان الشعر فى دائرة وأفرد المتقارب بدائرة على حدة . ولكن أين نحن الآن ؟ لقد فارق النثر طبيعته وأصبحنا نقرأ فى الصحيفة منه بل فى الفقرة ، فإذا بنا نضطر إلى أن نعرض لأشياء لا تتصل بدوائر الفن من حيث هو وإنما تتصل بعلوم اللغة . وهذا هو معنى ما نذهب إليه من أن أبا العلاء عقّد لغته فى نثره تعقيداً شديداً ، فقد أخذ النثر يستحيل عنده إلى هذه الصورة المعقدة الملتوية ، فإذا صاحبه يلجأ إلى مصطلحات من العلوم يسلكها فى عمله ، وإنا لنعجب الآن كيف غلا أبو العلاء فى تعقيد فنه كل هذا الغلو ، ولكن هذا العجب يزيله من نفوسنا أن نعرف أن الفن فى النثر العربى تطور أخيراً إلى هذه الصور من التصعيب فى الأداء ، وكأنما جفت المنابع التى تؤهل له صورة صحيحة من الزخرف إذ انتقل إلى هذه الصورة المعقدة من استخدام مصطلحات العلوم فإن تركها أبو العلاء فإلى الألفاظ المهجورة والأمثال والإشارات المرموزة . ويستخدم أبو العلاء الجناس ولكننا نحس عنده أنه فارق صورته القديمة إلى صورة هندسية جديدة ، إذ أصبح عقداً خالصة أو ما يشبه العقد الخالصة ، لا لسبب إلا لأنه كان يطالبه دائماً فى اللفظ الغريب المتعمق فى الإغراب ، كأنما الإغراب شىء يقصد لذاته ، واستمع إلى هذه الفقرة القصيرة [1] .

« بِلْ يا جَفْنُ ، وابْلَ ياجسم ، وأبْلِى يانفس ، يُبِلَّ من المرض الدِّين ، ليس يَبَلُّ عند الله أبلُّ ، فاطْوِ صديقاك على بُلَّتِه ولاتثق بلابس حُبُلات » .

هل يقع فى ذهنك أنك تقرأ الآن نثراً كالنثر المألوف لك ؟ طبعاً لا ، فإن

---

(١) الفصول والغايات ١ / ١٤٦ .

هذا نثر جديد من صُنْع أبى العلاء، وإن الإنسان ليحس إزاءه كأنه يقرأ مادة من مواد لسان العرب، قد مَثَّل لها ابن منظور بأمثلة مختلفة باختلاف استخدام الكلمة، ولكن فكِّر قليلا فسترى أن أبا العلاء لم يعمد إلى هذا اللعب إلا لأنه يريد أن يعرض عليك أوسع صور للجناس فى هذه العبارات، وإنه ليذهب بعيداً فى الإتيان بجناساته إذ يبدأ بكلمة «بِلْ» وهى من وبل يبل أى يسقط ويهطل، ثم يثنى بكلمة «ابْلَ» وهى من بلى يبلى، ويثلث بكلمة «وأبْلِى» وهى من أبَل الوحش إذا اجتزأ بالكلأ عن الماء يريد: امتنعى عن المحارم أيتها النفس، ويستمر أبو العلاء فيأتى بكلمة «يَبِلّ» وهى بمعنى يبرأ ويصح، ثم يأتى بكلمة «يَبَلّ» وهى بمعنى يظفر، أما الأبلّ فهو الخبيث، وأما قوله: «اطو صديقك على بُلَّته» فمثل يُضْرَبُ فى السِّقاء يُطْوَى وهو مُبْتَلٌ، فإن بلله أبقى له. وقد ختم الفقرة بكلمة «حُبُلات» وهى ضرب من الحلى. وواضح ما فى ذلك كله من العنت فى الإغراب والتعقيد الشديد.

والحق أن أبا العلاء يعتبر فى نثره مرحلة قائمة بنفسها فى تاريخ لغتنا العربية، فقد أخذ هذه اللغة من أيدى سابقيه فلم يقف بها عند الصورة التى تركوها بل خرج بها إلى مذهب التصنع الجديد، ولكنه حين خرج إلى هذا المذهب أوغل فيه إيغالا لم يوغله أحد من قبله، بحيث يمكن أن يقال إن المذهب ابتدأ به وانتهى به أيضاً، فقد عقَّد لغة نثره تعقيداً لم يقع فى وهم أحد لا من سابقيه ولا من معاصريه حتى لتتحول جوانب من أعماله إلى ما يشبه الألغاز والأحاجى، وما من شك فى أن معرفته الواسعة باللغة وألفاظها المستعملة والمهجورة ساعدته على كل ما يطمح إليه فى هذا الصدد وإنها لمساعدة تخرج بجوانب كثيرة من آثاره إلى ما يشبه المعاجم، فهى متون لغوية قبل أن تكون متوناً أدبية أريد بها إلى اللغة قبل أن يراد بها إلى الفن، وذهب أبو العلاء يعقد هذه المتون ويصعبها بكل ما يستطيع من أدوات ووسائل، وهل هناك أداة أو وسيلة لا يحسنها أبو العلاء؟ إن اللغة مسخرة له، وهذه ألفاظها المهجورة يستطيع أن يتخذ منها ما يريد من مواد لبناء نماذجه، وإنه ليغرب فى هذه المواد ما شاء له هواه حتى يقع

على كل ما يمكن من طرائف الفن فى رأيه أو قل طرائف التعقيد والتصعيب وهل هناك طُرْفة من كُلْفة أو عقدة لا توجد فى عمله ؟ أتريد الجناس المعقد أو تريد الأمثال المبهمة أو تريد الإشارات المرموزة أو تريد مصطلحات العلوم ؟ إن كل ذلك تجده مجموعاً فى عمله على نحو لم نألفه من قبله ولا من بعده ، فقد عجز من جاءوا بعد أبى العلاء عن أن يحملوا عنه مَذهب التصنع كما تركه فى هذه العقد والمنحنيات الكثيرة ، وسنقف عند كاتبين جاءا على أثره وهما الحريرى والحَصْكفى لنتبين صورة المذهب بعد أبى العلاء تبيناً دقيقاً .

٥

الحريرى وتعقيده

هو القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى ، وُلد بضاحية من ضواحى البصرة تسمى المَشان[١] عام ٤٤٦ هـ ، وتوفى فى عام ٥١٦ هـ[٢] ، ولما شَبَّ ذهب إلى البصرة حيث «سمع الحديث وقرأ الأدب واللغة»[٣] . وسرعان ما أصبح بفضل فطنته وذكائه صاحب الخبر فى ديوان الخلافة ، وهى وظيفة تشبه وظيفة «مصلحة الاستعلامات» فى العصر الحديث[٤] ، واستمرت هذه الوظيفة فى أولاده إلى آخر العهد المقتفوى نحو سنة ٥٥٦ هـ إذ زار العماد الأصبهانى البَصرة ورأى أولاده يقومون عليها[٥] . وكان الحريرى يسكن فى البصرة بمحلة بنى حرام[٦] ، وكان قبيحاً دميم الخلقة قذراً فى لبسته وهيئته مُبْتلى بنتف لِحْيته[٧] . ومن الطُّرف التى تُرْوَى بصدد ذلك «أن رجلا قصده ليقرأ

(١) معجم الأدباء طبع مصر ٢٦١/١٦ .
(٢) نفس المصدر ٢٦١/١٦ .
(٣) المنتظم لابن الجوزى ٢٤١/٩ .
(٤) انظر تاريخ الطبرى القسم الثالث ص ١٢٦٠ .
(٥) انظر الخريدة للعماد الأصبهانى (قسم العراق – تحقيق محمد بهجة الأثرى) ٦٠١/٢/٤ .
(٦) معجم الأدباء ٢٦١/١٦ والخريدة ٦٠١/٢/٤ .
(٧) معجم الأدباء ٢٦٢/١٦ .

عليه ، فاستدل على مسجده الذى يقرأ فيه ، فلما أراد الدخول ، رأى شخصاً دميم الخلقة ، فاحتقره ، وقال : لعله ليس هو هذا ، فرجع ، ثم قال فى نفسه : لعله يكون هذا ثم استبعد أن يكون هو ، والشيخ يلحظه ، فلما تكرر هذا منه ، تفرَّس الشيخ فيه ذلك ، فلما كان فى المرة الأخيرة ، قال له : ارحَلْ ، فأنا من تطلب ، أكبر من قِرْد محنَّك »[١] ، وربما كان هذا القبح هو الذى ولَّد فيه ميله إلى الدعابة فى أعماله وآثاره .

وكان مما خفف قبح الحريرى أنه كان ذكيًّا ذكاء شديداً يقول ابن الجوزى : « إنه فاق أهل زمانه بالذكاء والفطنة »[٢] ، ويقول العماد الأصبهانى : « طلعت ذكاء ذكائه فى المغرب والمشرق ، وامتلأ ببضائع فوائده ، ونواصع فرائده حقائب المُشْئِم والمُعْرِق »[٣] ، ويقول يا قوت : « كان غاية فى الذكاء والفطنة »[٤] واستغل هذا الذكاء فى جانبين ، أما الجانب الأول فالأدبُ شعره ونثره ، وقد ترك فى هذا الجانب مجموعة من الشعر كما ترك مجموعة من الرسائل ، وأيضاً فإنه ترك أهم مجموعة أُلِّفت فى المقامات ، وأما الجانب الثانى فهو جانب التأليف فى النحو ، إذ نراه يترك — كما يقول ياقوت — كتاب « ملحة الإعراب » وهى قصيدة فى النحو ، كما يترك كتاب شرح ملحة الإعراب ، وأيضاً فله كتاب « درّة الغوّاص فى أوهام الخواصّ » ، وهو معروف .

على أن الحريرى إنما اشتهر بجانبه الأول ، إذ يعتبر أهمّ كاتب ظهر فى المشرق بعد أبى العلاء ، وقد نال شهرة مدوية فى عصره وبعد عصره ، لما كان يقوم به من عناية بآثاره عناية تُحيلها إلى ضروب خالصة من الزخرف والوشى الأنيق حتى ليقول العماد الأصبهانى : إنّ « وَشْى بلاغة الحريرى ذهبى الطراز ، سَحْبانى الإعجاز قُسّى الإسهاب والإيجاز ، ومتى قدَرقُسّ على ترصيع كلمه ، وتصريع حكمه ، حريرى الوَشْى ، عراقى الوشْم ، لؤلؤى النظم ، كلامه يتيمة

---

(١) طبقات الأدباء لابن الأنبارى ص ٤٥٦ .

(٢) المنتظم : القسم الثانى من المجلد السابع ورقة ٤٨٧ .

(٣) الخريدة ٤/٢/٦٠٠ .

(٤) معجم الأدباء ١٦/٢٦٢ .

البحر ، وتميمة النَّحْر»[١]. ولكن لا تظن من وصف العماد أن الحريرى كان من ذوق أصحاب التصنيع ، فقد انتهى هذا المذهب فى المشرق وانتهى أنصاره وحل محله مذهب جديد هو مذهب التصنُّع ، وهو مذهب كان يعتمد على التلفيق ، والتعقيد ، وإحالة الزخرف القديم إلى أشكال هندسية جديدة ، وقد تشبث أصحابه بزخرف الجناس واستخرجوا منه كل ما يمكن من عبث وعقد على صور مختلفة .

والحريرى لم يكن يشذ على هذا المذهب الجديد ، بل كان ينساق فيه وفيما اقترحه أبو العلاء من تصعيب وعرف القدماء ذلك فقالوا إنه يستعير منه بعض صوره[٢] ، ولكن ليس هذا هو الجانب المهم ، فقد استعار منه كثيراً من عقده التى بثَّها فى أعماله وخاصة عقدة الجناس ، إذ ذهب يستعين بها فى تعقيد فنه تعقيداً شديداً . وإن من يرجع إلى ما اقتبسه العماد الأصبهانى فى خريدته وياقوت فى معجمه من رسائله يجد ظاهرة التعقيد واضحة فيها ، وقد رويا له جميعاً رسالتين غريبتين بناهما جميعاً على حرف واحد ، أما الأولى فبناها على حرف السين ، ولذلك سميت بالرسالة السينية ، وأما الثانية فبناها على حرف الشين ، ولذلك سميت بالرسالة الشينية ، وكتب الأولى على لسان بعض أصدقائه يعاتب صديقاً له أخلّ به فى دعوة دعا غيره إليها ، وهو يستهلها على هذا النمط[٣] .

« باسم القُدُّوس أستفتح ، وبإسعاده أستنْجح ، سَجِيَّة سيدنا سيف السلطان سُدَّة سيدنا الإسْفِهْسِلاّر ، السيد النفيس سيد الرؤساء حُرِست نفسُه ، واستنارتْ شمسه وبَسَق غرسه ، واتسق أنسه ، استمالةُ الجليس ، ومساهمة الأنيس ، ومواساةُ السحيق والنسيب ، ومساعدة الكسير والسليب ، والسيادة تستدعى استدامةَ السُّنَن ، والاستحفاظ بالرسم الحسن ، وسمعتُ بالأمس

(١) الخريدة ٤/٢/٦٠٠ .
(٢) نقد مقامات الحريرى لابن الخشاب طبع المطبعة الحسينية ص ٨ .
(٣) الخريدة : ٤/٢/٦١٦ وانظر معجم الأدباء ١٦/٢٧٦ .

تدارسَ الألسن سُلافة خَنْدَرِيسه ، فى سلسال كئوسه ، ومحاسن مجلس مسرته ، وإحسان سُمْعة سيادته ، فاستسلفت الاستدعاء ، وتوسمت السَّرَّاء ، وسَوَّفت نفسى بالاحْتِساء ، ومؤانسة الجلساء ، وجلست أسْتَقْرِى السبل ، وأستطلع الرُّسُل ، وأستبعد تناسى اسمى ، وأسامر الوساوس لاستحالة رَسمى[١] . . . وحسبنا السلام وسلامه على رسول الإسلام » .

أرأيت إلى هذه المقدرة الجديدة عند الحريرى ؟ لقد حكاها العماد فى شيء من الدهشة والإعجاب وحق له فقد كان ذلك ذوق عصره ، بل لقد كان ذوق الكتاب منذ أبى العلاء ، فهم يبحثون عن كل صعوبة فى الأداء يجتذبونها إلى آثارهم ونماذجهم كى يدلوا على مهارتهم وبلاغتهم ، ولكن أى مهارة وبلاغة هذه ؟ لقد أصبحت النماذج الأدبية أشبه ما تكون بعمل عمال المطابع إذ يرصون الكلمات بعضها بجانب بعض ، فتتكون صناديق من الكلمات ولكن لا يتكون شعور ولا إحساس ، وأى إحساس وشعور فى مثل هذه الرسالة التى شُغل فيها الحريرى بأن يجمع ألفاظاً من ذوات السين ويرصّها على هذا النمط ، فإذا بنا نقرأ سينيات ، لا أفكاراً ولا شعوراً ، وإنما كلمات بنيت بناء من حرف السين ! وما من ريب فى أنه كان يريد بذلك أن يدل على مدى تفوقه على معاصريه فى استخدام طرق مذهب التصنع ، وإنه ليبحث عن طرق جديدة فإذا هو يهتدى بعد البحث إلى هذه الفكرة البديعة ، وهى أن يؤلف رسالة سينية وأخرى شينية ليثبت مقدرته وبراعته ، وانظرْ إليه كيف يسوق رسالته الشينية التى كتب بها إلى طلحة بن محمد النعمانى الشاعر لما قصده فى البصرة يمدحه ويشكره ويتأسف على فراقه[٢] :

« شغفى بالشيخ شمس الشعراء رِيشَ معاشه ، وفشا رِياشُه[٣] وأشرق شهابه ، واعشوشبتْ شعابُه[٤] ، يشاكل شغف المنتشى بالنشوة ، والمرتشى بالرشوة ، والشادن

---

(١) استحالة رسمى : يقصد تغير المعتاد .

(٢) الخريدة ٦١٩/٢/٤ ومعجم الأدباء ٢٧٨/١٦ .

(٣) الرياش : الثياب الفاخرة . ريش : زين .

(٤) اعشوشبت شعابه : كثر عشب نواحيه .

بشَرْخ الشباب، والعطشان بشَبِم الشراب، وشكرى لتجشمه ومشقته، وشواهد شفقته، يشابه شكر الناشد للمنشد، والمسترشد للمرشد، والمستبشر للمبشّر، والمستجيش(١) للجيش المشمّر، وشعارى إنشاد شعره، وإشجاء المكاشر والمكاشح بنَشْره، وشغلى إشاعة وشائعه، وتشييد شوافعه(٢)، والإشادة بشُذوره وشفوفه، والمشورة بتشفيعه وتشريفه، وأشهد شهادة تشده المقشّر المكاشف(٣)، والمشنّع الكاشف لإنشادُه يُدهش الشائب والناشى، ويُلاشى شعر الناشى(٤) ولمشافهته تباشيرُ الرشد، واشتيار الشَّهْد(٥)، ولمشاحنته تشقى المشاحن؛ وتنشر المشاين، ولمشاغبته تُشَظّى الأشْطان(٦)، وتُشيط الشيطان، فشرفاً للشيخ شرفاً، وشغفاً بشِنْشِنَتِه شغفاً :

فأشعارُه مشهورةٌ ومشاعرُهْ وعشرته مشكورةٌ وعشائره(٧)
شأى الشعراء المشمعلّين شعْرُهُ فشانيه مشجوُّ الحشا ومُشاغِره
وشوَّه ترقيش المرقِّش رَقْشُهُ فأشياعه يشكونه ومَعاشره

وأشهد شهادة شاهد الأشياء، ومُشْبع الأحشاء، ليُشْعلن شُواظ اشتياقى شَحْطُه، وليُشعثنَّ شمْل نشاطى نشْطه، فناشدت الشيخ أيشعر باستيحاشى لشُسوعه، وإجهاشى لتشييعه، ووشايتى بنشيده المَوْشى، وتشكلى شخصه بالإشراق والعَشىّ، حاشاه تعتشيه(٨) شُبْهة وتغشاه، فليستشفَّ شَرْح شَجْوِى بشطُونه، وليرشّحنى لمشاركة شُجونه... عاش منتعش الحشاشة، مُستَشرَى(٩) البشاشة، مشحوذ الشِّفار، مُنْتشر الشَّرار، شتَّاماً للأشرار، شحَّاذاً بالأشعار، يَشْرُخُ ويحوش، فينتفش المنقوش ...».

---

(١) المستجيش : مجمع الجيش.

(٢) شوافعه : شفاعاته، وشائعه : طرائقه.

(٣) المقشر : المجرح. المكاشف : المعلن ما عنده.

(٤) الناشى الأولى بمعنى الصغير والثانية إشارة إلى شاعر عباسى يسمى الناشىء.

(٥) اشتيار : جنى.

(٦) تشظى : تفرق. الأشطان الحبال.

(٧) شأى : سبق. المشمعل : الفائق. مشاغر : معادى.

(٨) تعتشيه : تقصده.

(٩) مستشرى : قوى.

ونحن لا نشك فى أن الحريرى استحوذ على إعجاب معاصريه بهذه الطرفة الغريبة ، كما استحوذ على هذا الإعجاب بطُرْفته السابقة، وهل يستطيع أحد أن يجرى على هذه السنة الحريرية ، فإذا هو يؤلف رسالة من حرف واحد؟ وإن نفسه ليمتد على هذا النحو الذى نجده فى تلك الرسالة الشينية ، وليس كل ما فى هذه الرسالة من تعقيد ، هو هذا الإغراب فى بنائها على حرف واحد ، فهناك عقد أخرى خلف هذه العقدة لا بد أن القارئ لاحظها ، ولعل فى رأس هذه العقد التزامه مالا يلزم فى نهاية أسجاعه ، إذ كان يتقيد غالباً بحرفين أو أكثر ، وأيضاً فإنه عنى بالجناس على جميع صوره ، إذ نراه يحشد جناس الاشتقاق بكثرة كما يحشد الجناس الناقص بوفرة، وإنه ليعدل فى أثناء ذلك إلى ضروب من اللفظ الغريب كما نرى فى الكلمات التى ختم بها الرسالة : يشرخ ويحوش ويقنفش ؛ ومعانيها على الترتيب : يعلو ويظفر ويجمع. وأكبر الظن أننا قد تعرفنا الآن على فن الحريرى ، وهو فن يندمج فى مذهب التصنع وما اقترحه له أبو العلاء من عقد مختلفة، وإن الحريرى ليحاول أن يأتى ببعض عقد جديدة، فإذا هو يقع على هذه الفكرة وهى أن يبنى كلمات رسالته من حرف واحد ، ولكن لا تظن أن هذا هو كل ما عند الحريرى فإن رسائله لم تستوعب جميع ألوان مهارته فى هذا الجانب ، إنما الذى استوعب مهارته حقًّا هو مقاماته .

٦

التعقيد فى مقامات الحريرى

تُعَدُّ مقامات الحريرى أهمَّ نموذج أدبى ظهر فى العصر العباسى بعد نماذج أبى العلاء ، وقد أخذ الناس يشيدون بها منذ ظهورها ، وعبَّروا عن هذه الإشادة بعبارات مختلفة ، لعل من أطرفها ما جاء عن الزمخشرى وكان يعيش فى عصر الحريرى تقريباً ، إذ يقول[1] :

---

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (طبع دار الكتب) ٥/٢٢٥ .

أقسمُ بالله وآياتـهِ ومَشْعر الحج وميقاتهِ
إن الحريرىَّ حرىٌّ بأن نكتب بالتِّبْر مقاماتـهِ

أما ياقوت فيقول: إن الحريرى « أبرَّ بكـتاب المقامات على الأوائل وأعجز الأواخر »[(١)] ، ويقول أيضاً : لقد وافق كتابَ المقامات (للحريرى) من السَّعْد ما لم يوافق مثله كتاب ؛ فإنه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة ، واتسعتْ له الألفاظ وانقادت له البراعة . . حتى لو ادّعى بها الإعجاز لما وُجد من يدفع فى صَدْره ولا من يرد قوله ولا يأتى بما يقاربها فضلا عن أن يأتى بمثلها ، وقد رُزقت — مع ذلك — من الشهرة وبُعْد الصيت والاتفاق على استحسانها من المُوافق والمخالف ما استحقت وأكثر »[(٢)] ، ويقول ابن خلكان : إن الحريرى « رُزق الحَظْوة التامة بعمل المقامات »[(٣)] ، وبينما يشيد هؤلاء بعمل الحريرى فى مقاماته نجد آخرين يحطّون من هذا العمل وعلى رأسهم ابن الطقطقى ، إذ زعم أن المقامات البديعية والحريرية تصغر الهمة لأنها بنيت على السؤال والاستجداء والتحيُّل القبيح[(٤)] . والطريف أن الحريرى أشار فى مقدمة مقاماته إلى أنه سيغضُ منها بعض الناس إذ يقول : « إنى وإن أغمض لى الفَطن المتغابى ، ونصح عنى المحبُّ المحابى ، لا أكاد أخلص من غُمْرٍ جاهل ، أو ذى غِمْرٍ (حقد) متجاهل ، يَضع منى لهذا الوضع ، ويندد بأنه من مَناهى الشَّرْع ، ومن نقد الأشياء بعين المعقول وأنعم النظر فى مبانى الأصول ، نظم هذه المقامات ، فى سلك الإفادات ، وسلكها مسلك الموضوعات ، عن العجماوات والجمادات ، ولم يُسْمَعْ بمن نبا سمعه عن تلك الحكايات »[(٥)] . وواضح أن الحريرى يحتج على صواب عمله بكتاب كليلة ودمنة وأمثاله من القصص التى بُنيت على الحيوان ، فإن أحداً لم يذمّها لما فيها من حكم وآداب ، ولكن هل يُفْهَمُ من ذلك أنه قصد إلى بَثّ

---

(١) معجم الأدباء ١٦/٢٦٢ .
(٢) نفس المصدر ١٦/٢٦٧ .
(٣) وفيات الأعيان (طبع المطبعة الميمنية) ١/٤١٩ .
(٤) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠ .
(٥) مقامات الحريرى مع شرح الشريشى (الطبعة الثانية ببولاق) ١/١٨ .

معان أخلاقية فى مقاماته ؟ إنمن يقرأها قلما يرى شيئاً من ذلك إلا فى المقامة الدمشقية والمقامة الساويّة ، ويظهر أنه كان مشغولا عن هذه المعانى بتدبيج أساليبه وتحبيرها .

وتبلغ عدة مقاماته خمسين وهى كمقامات البديع ، كلها حكايات درامية تفيض بالحركة التمثيلية وإن كان الحريرى لم يقصد بها إلى القصص من حيث هو ، وإنما قصد بها إلى تعليم الناشئة الأساليبَ الأدبية . وقد بناها على الرواية إذ يروى الحارث بن همام أحاديثها ، ويقول ابن خلكان : إنه عَنَى بهذا الحارث نفسه أخذاً من قوله صلى الله عليه وسلم : « كلكم حارث وكلكم همَّام » والحارث : الكاسب ، والهمام : كثير الاهتمام [١] . أما الأديب المتسول الذى تُروَى عنه المقامات والذى يقابل عند الحريرى أبا الفتح الإسكندرى عند بديع الزمان ، فهو أبو زيد السروجى ، وهو من أهل الكُدْية الذين احترفوا التسول متخذين وسيلتهم إلى ذلك الخلْب بصوغ اللسان وسحر البيان . وصوّر الحريرى فى المقامة الساسانية دواعى هذا التسول ودوافعه ، ويزعم ياقوت [٢] وكذلك ابن خلكان [٣] أن شخصية أبى زيد شخصية حقيقية ، ولكن الباحثين المحدثين يتهمون ذلك ويردّونه [٤] ، لأنه لا مبرر له ، وما أبو زيد إلا كأبى الفتح الإسكندرى صاحب بديع الزمان ، بل كأىّ بطل لقصة أخرى ، ليس من الضرورى أن يكون معبراً عن حقيقة خلفه .

والمعروف أن الحريرى استهلّ كتابة مقاماته بالمقامة الثامنة والأربعين وهى المسماة باسم المقامة الحرامية ، ثم أخذ فى كتابة بقية المقامات [٥] ، وقد بدأ فى هذا العمل عام ٤٩٥ هـ ، وانتهى منه عام ٥٠٤ هـ [٦] ، وأقرّ فى مقدمتها بأن الذى أشار عليه بكتابتها شخص « إشارته حكم وطاعته غُنْم » [٧] وهو

---

(١) وفيات الأعيان ١/٤٢٠ .

(٢) معجم الأدباء ١٦/٢٦٣ وكذلك ص ٢٧٢ .

(٣) وفيات الأعيان ١/٤١٩ .

(٤) انظر فى دائرة المعارف الإسلامية ترجمة الحريرى ومادة مقامه .

(٥) معجم الأدباء ١٦/٢٦٣ .

(٦) معجم الأدباء ١٦/٢٨٣ .

(٧) مقامات الحريرى مع شرح الشريشى ١/١١ .

السياسى الفارسى المشهور أنو شروان بن خالد[١] الذى كان وزيراً تحت إمرة الخليفة المسترشد بالله والسلطان مسعود السلجوقى[٢] ، ورأى ابن خلكان على نسخة من المقامات كتبها الحريرى نفسه أنه صنفها لوزير آخر للمسترّشد يسمى ابن صدقة[٣] ، فشك فى الرواية الأولى التى تذهب إلى أن أنوشروان بن خالد هو الذى أشار عليه بها ، ولكن من يدرى ؟ ربما كانت المسألة لا تزيد على أن الحريرى كتب نسخة وأهداها إلى ابن صدقة ! ويقال إن الحريرى كتب خَطّه على سبعمائة نسخة من مقاماته قُرئت عليه[٤] ، وأكبر الظن أن اهتمامه بها على هذا النحو هو الذى حال بينها وبين البَتْر والحذف والتغيير ، ولذلك كانت مقاماته من هذه الوجهة أتم وأطرف من مقامات البديع التى تبدو مبتورة فى كثير من الأحيان .

ولعل أهم جانب تفترق به مقامات الحريرى من مقامات بديع الزمان هو أنها كُتبت فى ظلال مذهب التصنع وعقده ، بينما كتبت مقامات البديع فى ظلال مذهب التصنيع وزخرفه ، وليس معنى ذلك أن الحريرى لم يبن مقاماته على السجع ولا على وشى البديع ، بل لقد بناها على أساس هذه المواد ، ولكنه أخرجها فى صورة جديدة هى صورة مذهب التصنع وما يمتاز به من تصعيب الأداء ، إما بجلب أشياء غريبة عن دوائر الفن من حيث هو ، وإما بتعقيد ما يندمج فى هذه الدوائر من جناس وغير جناس ، وإما باستحداث طرق جديدة كالطريقة التى قابلتنا فى رسائله ، إذ وجدناه يبنى بعضها على حرف واحد ، ومن يرجع إلى مقدمة مقامات الحريرى يجده يقول فيها : إنها تحتوى على « ما وشّحتها به من الآيات ومحاسن الكنايات ، ورصّعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبّرة »[٥] . وهذا نفسه الذى يجعلنا نقول إن الحريرى عقّد أسلوب الكتابة

---

(١) معجم الأدباء ١٦/٢٦٣ ووفيات الأعيان ١/٤٢٠ .

(٢) Nicholson, Lit. Hist. of Arabs, p. 329.

(٣) وفيات الأعيان ١/٤٢٠ .

(٤) معجم الأدباء ١٦/٢٦٧ .

(٥) مقامات الحريرى مع شرح الشريشى ١/١٣ .

فى مقاماته ، فهو يعترف منذ السطور الأولى فيها بأنه سيوشحها بالآيات القرآنية ، وكان هذا التوشيح إحدى سمات أصحاب التصنع ، وهو ، لا شك مقصد جميل فى ذاته ، ولكنه يقترن بأشياء أخرى تتصل بتصعيب الأداء وتعقيده ، ولعل أول ما يلاحَظ من ذلك هو الكنايات التى يشير إليها الحريرى ، وإنها لتحيل كثيراً من جوانب مقاماته إلى ما يشبه الألغاز ، وارجعْ إلى المقامة التاسعة عشرة الملقبة بالمقامة النَّصِيبية تجده يكثر من الكنايات على نحو مبعد فى الإغراب ، إذ يكنى عن الموت بأبى يحيى ، وعن الجوع بأبى عمرة ، وعن الخوان بأبى جامع ، وعن الخُبْزِ الحوارى بأبى نُعَيم ، وعن الجَدْى بأبى حَبيب ، وعن الخل بأبى ثَقيف ، وعن المِلْح بأبى عَوْن ، وعن البَقْل بأبى جَميل ، وعن السِّكْباج بأم القُرى وعن الهريسة بأم جابر ، وعن الفالوذج بأبى العلاء ، وعن الطست والإبريق بالمُرْجِفَيْن وهو حقـًّا لا يكثر فى مقاماته الأخرى من هذه الكنايات ولكنها على كل حال موجودة فى جوانب كثيرة منها ، وهو كما يوشّح مقاماته بهذه الكنايات كى يعقد أسلوبها ، نراه يرصِّعها — كما يقول فى المقدمة — بالأمثال على نحو ما نجد فى المقامة الوبرية ، وقد قال إنه وضع فى المقامة الحجرية بضعة عشر مثلا[1] ، وكما عُنى بالأمثال عنى بالحكم على نحو ما نجد فى المقامة القهقرية . أما الأحاجى النحوية فقد خصَّص لها المقامة المسماة بالمقامة النحوية ، إذ عرض فيها طائفة من أحاجى النحو ومشاكله ، وكما عُنى بأن يخصص للنحو مقامة ، كذلك عنى بأن يخصص للفقه مقامة سماها المقامة الطَّيْبية ذكر فيها مائة مسألة فقهية .

أرأيت كيف تطور الفن فى النثر العربى وأنه أصبح يعتمد على أشياء لم نكن نألفها عند الكتّاب قديماً ؟ فإذا الحريرى يسلك فى مقاماته مسائل النحو والفقه كما يسلك فيها الكنايات والأمثال ، وكل ذلك ليقدم لمعاصريه طرائفه الجديدة ، وهو لا يقف عند ذلك ، إذ نراه يعمد — كما يقول فى مقدمته — إلى

(١) مقامات الحريرى مع شرح الشريشى ٣٧٨/٣ .

الفتاوى اللغوية من ذكر بعض الاشتقاقات والأبنية الغريبة ، ولعل ذلك ما جعل ابن خلكان يقول : إنها « اشتملت على كثير من كلام العرب من لغاتها »[١] ، وشكا الشريشي شارحها فى مقدمته من هذا الجانب فيها وصعوبته . وما من ريب فى أن ذلك يدلنا على أن الحريرى كان يبحث عن وسائل جديدة يوشّى بها عمله ، ولكنه حين اتجه هذا الاتجاه ضل سبيله ، فوقع فى هذه الطرق الغريبة من التصنع لشوارد اللغة أو شوارد الأمثال أو مسائل النحو أو مسائل الفقه أو غرائب الكنايات ، كأن اللغة العربية قد أجْدبت ولم تعد تستطيع أن تقدم من زخارف التعبير سوى هذه الطرق الملتوية المعقدة التى لا تتصل بالفن ولا بأى زخرف من زخارفه ، إلا إذا جعلنا التعقيد من حيث هو زخرفاً وفنّاً يقصد لذاته .

ويُشير الحريرى — فى مقدمة مقاماته — إلى رسائل مبتكرة وخطب محبّرة ، وإذا ذهبنا نبحث عن هذه الرسائل والخطب لنرى ما فيها من طرافة يُدِلُّ بها الحريرى ، وجدنا هذه الطرافة تستقر فى صور معقدة بل قل فى صور ملتوية ، إذ مضى يؤلف رسالة على هذا النمط[٢] :

« أخلاقُ سيدنا تُحَبُّ ، وبعَقْوته يُلَبُّ[٣] ، وقربه تُحَف ، ونأيه تَلَف ، وخُلَّته نسب ، وقَطيعته نَصَب ، وغَرْبه ذَلِق[٤] ، وشُهْبه تأتلق ، وظَلَفُه[٥] زان ، وقويم نَهْجه بان ، وذهنه قَلَّب وجَرَّب ، ونعته شَرَّق وغرب ... معاظم شرفه تأتلف ، وشُؤْبوب حِبائه يَكِف[٦] ، ونائل يديه فاض ، وشُحُّ قلبه غاض ، وخِلْفُ[٧] سخائه يُحْتلب ، وذَهَبُ عِيابه يَحْترب[٨] ، من لَفَّ لفه فَلَج وغَلَب ، وتاجرُ بابه جلَب وخلَب » .

والرسالة تمضى على هذا النحو الذى نرى فيه كل كلمة تتألف من حروف

---

(١) وفيات الأعيان ١/٤١٩ .

(٢) انظر الرسالة بأكلها فى المقامة المسماة بالرقطاء .

(٣) العقوة : الفناء ، يلب : يقام .

(٤) الغرب : حد السيف ، ذلق : حاد .

(٥) الظلف : العفاف .

(٦) الحباء : العطاء . يكف : يسيل .

(٧) الخلف : الضرع .

(٨) العياب : الحقائب . يحترب : يستلب .

منقوطة وغير منقوطة بحيث لا تتوالى بل دائماً تتفاصل هذا التفاصل الذى يجعل الطّرْف ينتقل بين حرف منقوط وغير منقوط ، أرأيت إلى هذا البدع الجديد بدع الحريرى ؟ وإنه لبدع يبرهن به على مقدرته ومهارته فى صوغ الكلام ولكن أى صوغ ؟ طبعاً هذا الصوغ المعقد فى الأداء، فإذا هو لا يستقيم فى كتابته ، بل يعوج هذا الاعوجاج الذى يتيح له مثل هذه الصعوبات والتعقيدات. وقد ألف خُطْبة — فى المقامة المسماة بالواسطية — من كلمات لا تشتمل على أى حرف منقوط ، وقدمها بقوله : إنها « لم تفتق رَتْق سمع ، ولا خُطب بمثلها فى جمع » . وليست هذه هى كل طرائف الحريرى ، فقد كان ما يزال يبحث عن طرائف جديدة يُظهر بها مهارته فى تعقيد أدائه بالقياس إلى من سبقوه وعاصروه ، وذهب يحاول محاولة غريبة ، هى أن يأتى بالجملة ثم يعكسها فى الجملة التالية ، وسمى ذلك فى المقامة المغربية ما لا يستحيل بالانعكاس ومثل له بقوله :

« لُمْ أخاً ملَّ ، كبِّرْ رجاءَ أجرِ ربِّك ، من يربُّ(١) إذا بَرَّيَنْمُ ، سكِّت كل من نمَّ لكَ تكس(٢) ، لُذْ بكل مؤمَّلٍ إذا لمَّ وملَّك بذَلَ » .

وهذه آخر صورة وصل إليها التعقيد عند الحريرى ، فقد ذهب يَقْلب تعبيراته هذا القلب لتطّرد له صورٌ من الألفاظ المتعاكسة فى عباراته ، وكأن ذلك هو ما يحرص عليه الفن فى أساليبه ! ولكن أى أساليب؟ إنها طبعاً أساليب التصنع وما يُطْوَى فيه من تعقيد وتصعيب فى طرق الأداء على هذه الهيئة ، فإذا الكاتب يفر من الأداء المستقيم إلى الأداء الملتوى ، لا ليدل على شىء سوى مهارته فى اللعب والعبث بالألفاظ ، وإنه لعبث ينتهى به إلى هذه الصورة الهندسية التى لا تحوى فناً ولا جمالا ، وإنما تحوى تعقيداً كأنما التعقيد غاية ينبغى أن يطلبها الكاتب فى آثاره وأعماله . ونحن فى الواقع نبحث عبثاً إذا حاولنا أن نجد كاتباً مهماً بعد أبى العلاء لا يركب مثل هذه الطرق الملتوية فى تعبيره الفنى ، إذ كانت هى المقاييس التى تقاس بها مقدرة الكاتب وبراعته . وليس معنى ذلك

---

(١) يرب : يصون الصنيعة . (٢) تكس : تكن كيسا .

أننا ننكر جمال مقامات الحريرى وتوفيقه فى كثير من جوانبها ، وإنما نريد أن نلاحظ هذه الملاحظة ، وهى أن خير نموذج أدبى قدمته لنا العصور التالية بعد أبى العلاء لم يستطع صاحبه أن ينفذ به إلى إعجاب الناس من حوله دون أن يضع لهم فيه ضروباً من التعقيد والتصعيب فى الأداء بجانب ما فيه من سجع رشيق وترصيع وبديع ، فقد مسح عليه لا بالتزامه ما لا يلزم فى نهاية سجعاته ، بل باستخدامه الواسع للكنايات والأمثال والمسائل النحوية والفقهية والشعبذة برسالة رقطاء وخطبة من ذوات الحروف المهملة وما يتصل بذلك من استخدام ما لا يستحيل بالانعكاس ، فإن هذه الجوانب كلها سقطت إلى عمله عن طريق مذهب التصنع الذى كان يعجب به وبأصحابه ، ومن الخطأ أن نبحث فى هذه العصور عن كاتب لا يستخدم مثل هذه العقد والطرق الملتوية فى فنه ، فقد كان ذلك الذوق العام للناس ، وكان الكاتب ما يزام يحتال على إرضاء هذا الذوق بصور وطرق مختلفة . وما من شك فى أن الحريرى كان يعرف ذلك معرفة دقيقة ، ومن أجله ذهب يُغْرب على الناس فى مقاماته بهذه المواد التى قدمناها حتى يظفر بإعجابهم ، وقد استمرت به رغبته تلك حتى استطاع أن يستحدث هذه الطُّرْفة الغريبة ، طُرْفة ما لا يستحيل بالانعكاس ، وهى طرفة تعبّر أبلغ تعبير عما انتهى إليه الفن لعصر الحريرى من تصعيب وتعقيد .

٧

الحصكفى وتعقيده

وإذا كنا قد التقينا فى القرن الخامس بالحريرى فإننا نلتقى فى القرن السادس بالحصكفى وهو يحيى بن سلامة خطيب ميافارقين « نشأ بحصن (كَيْفا) وقدم بغداد واشتغل بالأدب على الخطيب أبى زكريا التبريزى وأتقنه حتى مهر فيه . . ثم رحل عن بغداد راجعاً إلى بلاده ونزل ميافارقين واستوطنها وتولى بها الخطابة . .

وكان يتشيع ، وهو فى شعره ظاهر ، وتوفى سنة ٥٥١هـ وكانت ولادته فى حدود سنة ستين وأربعمائة »[١] . وتلمذة الحصكفى للتبريزى تجعلنا نلاحظ أنه اتصل بمدرسة أبى العلاء ، فقد كان التبريزى تلميذاً لأبى العلاء ، وعنه لقف الأدبَ الحصكفىُّ ، ومعنى ذلك أنه تلميذ غير مباشر لأبى العلاء ، ولذلك لم يكن غريباً أن يتأثر به فى كل ما كتب ، فهو يستنُّ بسننه ، إذ يعنى بتعقيد آثاره ، وهو تعقيد كان يعتبر الدليل الأول فى تلك العصور على مهارة الكاتب وبلاغته . ومن يقرأ ما كتبه العماد الأصبهانى عنه فى الخريدة يجده يُشيد به وبطريقته الفنية إشادة عظيمة إذ يقول فى مقدمة ترجمته : « علاّمة الزمان فى علمه ، ومَعَرِّى العصر فى نثره ونظمه ، بل فضَل المعرى بفضله وفهمه ، وبَذّ الحريرى برقة طبعه ، وقوة سجعه ، وجودة شعره ، وغزارة أدبه ، وانفراده بأسلوبه فى الشعر ومذهبه . له الترصيع البديع ، والتجنيس النفيس ، والتطبيق والتحقيق ، واللفظ الجزل الدقيق ، والمعنى السهل العميق ، والتقسيم المستقيم ، والفضل السائر المقيم ، والمَذهب المذهّب ، والقول المهذَّب ، والفهم الشهم ، والفكْر البِكر ، والقافية الشافية ، كأنها العافية ، والمعيشة الصافية ، والروىّ الروىّ ، والزَّنْد الورَىّ والخاطر الجرىّ ، الجامع فى الوزن ، بين در الحزن ودَرّ المزن ، تود الشِّعْرى لو أنها شعار شعره ، والنثرة أنها نثار نثره ، والزهرة أنها كوكب سمائه ، والمشترى أنه مشترى ثنائه . غَنِيَتْ الغانياتُ عن قلائدهن بفرائده ، وأحبت الحصور أن توشح عوض مناطقها بدُرِّ منطقه ، وحسدت عيونُ الغوانى عيونَ معانيه ، غبطت أحداقُ الحسان أحداق محاسنه وحدائق قوافيه ما فارق ميافارقين ، بل كان منزله محطّ رحال المسترشدين »[٢] . وفى دار الكتب قطعة مخطوطة من نثر الحصكفى وشعره ، ومن ينظر فيها يحس العلاقة الوثيقة بينه وبين أبى العلاء ويهمنا هنا أن نعرض لنثره وهو ينساق جملة فى طريقة أبى العلاء وحتى ما عند أبى العلاء من تشاؤم نجده عند الحصكفى ، وقد أهلّ له تشيعه كما أهلت له

---

(١) وفيات الأعيان ٢٣٧/٢٠ وانظر معجم الأدباء ١٨/٢٠ .

(٢) الخريدة : (قسم شعراء الشام – طبع المجمع العلمى العربى بدمشق) ٤٧٢/٢ .

وظيفة الخطابة وما تجر إليه من وعظ دينى ، ومع ذلك فله شعر فى الخمر ، وربما صنعه من باب التقليد ، ومن شعره الطريف قصيدة كتب بها إلى كمال الدين الشهرزورى بالموصل بدأها بقوله :

أداروا الهوى صِرْفًا فغادرهم صَرْعَى فلما صَحَوا من سكرهم شربوا الدمعا

وأول رسالة تلقانا من مجموعة الحصكفى المخطوطة رسالة سماها الكُدْرية أرسلها إلى أصدقائه بآمد ، وقد كتبها على لسان قطاتين تتناجيان ، وفيها إغرابُ أبى العلاء وبعد إشاراته . وله رسالة طويلة كتبها على لسان قَصَّار وصياد لمداعبة بعض أصدقائه ويقول العماد : إنها « مقامة مصنوعة مجنسة »[1] . ولعل أهم ما يلاحظ فى كتابة الحصكفى أنها مليئة بالجناس وهو لا يكتفى بالجناس الطبيعى بل يجنح إلى الجناس الصناعى الملفق الذى تستخدم فيه الصور المعقدة ، واستمع إليه فى إحدى رسائله[2] :

« النفس بعقود التذرُّع حالية ، ولقعود التعذر حايلة ، ومن الودائع المعجزة مالية ، وإلى الدواعى المزعجة مايلة ، وفى بحار الحمد راسية ، وإلى رحاب المدح سارية ، تجمح إلى مواصلة القمر ، وتحجم عن مصاولة القَرِم ، لتكف بأظفار الأمل ، وتفك من أظفار الألم ، فهل كامل يـُعنى ، ومالك يعين ، ومقتصد يدنى ومتصدق يُدين ، فالرغبة إلى الشهب ، من الغربة فى الشُّبه ، رغبة من قصد بالإلهام ، مواقع السحاب الهام » .

أرأيت إلى هذه العبارات التى تتتابع فى إحدى رسائل الحصكفى على هذا النحو ، فإذا كل كلمة فى السجعة الأولى تعود فى السجعة الثانية ولكن مع شىء من القلب والعكس فى هيئتها وصورتها فإذا « عقود » فى السجعة الأولى تصبح « قعود » فى السجعة الثانية ، وإذا « التذرع » تصبح « التعذر » ، و « حالية » تصبح « حايلة » وهكذا السجعات التالية تُشْتق كل كلمة فى العبارة التالية من

(١) الخريدة (قسم شعراء الشام) ٢/٥١٥ .

(٢) انظر رسائل الحصكفى (نسخة مخطوطة بدار الكتب) ورقة ١٩ وانظر الخريدة (قسم شعراء الشام) ٢/٤٩٧ .

كلمة فى العبارة السابقة . وهذه هى مهارة الحصكفى التى أشاد بها العماد الأصبهانى فهو يستطيع أن يعقّد كتابته على هذا النحو ، فإذا هى تتحول إلى لعب وهى لعب كانت تستهوى الأدباء فى عصر الحصكفى استهواءً شديداً ولعل ذلك ما جعله يكثر من الجناسات على اختلاف ألوانها فى كتبه كقوله من رسالة أخرى[1] :

« فآنس أجمالا تُزَمّ ، وأحمالا تُضَمّ ، وأحوالا تَهول ، وأهوالا تحول ، وأوجالا تصول ، وأصوالا تجول ، وسمع تنادر القطّان بمفارقة الأوطان وتثويب الداع ، بوشك الوداع ، وللحُداة زَجل ، وعلى القوم عجل ، وقد بُنيت القباب ، وحُثَّت الركاب ، وفى الخدور أشباه البدور ، وتحت الأكِلَّة ، أمثال الأهلَّة ، وأيدى النَّوى لاعبة ، وغِرْبانه ناعبة ، والحىُّ قد طُرِق ، والصُّواع قد سُرِق ، وضمن مؤذِّن العِير ، لمن جاء به حملُ بَعير ؛ يا له من عامرى ، يئس من عامرىّ » .

وأنت ترى فى هذه القطعة ضروب الجناس المختلفة من ناقص ومعكوس ومقطوع وموصول ، وكل ذلك كان يأتى به الحصكفى ليثبت تفوقه ومهارته وأنه يستطيع أن يستخرج كل ما يمكن من عقد التصنع وصعوباته ، وكان الناس من حوله يعجبون بهذا التصنّع إعجاباً شديداً . ويظهر أنه كان يتأثر بالحريرى كما كان يتأثر بالمعرى ، إذ نراه يقلده فى صنع رسالة سينية[2] كسينيته التى مرت بنا ، وأيضاً فإنه صنع رسالة ألفها من الحروف المهملة[3] على نحو ما أشرنا إليه عند الحريرى فى خطبته التى ألفها من حروف غير منقوطة . وليس ذلك كل ما نلاحظ عند الحصكفى من تأثر بالحريرى ، فإن فى رسالته رسالة فقهية[4] ، قلّد فيها المقامة الفقهية عند الحريرى ، وهى التى تسمى المقامة الطيبية ، وبجانب ذلك نجده يؤلف مقامة كبيرة وقد افتخر بأنه ذكر فيها مائة وأربعين كلمة غريبة[5] . وما من ريب فى أن ذلك كله يدل على مدى

---

(١) رسائل الحصكفى ورقة ٢١ والخريدة (قسم شعراء الشام) ٢/٤٩٨ .

(٢) رسائل الحصكفى ورقة ٦٥ .

(٣) رسائل الحصكفى ورقة ٧٣ .

(٤) نفس المصدر ورقة ٥٠ .

(٥) نفس المصدر ورقة ١٠٧ وما بعدها .

ما كان يحاوله الحصكفى من تعقيد فى رسائله وآثاره ، وهو تعقيد دفعه إلى أن يجمع كل هذه الطرف فى أعماله حتّى يقع من معاصريه موقعاً بديعاً .

٨

التعقيد ظاهرة عامة

رأينا الحريرى والحصكفى يعقّدان كتابتهما ما استطاعا من تعقيد، ولم يكن هذا دَأبهما وحدهما ، بل كان دأب جميع الكتاب الذين خلفوا أبا العلاء فى المشرق ، إذ انتهت الأعمال الأدبية إلى بث صور التعقيد التى اقترحها .

ولم يعد هناك إلا أن يضيف الكتاب صوراً مماثلة عَلَّها تثبت تفوقهم ومهارتهم ، ونحن نقف عند صَدْر رسالة كتب بها أديب من غَزْنة أشاد به ياقوت فى معجمه ؛ وهو عطاء بن يعقوب بن ناكل وكان ينظم بالفارسية والعربية ، ويقول ياقوت فى وصف بلاغته : « تشرئبُّ إلى قلائده أجياد الأنام ، وتتباهى برسائله مواقع الأقلام ، ولم يزل منذ شَبَّ إلى أن اشتعل الشيب برأسه ، ورسب قَذَى العمر فى آخر كأسه ، بين اقتباس يصطاد به وحوش الشوارد ، وإقباس ينثر منه لآلئ القلائد . . وقد سافر كلامه من غزنة إلى العراق ، ومن ثَمَّ إلى سائر الآفاق . . وكيف لا وما من كلمة من كلماته إلا وحقها أن تملك بالأنفُس وتُقْتَنَى ، وتباع بالأنفَس وتشترى »[١] . ويستطرد ياقوت من ذلك إلى إعطاء نموذج من نثره فإذا هو صدر كتاب صدر منه إلى بعض الصدور ، وهو يمضى على هذا النمط »[٢] :

« أطال الله بقاء الشيخ فى عزّ مرفوع كاسم كان وأخواتها إلى فلك الأفلاك ، منصوب كاسم إنّ وذواتها إلى سَمْك السِّماك موصوف بصفة النماء ، موصول بصلة البقاء ، مقصور على قضية المراد ، ممدود إلى يوم التناد ، معرَّف به مضاف

(١) معجم الأدباء ١٧١/١٢ .
(٢) نفس المصدر ١٧٢/١٢ .

إليه ، مفعول له موقوف عليه ، صحيحٍ سالم من حروف العلة ، غير معتل ولا مهموز همز المذلة ، يُثَنّى ويجمع دائماً جمع السلامة والكثرة ، لا جمع التكسير والقلة ، ساكن لا تغيره يد الحركة مبنى على اليُمْن والبركة ، مضاعف مكرَّر على تناوب الأحوال ، وزائد غير ناقص على تعاقب الأحوال ، مبتدأ به خبره الزيادة ، فاعل مفعوله الكرامة ، مستقبلُه خير من ماضيه حالاً ، وغده أكثر من يومه وأمسه جلالا ، له الاسم المتمكن من إعراب الأمانى ، والفعل المضارع للسيف اليمانى ، لازم لرَبْعه لا يتعدى ، ولا ينصرف عنه إلى العِدا ، ولا يدخله الكسر والتنوين أبداً ، يقرأ باب التعجب من يراه منصوباً على الحال إلى أعلى ذراه ، متحركاً بالدولة والتمكين ، منصرفاً إلى رَبْوة ذات قرار ومَعين » .

وفى هذه القطعة ما يدل دلالة واضحة على مدى ما وصل إليه الكتّاب من تعقيد لكتابتهم بمصطلحات العلوم يدخلونها فى آثارهم على نحو ما أدخل عطاء بن يعقوب مصطلحات النحو فى هذه القطعة ، وكانوا إذا تركوا مثل هذه العقد التى يستعيرونها من العلوم ذهبوا يعقدون وسائل الفن القديمة على نحو ما رأينا من تعقيد الجناس عند الحصكفى ، وقد عمت هذه الروح فى العراق وخراسان والشام ، وكما عمت فى هذه الأقاليم عمت فى الأقاليم الأخرى ، فقد روى ياقوت رسالة كان يرويها الحافظ السلفى المشهور عن أديب يمنى ، هو ابن قم الزبيدى المتوفى عام ٥٨١ هـ ، وكان من المبرزين فى النظم والنثر والكتابة[١] ، والرسالة تمضى على هذا النحو[٢] :

« كتب عَبْدُ حضرة السلطان الأجل ، ومولاى ربيعُ المجْدبين وقريع المتأدبين ، جَلْوة الملتَبس ، وجَذْوة المقتبس ، شهاب المجد الثاقب ، ونقيب ذوى الرشد والمناقب ، أطال الله بقاءه ، وأدام علوه وارتقاءه ، ما قُدِّمت العارية للمستعير ، ولزمت الياء للتصغير ، وجعل رتبته عالية المقام ، كحرف الاستفهام ، وكالمبتدإ إن تأخر فى البنية ، فإنه مقدم فى النية ، ولا زالت حضرته من الحادثات حِمىً ، وللوفود

(١) معجم الأدباء ١٠/١٣٠ . (٢) نفس المصدر ١٠/١٣٢ .

مزدحماً وملتزماً ، حتى يكون فى العُلا ، بمنزلة حرف الاستعلا ، وهو من حروف اللين فى حصون ، وما جاورها من الإمالة مَصُون ، ولا زال عدوه كالألف ، حالها يختلف ، تسقط فى صلة الكلام ، ولا سيما مع اللام ، فإنه — أدام الله علوه — أحسن إلىّ ابتداء ونشر علىّ من فضله رداء أراد أن يخفى وكيف يخفى ؟ لأن من شرف الإحسان ، سقوط ذكره عن اللسان ، كالمفعول رُفِـع رَفْعَ الفاعل الكامل ، لما حُذف من الكلام ذكرُ الفاعل . . »

وواضح ما فى هذه القطعة من رسالة ابن قم من تعمل لإدخال النحو ومصطلحاته فى أساليب الرسائل وألفاظها ، فإذا هى تغدو وكأنها متن من متون النحو لا نموذج من نماذج الفن ، وإذا كان ابن قم يتعمل هذا التعمل فى كتابته باليمن ، فإن كتاب الأقاليم الأخرى أيضاً كانوا يأتون بمثل هذه الصعوبات والعقد فى كتابتهم ، وقد يتخففون من مصطلحات العلوم ولكنهم يفرطون فى استخدام الوسائل الأخرى من الأمثال واللفظ الغريب أو من تعقيد السجع والجناس ، وسنتعقب فى القسم التالى من هذا الكتاب المذاهب الفنية فى الأندلس ومصر ، وسيرى القارئ أنه منذ القرن الخامس الهجرى أخذ الكتاب فى هذين الإقليمين يصدرون فى أعمالهم عن هذا الذوق العام الذى نشره المشرق ذوق التصنع والتعقيد ، إذ اندفع الكتاب فى هذه الموجة من القرن الخامس للهجرة إلى العصر الحديث ، وكأنما أجدب معين الفكر العربى ، أو قل : لقد أجدب معين الحضارة العربية ، فلم يعد يظهر من جديد إلا هذه الضروب من التعقيد والتصعيب ، وإن الإنسان ليشعر كأن الحياة العربية قد أصيبت بعطل شديد ، وإنه عطل يتسع فإذا مصانع النثر لا تستطيع أن تخرج ضرباً جديداً أو مذهباً حديثاً ، إلا هذه الطرق الملتوية المحملة بالتصنع لمصطلحات العلوم ، والتكلف لأشياء شاذة كالأمثال والإشارات التاريخية والأدبية ، وهذا كله كان يأتى تابعاً لأسجاع معقدة ، سيطر عليها الجناس المعكوس وما يُطْوَى فيه من تصعيب فى طرق الأداء ، وقد جمدت العصور التالية عند هذا الأسلوب ، ولم تستطع أن تنحرف عنه إلى منهج جديد أو أسلوب حديث .

الكتاب الثالث

المذاهب الفنية فى الأندلس ومصر

الفصل الأول

الأندلس والمذاهب الفنية

١

الأندلس

تقع الأندلس فى الطرف الجنوبى الغربى من أوربا وهى تؤلف شبه جزيرة كبيرة تفصلها عن بلاد الغال فى الشمال سلسلة جبال البرانس كما يفصلها عن أفريقيا فى الجنوب زقاق ضيق هو مضيق جبل طارق ، بينما يقع فى غربيها هذا المحيط الواسع الذى كان فى العصور القديمة والوسطى يشبه صحراء مائية لانهاية لها ، ونقصد المحيط الأطلسى الذى سماه العرب باسم بحر الظلمات ، أما فى شرقيها فيقع بحر الروم الذى كان صلتها بالمدنيات الفينيقية واليونانية والرومانية ثم العربية . وقد سكن الأندلس — أول الأمر — أقوام من البسك والسلت والجلالقة ، وأتى عليها حين من الدهر ، وهى منعزلة عن الحضارات القديمة ، ولكن سرعان ما أتاها قبس من هذه الحضارات عن طريق الفينيقيين واليونانيين الذين استعمروا بعض جهاتها ، ولما نشب الصراع بين روما وقرطاجنة الفينيقية وانتصرت الأولى على الأخيرة استولت على ممتلكاتها ، وضمت الأندلس — فيما ضمت — بين جناحيها — وسمتها إسبانيا اسمها المعروف الآن . ومنذ ذلك الوقت أصبحت إسبانيا ولاية رومانية ، ونشرت روما بها المسيحية كما نشرت بها لغتها اللاتينية ، وكان ذلك سبباً فى أن ساهمت الأندلس — من بعض الوجوه — فى التراث اللاتينى القديم ، غير أن موجات القبائل الجرمانية لم تلبث أن اندفعت إلى الأندلس ، إذ أغار عليها قبائل الفندال ، وأسسوا بها دولة أقاموها على نهر الوادى الكبير سموها باسم دولة الفندال ، ومن اسم هذه الدولة اشتقت كلمة الفندالس التى حورها العرب إلى كلمة أندلس ، وأطلقوها على تلك البلاد

جميعاً ، وأقبلت بعد الفندال موجة جديدة جرمانية هى موجة القوط ، وتمّ لها الغلب على الموجةالقديمة موجة الفندال ، وحكمت البلاد من القرن الخامس الميلادى حتّى فتحها موسى بن نصير فى أواخر القرن السابع (عام ٩٢ هـ) .

وكان جيش موسى مؤلفاً من العرب والبربر إلا أن البربر كانوا أكثر نفراً ، ولما سمع العرب والبربر جميعاً بخصب الأندلس وما فيها من كنوز ومعادن أكثروا من الرحلة إليها ، وقد رحلوا ومعهم خصوماتهم التى نعرفها بين القيسية واليمنية ، وأضافوا إليها خصومات أخرى كانت تنشأ دائمًا بين العرب والبربر . وليست هذه الخصومات هى كل ما فى الأندلس ، فقد كانت هناك خصومات أخرى دائمة بين الجيوش النازحة من العرب والبربر وبين سكان البلد الأصليين ، ومن المعروف أن العرب تسامحوا فى إسبانيا مع سكانها وكان من نتيجة هذا التسامح أن ظل للمسيحيين هناك نظام خاص فى تقاضيهم ومعاملاتهم ، وبذلك كان لهم بروزهم فى الهيئة الاجتماعية ، بل لقد كانت بعض البلاد — وخاصة الشمالية — مسيحية خالصة ، مما ساعد على قيام الفتن الدائمة بين المسيحيين والمسلمين ، وكان كثير من الشبان المسيحيين يستشهدون فى سبيل دينهم بصور فدائية مختلفة كأن يذهبوا إلى المسجد الجامع فيسبّوا الدين الإسلامى ! وقد عرض « دوزى » فى كتابه (تاريخ مسلمى إسبانيا) لهذه الظاهرة .

وقد كانت الأندلس فى العهد الأموى يحكمها ولاة مختلفون ، حتّى إذا قامت الدولة العباسية رأينا عبد الرحمن الداخل يفرّ إليها ويؤسس بها دولة أموية تعتبر امتداداً لدولة الأمويين فى المشرق ، تلك الدولة التى قوضها العباسيون ، وقد سمى أبو جعفر المنصور عبد الرحمن باسم صقر قريش ، وهو جدير بهذه التسمية ، فقد استطاع أن يقيم لنفسه هناك دولة استمرت فى أبنائه وأحفاده من عام ١٣٨ هـ إلى عام ٤٢٢ هـ ، وكان عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) من أزهى عهود هذه الدولة ، وكذلك عهد ابنه الحكم (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) وعهد الوزير المشهور : المنصور بن أبى عامر المتوفى عام ٣٩٢ هـ ولكنا لا نترك هذه العهود كلها إلى القرن الخامس حتى تضعف الدولة وتختل ،

فيقوم نظام جديد هو نظام ملوك الطوائف ، وفيه تنقسم الأندلس الكبيرة إلى أندلسيات صغيرة ، ففى كل بلد كبير تظهر دولة مثل دولة المعتمد بن عباد فى إشبيلية وابن الأفطس فى بَطَلْيوس وذى النون بطُليْطلة ، وقد أدى ضغط المسيحيين فى الشمال على هذه الأندلسيات أو هذه الدويلات أن تفزع إلى دولة المرابطين فى المغرب فتُلبِّيها وتحتل البلاد للدفاع عن المسلمين هناك ، ثم تدخل الأندلس فى حوزة دولة الموحدين ، ويظهر بنو هود فى أوائل القرن السابع الهجرى ثم بنو الأحمر ملوك غرناطة . وتستمر هذه الدولة الصغيرة فى معارك مع المسيحيين حتى تخرّ جميع الأعلام التى تبقت للعرب فى الدروب الباقية من الأندلس ، ويضطرّ من بقى إلى مغادرة البلاد بعد هذه الحقب المتطاولة التى قضاها العرب هناك حيث أقاموا حضارة عظيمة لا تزال آثارها ماثلة فى مبانى غرناطة وغيرها من المدن الكبيرة .

٢

شخصية الأندلس

تبدو الأندلس من الوجهة الجغرافية وحدة متجانسة ، ولكن من ينعم النظر يجد أن هذه الوحدة تطوى فى داخلها وحدات متباينة ، لكل وحدة مشخصاتها الجغرافية المستقلة : هناك وحدة على ساحل بحر الروم تتأثر بجوه ومناخه ، وأخرى على ساحل المحيط تتأثر بجو ومناخ آخر ، وثالثة تتوسط الوحدتين ، وهى هضبة مرتفعة تتخللها سلاسل من الجبال كما تتخللها طائفة من الأنهار يصبّ بعضها فى المحيط وبعضها فى البحر المتوسط . وهذه الشخصية الجغرافية للأندلس كان لها تأثير واضح فى شخصيتها السياسية ، فإن انقسام البلاد على هذا النحو إلى وحدات متباينة أنتج فيها — مع مرور الزمن — فكرة الاستقلال المحلى ؛ فكل إقليم يُحس أنه مباين للآخر وأنه فى حاجة إلى الاستقلال السياسى على نحو ما هو مستقل استقلالا جغرافيًّا ، وساعد على نمو هذا الشعور فى نفوس

الأندلسيين أنهم كانوا من أجناس مختلفة ، ففيهم بَسْك وسَلْت وجلالقة وفندال وقوط وفينيقيون ورومانيون وعرب وبربر . وهذا الخليط المتباين من شأنه أن لا يمتزج وأن يظل فيل خلل يدعو الناس للثورة والفتن وسفك الدماء ، ويكاد الإنسان يؤمن بأنه لم تـَخْلُ بقعة فى الأندلس فى أثناء الحكم العربى من دم مسفوح .

وليس كل ما يميز الحكم العربى فى الأندلس كثرة الفتن والثورات ، فهناك مميزات أخرى طريفة ، لعل من أهمها قوة رجال الدين إذ كانوا يقومون من الأمراء مقام المعارضة ، وكانوا كثيراً ما ينقدون ما يقررونه هم ومجلس وزرائهم من ضرائب فادحة ، وكانوا يستشارون فى شئون الحكم عامة ، فإذا جاء أمير وحاول أن يقلل من نفوذهم ثاروا عليه على نحو ما كان من ثورتهم عام ٢٠٦ على الحكم الأول . ولما ثار رجال الدين حينئذ ثار معهم أهل قرطبة . ومعنى ذلك أن الشعب فى الأندلس كان يحاول أن يدافع عن حقوقه ، وأن يعلن هذه الحقوق فى شكل ثورة إن لم يستجب إليها الحكام استجابة سليمة ، وأوضح ذلك صاحب نفح الطيب إذ يقول : « الأغلب عند الأندلسيين إقامة الحدود وإنكار التهاون بتعطيلها وقيام العامة فى ذلك وإنكاره إن تهاون فيه أصحاب السلطان ، وقد يلجّ السلطان فى شىء من ذلك ولا ينكره ، فيدخلون عليه قصره المشيد ولا يعبأون بخيله و رَجْله حتى يخرجوه من بلدهم ، وهذا كثير فى أخبارهم ، وأما الرَّجْم بالحجَر للقضاة والولاة للأعمال إذا لم يعدلوا فكل يوم » [١].

وبجانب . . نجد للأندلس العربية شخصية اجتماعية تميزها — إلى حد ما — عن شخصية المشرق ، ويبدو ذلك فى جانبين ، أما أولهما فكثرة الغناء والجوقات التى أهـّلت لظهور الموشحات والأزجال هناك ، وأما ثانيهما فمساهمة المرأة فى الحياة الأدبية مساهمة تجعلنا نذكر سيدات فرنسا من صواحب المنتديات (الصالونات) فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكلنا نعرف أخبار ولادة بنت المستكفى مع ابن زيدون وغيره من أدباء الأندلس . على أن هذا ليس معناه

---

(١) نفح الطيب (طبع بولاق) ١٠٣/١ .

انفصال الأندلس انفصالا تامًّا من المشرق فى حياتها الاجتماعية ، فقد كانت تتصل بها وكانت تأخذ منه كثيراً حتى فى غنائها ، إذ نجد زرياب تلميذ إسحاق الموصلى يبدأ حركة الغناء هناك ، ويقولون إنه نقل إلى الأندلسيين — مع غنائه — كثيراً من آداب المشارقة فى طعامهم وثيابهم وأدوات زينتهم[١] ، ومما لا ريب فيه أن ذلك يوضح صلة ما بين الأندلسيين والمشارقة ، ولكن على كل حال كانت لهم حياتهم الاجتماعية الخاصة .

وإذا كانت الشخصية الاجتماعية للأندلس تتميز من الشخصية الاجتماعية المشرق فإن شخصيتها العلمية على الضد من ذلك ، إذ كان الأندلسيون يعتمدون فى هذا الجانب اعتماداً شديداً على ما يأتيهم من المشرق ، ونحن نعرف أن الكثرة من أهل الأندلس فى القرون الأولى للفتح العربى كانوا نصارى وكانوا يتكلمون اللاتينية العامية فى حياتهم اليومية ويصطنعون اللاتينية الممتازة فى كتاباتهم وخاصة فى الكنيسة وما يتصل بها ، ولكن هذه اللاتينية الممتازة لم يتسرب منها شىء واضح للغة العربية فى الأندلس . على أننا لا نصل إلى القرن الرابع حتى نجد أهل الأندلس يهجرون اللاتينية ، ويتخذون اللغة العربية مكانها حتى فى طقوسهم الدينية [٢] . ومهما يكن فإن عرب الأندلس لم يفيدوا شيئاً واضحاً فى حياتهم العلمية عن طريق الأندلس نفسها بل جلّ ما أفادوه أتاهم من المشرق إذ نقلوا الثروة العلمية المشرقية إلى بلادهم بكل ما فيها من فقه ودين ولغة ونحو وفلسفة وطب ، وساعدهم فى ذلك الخلفاء الأمويون وعلى رأسهم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم الذى يقال إنه كان يمتلك مكتبة تضم مائة ألف مجلد . ولما سمع المشارقة بتشجيع الدولة الأموية فى الأندلس للعلم أخذوا يفدون هناك زرافات ووُحْداناً ابتغاء المجد والشهرة العلمية ، وكان الأندلسيون أنفسهم يَسْتبقون فى الرحلة إلى المشرق للتزود من ثقافته ومنابعه العقلية . وعَقَد صاحب

---

(١) انظر ترجمته فى نفح الطيب ٧٤٩/٢ وانظر أيضاً فى ذلك كتاب : R. Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, I; p. 312.

(٢) Nicholson, Lit. Hist. of Arabs, p. 415.

نفح الطيب فصولاً طويلة استعرض فيها من رحلوا من الأندلس إلى المشرق ومن المشرق إلى الأندلس ، ومن هذه الفصول نتبين الصلة الشديدة بين الجانبين .

ومن يتابع الحركة العلمية فى الأندلس يجد أن الأندلس كانت فى القرون الأولى للفتح الإسلامى بطيئة فى تلقى الحياة العقلية ، وعُنيت فى أول الأمر بالعلوم الدينية واللغوية ، أما العلوم الفلسفية فكانت تنفر منها ، لما فيها من زندقة ، وكان ملوكهم كثيراً ما يأمرون بإحراقها إذا وجدوها ، «وبذلك تقرَّب المنصور بن أبى عامر لقلوبهم أول نهوضه»[1] . ولعل ذلك هو سبب بطء ظهور المتفلسفة هناك ، فإن أول فيلسوف أندلسى هو ابن باجة المتوفَّى عام ٥٣٣هـ ، وكان بطء تناولهم الفلسفة وما يتصل بها من منطق أثر فى أن عقولهم لم تصطبغ بالصبغة العلمية التى تؤهلهم لوضع دراسات نظرية كبيرة ، ولعل ذلك نفسه كان أحد الأسباب التى من أجلها لم تظهر عندهم دراسات أدبية جيدة .

وإذا كانت الأندلس لم تتميز فى شخصيتها العامية بصفات واضحة تفصلها من المشرق ، بل كانت تؤسِّس على الأصول المشرقية حركتها العلمية ، فإنها كذلك فى شخصيتها الأدبية كانت تؤصل حركتها الفنية على الأصول المشرقية حتى ليقول صاحب الذخيرة فى مقدمته لهذا الكتاب الذى عُنى فيه بدراسة أدباء الأندلس فى القرن الخامس للهجرة : «إن أهل هذا الأفق أبَوْا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعَق بتلك الآفاق غراب أو طَنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنماً ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً» . وقد كتب ابن شهيد رسالة التوابع والزوابع وعرض فيها لشياطين الشعراء والكتاب الذين أجازوه ، وكلهم من شعراء المشرق وكتابه[2] ، وكانوا لا يزالون يرددون حتى عصر ابن خلدون فى القرن

(١) نفح الطيب ١/١٠٤ .

(٢) انظر الرسالة بأكلها فى الذخيرة (نشر كلية الآداب بجامعة القاهرة) ١/٢١٠ .

الثامن للهجرة أن « أصول علم الأدب وأركانه أربعة دواوين ، وهى أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى البغدادى »[١] . وإن الإنسان ليخيل إليه كأنما أحست قوافل العرب فى الأندلس أنها افتقدت حياتها وأصولها جميعاً فى أثناء سفرها من المشرق فرجعت تستعيد هذه الحياة من شعره ونثره ، وساعد على ذلك كثرة الرحلات العلمية من الأندلس إلى المشرق وبالعكس ، كما ساعد عليه رحلتهم السنوية إلى مكة والمدينة للحج . وكل ذلك جعل الأندلس تندمج فى الكتلة العربية إذ كانت طوابع الحياة الأدبية فيها — من الوجهة العامة — هى نفس طوابع المشرق ، وإن ظهر اختلاف فى الفروع لا فى الأصول ، فإن الأصول كانت أقوى وأعمق من أن تتأثر بالفوارق الإقليمية .

٣

النثر الأندلسى

رأينا الأندلس تندفع نحو تقليد المشرق فى علمه وأدبه ، وكان هذا الاندفاع طابع الأقاليم العربية عامة ، فهى جميعاً تتجه نحو الأم ، نحو بغداد ، تتغذى منها ، وتستمد صفاتها وخصائصها ، ومهما غرّبتَ وأبعدت عن بغداد فالخصائص الكبرى للأدب العربى فى كل إقليم من أقاليمه واحدة ، وكأنما اللغة العربية لا تعرف الاعتداد بالمكان، ولا تعتد به بل قل هى تعرفه ، وتعتد به ، ولكنها لا تقيم وزناً كبيراً لهذه المعرفة ولا لهذا الاعتداد ، بل إنها لتقسو على الأقاليم التى تدخلها ، فإذا أبناؤها لا يتصلون بها إلا اتصالا بعيداً ، أما اتصالهم القريب فإنما هو بالنماذج الأدبية الممتازة التى اصطنعتها العربية لنفسها فى بغداد

---

(١) مقدمة ابن خلدون (طبع المطبعة البهية) ص ٤٠٨ .

والمشرق . ومن أجل ذلك كنا لا نجد فروقاً جوهرية بين نماذجها فى العراق وفى بلد كالشام ومصر ، وحتى الأندلس لا نحس فيها أننا بـُدِّلْنا بجو المشرق العام جوًّا يختلف عنه تمام الاختلاف. ونحن لا ننكر أثر الإقليمية من حيث هو ، فدائماً توجد فى كل إقليم صفات تميز أدبه بعض التميز من أدب الأقاليم الأخرى ، ولكن ينبغى أن لا ننزلق من ذلك إلى القطع بأن الأقاليم العربية أوجدت لأنفسها آداباً متخالفة بتخالفها ، فإن ذلك إنما ينزلق إليه من لم يقرأ شيئاً فى آداب هذه الأقاليم فتراه يعتمد فى حكمه على الحَدْس والتخمين كأننا بإزاء مسألة ميتافيزيقية ، أما الذين يكفُّون عقولهم عن مثل هذه الفروض لاجئين إلى الحقائق الحسية الصحيحة يستمدون منها أحكامهم وآراءهم فإنهم يعرفون أن جملة النماذج التى كوّنها الأدب العربى فى أى إقليم من أقاليمه لا تختلف اختلافات واسعة عن النماذج الأساسية لهذا الأدب التى كونها فى المشرق .

على أنه ينبغى أن نلاحظ ظاهرتين مهمتين تتصلان بالنثر الأندلسى ، أما الظاهرة الأولى فهى أن هذا النثر لا يظهر فيه كاتب كبير قبل القرن الرابع للهجرة ، وذلك لسبب بسيط ، وهو أن الشخصية الأدبية للأندلس لم تتكامل إلا فى هذا القرن . وكان الناس قبل ذلك يكتبون نثراً ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يرتفع بنثره إلى درجة تجعله يقف فى صفوف كتاب العصر العباسى الممتازين . والحق أن الأندلس تبدأ نهضتها الأدبية منذ القرن الرابع وعهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم ، ذلك العهد الذى أُلف فيه كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ، وأُملى فيه كتاب الأمالى ، أملاه أبو على القالى فى قرطبة . ومنذ ذلك العهد المزدهر أخذت الأندلس تشعر بشخصيتها وتحاول أن تصور هذه الشخصية فى آثارها ونماذجها الأدبية ، وهذه هى الظاهرة الأولى . أما الظاهرة الثانية فهى أن الأندلسيين لم يستحدثوا لأنفسهم مذهباً جديداً فى تاريخ النثر العربى يمكن أن نضيفه إلى المذاهب الثلاثة السابقة التى كوّنها هذا النثر فى المشرق ، فقد وقفوا عند المحاكاة ، وهى محاكاة اضطرتهم إلى ضروب من الخلط ، إذ ترى الكاتب الواحد يجمع فى نماذجه بين المذاهب الثلاثة التى رأيناها فى المشرق ،

فتارة يصنع لنفسه نموذجاً من ذوق أصحاب الصنعة ، وتارة يعدل عن ذلك إلى ذوق أصحاب التصنيع ، وتارة ثالثة تراه يعدل إلى ذوق أصحاب التصنع . وقد فُتنت كثرتهم بالسجع ، ولكنها لم تفتن بالبديع الذى كان يصحبه عند أصحاب التصنيع ، بل فتنت – إلى حد ما – بالغريب الذى رأيناه عند أصحاب التصنع ، كما فُتنوا بالأمثال ، وربما كان لكتاب الأمالى للقالى أثر مهم فى ذلك ، فقد بناه صاحبه على هذين الجانبين . ونحن نقف عند أهم كاتب ظهر فى العصر الأموى لنرى ما وصل إليه النثر الأندلسى فى هذا العصر من رقى وازدهار ، وهو ابن شهيد الكاتب المشهور .

ابن شهيد

هو أحمد بن عبد الملك . . . بن شُهَيْد الأشجعى القوطى ، ولد بقرطبة عام ٣٨٢ هـ وتوفى عام ٤٢٦هـ[١] وهو من بيت أدب ومجد ، كان جده وزير عبد الرحمن الناصر[٢] وأديباً من أكبر الأدباء فى عصره ، وورث عنه حفيده أدبه كما ورث عنه صلته الحسنة بالأمويين وإن لم يستوزروه لثقل كان فى سمعه . ويظهر أنه ورث عن آبائه مالا كثيراً بعثره فى اللهو والخلاعة حتى ليقول أبو حيان : « إن البطالة غلبتْ عليه فلم يحفل فى آثارها بضياع دين ولا مروءة »[٣] . وهذا الشخص المترف الذى ساق حياته فى اللهو والخلاعة كان مثقفاً ثقافة واسعة بمعارف عصره ، فقد ذكر فى إحدى رسائله أنه درس ضروب العلم المختلفة من أدب وخبر وفقه وطب وصنعة وحكمة[٤] ، ويقول ياقوت : « كان له من علم الطب نصيب وافر »[٥] . على أن الجانب الذى تميز به إنما هو جانب الأدب فقد كان شاعراً كبيراً كما كان كاتباً كبيراً أيضاً ، ويدل ما رُوى عنه من آثار أن نثره كان أكبر من شعره ، وقد شهد له النقاد

---

(١) انظر ترجمته فى المغرب (طبع دار المعارف) وما بهامشها من مراجع ١/٧٨

(٢) نفح الطيب ١/١٧٩ .

(٣) الذخيرة ١/١٦١ .

(٤) الذخيرة ١/١٨٦ .

(٥) معجم الأدباء ٣/٢٢٣ .

بمقدرته فيه وتفوقه . كتب عنه الثعالبي فقال : «إن نثره في غاية الملاحة»[1] وقال أبو حيان : «كان أبو عامر بن شهيد يبلغ المعنى ولا يطيل سَفَرَ الكلام ، وإذا تأملته ولَسَّنه ، وكيف يجرّ في البلاغة رَسنه ، قلت : عبد الحميد في أوانه ، والجاحظ في زمانه . . . وكان في تنميق الهزل والنادرة الحارة أقدر منه على سائر ذلك . . . وله رسائل كثيرة في أنواع التعريض والأهزال ، قصار وطوال ، برّز فيها شأوه ، وبقّاها في الناس خالدة بعده»[2]. وقدم له صاحب الذخيرة بقوله : «كان أبو عامر شيخ الحضرة العظمى وفتاها ، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها ، وينبوع آياتها ، ومادة حياتها ، وحقيقة ذاتها ، وابن ساستها وأُساتها ، ومعنى أسمائها ومسمياتها ، نادرة الفلك الدوّار ، وأعجوبة الليل والنهار ، إن هزَل فسجعُ الحمام ، أو جدّ فزئير الأسد الضرغام . نظمٌ كما اتسق الدرّ على النحور ، ونثر كما خُلط المسك بالكافور ، إلى نوادر كأطراف القنا الأمْلود ، تشقّ القلوب قبل الجلود ، وجواب يجرى مجرى النفس ، ويسبق رجع الطرف المختلَس»[3] ومن قول صاحب المطمح فيه : «عالم بأقسام البلاغة ومعانيها ، حائز قصب السبق فيها ، لا يشبهه أحد من أهل زمانه ، ولا ينسِّق ما نسّق من دُرّ البيان وجُمانه ، توغل في شعاب البلاغة وطرقها ، وأخذ على متعاطيها ما بين مغربها ومشرقها ، لا يقاومه عمرو بن بحر ، ولا تراه يغترف إلا من بحر»[4] .

ونرى من هذه النصوص المختلفة أن النقاد كانوا يكبرون من شأن ابن شهيد ومنزلته الأدبية ، وقد قرنوه إلى الجاحظ لهزل كان فيه وميل إلى الفكاهة ، وأكبر الظن أنه يتأثر في هذا الجانب بديع الزمان فقد ذكره في رسائله[5] ، وكتب رسالة في الحلواء ذهب فيها مذهبه في المقامة المَضِيريّة ، وحكى في التوابع والزوابع ما وصف به بديع الزمان الماء ثم أتى بأوصاف أخرى للماء يريد بها أن يثبت براعته[6]

---

(١) اليتيمة ٢/٤٣ .

(٢) الذخيرة ١/١٦٠ .

(٣) الذخيرة ١/١٦٠ .

(٤) مطمح الأنفس لابن خاقان (طبع مطبعة الجوائب) ص ١٦ .

(٥) الذخيرة ١/٢٠٣ .

(٦) الذخيرة ١/٢٤٦ .

وأهم أثر تركه ابن شهيد هو رسالة التوابع والزوابع ، والتابع الجن والزوبعة الشيطان ، وسماها بهذا الاسم لأنه بناها على شيطان تراءى له فى وقت أُرْتج عليه فيه وهو ينظم شعراً فأجازه . ولما تعارفا طلب إليه ابن شهيد أن يلقى به شياطين الشعراء والكتاب الذين غبروا ، فأجاب طَلِبتَه ، وحمله على جناحه إلى وادى الجن حيث التقى بكثير من شياطين الشعراء الجاهليين والإسلاميين والعباسيين ، كما التقى بطائفة من شياطين كتّاب المشرق . وتدور القصة فى الرسالة على أنه يلقى التابعَ للشاعر المشهور فينشده شعراً لصاحبه ، ثم ينشده ابن شهيد بعض شعره ، فيعجب به ويجيزه آية على قدرته البلاغية . وكذلك يلقى توابع الكتاب أمثال عبد الحميد والجاحظ وبديع الزمان فيعرض عليهم رسالته فى وصف البرد والنار والحطب كما يعرض عليهم رسالته فى الحلواء ، وأيضاً فإنه يعرض عليهم صفته لثعلب وابرغوث ، ويستحسنون ما يعرض ويجيزونه . ووقف تابع الجاحظ عند سجعه ، وقال له إن كلامك نظم لا نثر فزعم أن تلك صفة أهل بلده وأنهم يعجبون بالسجع وطابعه ، وهكذا تنفض جموع الجن وهى تشهد بأنه شاعر بديع وكاتب بليغ .

والرسالة تفيض بروح الفكاهة كأن نراه يعرض لبركة ماء بإحدى جوانب وادى الجن ، ومن حواليها طائفة من حمر الجن وبغالها وتتقدم له بغلة شهباء عليها جُلُّها وبرقعها فتنشده بعض الشعر وأخيراً تقول له : « أما تعرفنى أبا عامر؟ قلت : لو كانتْ ثم علامة ، فأماطتْ لثامها فإذا هى بغلة أبى عيسى ، والخال على خدّها ، فتباكينا طويلا وأخذنا فى ذكر أيامنا » . وما من شك فى أن هذا الجانب فى التوابع والزوابع يكسبها خفة ورشاقة ، ومن يرجع إليها يجد ابن شُهَيْد لا يستخدم فيها دائماً أسلوب السجع بل تارة يسجع وتارة لا يسجع وهذا هو معنى قولنا إن الكاتب الكبير فى الأندلس لم يكن يخضع فى صنع نماذجه لمذهب معين من مذاهب المشرق ، بل هو — على نحو ما نرى الآن عند ابن شهيد — كان يتقلب بين المذاهب والمناهج المختلفة . ومع ذلك فلا تظن أن ابن شهيد حين يستخدم السجع كان يستخدم البديع الذى هو الشق الثانى لمذهب التصنيع ،

فإنه لم يكن يتصور هذا المذهب بكافة تفاصيله كما تركه أصحابه . وليس معنى ذلك أنه لم يقرأ لهم ما يفهم به هذا المذهب ، بل لقد قرأ لهم كثيراً ، وخاصة الصابى وبديع الزمان[١] ! وأيضاً ينبغى أن لا تظن أن ابن شهيد لم يخرج فى جوانب من رسائله إلى مذهب التصنع ، بل لقد خرج إلى هذا المذهب فى كثير من جوانبها ؛ إذ نراه يعنى باستخدام الغريب ، واعترف بذلك فى إحدى رسائله[٢] . وكان إلى ذلك يكثر من الأمثال[٣] كما كان يكثر من المبالغات والتهويلات[٤] والاقتباس من القرآن الكريم[٥] ، إلا أنه لم يعن بتعقيدات زخارف البديع جملة ، بل إنه لم يعن بهذه الزخارف نفسها كما تركها أصحاب مذهب التصنيع ، ومع ذلك فقد كان ذوقه أقرب ما يكون إلى ذوقهم ، وتطرق من هذا الذوق إلى العناية بالفكاهة فى آثاره على نحو ما نجد عند بديع الزمان فى مقاماته . وكما أطرف فى رسالة التوابع والزوابع أطرف أيضاً فى رسالة أخرى تسمى حانوت عطار ، ويظهر أنه كان يميل إلى الإغراب فى الموضوع ، ولعل ذلك ما جعله يقف عند وصف ثعلب وبرغوث وبعوضة ، ومهما يكن فقد كان ابن شهيد أكبر أديب فى عصره ، ولكنه لم يستطع المخالفة على مذاهب المشرق ومناهجه ، بل ذهب يقلد هذه المذاهب والمناهج فى غير نظام ولا نسق معين .

٤

ملوك الطوائف ونهضة النثر الأندلسى

إذا تركنا عصر الأمراء الأمويين وانتقلنا إلى عصر ملوك الطوائف وجدنا الأندلس تنهض نهضة واسعة فى أدبها من شعر ونثر ، وكأنما انقسامها إلى وحدات صغيرة أهلها لنشاط أدبى واسع إذ أصبح لكل وحدة صغيرة ، أوبعبارة

---

(١) الذخيرة ١/٢٠٣ وكذلك ١/٢٠٧ .
(٢) الذخيرة ١/٢٠٠ .
(٣) الذخيرة ١/١٩٣ وما بعدها .
(٤) الذخيرة ١/١٧١ .
(٥) الذخيرة ١/١٩١ وكذلك ١/٢١١ .

أخرى ، لكل مدينة ، حاكم مستقل ، وسعى كل حاكم — بسبب ما بينه وبين الحكام الآخرين من تنافس — إلى تشجيع الحركة العلمية والأدبية فى وطنه ومقر حكمه وملكه ، وبذلك أضفى انقسام الأندلس إلى دويلات على العلم والأدب تقدماً ورقيًّا عظيماً . وإن الأندلس فى ذلك لتشبه إيران فى القرن الرابع الهجرى حين توزَّعتها دول وإمارات مختلفة ، فقد لاحظنا فى غير هذا الموضع أن هذا التوزع وما صحبه من قيام مدن ومراكز كثيرة أهَّل لنهضة أدبية رائعة ، وكذلك الشأن فى الأندلس فى أثناء القرن الخامس للهجرة ، فإن انقسامها إلى أندلسيات متعددة جعل مراكز النشاط الأدبي فيها تتعدد أيضاً ، وكان كل حاكم أو أمير يُعْنَى بأن يكون فى بلاطه أهم كاتب فى إقليمه ، ومن ثم أصبحت كل مدينة تشتهر بكاتب مهم إن لم يكن بطائفة من الكتاب ، وتعقَّب صاحب الذخيرة هذه الظاهرة فعرض لكتاب كل مدينة عرضاً مفصلا ؛ ومن يرجع إليه فى كتابه المذكور يلاحظ أن الكتاب كلهم غمرهم ذوق السجع ؛ فهم جميعاً يسجعون . وكان الكتَّاب فى العصر الأموى يتخففون من السجع أحياناً كما رأينا عند ابن شهيد ، أما فى هذا العصر فإنهم يلتزمونه التزاماً ، بل قد يجد الإنسان فى عصر الأمويين كاتباً لا يسجع مطلقاً وإنما يزاوج مثل ابن بُرْد الأكبر ، أما فى هذا العصر فإن الكتاب جميعاً يسجعون ، ومن أبرعهم فى ذلك ابن برد الأصغر حفيد ابن برد الأكبر ، وقد روى له صاحب الذخيرة مجموعة كبيرة من رسائله كما روى له مناظره بين السيف والقلم ، ومن يقرأ المناظرة والرسائل لا يحس جديداً فقد جمدت الأندلس عند صياغة المشارقة ، ولم تستطع أن تضيف إليها من جديد ، وهل يستطيع الإنسان أن يجد فى الذخيرة لهذا العهد اتجاهاً جديداً أو لوناً جديداً ؟ إنه ليس هناك إلا التقليد والمحاكاة وأن يحتذى الكاتب على نموذج مشرقى ، فإذا هو يصنع رسائل كرسائل المشارقة أو يصنع مقامة كمقاماتهم على نحو مقامة أبى حفص عمر بن الشهيد التى رواها صاحب الذخيرة . ونحن نلاحظ عند هؤلاء الكتاب عامة أنهم لم يعنوا بالبديع لكنهم استمروا — كما رأينا عند ابن شهيد — يعنون بالغريب وبالأمثال والاقتباس

من القرآن ، كما عنوا كثيراً بحلّ الشعر وتضمينه ، وليس معنى ذلك أنهم عقّدوا نثرهم على نحو ما رأينا عند أبي العلاء وأصحابه فإن حياتهم التي كانت تقوم على الفتن من جهة وعلى الحروب مع المسيحيين من جهة أخرى لم تُتح لهم الفرصة للتأني والتمهل ، فلم يُطْبَعْ أدبهم بطابع التعقيد ، وإن كان ذلك يظهر فيه من حين إلى حين ، ونحن نقف عند أهم كاتب ظهر في هذا العهد ، وهو ابن زيدون ، لنطلع على الصورة الفنية للكتابة حينئذ .

ابن زيدون

هو أحمد بن عبد الله . . بن زيدون المخزومي القرطبي [١] ، ولد بقرطبة عام ٣٩٤ للهجرة وتوفي بإشبيلية عام ٤٦٣ [٢] ، وكان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة [٣] ، ولما قامت الفتن في أواخر حكم الأمويين أسهم فيها إذ كان هواه مع الثائرين ، ومن أجل ذلك قربه أبو الحزم جهور أمير قرطبة إلا أن هذه المكانة لم تدم له طويلا إذ نسبت إليه مؤامرة على السلطان وتصادف أن كان هناك أديبة شاعرة يتعلق بها ابن زيدون وهي ولادة بنت المستكفي ، ولهما مطارحات ومجالس محفوظة [٤] ، وكان ينافسه فيها ابن عبدوس فاصطدم كل منهما بالآخر ، وكان ابن زيدون كاتباً فكتب رسالة هزلية طويلة على لسان ولادة إلى ابن عبدوس يزعم فيها أنه أرسل لها سيدة تمدحه لها ، وتحاول أن تعقد الصلة بينه وبينها ، فنهرتها نهراً شديداً ، ولم تكتف بذلك ، بل كتبت له هذه الرسالة وكلها تهكم به وسخرية . ولم يرد ابن عبدوس على خصمه برسالة أخرى بل دبّر له مؤامرة واسعة النطاق جعلت أبا الحزم بن جهور يحبسه ، وقد كتب إليه ابن زيدون من السجن برسالة طويلة تسمى الرسالة الجدّية يستعطفه بها ، وكذلك استعطفه برسائل وقصائد أخرى إلا أنه لم يرقّ له ، وأخيراً يعفو عنه مستجيباً فيه لشفاعة ابنه أبي الوليد ولما ولي بعده سنة ٤٣٥ اتخذه سفيراً بينه وبين رؤساء الأندلس

---

(١) انظر في ابن زيدون كتابتنا عنه في سلسلة نوابغ الفكر العربي (طبع دار المعارف) .

(٢) وفيات الأعيان ١/٤٤ .

(٣) الذخيرة ١/٢٩٠ ووفيات الأعيان ١/٤٣ .

(٤) الذخيرة ١/٣٧٦ .

غير أن الأمور لم تلبث أن فسدت بينهما ففر ابن زيدون على وجهه إلى إشبيلية عام ٤٤١[١]، فلقيه أميرها المعتضد لقاء حسناً، واصطنعه لنفسه كما اصطنعه ابنه المعتمد من بعده، واستطاع المعتمد بفضل مشورته أن يستولى على قرطبة، وما زال يرعاه خير رعاية حتى إذا كان عام ٤٦٣ أرسله إلى إشبيلية فى مهمة إلا أن القدر عاجله، ويقولون: إن أهل قرطبة حزنوا لوفاته حزناً شديداً.

وهذا كله يرينا أن حياة ابن زيدون كانت مليئة بمتاعب ومصاعب جمة، ومع ذلك فهو يوضع على رأس شعراء وكتّاب عصر ملوك الطوائف، يقول صاحب الذخيرة فيه: «كان أبو الوليد بن زيدون غايةَ منثور ومنظوم، وخاتمة شعراء بنى مخزوم، أحد من جرّ الأيام جرًّا، وفات الأنام طرًّا، وصرّف السلطان نفعاً وضرًّا، ووسع البيان نظماً ونثراً، إلى أدب ليس للبحر تدفقه، ولا للبدر تألقه، وشعر ليس للسحر بيانه، ولا للنجوم الزُّهْر اقترانه، وحظ من النثر غريب المبانى شعرىّ الألفاظ والمعانى»[٢]، ويقول أيضاً: «فأما سعة ذَرْعه وتدفق طبعه، وغزارة بيانه، ورقة حاشية لسانه، فالصبحُ الذى لا ينكر ولا يرد، والرمل الذى لا يحصر ولا يُعَد»[٣]، ولعل أطرف ما ترك ابن زيدون من آثاره الكتابية هو الرسالة الجِدِّية ثم الرسالة الهزلية؛ أما الرسالة الجدية التى كتبها فى الاستعطاف فهى تبدأ على هذا النمط:

«يا مولاى وسيدى الذى ودادى له، واعتمادى عليه، واعتدادى به، وامتدادى منه، أبقاك الله ماضىَ حَدِّ العزم وارىَ زَنْد الأمل، ثابتَ عهد النعمة، إن سلبتنى — أعزك الله — لباسَ نعمائك، وعطّلتنى من حَلْى إيناسك وأظمأتنى إلى بَرود إسعافك، ونَفَضْتَ بى كَفَّ حياطتك، وغضضْت عنى طَرْف حمايتك، بعد أن نظرَ الأعمى إلى تأميلى لك، وسمع الأصمُّ ثنائى عليك[٤]

(١) الذخيرة ١/ ٢٩١ ووفيات الأعيان ١/ ٤٣.

(٢) الذخيرة ١/ ٢٨٩.

(٣) الذخيرة ١/ ٢٩٢.

(٤) يشير إلى قول المتنبى:

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى
وأسمعت كلماتى من به صمم

وأحسّ الجماد باستحمادى إليك ، فلا غرو قد يَغَصّ بالماء شاربه، ويقتل الدواءُ المستشفَى به ، ويؤْتَى الحَذِرُ من مَأمنه(١) ، وتكون منية المتمنى فى أمنيته ، والحَيْنُ قد يسبق جهد الحريص (٢) :

كلُّ المصائب قد تمرُّ على الفتى　　وتهون غيرَ شماتة الحسّادِ

وإنى لأتجلد وأرى الشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعضع(٣) ، فأقول : هل أنا إلا يد أدْماها سوارها،(٤) وجبينٌ عضّه إكليله ومشرفىّ ألصقه بالأرض صاقله ، وسمهرىٌّ عرضه على النار مثقِّفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول (٥) :

فقسَا ليَزْدَجِرُوا ومن يك حازمًا　　فَلْيَقْسُ أحياناً على من يَرْحَمُ

هذا العَتْبُ محمود عواقبه ، وهذه النَّبْوَةُ غمرة ثم تنجلى(٦) ، وهذه النكبة سحابةُ صيف عن قليل تقشّع (٧) ، ولن يريبنى من سيدى أن أبطأ سَيْبُه ، أو تأخر — غير ضَنين — غَناؤه ، فأبطأ الدّلاء فيضاً أملؤها(٨) وأثقل السحائب مشياً أحفلُها ، وأنفع الحيَا(٩) ما صادف جَدْباً ، وألذ الشراب ما أصاب غليلا ، ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب » .

وأكبر الظن أن خصائص ابن زيدون اتضحت لنا الآن ، فهو يعنى عناية شديدة بحل الشعر فى كلامه كما يعنى بالأمثال وحشدها حتى لتغدو

---

(١) هذا المثل مقتبس من بيت لعدى بن زيد العبادى .

(٢) مثل قديم . والحين : الموت .

(٣) مأخوذ من قول أبى ذؤيب :

وتجلدى للشامتين أريهم
أنى لريب الدهر لا أتضعضع

(٤) مأخوذ من قول المتنبى :

بنو كعب وما أثرت فيهم
يدٌ لم يدمها إلا السوار

(٥) هو أبو تمام :

(٦) مأخوذ من قول بعضهم :

وما هى إلا غمرة ثم تنجلى
سريعاً وإلا نبوة تتصرم

(٧) مثل قديم . وتقشع : تقلع .

(٨) مثل أيضاً .

(٩) الحيا : المطر . أحفلها : أملؤها .

رسالته فى حاجة إلى الشرح ، لأن كثيراً من عباراتها أمثال مرموزة وأبيات منثورة وشطور من الشعر مرصوفة . وهذا نفسه هو الذى يجعلنا نقول إن ذوق ابن زيدون فى نثره كان قريباً من ذوق أصحاب التصنع فى المشرق ، وحقًّا هو لم يستخدم البديع ولا ما يتصل به من تعقيد بعض زخارفه ، ولكنه استخدم لغة مبهمة بعض الشىء . وإذا استمررنا معه فى الرسالة وجدناه يلجأ إلى شىء أكثر صعوبة ، وهو ذكر كثير من وقائع القرآن الكريم وحوادث الإسلام الحنيف . وراعَ هذا الجانب فى الرسالة القدماء لأنهم عثروا به على مادة غنية للشرح والتفسير ، واستمعْ إليه يصور لابن جهور أنه لم يرتكب جرماً كبيراً فيستهدف لما مضى من جنايات وأحداث فى الديانات ، على هذا النحو :

« قد بلغ السيل الزُّبى[1] ، ونالنى ما حسبى به وكفى ، وما أرانى إلا أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ، وقال لى نوح : اركبْ معنا ، فقلت : (سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء) وأمرتُ ببناء الصَّرْح لعلى أطلع إلى إله موسى ، وعكفتُ على العجل ، واعتديت فى السَّبْت ، وتعاطيت فعقرت ، وشربت من النهر الذى ابتُلى به جيوش طالوت ، وقُدْتُ الفيل لأبرهة ، وعاهدت قريشاً على ما فى الصحيفة ، وتأولت فى بيْعة العقبة ، ونفرت إلى العير ببدر ، وانخذلت بثلث الناس يوم أحد ، وتخلفت عن صلاة العصر فى بنى قُرَيْظة وجئت بالإفك على عائشة الصديقيّة ، وأنفت من إمارة أسامة وزعمت أن بيعة أبى بكر كانت فَلْتة » .

وترك ابن زيدون هنا السجع لأنه لا يستقيم وما يريد أن يروى من هذه الأحداث وهى أحداث لا يفهمها إلا من قرأ سير الأنبياء والسيرة النبوية خاصة ، ولا بد له بعد ذلك أن يقرأ شيئاً عن حياة المسلمين بعد الإسلام . ونحن نراه فى الرسالة ينتقل بعد ذلك إلى تملق ابن جهور مع شىء من الزهو والخيلاء ، وقد

---

(١) مثل يضرب حين يتفاقم الأمر : الزبى : جمع زبية . وهى الحفرة فى المكان المرتفع .

امتد به نفسه طويلا ، فأكثر من الحكم والأمثال ، كما أكثر من تضمين الشعر وحلّه فى نثره ، وكذلك أكثر من اقتباس آى الذكر الحكيم . وما من ريب فى أن هذه صورة أخرى من صور التصنع ، وهى صورة لا تبلغ ما بلغه المذهب فى المشرق من تعقيد عند أبى العلاء وأصحابه ، ولكنها على كل حال تأخذ من التصنع بأطراف قوية . وتذهب هذا المذهب نفسه الرسالةُ الهزلية ، إذ نراه يسخر من ابن عبدوس متطرقاً فى أثناء سخريته إلى ذكر كثير من الأمثال وحوادث التاريخ وأعلامه ، واستطاع فى أثناء ذلك أن ينفذ إلى التأثر بالجاحظ فى رسالة التربيع والتدوير ، وانظر إليه يقول فى بعض جوانبها عن السيدة التى أرسلها ابن عبدوس : إنها زعمت لولادة :

« أن بطليموس سوّى الأَصْطُرْلاب بتدبيرك ، وصوّر الكرةَ على تقديرك ، وأبِقْراط علِمَ العلل والأمراض بلطف حسك ، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حَدْسك ، وكلاهما قلدك فى العلاج ، وسألك عن المزاج ، واستوصفك تركيب الأعضاء ، واستشارك فى الدواء والداء ، وأنك نَهَجْتَ لأبى معشر طريق القضاء ، وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء ، وأعطيتَ النظّام أصلا أدرك به الحقائق ، وجعلت للكندىّ رسماً استخرجَ به الدقائق ، وأن صناعة الألحان اختراعُك ، وتأليف الأوتار والأنغام توليدُك وابتداعك ، وأن عبد الحميد بن يحيى بارى أقلامك ، وسهل بن هرون مُدوِّن كلامك وعمرو بن بحر مُسْتمليك ، ومالك بن أنس مستفتيك ، وأنك الذى أقام البراهين ، ووضع القوانين ، وحدّ الماهية ، وبين الكيفية والكمية » .

والحق أنك مهما قرأت فى آثار الأندلسيين فستراهم يرجعون دائماً إلى أصول مشرقية يقلدونها ويستمدون منها ، إما فى تنسيق الموضوع على نحو ما استفاد ابن زيدون من الجاحظ فى رسالته الهزلية ، وإما فى العناصر التى يؤلفون منها نماذجهم على نحو ما رأيناه فى الرسالة الجدية ، إذ ذهب يستعين فيها بشعر لأبى ذؤيب والمتنبى وغيرهما ينثره فى أثنائها وكما ذهب يستعين بأمثال قديمة . وهو يضيف إلى ذلك آيات من القرآن الكريم ألفاظاً يجمّل بها عمله وأيضاً فإنه يتصنع لذكر

كثير من حوادث الديانات وخاصة حوادث الإسلام كما يتصنع لكثير من أعلام التاريخ . وهذا هو الجديد الذى كان يأتى به ابن زيدون لبيان تفوقه وبراعته، وهى أشياء كلها تـُرَدُّ إلى المشرق، وليس للأندلس فيها إلا فضل النموذج الذى يجمعها بعضها إلى بعض ، فإذا هى تستوى فى صورة أدبية خاصة ، ومع ذلك فليس من شك فى أن ابن زيدون يوضع فى الطبقة الأولى من كتاب الأندلس وأدبائها على مر العصور !

٥

جمود النثر الأندلسى

يذهب عصر ملوك الطوائف وندخل منذ عام ٤٨٤ للهجرة فى عصر جديد هو عصر سلطان المغاربة ، إذ فزع الأندلسيون فى حروبهم مع المسيحيين إلى يوسف بن تاشفين صاحب دولة المرابطين لينصرهم عليهم، فيذهب إليهم يرد عنهم كيد أعدائهم ، ولكنه لا يتركهم ، بل يـُدخلهم فى حَوْزته ، واستمرت الأندلس تابعة لدولته حتّى استولت عليها دولة الموحدين ، وقد اشتهرت الدولة الأولى دولة المرابطين بالتعصب فى مسائل الدين وأصبح للفقهاء فى عصرها شأن كبير ، إذ كان لهم أثر واسع فى دخول البلاد فى هذا الحكم الجديد ، وكان المرابطون لذلك يعتدون بهم، فهم عدتهم وعتادهم ، ومن أجل ذلك سلّموا لهم شئون الدولة فاضطهدوا المتفلسفة ورموهم بالزندقة وتعقبوهم فى كل مكان . أما دولة الموحدين فكان حكامها أوسع عقولا وتفكيراً وقد اشتهر من بينهم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ — ٥٨٠ هـ) بمحبة الفلسفة وأصحابها ، وممن ظهر فى عصر هذه الدولة ابن باجة وابن رشد وابن طفيل ، ونستمر حتّى نلتقى فى القرن السابع ببنى هود وكذلك ببنى الأحمر أصحاب غرناطة .

واستطاعت الأندلس أن تتقدم فى الحركة العقلية فى أثناء تلك العصور ،

ولكنها لم تستطيع أن تتقدم فى الحركة الأدبية ، إذ استعلى الفقهاء أول الأمر فى الحكومة وأصبح الحكام يتخذون منهم كتابهم ، فطبعوا النثر بطابعهم العلمى الجامد ، وكانوا يسجعون فى كتابتهم ، ويحلون سجعهم بالتصنع لبعض المصطلحات العلمية التى عرفوها فى دراستهم ، وهم من هذه الوجهة أقرب إلى ذوق أصحاب التصنع فى المشرق من كتّاب عصر ملوك الطوائف ، ولعل مما يتصل بذلك أنهم تصنعوا فى كتابتهم للبديع ، وما يتصل به من طباق وجناس ، وأخذوا يعممون السجع فى الكتابة التاريخية ، وخاصة تلك التى تتصل بالترجمة للأدباء على نحو ما نجد فى (الذخيرة) لابن بسام و (قلائد العقيان) و (مطمح الأنفس) لابن خاقان ، وقد جنح لسان الدين بن الخطيب ، إلى السجع فى بعض جوانب من كتبه ، وكذلك صنع المقرى فى (نفح الطيب) و (أزهار الرياض) ، وكل هذه الأعمال يحس الإنسان فيها بضروب مختلفة من التلفيق والتصنع واللف والدوران حول المعانى والصور التى يجترُّها الأدباء اجترارا ، وقد سَرَت حينئذ ظاهرة مهمة ، وهى التعبير بالأساليب المحفوظة التى لا تفصح عن فكرة محدودة ، وارجعْ إلى الذخيرة أو إلى مطمح الأنفس أو إلى قلائد العقيان ، فسترى هناك مقدمات يقدّم بها الأدباء لا تعبر عن معان واضحة وإنما تعبر عن صور جامدة متبلورة ، وهذا هو معنى ما نقوله من جمود النثر الأندلسى ، وابحثْ ما شئت فى هذه العصور فلن تجد جديداً ولا ما يشبه الجديد ، إنما تجد أدباً مكرراً معاداً ، قد كُرِّرت أساليبه وأعيدت عباراته مئات المرات بل آلاف المرات ، ولا جديد فيه إلا ما يتصنع له الكاتب من مصطلح علمى ، أو لون بديعى ، أو إشارة إلى مَثل ، أو استخدام لغريب ، أو نحو ذلك مما كان يعد آية فى هذه العصور على بلاغة الكاتب ومهارته الفنية ، ونحن نقف قليلا عند أهم كاتب ظهر فى الأندلس لهذه العهود ، ونقصد لسان الدين بن الخطيب لتنكشف لنا صورة الكتابة الفنية حينئذ انكشافاً تامّاً .

لسان الدين الخطيب

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطى ، ولد عام ٧١٣ للهجرة ، وهو من بيت عُرف قديماً ببنى الوزير وحديثاً ببنى الخطيب[١] ، وهو بيت اشتهر بالعلم والفقه والأدب والطب ، وقد روى صاحب نفح الطيب لأبيه شعراً منه قوله[٢] :

الطبُّ والشعرُ والكتابه سماتنا فى بنى النَّجابَه

وقد نسج لسان الدين على منوال أبيه ، فكان « نفيس العُدْوَتين ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية، والإمتاع بالفهوم النَّقْلية»[٣] ، وقد ذكره ابن خلدون وهو معاصر له فقال : « قرأ وتأدب على مشيخة غرناطة ، واختص بصحبة الحكيم المشهور يحي بن هُذَيل، وأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرَّز فى الطب، وانتحل الأدب ، وأخذ عن أشياخه ، وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه ، ونبغ فى الشعر والترسّل بحيث لا يجارى فيهما ، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بنى الأحمر لعصره ، وملأ الدنيا بمدائحه ، وانتشرت فى الآفاق ، فرقَّاه السلطان إلى خدمته ، وأثبته فى ديوان الكتابة ببابه مرؤوساً بأبى الحسن بن الجيَّاب شيخ العُدْوتين فى النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية »[٤] ، فلما توفى ابن الجياب ورث رتبته من بعده[٥] ، ثم توفى أبو الحجاج فازدادت منزلته عند ابنه أبى عبد الله إلى أن نشبت ثورة أبعدت السلطان عن عرشه وقُبض فيها على ابن الخطيب وصودرت أملاكه ، ولكنه تخلص من ذلك بشفاعة السلطان أبى سالم المرينى صاحب المغرب ولحق بسيده أبى عبد الله هناك وصحبه فى غربته . ولما رجع أبو عبد الله أخيراً إلى عرشه فى غرناطة ، استدعاه وألقى إليه بمقاليد الملك والسياسة « وانفرد بالحل

---

(١) نفح الطيب ٣/٣ .
(٢) نفس المصدر ٣/٧ .
(٣) نفح الطيب ٣/٣٣٤ .
(٤) تاريخ ابن خلدون ٧/٣٣٢ .
(٥) نفس المصدر ٧/٣٣٣ .

والعقد ، وانصرفت إليه الوجوه ، وعُلِّقت عليه الآمال ، وغَشِيَ بابه الخاصة والكافة ، وغصَّت به بطانة السلطان وحاشيته ، فتوافقوا على السِّعاية فيه »[١] ، وأحسَّ لسان الدين بذلك ففرّ إلى أبى فارس المرينى وكان قد ملك تلمسان فأكرمه[٢] إلا أن رجال حاشيته سرعان ما أوغروا صدره عليه إذ اتهموه بالزندقة ، فألقى به فى غياهب السجون ودُسَّ إليه من قتله عام ٧٧٦ ، وبذلك انتهت حياته هذه النهاية الدامية .

وقد كان لسان الدين أبرع كاتب أخرجته الأندلس فى عصورها الأخيرة حتى قيل : إنه كاتب الأرض إلى يوم العرض ، وخصَّصَ له المقرى مجلدين من نفح الطيب عرض فيهما عرضًا واسعًا لأساتذته وحياته السياسية والأدبية . وإذا كان لسان الدين لم ينجح فى حياته السياسية فقد نجح نجاحاً عظيماً فى حياته الأدبية ، وهى حياة كانت منوعة ، إذ لم يقف بكتابته عند الرسائل الديوانية أو الشخصية ، بل كتب كتباً كبيرة فى التاريخ والتصوف والموسيقى والفقه والطب ، وقد نهج لسان الدين فى هذه الكتب نهج السجع وإن كان لا يلتزمه دائماً على نحو ما نعرف فى كتابه (الإحاطة فى أخبار غرناطة) وهو مطبوع فإنه قلما يسجع فيه . ومن يرجع إلى رسائله يجدها تمتاز بالإطناب المسرف ، وما يُطْوى فى هذا الأطناب عادة من لفٍّ ودوران يجعلنا نذكر أصحاب التصنع فى المشرق ، وإنه ليتسع بإطنابه حتى يفقد قارئه نشاطه لأن منظر المعانى ينبسط أمام بصره انبساطاً يخرجها من حيِّز التنوع إلى حيِّز الاستمرار والإملال ، وتنبه لذلك بعض السابقين فقال : « هو كاتب مترسل بليغ لولا ما فى إنشائه من الإكثار ، الذى لا يخلو من عِثار ، والإطناب ، الذى يفضى إلى الاجتناب ، والإسهاب ، الذى يَقُدُّ الإهاب »[٣] ، وليست ظاهرة الإطناب هى كل ما اقترضه فى سجعه برسائله من أصحاب التصنع من المشارقة ، بل تقترن بها ظاهرة أخرى معروفة لديهم ، وهى ظاهرة التصنع لمصطلحات العلوم

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٧/٣٣٥ .

(٢) أزهار الرياض (طبع لجنة التأليف) ١/١٩٣ .

(٣) نفح الطيب ٣/٣٣٥ .

وخاصة العلوم اللغوية ، وحقًّا إن ابن الخطيب لا يكثر منها ، ولكنها موجودة – على كل حال – فى نثره ورسائله ، ونحن ننقل إلى القارئ صدر رسالة كتب بها عن سلطانه إلى خليفة الموحدين بالأندلس ، وهى رسالة طويلة تقع فى نحو عشرين صحيفة من القطع الكبير وهو يستهلها على هذا النمط (١) :

« الخلافة التى ارتفع عن عقائد فضلها الأصيلِ القواعدِ الخلاف ، واستقلت مبانى فخرها الشائعِ ، وعزها الذائع ، على ما أسسه الأخلاف ، ووجب لحقها الجازمِ وفرضها اللازم ، الاعتراف ، ووسعت الآملين لها الجوانبُ الرحيبة والأكناف ، فامتزاجُنا بعلائها المنيف ، وولائها الشريف ، كما امتزج الماء والسُّلاف ، وثناؤنا على مجدها الكريم ، وفضلها العميم ، كما تأرَّجت الرياض الأفواف ، لما زارها الغمام الوكَّاف ، ودعاؤنا بطول بقائها ، واتصالِ علائها ، يسمو به إلى قرع أبواب السموات العلا الاستشراف ، وحرصُنا على توفية حقوقها العظيمة وفواضلها العميمة ، لا تحصره الحدود ، ولا تدركه الأوصاف ، وإن عَذَرَ فى التقصير عن نيل ذلك المرام الكبير ، الحقُّ والإنصاف » .

واستمر لسان الدين فى هذه المقدمة طويلا ، ونحن نكتفى بهذه القطعة منها لأننا نستطيع أن نتبين فيها الصفات العامة للسان الدين ، فهو يعتمد على السجع ، وهو يعتمد على التصنع لبعض مصطلحات العلوم ، إذ تصنع لألفاظ القواعد والمبانى والجزم والحدود ، وليس ذلك كل ما يميزه فى هذه القطعة ، فهناك جانب لعله أهم وأدخل فى باب التصنع ، وذلك أنه بنى سجعاته فى هذه القطعة كلها على الفاء ، ولكن تأمل فى القطعة فإنك تراه استخرج من كل سجعة سجعتين داخليتين ، وما من شك فى أن هذا ضرب جديد من التصعيب ، وصل إليه لسان الدين لأنه يريد أن يثبت تفوقه فى عصره ، فإذا هو لا يسجع سجعاً بسيطاً على طريقة الكتَّاب الأندلسيين من قبله ، وإنما يسجع هذا السجع المركب إن صح هذا التعبير ، واستمر معه فى الرسالة فستراه يصف حصار

---

(١) انظر الرسالة بأكملها فى صبح الأعشى ٦/٥٣٦ وما بعدها .

سلطانه لقرطبة على هذا النحو :

« ثم تأهبنا لغزو أم القرى الكافرة ، وخزائن المزاين الوافرة ، وربة الشهرة السافرة والأنباء المسافرة ، قرطبة ، وما أدراك ماهيه ، ذات الأرجاء الحالية الكاسية ، والأطواد الراسخة ، والمبانى المباهية ، والزهراء الزاهية ، والمحاسن غير المتناهية ، حيث هالةُ بدر السماء ، قد استدارت من السور المشيد البناء ونهر المجرّة من نهرها الفياض ، المسلول حسامه من غُمود الغياض ، قد لصق بها جاراً ، وذلك الدولاب ، المعتدل الانقلاب ، قد استقام مداراً ، ورجّع الحنين اشتياقاً إلى الحبيب الأول وادّكاراً ، حيث الطَّوْدُ كالتاج ، يزدان بلُجَيْن العذب المُجاج ، فيُزْرى بتاج كسرى ودارا ، حيث قِسِيُّ الجسور المديرة ، كأنها عوج المطىّ الغريرة ، تعبر النهر قطاراً ، حيث آثار العامرىّ المجاهد ، تَعْبَقُ بين تلك المعاهد شَذًى معطارا ، حيث كرائم السحائب ، تزور عرائس الرياض الحبائب ، فتحمل لها من الدرّ نثارا ، حيث شَمول الشَّمال تدار على الأدواح ، بالغُدوّ والرَّواح ، فترى الغصون سُكارى وما هى بسكارى ، حيث أيدى الافتتاح ، تفتضُّ من شقائق البِطاح ، أبكارا ، حيث ثغور الأقاح الباسم ، تقبِّلها بالسحر زوّار النواسم ، فتخفق قلوب النجوم الغيارى ، حيث المصلّى العتيق قد رحُب مجالا وطال مناراً ، وأزرى ببلاط الوليد احتقاراً ، حيث الظهور المثارة بسلاح الفلاح تجبّ عن مثل أسنمة المهارَى ، والبطون كأنها — لتدميث الغمائم — بطون العذارى » .

وأنت ترى لسان الدين فى هذه القطعة يلتزم لازمة السجع المركب التى لاحظناها فى القطعة السابقة ، وقد ظهرت هنا عليه آثار التكلف بأوسع مما ظهرت فى القطعة السالفة لأنه كان هناك بادئاً للرسالة ، أما هنا فقد طال به النفس فظهرت علامات التعب عليه ، وكلمة التعب لا تكفى ، فإن ما أداه فى هذه القطعة لا تنهض به هذه الكلمة ، وإنما تنهض به كلمة أخرى كالتصعيب أو التعقيد . والحق أن لسان الدين كان يسعى حثيثاً فى أعماله إلى التمسك بأهداب مذهب التصنع الذى شاع فى المشرق ، وقد ذهب يقترح على الكتّاب هذا

السجع المركب ليدل على مبلغ تفننه وجودة ترسله ، وإنه ليضيف إلى ذلك تكلفاً واسعاً لألوان البديع وزخارفه ، وخاصة السجع والجناس ، وكان يُشْغَفُ — كما نرى فى هذه القطعة — بالجناس الناقص ، ولكن لا تظن أن هذا هو منهج لسان الدين الدائم ، فقد كان الكاتب الأندلسى يتنقل بين المفاهيم المختلفة للمشارقة ، ومن أجل ذلك كنت ترى عند لسان الدين رسائل كهذه الرسالة تندمج فى ذوق أصحاب التصنع ، وما تلبث أن ترى له رسائل أخرى تندمج فى ذوق أصحاب التصنيع ، وقد ينفر من الذوقين جميعاً كما نرى فى كتابه (الإحاطة) . وإذاً فابن الخطيب لا يرتبط بمذهب معين من مذاهب المشرق ، بل هو يتنقل بين هذه المذاهب ، وإن كان أقرب مذهب إلى ذوقه وذوق عصره هو مذهب أصحاب التصنع ، ولكن ذلك لا يمنع أن نجد عنده نماذج يحاكى بها أصحاب الصنعة والتصنيع ، وهذا شىء لا يختص بلسان الدين ولا بنماذجه ، بل هو عام فى الأندلس لعصره وقبل عصره ، فدائماً نجد الكاتب الواحد تتوزعه مذاهب المشرق المختلفة ، وغاية ما فى الأمر أن الأندلسيين كان يغلب عليهم فى العصر الأموى ذوق أصحاب الصنعة ، بينما كان يغلب عليهم فى عصر ملوك الطوائف ذوق أصحاب التصنيع ، أما بعد ذلك فقد غلب عليهم ذوق أصحاب التصنع ، ومع ذلك فقد درسنا ابن شهيد فوجدناه يتوزعه المذهبان الأولان ، بينما كان ابن زيدون فى عصر ساد فيه ذوق التصنيع ، ومع ذلك فقد رأيناه فى بعض رسائله ينحو نحو أصحاب التصنع من بعض الوجوه ، وهذا لسان الدين ذوقُه وذوق عصره تصنعٌ ، واندمج فى التصنع ، ومع ذلك فله رسائل تخلو من هذا التصنع ، بل قد تخلو من التصنع والتصنيع جميعاً ، وهذا نفسه هو ما نريد أن نصل إليه ، وهو أن الكتّاب فى الأندلس كانوا يخلطون فى محاكاة المذاهب المشرقية ونماذجها ، فلم يتقيد أحد منهم بمذهب معين من جهة ولم يدرسوا مذاهب المشرق دراسة علمية منظمة من جهة أخرى ، بحيث تتيح لهم هذه الدراسة أن يبتكروا مذهباً أو يستحدثوا اتجاهاً ، فقد كانوا جميعاً يعيشون فى إطار المذاهب المشرقية معيشة تجعلنا نزعم أن أصول هذه المذاهب كانت أثبت وأروع فى تاريخ النثر العربى من أن تصيبها الأقاليم المختلفة بتبديل أو تغيير .

الفصل الثانى

مصر والمذاهب الفنية

١

مصر

تمتد مصر على ضفاف النيل من مشارف أسوان إلى تخوم بحر الروم ، مطلّة عليها من الغرب الصحراء الغربية ومن الشرق الصحراء الشرقية ، وقد استطاعت أن تنهض نهضة واسعة فى العالم القديم ، بل لقد استطاعت أن تلعب أقدم دور فى تأسيس الحضارة الإنسانية ، وهو دور لا تزال أهراماته وصروح آثاره ماثلةً تحت أعيننا تعبر أروع تعبير عن مدى ما بلغته مصر من مدنية ، وقد أخذت تنشر هذه المدنية فى الأمم المجاورة متخذة ضمّها إلى ممتلكاتها سبيلها إلى ذلك ، فضمّت فى أطوار مختلفة الشام وأجزاء من بابل وآشور ، وتمضى أحقاب متطاولة ولمصر المكانةُ الأولى بين الأمم القديمة ثم يدور الزمن دورةً ، فيغزوها الرعاة الهكسوس ، ولكن سرعان ما تعود إلى نفسها فتطردهم منها ، وتخرج مرة أخرى إلى آسيا فتستولى على بعض أجزائها ، ولكن الزمن يدور دورة بل دورات فإذا مصر يغير عليها الحيثيون ثم الأشوريون ثم الفرس ، وتستمر تابعة لهم منذ عام ٥٢٥ ق.م ، حتى يخرجهم منها الإسكندر المقدونى عام ٣٣٣ ق.م ، وبذلك تنتقل إلى حكم الإغريق ويختطّ بها الإسكندر مدينة الإسكندرية ، كما يختطّ بها بطليموس أحد قواد الإسكندر دولة كبيرة استطاعت أن تنهض بها نهضة واسعة ، وهى دولة البطالسة التى أقامت فى الإسكندرية داراً كبيرة للكتب ، كما أقامت داراً أخرى سمتها دار المتحف ، وكانت جامعة كبيرة أضاءت منها أنوارُ الثقافة اليونانية وخاصة بعد أن استولى الرومان على أثينا ، فإن كثيراً من أساتذتها فرّوا ومعهم ما تبقى من مصابيح تلك الثقافة إلى

الإسكندرية ، وقد رجعت هذه المصابيح تضيء متوهجة بمصر طوال عصر البطالسة ، وبعد البطالسة ، فإن جامعة الإسكندرية ظلت قائمة فى عهد الرومان الذين استولوا على مصر منذ عام ٣١ م ، ونحن نعرف أن روما لم تحاول أن تبعث فى مصر نهضة ثقافية إذ كانت تتخذها مخازن لما يلزمها من قمح ، وكم أثارتْ فيها من حروب وسفكت من دماء وأزهقت من أرواح !

وتدور عجلة الزمن دورة فإذا عمرو بن العاص يأتى على جيش عربى كبير عام ٦٤٠ م متخذاً طريقه تلك الدروب والمسالك التى كانت تشق طور سيناء إلى مصر ، ويتعقب الرومَ فى غير موقع ، ويستطيع — بما أوتى من قوة — أن يطردهم منها ، وبذلك تدخل مصر فى عصر جديد هو عصر الإسلام والعروبة ؛ وهو عصر امتاز منذ أوائله بالعدل وأن يكون الناس سواسية أمام حاكمهم فلا يُضْطهد أحدٌ فى نفسه ولا فى ماله ولا فى دينه ، وقد أخذ المصريون يدخلون فى دين الله أفواجاً ، وهاجر إليهم كثير من قبائل العرب ونزلوا ريف مصر ، فكان ذلك عاملا من عوامل الاندماج بين المصريين والعرب . على أنه ينبغى أن لا يُفْهَمَ من ذلك أن المصريين تقبّلوا الحكم العربى وخضعوا له خضوعاً ، بل كانوا كثيراً ما يثورون[١] ، وخاصة من أجل الضرائب التى كانوا يؤدونها ، ولولا أن موجة الإسلام كانت حادة ما استطاع العرب أن يستمروا بمصر ، فإن المصريين نزعوا عن دينهم أو قل نزعت كثرتهم عن دينها إلى الدين الجديد ، وحتى من بقى منهم على دينه أخذ يهجر لغته القبطية وما كان يعرف من اليونانية إلى اللغة العربية بحيث لا نصل إلى القرن الرابع حتى نجد أسقف أشمون يشكو من انعدام اللسانين القبطى واليونانى فى قبط مصر[٢] ، وما من ريب فى أن ذلك يؤكد اندفاع مصر اندفاعاً شديداً نحو التعرب واتخاذ العربية لساناً لها ، فقد نزعت عنها ثيابها اللغوية القديمة واتخذت مكانها ثياباً عربية جديدة .

---

(١) Stanley, Lane-poole, A History of Egypt in the Middle Ages, pp. 28, 32

(٢) انظر كتاب سير البطاركة لساويرس (طبع بيروت) ص ٦ وهو مؤلف بعد عام ٤٠٠ هـ بقليل .

٢

شخصية مصر

من يبحث مصر فى مختلف عصورها يجدها أشبه ما تكون بمعبد كبير أغلقت أبوابه على طائفة من الرسوم والطقوس لا تتغير ولا تتبدل ، بل دائماً تظل كما هى فى كل حكم وفى كل عصر . وهذا المعبد الكبير أتيحت له أسباب طبيعية جعلته يعيش معيشة مستقلة فى عاداته وتقاليده ، ونقصد بتلك الأسباب ما قام على أسواره من الصحراء الشرقية والغربية ، فإنهما عزلتاه عن الاختلاط والانسياح فى الأمم الأخرى ، وحقاً قد تمرّ بهذا المعبد العظيم عاصفة هوجاء فتَتفتَّحُ أبوابه ويدخل جيش فاتح على رأسه قائد مظفر ، ولكن سرعان ما يذوب هذا الجيش ويَفنَى فى أبناء المعبد وطقوسهم وعاداتهم . وفى هذا المعبد يجرى نهر النيل نافثاً لُعابه من حوض إلى حوض فى أوان « يَدِرّ حِلابه ، ويكثر فيه ذبابه » ، وحول هذا النهر يعيش المصريون من عصر الفراعين إلى العصر الحديث « يحرثون بطون الأرض ، ويبذرون بها الحبّ ، يرجون بذلك النماء من الربّ » ، وقد ظلوا يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام وجيلا بعد جيل يعملون على وتيرة واحدة ، ينقلون الماء من هنا إلى هناك بهذه الأوانى من الطّوابير وما يتصل بها ، يبعثون الحياة فى وديان مصر وأحواضها « فبينما مصر لؤلؤةٌ بيضاء ، إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضرة ، فإذا هى ديباجة رَقْشاء » . وهكذا مصر دائماً : كتاب أحكمت سطوره ونقوشه منذ أقدم الأزمنة ، وما تزال هذه السطور والنقوش واضحة غير مطموسة ، فالناس يعيشون كما كان يعيش آباؤهم وأسلافهم يربضون فى وديان النيل فى تلك المياه المُشْبعة بالطّمْى ، يديرون آلات لا تكاد تختلف فى شيء عن آلات أجدادهم ، وإنهم ليحيون بطرق لا تختلف أيضاً كثيراً عن طرق أسلافهم . ومن ثَمّ كانت مصر بلداً محافظاً يحتفظ بشخصيته ومقوماتها على مر العصور ، وقد كان لذلك أثر جليل

فى تاريخ مصر ، فإنها استطاعت أن تحتمل الفتوح المختلفة ، وأن تصمد لها دون أن يُطْمَس شيء مهم من معالمها لما لديها من امتناع عن التحول وقدرة على الإساغة والهضم ، فإذا هى تهضم ما يدخل إليها من عناصر أجنبية ، هضمت قديماً الرعاة الهكسوس وما دخلها من عناصر الأشوريين والحيثيين والفرس واليونان والرومان ، بل لقد هضمت عناصر العرب أنفسهم مع اتساع تأثيرهم فيها من الوجهتين الدينية واللغوية .

وهذه المحافظة فى مصر وما يطوى فيها من مقدرة على الاستمرار ليس معناها أن مصر تستعصى على العناصر الثقافية عند الأمم الأجنبية ، فكثيراً ما تقبّلت قديماً وحديثاً هذه العناصر وحاولت أن تهضمها وتُعيدها فى صورة جديدة تلائمها ، ولعل أوضح ما يفسر ذلك ما كان من استقبالها فى الإسكندرية للثقافة اليونانية ، فقد استطاعت أن تستوعبها ، وأن تنفذ من ذلك الاستيعاب إلى مذهب جديد فى الفلسفة هو مذهب الأفلاطونية الحديثة ، وهو مذهب يعتمد على العناصر اليونانية من جهة والعناصر المصرية وما يتصل بها من معتقدات من جهة أخرى . و لم تحاول مصرُ الاتصال بثقافة اليونان الذين فتحوها فقط ، بل نراها تحاول الاتصال بثقافات أخرى لم يكن لأهلها نفوذ سياسى بها ، ولعل خير مثال لذلك اتصالها بالثقافة السريانية فى أثناء الحكم الرومانى ، وخاصة فيما يتصل بدراسة الطب ، يقول بتلر : « قد كان ثمة اتصال خاص بين لغة السريان ودراسة الطب ، وإنه لا يبعد أن أعظم كتب الطب فى القرنين السادس والسابع كانت باللغة السريانية ، ولا شك أن تلك اللغة كانت ذائعة بين الناس وأن آدابها كانت دائماً تدرَسُ فى الإسكندرية حتى قبل أن تفد جموع العلماء إلى مصر من سوريا عند غزْو الفرس لها »[1] ومن هذه اللغة تُرْجم لعمر بن عبد العزيز كتاب أهرون القس فى الطب[2] ، ولم تنس مصر لغتها القبطية ، فقد كانت تتخذها فى طقوسها الدينية كما كتبت

---

(١) فتح العرب لمصر (الترجمة العربية) (طبع لجنة التأليف) ص ٨٤ .

(٢) تاريخ الحكماء (مختصر الزوزنى) طبع ليبزج ص ٣٢٤ .

بها بعض كتابات تاريخية[١] . على أنه ينبغي أن نعرف أن جامعة الإسكندرية اليونانية هجرها أساتذتها إلى مدرسة أنطاكية فى عهد عمر بن عبد العزيز ، ولذلك لا نسمع بعد عصره عن خليفة أو أمير يطلب علماء الإسكندرية على نحو ما طلب خالد بن يزيد بن معاوية جماعة منهم لترجمة ما عندهم من كتب فى الكيمياء[٢] . ومع ذلك فإغلاق هذه الجامعة إنما اقتصر تأثيره على الجانب الإغريقى ، أما الجانب السريانى وما يتصل به من الطب فقد استمر فى مصر ، إذ كان العلماء السريان منبثين فى الأديرة ، فكان يقصد الطلاب إليهم ، وكان الطب يتوارثُ فيهم ، ولذلك ظلت مصر تشتهر بأطبائها حتى عصر متأخر ، وممن اشتهروا فيه سعيد بن توفيل النصرانى طبيب ابن طولون[٣] ، وسعيد بن البطريق : « وكان طبيباً نصرانيًّا من أطباء فسطاط مصر . وقد عُيِّن بطريركاً على الإسكندرية سنة ٣٢٨ﻫ ، وله كتب فى الطب والجدل »[٤] .

ومهما يكن فقد استمرت بمصر بقايا من التراث اليونانى ، حتى بعد إغلاق جامعة الإسكندرية ، إذ ظلت بها رواسب من علم إقليدس فى الفلك ومن علم الكيمياء ومن الأفلاطونية الحديثة وما يتصل بها من غنوسطية ودراسات لاهوتية ، وما من ريب فى أن الحركة الصوفية التى ظهرت بمصر فى القرن الثالث وعلى رأسها ذو النون المصرى الإخميمى كانت تتأثر تأثراً مباشراً بما بقى من هذه الجامعة ، وخاصة إذا عرفنا أن أول انبعاث لهذه الحركة كان فى الإسكندرية عام ٢٠٠ ﻫ[٥] ، وأيضاً فهم يقولون إن ذا النون المصرى كان عالماً فى الكيمياء ، وقد ردوا كثيراً من آرائه إلى مذهب الأفلاطونية الحديثة . وكما تأثر التصوف بالأفلاطونية والغنوسطية الإسكندرية تأثر كذلك التشيعُ بهما فى العصر الفاطمى ولعله من أجل ذلك كان الفاطميون يدعون إلى التثقف بالثقافة الفلسفية ،

---

(١) فتح العرب لمصر ص ٨٥ .

(٢) الفهرست لابن النديم (طبع مصر) ص٣٣٧ ، ٥٠٧ .

(٣) النجوم الزاهرة طبع دار الكتب ١٧/٣ .

(٤) طبقات الأطباء ٨٦/٢ .

(٥) الولاة والقضاة للكندى ص١٦٠ وانظر أيضاً ص ٤٤٠ .

إذ كانت هذه الثقافة فعلا مؤثرة آثاراً عميقة فى عقيدتهم الشيعية .

وقد سارعت مصر بعد إسلامها إلى العناية بالدراسات الدينية من تفسير وحديث وفقه وقراءات ، كما سارعت إلى العناية بالعلوم اللغوية من نحو وعروض ولغة وأدب ، فكان منها اللغويون والنحويون ، كما كان منها الفقهاء والمحدِّثون والقراء ، وأيضاً كان منها المؤرخون الذين أرخوا لفتوحها . وكان جامع عمرو بن العاص هو الجامعة الكبرى التى تدرس فيها العلوم الإسلامية ، وهى دراسة كانت تنساق نحو تقليد بغداد فى علمها وما وصلت إليه فى الدراسات المختلفة ، ومصر من هذه الوجهة تشبه الأندلس تمام الشبه ، فكما أن الأندلس قلدت المشرق فى علومه الدينية واللغوية ، أو قل بعبارة أدق إنها نقلت هذه العلوم منه ، كذلك مصر فإنها اعتمدت على النقل أكثر مما اعتمدت على الإبتكار ، ولم يكن هذا شأنها فقط فى العلوم الدينية واللغوية ، بل كان شأنها أيضاً فى حركتها الأدبية ، فإنها كانت تصوغ نماذجها على مثال النماذج البغدادية ، إذ كان الأدباء يعجبون فى مختلف الأقاليم العربية بهذه النماذج ، وهو إعجاب طبَع أدبهم من شعر ونثر بطابع أصيل من التقليد ، وسنرى هذا الطابع يستمر فى جميع ما أنتجت مصر من نثر فى أثناء عصورها الوسيطة ، ومن ثَمّ لم تستطع أن ترفد مجرى النثر العربى العام بجدول جديد تتميز مياهه من مياه المجرى العام ، فليس هناك مذهب جديد ، وإنما الذى هناك دائماً هو التقليد والمحاكاة على نحو ما رأينا فى الأندلس ، وكان ذلك سمة الأقاليم جميعاً ، فهى تقرأ نماذج المشرق التى صُنعت داخل مذاهب الصنعة والتصنيع والتصنع ، ثم تحاول أن تصوغ نماذج مشابهة لتلك التى تقرؤها ، ذاهبة أحياناً مذهب أهل الصنعة ، وأحياناً أخرى مذهب أهل التصنيع أو التصنع فى غير نسق ولا نظام مطرد ، وإن الإنسان ليعجب إذ يرى هذه المذاهب التى صنعها المشرق تكتسح أمامها جميع الحدود القومية فى الأقاليم العربية دون أن يعترضها حاجز أو يقف أمامها عائق ، ومن العبث حقاً أن نبحث عن مذهب جديد يُحدثه أى إقليم ، وكأنما ضاقت أبواب التجديد أمام الأدباء فهم

يُوَلُّون وجوههم دائماً شطر بغداد يتعبدون أمثلتها ويحتذون على ما أخرجته من نماذج فى الشعر والنثر .

٣

النثر المصرى

إذا أخذنا نبحث عن وثائق الكتابة الأدبية فى مصر فى أثناء الفترة الأولى ، ونقصد فترة الولاة من عمرو بن العاص إلى أحمد بن طولون لم نكد نتبين شيئاً واضحاً ، وليس معنى ذلك أنه لم يكن فى مصر كتابة ولا كتّاب ، فالمقريزى يقول : « لما كانت مصر إمارة كان بها ديوان البريد . ويقال لمتوليه صاحب البريد . . وهو الذى يطالع بأخبار مصر ، كما كان لبعض أمراء مصر كُتّاب يُنشئون عنهم الكتب والرسائل »[١] ، وبجانب ديوان البريد الذى يشير إليه المقريزى كان بمصر ديوان للخراج ، وكانوا يكتبون فيه أولا باليونانية ثم كتبوا فيه منذ عهد عبد الملك أو ابنه الوليد بالعربية ، ومن يستعرض ما جاء فى كتاب الوزراء والكُتّاب للجهشيارى عن دواوين مصر وكُتّابها فى العصر الأموى وأوائل العصر العباسى يلاحظ أن الكتاب الرسميين الذين يتصلون بديوان البريد وديوان الخراج كانوا غالباً من غير المصريين ، فهو يروى أن عبد العزيز بن مروان والى مصر كان يكتب له يناسُ بن حُمايا من أهل الرُّها [٢] ، كما يروى أن سليمان بن عبد الملك ولّى رجلا من موالى معاوية الخراج بمصر[٣] . هذا فى العصر الأموى ، أما فى العصر العباسى فيروى الجهشيارى أن هرون الرشيد ولى على مصر عمر بن مهران كاتب الخيزران ، فأخذ معه رجلا استكتبه على الديوان[٤] ، وكذلك يروى أن الخصيب استكتب جابر بن داود جَدّ البلاذرى

---

(١) خطط المقريزى طبع بولاق ٢/٢٢٦ .

(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٣٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٥١ .

(٤) الوزراء والكتاب ص ٢١٧ .

المؤرخ المشهور[١] ، وهو فارسى الأصل ، ولما ولى عبد الله بن طاهر مصر فى عصر المأمون اصطحب معه إسحق بن أبى ربعى ليكون كاتبه ، وفيه يقول بعض الشعراء[٢] :

أرَى كاتباً جاهُ الكتابة بَيِّنٌ ... عليه وتأديب العراق مُنيرُ
له حركاتٌ قد تشاهد أنهُ ... عليمٌ بتقسيط الخراج بصيرُ

وقد سُقنا ذلك لندل على أن مصر لم تستفد كثيراً فى عهد الولاة من حيث النشاط الأدبى فى باب الكتابة الرسمية ، إذ كانت تستورد كتّاب دواوينها من الخارج ، ومن أجل ذلك لم يكن لها نشاط واضح فى هذا الجانب إلا ما رواه المقريزى من أنه كان لبعض أمرائها كُتَّاب ينشئون عنهم بعض الرسائل ، ومن هؤلاء الكُتَّاب عبد الله بن صالح كاتب الليث بن سعد[٣] ، ولعل مما يتصل بذلك ما يقال من أنه كان لعبد الحميد الكاتب عقبٌ يسكنون مصر منذ قُتل فى موقعة الزَّاب وكانوا يكتبون لأمرائها[٤]. على أنه ليس عندنا نصوص لهذه الطائفة من كتاب الأمراء ، ولا للطائفة الأخرى من كتاب الولاة ، ومن ثمَّ كنا لا نُبعد إذا قلنا إن مصر لم تستولها صورة واضحة من الكتابة الفنية فى عصر الولاة غير أننا لا نصل إلى عصر ابن طولون الذى استقل بها ، وأسَّس فيها دولة كان لها شأن مهم فى القرن الثالث للهجرة حتّى نجد مصر تبدأ عصراً جديداً فى تاريخ النثر الأدبى ، وذلك لسبب بسيط ، وهو أن ابن طولون اتخذ لنفسه ديوان رسائل ، وبذلك وجدت الوسيلة لنشوء حركة أدبية تماثل ما نشأ فى دمشق و بغداد حول دواوين الرسائل ، يقول صاحب صُبْح الأعشى : «لم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية فى مدة نواب الخلفاء صرفُ عناية تقاصُراً عن التشبه بديوان الخلافة ، إذ كانت الخلافة يومئذ فى غاية العز ورفعة السلطان ، ونيابةُ مصر بل سائر النيابات مضمحلة فى جانبها ، والولايات الصادرة

---

(١) الوزراء والكتاب ص ٢٥٦ والفهرست ص ١٦٤ .
(٢) النجوم الزاهرة ٢/١٩٣ .
(٣) الوزراء والكتاب ص ٥٤ .
(٤) نفس المصدر ص ٨٢ .

عن النواب فى نياباتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة من الولايات ، فلذلك لم يقع مما كُتب منها ما تتوافر الدواعى على نقله ، وتنصرف الهمم لتدوينه ، مع تطاول الأيام وتوالى الليالى . . ولما أخذ أحمد بن طولون فى تدبير الملك وإقامة السلطنة بالديار المصرية ، وشمخ بها سلطانه ، وارتفع بها شأنه ، أخذ فى ترتيب ديوان الإنشاء (ديوان الرسائل) لما يحتاج إليه فى المكاتبات والولايات فاستكتب ابن عَبْد كان فأقام منار ديوان الإنشاء ورفع مقداره »[1] ، ولم يكتف ابن طولون بابن عَبْد كان ، فقد جاء بجماعة من كتاب العراق تعاونه مثل أبى عَبْد الله الواسطى[2] ويعقوب بن إسحق[3] وأحمد بن أيمن ، وكان يكتب فى حداثته للعباس بن خالد البرمكى[4] وضمّ إلى هؤلاء الكتاب آخرين من كتّاب مصر وعلى رأسهم الحسن بن محمد بن أبى المهاجر وإخوته على وأبو القاسم وأبو عيسى ، وكلهم من عقب عبد الحميد الكاتب[5] . وبذلك كله نهض ابن طولون بديوان الرسائل فى مصر نهضة عظيمة ، وهى نهضة جعلت بعض كتاب العراق يهاجر إلى مصر طلباً للتوظف فى هذا الديوان على نحو ما يحدثنا ياقوت عن إسحق بن نصير[6] الكاتب البغدادى ، فقد قدم على ابن عبدكان رئيس الديوان والتمس منه التصرف ولم يزل معه إلى أن توفى ، فاستخلفه مكانه خمارويه وأجرى عليه أربعمائة دينار فى الشهر ثم رفعها إلى ألف دينار[7] . ويذهب عصر الطولونيين وتدخل مصر مرة أخرى فى عصر الولاة فيضعف بها ديوان الإنشاء ويستمر على ضعفه فى عصر الإخشيديين ، إذ لا نجد لمصر — على عهدهم — كاتباً مشهوراً يمكن أن نقرنه إلى ابن عبدكان الذى كان يباهى به ابن طولون كُتّاب بغداد

---

(١) صبح الأعشى (طبع دار الكتب) ١١ / ٢٨ .

(٢) المكافأة لأحمد بن يوسف طبعة (وزارة التربية والتعليم) ص ٢٠ .

(٣) المكافأة ص ٥٦ .

(٤) نفس المصدر ص ٩١ ، ١٦٧ .

(٥) الوزراء والكتاب ص ٨٢ .

(٦) هكذا فى ياقوت ، وفى صبح الأعشى وحسن المحاضرة والنجوم الزاهرة : نصر .

(٧) انظر معجم الأدباء ٦/ ٨٥ .

والعراق ، ونحن نقف عند هذا الكاتب وقفة قصيرة لنطلع على ما كانت تخرجه مصر فى عهده من نماذج الكتابة الفنية .

ابن عبدكان

هو أحمد بن محمد بن مودود [١] ، وقد نال شهرة واسعة فى عصره وبعد عصره ، ولكن كُتّاب التراجم لم يهتموا به ، وأغلب الظن أن ابن طولون اصطحبه معه من بغداد ، فاسمه يدل على أنه فارسى ، إذ الألف والنون تأتى فى الفارسية القديمة للنسبة بينما تأتى الكاف للتصغير ، وإذاً فعَبْدكان تقابل فى العربية عُبَيْدِىّ ، وقد أحضره ابن طولون إلى مصر وبقى بها حتى وفاته ، ويظهر أنه توفى بعد سيده ، إذ تتفق المصادر القديمة على أن إسحق بن نصير تولى ديوان الرسائل من بعده لخمارويه بن أحمد بن طولون [٢] . وعُرِف ابن عَبْد كان بجودة أدبه وفنه ، قال صاحب الفهرست : « كان بليغاً مترسلا فصيحاً ، وله ديوان رسائل كبير » [٣] ، ويقول ياقوت : « كان أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عبدكان على المكاتبات والرسائل منذ أيام أحمد بن طولون ، ومكاتباته وأجوبته موجودة » [٤] ، وقد أشاد به صاحب صبح الأعشى فى غير موضع من كتابه ، ومما قال فيه : إن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طبطب المحرر وابن عبدكان ، ويقولون : « بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما » [٥] ، ومر بنا فى غير هذا الموضع أن الصاحب بن عباد سأل رجلا من أهل الشام : رسائل مَن تُقرأ عندكم ؟ فقال : رسائل ابن عبدكان ، قالى : ومن ؟ قال : رسائل الصابى ، وفى اقتران ابن عبدكان ، وهو من كتاب القرن الثالث ، بالصابى وهو من كتّاب القرن الرابع قرن

(١) صبح الأعشى ١/ ٩٥ .
(٢) صبح الأعشى ١/ ٩٥ والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٣٦ وحسن المحاضرة للسيوطى (طبع مطبعة الموسوعات) ٢/ ١٤٦ .
(٣) الفهرست لابن النديم ص ١٩٧ .
(٤) معجم الأدباء ٦/ ٨٥ .
(٥) صبح الأعشى ٣/ ١٧ .

التصنيع ما يجعلنا نقف — من بعض الوجوه — على مبلغ مكانته الأدبية . على أن للمسألة وجهاً آخر ، وهو أن الناس فى النصف الثانى من القرن الرابع كانوا يعتدُّون بابن عبد كان ورسائله مع أننا نعرف أنهم لم يكونوا يأبهون لغير السجع والبديع فى تلك العصور ، وفى ذلك ما يجعلنا نحس شيئاً من الصلة بين آثار ابن عبد كان وآثار أصحاب التصنيع من أمثال الصابى ، والمسألة لا تحتاج كل هذا الاستنتاج فإن من يرجع إلى رسالته التى كتبها عن ابن طولون إلى ابنه العباس ، وكان قد شغَب عليه بالإسكندرية أثناء رحلة له بالشام ، وهى الرسالة التى احتفظت له بها المصادر القديمة يجده فيها يُعْنَى بالسجع عناية شديدة ، وحقًّا قد يتخفف منه ولكنه يلتزمه فى أكثر جوانب الرسالة مما يجعلنا نؤمن بأنه كان يعتمد عليه اعتماداً دقيقاً فى صنع رسائله ، وانظرْ إليه كيف يستهل تلك الرسالة(١) :

« من أحمد بن طولون مولى أمير المؤمنين إلى الظالم لنفسه ، العاصى لربه ، الملم بذنبه ، المفسد لكسْبه ، العادى لطوره ، الجاهل لقدره ، الناكص على عقبه ، المرْكوس فى فتنته ، المبخوس من حظ دنياه وآخرته ، سلامٌ على كل مُنيب ومستجيب ، تائب من قريب ، قبل الأخذ بالكَظْم ، وحلول الفوت والندم . . . أما بعد فإن مثلك مثل البقرة تُثير المدية بقرنيها ، والنحلة يكون حتفها فى جناحيها ، وستعلم هَبِلتك الهوابل — أيها الأحمق الجاهل ، الذى ثَنَى على الغَىِّ عِطْفه ، واغترّ بضجاج المواكب خلفه — أى مورد هلكة بإذن الله تورّدت إذ على الله عز وجلّ تمردّت وشردت ، فإنه تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلا (قرية كانت آمنة مُطْمئنة يأتيها رزقها رَغَداً من كل مكان ، فكفرت بأنْعُمِ الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) ، وإنا كنا نقربك إلينا ، وننسبك إلى بيوتنا ، طمعاً فى إنابتك ، وتأميلا لفَيْئتك ، فلما طال فى الغىّ انهماكك ، وفى غمرة الجهل ارتباكك ، ولم نر الموعظة تُلين

---

(١) صبح الأعشى ٧/ ٥ .

كبدك ، ولا التذكير يُقيم أودك ، لم تكن لهذه النسبة أهلا ، ولا لإضافتك إلينا موضعاً ومحلاّ . . . واعلم أن البلاء –بإذن الله– قد أظلك ، والمكروه – إن شاء الله – قد أحاط بك ، والعساكر – بحمد الله – قد أتتك كالسيل فى الليل ، تؤذنك بحرب وويْل ، فإنا نُقسم ، ونرجو أن لا نجور ونظلم ، أن لا نَثْنَى عنك عِنانا ، ولانؤثر على شأنك شأناً ، فلا تتوقّل ذروة جبل ولا تَلج بطن واد إلا تبعناك بحول الله وقوته فيهما ، وطلبناك حيث أممت منهما ، منفقين فيك كل مال خطير ، ومستصغرين بسببك كل خطب جليل ، حتى تستمرّ من طعم العيش ما استحليت ، وتستدفع من البلايا ما استدعيت ، حين لا دافع بحَوْل الله عنك ، ولا مزحزح لنا عن ساحتك ، وتعرف من قدر الرّخاء ما جهلت ، وتودّ أنك هُبلت ، ولم تكن بالمعصية عَجلت ، ولا رأىَ من أضَلّك من غُواتك قبلت ، فحينئذ يتفرىّ لك الليل عن صبحه ، ويُسْفر لك الحق عن مَحْضه ، فتنظر بعينين لاغشاوة عليهما ، وتسمع بأذنين لا وقر فيهما ، وتعلم أنك كنت متمسكاً بحبائل غرور ، متمادياً فى مقابح أمور ، من عُقوق لا ينام طالبه ، وبَغْى لا ينجوهاربه ، وغدْر لا ينتعش صَريعه ، وكفران لا يُودَى قتيله ، وتقف على سوء رويتّك ، وعظم جريرتك ، فى تركك قبول الأمان إذ هو لك مبذول ، وأنت عليه محمول ، وإن السيف عنك مغمود ، وباب التوبة إليك مفتوح ، وتتلهف والتلهف غير نافعك إلا أن تكون أجبت إليه مسرعاً ، وانقدت إليه منتصحاً » .

وأنت ترى ابن عبدكان فى هذه القطعة يعنى بموازنة عباراته موازنة تخرج به إلى السجع فإن تركه فإلى الازدواج ، وهذا يدل على أنه كانت تتأصّل عنده رغبة فى إحكام عباراته وتنسيقها تنسيقاً بديعاً ، وهو تنسيق كان يعتمد دائماً على الملاءمات الصوتية ، وكأنما كان أساس الكتابة الفنية فى رأى ابن عبدكان هو الموسيقى وإحسانها ، وقد طبعتْ هذه الموسيقىأسلوبه بطابع خاص من الترادف حتى يلاحم بين أصواته من جهة ، وحتى يحدث ما يريد من سجع وازدواج من جهة أخرى . وليس ذلك كل ما يميز صناعة ابن عبد كان ، فهناك

جانب تظهر بعض شياته فى تلك القطعة ، وهو جانب التصوير . والحق أن ابن عبدكان من أهم الكتّاب الذين ظهروا فى القرن الثالث لا فى مصر وحدها ، بل أيضاً فى بغداد نفسها ، وهو حقاً ليس مصرياً وإنما هو بغدادى ، ولكن مصر هى التى ظفرت به ، وقد استطاع أن يحقق لها كثيراً من أحلامها فى منافستها لبغداد على عهد ابن طولون . وليس كل ما يذكر لابن عبدكان فى هذا الباب هو صورة كتابته وما بها من فن وجمال ، بل إن هناك وجهاً آخر لعمله ، وهو أنه وضع للكتاب فى مصر رسوم الكتب وبماذا تنتهى وكيف تُعَنْوَن[١] . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن ظهوره بمصر كان طفرة ، وربما كان اعتباره تتميما لحلقة بغدادية أدق من اعتباره ابتداء لحلقة مصرية ، فإن مصر تراجعت بعده فلم تستطع أن تخرج كاتباً ممتازاً فى عصر الولاة بعد الطولونيين ولا فى عصر الإخشيديين ، وكأنها أبقت الكاتب الممتاز لعصر الفاطميين .

٤

الفاطميون ونهضة النثر المصرى

ما نكاد نشرف على النصف الثانى من القرن الرابع حتى تبدأ مصر صفحة جديدة ، وهى صفحة زاهية من جميع جوانبها السياسية والاجتماعية والفنية ، فقد دخلها الفاطميون فاتحين عام ٣٥٤ هـ وأسسوا فيها إمبراطورية عظيمة دانت لها شعوب أفريقيا الشمالية وبلاد الشام والعرب وخُطب باسمهم فى العراق وبغداد نفسها[٢] وحتى بلوخستان كانت تخضع لهم ، فابن حوقل يقول : إن أهلها كانوا يرسلون للخليفة الفاطمى بأموال وذخائر كثيرة[٣] ، ويقول ناصر خسرو الذى زار مصر عام ٤٣٩ للهجرة : إنه رأى بالقاهرة طائفة من أبناء الملوك والأمراء

---

(١) انظر صبح الأعشى ٨/ ١٦٠ وما بعدها .

(٢) انظر النجوم الزاهرة ٥/٤ وما بعدها .

(٣) المسالك والممالك لابن حوقل (طبعة ليدن) ص ٢٢٢ .

الذين جاءوا من أطراف العالم مثل أبناء ملوك جورجيا وملوك الديلم وأبناء خاقان تركستان[١] ، وأكبر الظن أن هؤلاء الأبناء كانوا بعوثاً لبلادهم تريد أن تنهل من منابع الثقافة الشيعية بمصر . وكل ذلك يؤكد عظم المكانة التى احتلتها مصر فى العصر الفاطمى ، وهى مكانة أهَّل لها نظام الدعاة الذى أقاموه ، فقد كان لهم دعاة منبثُّون فى كل صقع وفى كل ناحية يدعون لهم ، يقول المعز فى كتاب أرسله إلى أحد قواد القرامطة : « ما من جزيرة فى الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حُجَجٌ ودعاة يدعون إلينا : يدلُّون علينا ، ويأخذون بيعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علمنا ، ويُنذرون بأسنا ، ويبشرون بأيامنا ، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن »[٢] .

استطاع الفاطميون أن يرتفعوا بالقاهرة فى عصرهم إلى مرتبة لا تقل عن مرتبة بغداد فى أيام مجدها الأولى ، فقد بنوا فيها القصور الفخمة والمساجد الضخمة وزركشوا هذه القصور والمساجد بضروب مختلفة من الزخرف لا نبعد إذا قلنا إنها كانت منتزعة من حياتهم التى كانت تقوم على التأنق وهو تأنق ساعد عليه ثراء مصر الذى يبالغ المؤرخون فى وصفه ، ولعل مما يدل عليه من بعض الوجوه ما يقوله ابن ميسر من أن خراج دمياط وتنيس والأشمونين كان يزيد على مائتى ألف دينار فى العام[٣] ، ويقول ناصر خسرو : إنه رأى بالقاهرة رباطاً يحصل منه كل شهر ألف دينار ، وأن بالقاهرة مائتى رباط أكبر منه أو مثله[٤] . ويظهر أن هذا الثراء كان يعم الشعب وخلفاءه ووزراءه ، يقول ناصر خسرو : « رأيت فى مدينة مصر نصرانيًّا من سراتها قيل أن مراكبه وأمواله وأملاكه لا يمكن أن تُعَدّ ، وحدث فى سنة ما أن كان النيل ناقصاً وكانت الغلة عزيزة ، فأرسل الوزير إلى هذا النصرانى ، وقال ، ليست السنة رخاء ،

---

(١) سفرنامه لناصر خسرو (الطبعة العربية) طبع لجنة التأليف ص ٥٣ .

(٢) الاتعاظ للمقريزى (طبعة بونتز) ص ١٣٩ .

(٣) أخبار مصر لابن ميسر (طبع أوربا) ص ٤٦ .

(٤) سفر نامه ص ٦٣ .

والسلطان مشفق على الرعية ، فأعْطِ ما استطعت من الغلة إما نقداً وإما قرضاً ، قال النصرانى : أسعد الله السلطان الوزير ، إن لدىّ من الغلة ما يمكننى من إطعام أهل مصر الخبزست سنوات. . وكل من يستطيع الحكم يدرك كم ينبغى أن يكون لهذا الثرىّ لتبلغ غَلَّته هذا المقدار ، وأى سلام كانت فيه الرعية ، وأى عدل كان للسلطان بحيث يكون شعور الناس وأموالهم بهذا القدر»[١].

ويتكلم ناصر خسرو عن قصر الخليفة فيقول : إن قصره به نحو ثلاثين ألفاً من الخدم والجوارى ، وإنه رأى يوم فتح الخليج — وكان أحد الأعياد فى العصر الفاطمى — سرادقاً نُصب للسلطان على رأس الخليج ، وكان هذا السرداق من الديباج الرومى ، موشى كله بالذهب ، ومكلل بالجوهر ، وهو من الكبر بحيث يتسع ظله لمائة فارس ، وأمام هذا السرداق خيمة من أبى قلمون ، وسرداق آخر كبير ، ويسير فى ركاب السلطان عشرة آلاف فارس ، على خيولهم سروج مذهبه وأطواق وألجمة مرصعة ، وجميع لبد السروج من الديباج الرومى وأبى قلمون ، وكذلك كانت تسير إبل كثيرة عليها هوادج مزينة وبغال عَماريّاتها (هوادجها) مرصعة بالذهب والجوهر وموشاة باللؤلؤ[٢]. ويستطرد ناصر خسرو إلى وصف مائدة رآها للمستنصر يوم العيد فيقول : إنه رأى فى هذه المائدة شجرة أعدت للزينة تشبه شجرة الترنج ، كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر ، ومن تحتها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضاً[٣] . ومن يرجع إلى ما رُوى عن ثورة الأتراك فى عصر المستنصر أثناء المجاعة العامة بمصر يرى مبلغ ما كان فى دور الفاطميين من بذخ وترف يقصر عنهما الوصف ، فقد هجم الأتراك فى ثورتهم على قصر المستنصر ونهبوا ما فيه من مجاميع التحف والطُّرَف وباعوه بأبخس الأثمان ، فمن ذلك سبحة من الأحجار الكريمة قُوِّمت بثمانين ألف دينار وصندوق من الجوهر قوم بثلاثمائة ألف دينار ، وأربع عشرة كيلة من

---

(١) سفر نامه ص ٦٢ .

(٢) سفر نامه ص ٥٢ .

(٣) سفر نامه ص ٦٤ .

الجواهر ، وكثير من أوانى الذهب والفضة ، وأربعمائة صندوق من القطع الذهبية ، وحصيرة منسوجة بالذهب زنتها ثمانية عشر رطلا وشطرنج رقعته من الحرير ، وقطعة من الذهب والفضة والعاج والأبنوس المحلّى بالأحجار الكريمة ، وطاووس من الذهب رُصِّع بالجواهر وكانت عيناه ياقوتتين وريشه من الزجاج المموه بالذهب ، وديك من الذهب مرصَّع باللؤلؤ ، ومنضدة قوائمها من العقيق . . . ومضرب للخليفة الظاهر كان منسوجاً بالذهب ، ومضرب آخر للوزير اليازورى كلّفه ثلاثين ألف دينار ، إذ اشتغل فى صنعه مائة وخمسون فناناً مدة تسع سنوات ، وما لا يحصى من الطيب والعطور والثياب(١) وبجانب ذلك نجد المقريزى يقول : إن بنتاً للمعز تركتْ بعد موتها ألف ألف دينار وسبعمائة ألف(٢) ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : إن ابنة للحاكم تركت نيفاً وثمانين زيراً صينيًّا مملوءة مسكاً ، ووُجد لها جوهر نفيس من جملته قطعة ياقوت زنتها عشرة مثاقيل ، وكان إقطاعها فى السنة خمسين ألف دينار(٣) . وإذا تركنا قصر الخلفاء إلى الوزراء وجدنا ابن منجب يقول : إن إقطاع يعقوب ابن كلس أول وزرائهم كان مائة ألف دينار فى العام ، وقد خلف بعد موته من الجواهر ما قيمته أربعمائة ألف دينار ومن البز (الثياب والسلاح) ما قيمته خمسمائة ألف دينار(٤) ، وقد ترك الأفضل بن بدر الجمالى الذى قتله الخليفة الآمر ستمائة ألف ألف دينار عيناً ومائتين وخمسين إردبًّا دراهم نقد مصر وخمسة وسبعين ألف ثوبٍ أطلس(٥) . وهذه كلها صور تشبه أن تكون أقاصيص ، ولذلك اتهمها بعض الباحثين ، ولكن اتهامه لا دليل عليه ، فقد أجمع المؤرخون على صدقها وتوثيقها .

ونحن إنما سقنا هذا الوصف الطويل لثراء الفاطميين لننفذ منه إلى أنهم أوتوا مادة كفيلة بإحداث نهضة واسعة فى مصر سواء فى عقلها أو فى أدبها وفنها .

---

(١) خطط المقريزى ١/٤١٥ وما بعدها .

(٢) الخطط ١/٤١٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ٤/١٩٢ .

(٤) الإشارة إلى من نال الوزارة لابن منجب ص ٢٣ .

(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٢٢٢ .

أما من حيث العقل وما يتصل به من الحركات العلمية ، فإن مصر شهدت فى العصر الفاطمى نهضة علمية واسعة ، إذ شجع الفاطميون على الدراسة والثقافة ، وأكبر الدلالة على ذلك أنهم عملوا على تأسيس أكبر جامعة فى الشرق ، وهى جامعة الأزهر ، ذلك المسجد الذى بناه جوهر الصقلى ، وسماه بالأزهر تيمناً باسم فاطمة الزهراء ، ويرجع الفضل فى تحويل هذا المسجد إلى دار كبيرة للدرس والتثقيف إلى وزير الفاطميين الأول يعقوب بن كلس ، فهو الذى حوله إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والمدنية[١] ، وكان بيته يعتبر نادياً (صالوناً) كبيراً فى عصره ، فقد « رتب لنفسه مجلساً فى كل ليلة جمعة يقرأ فيه مصنفاته على الناس ويحضره القضاء والفقهاء والقراء والنحاة .. وأصحاب الحديث ، فإذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدونه المدائح ، وكان فى داره قوم يكتبون القرآن الكريم ، وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب حتى الطبّ »[٢] ، وتبع الوزراء يعقوب بن كلس يعنون بتشجيع الحركة العلمية . وبنى الحاكم داراً عظيمة للكتب سماها دار العلم « وحمل إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة ، ودخل سائر الناس إليها يقرءون وينسخون ، وأقيم لها خزانون وبوّابون ورُتّب فيها قوم يدرسون للناس العلوم »[٣] . ولعل من الطريف أن الفاطميين — مع أنهم كانوا مقيدين بنحْلة خاصة فيها تحجُّر عقلى واسع — كانوا فى الوقت نفسه يدعون لدراسة الفلسفة والتعمق فيها حتى ليقول المقريزى : « إن من جملة المعرفة عندهم أن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة »[٤] . ولعل سبب دعوتهم إلى التفلسف أنهم كانوا يؤولون الديانات والشرائع تأويلا يؤدى إلى تبديلها ، فاحتاجوا إلى اللسان الجدل المزود بالفلسفة حتى يُحسن ذلك . ومهما يكن فإن مصر ظفرت فى العصر الفاطمى بنهضة علمية واسعة ، ولعل مما يدل على ذلك ما رواه المقدسى الذى زارها فى أواخر

---

(١) Margoliouth, Cairo, Jerusalem and Damascus, p. 40.

(٢) وفيات الأعيان ٢/٣٣٤ .

(٣) خطط المقريزى ١/٤٥٨ .

(٤) خطط المقريزى ١/٣٩٥ .

القرن الرابع للهجرة من أنه رأى فى المسجد الجامع بها مائة مجلس وعشرة [١] ويقول ناصر خسرو : إن من رآهم فى مسجد الفسطاط لا يقلون فى أى وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغُرَباء والكُتَّاب الذين يحررون الصكوك والعقود [٢] .

وهذه النهضة العلمية الواسعة كان يؤازرها نهضة أدبية واسعة أيضاً، فقد كان الفاطميون يرون من الضرورى لدعوتهم أن يكون حولهم مجموعة نفيسة من الشعراء والكتاب تنافح عن مذهبهم ، وقد أتوا من المغرب وفى ركابهم ابن هانئ الأندلسى يريدون أن يفخروا به ويشعره على المشرق كما قال المعز أول خلفائهم بمصر [٣] ، وهو فخر لم يقفوا به عند ابن هانئ ، فقد عرفوا كيف يذيعون فى مصر نشاطاً واسعاً فى الشعر وصُنْعه بفضل جوائزهم ومكافآتهم ، وقد خصص العماد الأصبهانى مجلداً كبيراً فى خريدته وصفَ فيه آثار الشعراء الفاطميين وما كان من نماذجهم . وبإزاء هؤلاء الشعراء وُجدت طوائف من الكتَّاب الممتازين استخدمهم الفاطميون فى دواوينهم ، وعُنى الفاطميون بديوان الرسائل خاصة وسموه ديوان الإنشاء [٤] ، وتكثر الإشارة فى الكتب التاريخية عمن كتبوا فى هذا الديوان . وهناك نص طويل تتناقله هذه الكتب ، يصف تسلسل رؤساء الكتاب فى ديوان الإنشاء الفاطمى ، نجده فى صبح الأعشى وفى النجوم الزاهرة وحسن المحاضرة ، وجاء فى الكتاب الأول على هذا النحو : « لما ولى الفاطميون الديار المصرية صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتَّابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع فى الآفاق ذكره ، وولى ديوان الإنشاء عنهم جماعةٌ من أفاضل الكتاب وبلغائهم ، ما بين مسلم وذمى ، فكتب للعزيز بالله ابن المعز أبو المنصور ابن نسطوروس النصرانى ، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات فى أيامه فكتب للحاكم القاضى أبو الطاهر النهركى ، ثم كتب بعده لابنه الظاهر ، وكتب للمستنصر القاضى ولى الدين بن خيران

(١) أحسن التقاسيم (طبع أوربا) ص ٢٠٥
(٢) سفر نامه ص ٥٩ .
(٣) وفيات الأعيان ٢/٥ .
(٤) انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى (طبع فان فلوتن) ص ٧٨ وكذلك كتاب تاريخ الوزراء للهلال بن المحسن ص ١٥١ .

ثم ولىّ الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزراة ، وأبو سعيد العميدىّ ، وكتب للآمر والحافظ الشيخ الأجلّ أبو الحسن على بن أبى أسامة الحلبى إلى أن توفى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فكتب بعده ولده الأجل أبو المكارم إلى أن توفى فى أيام الحافظ ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرياسة أبو القاسم على بن سليمان بن منجب المعروف بابن الصيرفى ، والقاضى كافى الكفاة محمود بن القاضى الموفق أسعد بن قادوس وابن أبى الدم اليهودى ، ثم كتب بعد الشيخ أبى المكارم بن أبى أسامة المتقدم ذكره القاضى الموفق بن الخلاّل أيام الحافظ وإلى آخر أيام العاضد ، وبه تخرج القاضى الفاضل البيَسْانى ، ثم أشرك العاضد مع الموفق ابن الخلال فى ديوان الإنشاء القاضى جلال الملك محموداً الأنصارى (وهو ابن قادوس السابق) ثم كتب القاضى الفاضل بين يدى الموفق بن الخلاّل قرب وفاته فى سنة ست وستين وخمسمائة فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم »[١] وهذا النص الطويل له طرافته من حيث إنه يذكر أن الفاطميين لم يفرقوا بين مسلم وذمى فى وظائف ديوان الإنشاء ، وما من ريب فى أن ذلك يدل على أنهم كانوا يطلبون لهذا الديوان مَنْ تفوّق فى تحبير الكلام وصوغه دون تفريق بين من هو من دينهم ومن هو من غير دينهم ، ومن هو من نحلتهم ومن هو من غير نحلتهم ، فالبليغ التام يتولى هذا الديوان بغض النظر عن دينه ومذهبه ، فالبلاغة هى مقياسه وهى موضع تقديمه ، ولعل مما يدل على مدى تقدير الفاطميين للكاتب الممتاز فى تلك العهود ما يرويه ياقوت عنهم من أنهم جعلوا راتب صاحب ديوان الإنشاء ثلاثة آلاف دينار فى الشهر غير رسوم يتناولها عن السجلات والعهود وكتب التقليدات[٢] ، وبينما يروى ناصر خسرو أن راتب قاضى القضاة كان ألفى دينار فقط[٣] .

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن النص الطويل السابق لكتاب دواوين الإنشاء

---

(١) انظر صبح الأعشى ١/ ٩٦ والنجوم الزاهرة ٧/ ٣٣٧ وحسن المحاضرة ٢/ ١٤٦ .

(٢) معجم الأدباء ٤/ ٥ .

(٣) سفرنامه ص ٦٥ .

فى العصر الفاطمى إنما عرض لرؤسائهم فقط ، ومن يرجع إلى كتب التراجم ليبحث هؤلاء الرؤساء يجدها لا تهتم بهم فى الغالب ، وخاصة بالمتقدمين منهم ، وكتب القلقشندى بتفصيل وإسهاب عن دواوين الإنشاء فى مصر ومع ذلك لم يعرّف تعريفاً واضحاً بهؤلاء الكتاب ، وأيضاً فإنه لم يُعْنَ بحكاية آثارهم إذا نحن استثنينا قطعاً منثورة فيه عن ابن الصيرفى وابن قادوس والموفق ابن الخلال[1] ، ومع ذلك فإن ما رواه عن هؤلاء الثلاثة لا يفسر فنهم تفسيراً كاملا ، وهل نستطيع أن نحكم برسائل عارضة على فن كاتب إن لم تكن تلك الرسائل من أمهات رسائله ، ويتصل بذلك أن هؤلاء الثلاثة جميعاً إنما كانوا فى أواخر العصر الفاطمى ، فما شأن سابقيهم ؟ وأى آثار تركوها ؟ والحق أن المؤرخين خاصموا كتّاب الفاطميين ولم يصفوهم وصفاً واضحاً ، بسبب ما كانت عليه دولتهم من تشيع ، وكان ينبغى أن يفصل هؤلاء المؤرخون بين بغضهم للفاطميين وتشيعهم ، وبين تقديرهم لآثار من نشأوا فى ظلال دواوينهم ، وإن الإنسان ليعجب حقًّا إذ يرى نهضة الكتابة فى العصر الفاطمى لا تكاد تَبين إلا من خلال السطور ، ومن أجل ذلك لم يتبين مؤرخو الأدب مدى ما كان فى هذا العصر من حركة أدبية مزدهرة ! وإن من يقرأ فى معجم الأدباء لياقوت يجده يذكر أن ابن خيران المتوفى عام ٤٣٢ هـ أرسل بمجموع رسائله إلى بغداد ليعرضَ على الشريف المرتضى كى يودعه فى دار العلم هناك[2] . ويذكر عن العميدى الذى رأس ديوان الإنشاء بعد ابن خيران أن له كتاباً فى تنقيح البلاغة يقع فى عشر مجلدات ، وأن له كتاباً يسمى الإرشاد إلى حل المنظوم والهداية إلى نظم المنثور ، وكتاباً آخر يسمى انتزاعات القرآن ، وإن فى هذين الكتابين ما يدل على ميل العميدى إلى نثر الشعر فى رسائله واقتباسه الكثير من القرآن الكريم ، وهما صفتان استمرتا فى النثر المصرى من بعده ، روى له ياقوت

---

(١) انظر فى رسائل ابن الصيرفى وابن قادوس صبح الأعشى ٨/٣٢٤ وما بعدها وانظر فى رسائل ابن الخلال صبح الأعشى ١٠/٣١٠ وكذلك ١٠/٣١٨ .

(٢) معجم الأدباء ٤/٥ .

شعراً واضحاً فيه أثر الجناس[1] ، ولسنا ندرى هل كان يستخدمه فى نثره أولم يكن يستخدمه ، لهذه السدود التى أقامها المؤرخون بيننا و بين آ ثار العصر الفاطمى ، وأيضاً ليس لدينا نصوص واضحة عمن ولوا الديوان بعده فى عصر المستنصر ، فقد توفى العميدى عام ٤٣٣ ﻫ وخلفه أبو الطاهر النهركى ، وليس تحت أيدينا له رسائل نتعرف منها على فنه ، إنما الذى تحت أيدينا حقًّا هو مجموعة من رسائل كاتب آخر لعهد المستنصر ، ولم يكن من رؤساء ديوان الإنشاء ، ولكنه كان من كتَّابه الكثيرين وهو ابن الشخباء المتوفى عام ٣٨٢ ﻫ وربما كان أهم كاتب فاطمى احتفظت لنا المصادر بصورة واضحة من عمله ، ونستمر بعد ابن الشخباء فنلتقى بابن الصيرفى الذى خدم فى الديوان من عام ٤٨٥ ﻫ إلى عام ٥٣١ ﻫ ، ويقول ياقوت : إن له رسائل تزيد على أربع مجلدات ، ولكن هذه المجلدات فُقدت ، وما بقى من نثره لا يصوره تصويراً واضحاً ، وكذلك الشأن فى ابن قادوس الذى خدم من بعده فى ديوان الإنشاء على الرغم من أن القاضى الفاضل كان يسميه صاحب البلاغتين ، ولعل ما رواه صبح الأعشى عن الموفق بن الخلاَّل يفصح بعض الشىء عن فنه ، فنى رسالة له تصنُّع واضح لاصطلاحات النحو ، إذ يقول فى بعض جوانبها[2] :

« وراقب الله فيما ألقاه إليك ، فقد فوّض إليك مقاليد البَسْط والقبض ، والرفع والخفض ، والولاية والعزل ، والقطع والوصل ، والتولية والتصريف ، والصرف ، والإمضاء والوقف ، والغض والتنبيه ، والإخمال والتنويه ، والإعزاز والإذلال ، والإساة والإجمال ، والإبداء والإعادة ، والنقص والزيادة ، والإنعام والإرغام ، وكل ما تحدثه تصاريف الأيام » .

وإن مما لاشك فيه أن كتابة الرسائل بلغت فى العصر الفاطمى مبلغاً عظيما من الرقى والاكتمال ، بدت فيها منذ أوائل هذا العصر نزعة إلى السجع ، فإن من يرجع إلى الكتاب الذى كتبه المعز لأحد قواد القرامطة — وهو كتاب

---

(١) انظر ترجمة العميدى فى معجم الأدباء ٢١٢/١٧ .

(٢) صبح الأعشى ٣١٦/١٠ .

طويل – يجد أكثره بُنى على السجع[١] ، وقد روى صاحب صبح الأعشى عن العزيز نزار كتاباً فيه سجع كثير[٢] . وإذا تركنا القرن الرابع إلى القرن الخامس وجدنا صاحب النجوم الزاهرة يروى كتاباً صدر عن الخلافة الفاطمية، بُنى كله على السجع مع أنه طويل[٣] . ونستمر حتى نلتقى بابن الشخباء ثم ابن الصيرفى ثم ابن قادوس والموفق بن الخلال، وكل هؤلاء بُنيت كتابتهم على السجع والتصنع فيه ضروباً من التصنع ، وربما كان ابن الشخباء كاتب عصر المستنصر خير من يعبر عن ازدهار النهضة الفنية للنثر الفاطمى ، فقد بقيت لنا من أعماله طائفة صالحة تفسر طابع فنه ، بل طابع عصره فى الكتابة ، ولذلك سنقف عنده وقفة قصيرة .

ابن الشخباء

هو الحسن بن عبد الصمد بن الشَّخْباء العَسْقلانى «كان من البلغاء الأفراد، وأبهر نجوم تلك البلاد ، طلوعاً من ثنايا الأدب ، واجتناء لخبايا لسان العرب ، فقد كاشف حقائقها ، واستخرج دقائقها ، وأحرز مسبوقها وسابقها ، وكانت وفاته – رحمه الله – مقتولا بخزانة البنود – وهى سجن بمصر – سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة »[٤] ، ويقول ياقوت : كان ابن الشخباء « يلقب بالمجيد ذى الفضيلتين (الشعر والنثر) ، أحد البلغاء ، الفحصاء ، الشعراء ، له رسائل مدونة مشهورة ، قيل إن القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى منها استمد ، وبها اعتدّ . . . كتب فى ديوان الرسائل للمستنصر صاحب مصر ، لأن فى رسائله جوابات إلى البساسيرى إلا أن أكثر رسائله إخوانيات وما كتبه عن نفسه إلى أصدقائه ووزراء أمراء زمانه »[٥] ، وذكره العماد الأصبهانى فى الخريدة فقال : « المجيد مجيد كَنْعته قادر على ابتداع الكلام

---

(١) الاتعاظ للمقريزى ١٣٣ – ١٤٣ .

(٢) صبح الأعشى ٦/٤٣٤ .

(٣) النجوم الزاهرة ٤/٢٤٩ .

(٤) الذخيرة : القسم الرابع من نسخة فوتوغرافية بمكتبة جامعة القاهرة ورقة ١٨٣ .

(٥) معجم الأدباء (طبع مصر) ٩/١٥٢ .

ونَحتْه، له الخطب البديعة ، والمُلَحُ الصَّنيعة »[١] ، ويقول عنه ابن خلكان : « الشيخ المجيد أبو على الحسين بن عبد الصمد بن الشخباء العسقلانى ، صاحب الخطب المشهورة والرسائل المحبَّرة ، كان من فرسان النثر ، وله فيه اليد الطولى ، ويقال : إن القاضى الفاضل — رحمه الله — كان جُلُّ اعتماده على حفظ كلامه وأنه كان يستحضر أكثره »[٢] . وواضح من هذه النصوص أن من كتبوا عن ابن الشخباء أشادوا ببلاغته ، كما أشاروا إلى أن القاضى الفاضل كان يحتذى على أمثلته ، وينهل من معين صياغته ، ولو بقيت رسائله إلى عصرنا لأمكن تتبع هذا الحكم ، وبيان الصلة بين الأديبين الكبيرين : أديب العصر الفاطمى وأديب العصر الأيوبى ، ولكن رسائله فقدت ، ومع ذلك بقيت منها بقية فى الذخيرة لابن بسام ومعجم الأدباء لياقوت ، وهى حقًّا تؤكد الصلة بين عملى الرجلين ، وانظر إلى ابن الشخباء يقول من رسالة يهنئ فيها بهزيمة أتْسِز ابن أُوْق الغزّى الذى خرج فى الشام وقد كتب بها سنة تسع وستين وأربعمائة[٣] :

« قد ارتفع الخلاف بين الكافة أن الله ذَخرَ للدولة الفاطمية — ثَبَّتَ الله أركانها — من الحضرة العلية المنصورة الجيوشية — خلَّد الله سلطانها — من حمى سوادها ، ونصَّر أعلامها ، وضمّ نَشْرها ، وحفظ سريرها ومنبرها ، بعد أن كان الأعداء — الذين ارتضعوا درّ إنعامها ، وتوسَّموا بشرف أيامها ، فطردت يدُ الاصطناع إملاقهم ، وأثقلت قلائدُ الإحسان أعناقهم — خفروا ذمم الولاء ، وكفروا سوابغ الآلاء ، ففجأتهم الحوادث من كل طريق ، ونعَب بهم غراب الشتات والتفريق واستباحتهم يد الشدائد ، وأتى الله بُنْيانهم من القواعد ، ولم تزل النفوس منذ طرق « أتسز » اللعين هذه البلاد ، وأنجم فيها أنجُمَ الفساد ، وتعدّى حدود الله وكلماته ، وتعرّض لمساخطته ونقماته ، عالمة بأن إملاء الحضرة العلية — مدّ الله ظلها على الكافة — لم يكن عن استعمال رُخْصة فى هذه الحال ، ولا سكون إلى عوارض من الإغفال والإهمال ، بل هو

---

(١) الخريدة : الجزء الخاص بشعراء مصر وفلسطين ورقة ١٤ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ١٣٣ .

(٣) معجم الأدباء ٩/ ١٦٤ .

أمرٌ رُكّب فيه مَتْنُ التدبير ، وجرتْ بمثله المقادير ، واتُّبع فيه قوله تعالى : (فأمليْتُ للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كانَ نـكير) ، فى حين خدعته المطامع المُرْدية ، إلى الأعمال القاهرة ، مؤملا انفصام عروة الله المتينة ، وأفول ما توقد من شجرة مباركة زيتونة . . . والله المحمودُ على ما منح من هذه النعمة والمسئولُ أن يشدّ ببقاء الحضرة العلية قواعد الإسلام ، ويَسِم بمحامدها أغفال الأيام ، ويستخدم لها السيوف والأقلام ،حتى لا يبقى على وجه الأرض مَفْحَصُ قطاة إلا وقد دوّخها سنابك خيولها ، ولا مَسْقَطُ نواة إلا وقد ركزتْ فيه صدور رماحها و نُصولها ، فقد دفعت . . خطباً جسيما ، واستلحقت من السياسة أمراً عقيما ، وأعادت شمل الأمة ملموماً نظيماً، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وكان فضلُ الله عظيما » .

وأنت ترى من هذه القطعة أن ابن الشخباء يعنى بالتشخيص والتصوير كما يعنى بالاقتباس من القرآن الكريم . وهذان عنصران أساسيان فى فن القاضى الفاضل ، وهو كما يعنى بذلك يُعْنى أيضاً بأن يضمّ كل لفظة إلى أختها ، وكل صورة إلى شاكلتها ، فإذا ذكر مفحص القطاة مثلا ذكر السنابك والخيول ، وإذا ذكر مسقط النواة ركز فيه الرماح والنصول ، وسنرى القاضى الفاضل يبالغ فى استخدام هذا العنصر من مراعاة النظير . وليس ذلك كل ما نجده عند ابن الشخباء من عناصر استمد منها القاضى الفاضل ، فهناك عناصر أخرى ، منها تصنعه لمصطلحات العلوم كقوله فى مطلع رسالة لبعض الوزراء وقد بلغه أن شخصاً هجاه عنده : « لو لم تَقْض الشريعة — أطال الله بقاء سيدنا — برفض المقالة ، عارية من البرهان والدلالة ، لكان ذلك فى الغريزة راتباً ، وفى حكم العقول واجباً »[1] ، فقد تصنّع هنا لذكر المقالة والبرهان والواجب وحكم العقول والدلالة . وكل ذلك يسوقه فى خفة تجعلنا لا نلحظه ومن أمثلة ذلك أيضاً أنه استهل رسالة للأفضل بن بدر الجمالى بقوله : « خلّد الله أيام الحضرة الأفضلية ما فضلت الأسماء حروفاً ، وتقدّمت واو العطف معطوفاً ، ولزمت

(١) الذخيرة : القسم الرابع ورقة ١٨٣ .

الأفعالُ اشتقاقاً وتصريفاً »[1] ، وكما كان ابن الشخباء يتصنع لمصطلحات العلوم كذلك كان يتصنع للإتيان بجناس متكلف شبيه بجناسات أصحاب التصنع كقوله من رسالة إلى من يسمى صارم الدولة بن معروف[2] :

« جاءته مناقبُ الحضرة العلية فتمّ بها مناقبُ تميم ، وحكم لآل القعقاع أمر حكيم ، ونُصر لواء بنى نَصر ، وأبْدرت أهلَّة بنى بدر ، ونبّه منبه هوازن ، وظهرت مزينة ومازن ، وضحك لعبسٍ عابس الدهر ، وراحت الكَمَلَةُ كاملة الفخر ، وزادت مغايظ الأزد ، وقشرتْ قُشَيْر عن بلوغ المجد ، وأغمدت سيوف بنى غامد ، وصارت َهمْدان كالجمر الهامد ، وَمذْحج كالعَنْس مذللة ، وحمير بالراية الحمراء متظللة ، وطوت طيّئٌ عملها استخذاء وغضّت جَفْنة جفونها استيحاء ، فحرس الله محاسن الحضرة السامية التى جِباهُ الأنام بها موسومة ، وتمم ِنعَمَها التى هى بينها وبين الناس مقسومة » .

أرأيت إلى هذه المبالغة فى استخدام الجناس والاحتيال عليه بذكر هذه القبائل الكثيرة ؟ وأكبر الظن أن القارئ قد أحسّ هنا روح أصحاب التصنع ، ولكن لا تظن أن ابن الشخباء كان يعمم ذلك فى رسائله ، بل هو يَظْهر فيها من حين إلى حين ، وهذه سُنَّة الكتاب فى الأقاليم المختلفة ، فهم لا يستمرون عند مذهب معين من مذاهب المشرق ، بل هم دائماً يتقلبون بين المذاهب والأذواق المختلفة ، فبينما ترى الكاتب يكتب رسالة من ذوق أصحاب التصنع ، إذا هو يكتب أخرى من ذوق أصحاب التصنيع ، أو من ذوق أصحاب الصنعة . وهذا هو معنى ما نذهب إليه من أن الأقاليم العربية لم تستحدث مذهباً جديداً فى تاريخ الأدب العربى لا نثره ولا شعره ، فقد وقفت عند صورة المذاهب الثلاثة من الصنعة والتصنيع والتصنع ، وكل ما أضافته إلى هذه المذاهب هو التنقل بينها فى غير نظام . وهذه الظاهرة كما تتصل بابن الشخباء تتصل بجميع كتّاب العصر الفاطمى المتأخر ، فليس بينهم من استطاع أن يبتكر مذهباً جديداً أو طريقة جديدة ، إنما دائماً الجمود عند المذاهب المسبوقة والطرق الموروثة .

---

(١) الذخيرة ورقة ١٨٩ .

(٢) معجم الأدباء ٩/ ١٧٥ .

ومهما يكن فقد كان ابن الشخباء من كبار الكتاب فى العصر الفاطمى ، وهو من هذه الناحية يعتبر سجلاً طريفاً لتطور الكتابة فى هذا العصر ، فإن ما بقى من كتبه ورسائله يدل على خطأ من يذهبون إلى أن القاضى الفاضل هو أول كاتب كبير يظهر فى مصر ، ويبالغ بعض مؤرخى الأدب فى ذلك ، فينسبون إليه ما يسمى طريقة القاضى الفاضل ، وحقًّا إن القاضى الفاضل كان أكبر شخصية ظهرت فى الكتابة بعد العصر الفاطمى ، ولكن ينبغى أن لا نبالغ فى ذلك مبالغة تؤدينا إلى أن نرمى العصر الفاطمى بالتأخر فى الكتابة ، فإن القاضى الفاضل نفسه تخرَّج فى هذا العصر ، ولو لم يأت أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر لكان القاضى الفاضل من كتاب العصر الفاطمى ، بل لقد تمّ تكوُّن القاضى الفاضل فى هذا العصر نفسه ، وكان من كتَّاب دواوينه ، بل لقد كان يقلد تقليداً شديداً آثار كتّابه من أمثال ابن الشخباء وغيره ، وسنرى أنه لا يكاد يأتى بجديد فى استخدام العناصر الفنية بالقياس إلى صناعة ابن الشخباء ، إنما كل ما هنالك أنه اتسع بها ، ووسَّع طاقتها ، واستطاع أن ينفذ بها إلى كل ما أراد من تجويد وتحبير .

٥

الأيوبيون ونهضة النثر فى عصرهم

لا نكاد نتقدم فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى حتى يقوم الخلاف العنيف بين شاور وضرغام وزيرى العاضد ، وسرعان ما تتأجج نيران الحروب بينهما ، فيستعين شاور بنور الدين صاحب حلب ، وهو أكبر شخصية حينئذ كانت تُعْنى بحرب الصليبيين ودفع موجاتهم إلى البحر المتوسط وما وراءه ، وحدث أن ضرغامًا استعان بهم ضد خصمه ، فخشى نور الدين أن يستولى الصليبيون على مصر وأن يندفعوا منها إلى الاستيلاء على العالم العربى ، لذلك أرسل إلى شاور بنجدة كبيرة ، على رأسها أحد قواده وهو أسد الدين

شيركوه ، وجاء أسد الدين إلى مصر ومعه ابن أخيه صلاح الدين فهزم الصليبيين وردّ الأمر إلى شاور إلا أنه قُتل فحلّ محله أسد الدين فى وزارة العاضد ، ولكن الموت عاجله ، حينئذ نرى صلاح الدين يتولى الوزارة مكان عمه ، ويتَنْبهم الموقف فالخليفة شيعى ، ووزيره سنى ، وهو يتبعه من جهة كما يتبع نور الدين من جهة أخرى . ويُرسل نور الدين إلى صلاح الدين أن ينقل الخطبة فى المسجد الجامع إلى الخليفة العباسى ، ويقضى على نظام الحكم الشيعى ، فيصدع صلاح الدين بالأمر ، وينفذ مشيئة نور الدين . ثم تخدم الظروف صلاح الدين ، فإذا نور الدين يتوفّى بعد قليل ، فيستقل هو بمصر ، بل نراه يذهب إلى الشام فيستولى على ممتلكات نور الدين حتى يوحد العالم الإسلامى أمام الصليبيين ، ويستمر فيستولى على أجزاء من الموصل ، كما يستولى على بلاد العرب ، ويؤسس فى مصر دولة عظيمة هى الدولة الأيوبية التى كان أصحابها يلقبون أنفسهم بالملوك.

كانت الدولة الأيوبية دولة سُنِّيَّةً ، لذلك أخذت تناهض التشيع الفاطمى ومظاهره فى مصر ، واتخذت لذلك طريقة منظمة هى إنشاء المدارس والمعاهد السّنية ، وقد بدأ صلاح الدين هذه الحركة ، فأنشأ طائفة من المدارس كى يدعم الدعوة السنية ، يقول ابن خلكان : « لما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شيء من المداس ، فإن الدولة المصرية كان مذهبها مذهب الإمامية ، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء ، فعمل فى القرافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعى رضى الله عنه . . وبنى مدرسة بالقاهرة فى جوار المشهد المنسوب إلى الحسين بن على رضى الله عنهما ، وجعل عليها وقفاً كبيراً ، وجعل دار سعيد السعداء خادم الفاطميين خانقاه ، ووقف عليها وقفاً طويلا ، وجعل دار عباس المذكور فى ترجمة الظافر العُبَيدى والعادل ابن السلاّر مدرسة للحنفية ، وعليها وقف جيد كبير أيضاً ، والمدرسة التى بمصر المعروفة بزين التجار وقفاً على الشافعية ، وقفها جيد أيضاً »[١] . وكما عُنى صلاح الدين بمحاربة التشيع فى مصر عُنى أيضاً بمحاربة التفلسف عناية

(١) وفيات الأعيان ٢ / ٤٠٢ .

شديدة ، يقول القاضي ابن شداد فى سيرته : « كان مبغضاً لكتب الفلاسفة وأرباب المنطق ومن يعاند الشريعة ، ولما بلغه عن السهروردى ما بلغه أمر ولده الملك الظاهر بقتله » (١) وأكبر الظن أن لصلاح الدين يداً فى ضعف الحركة الفلسفية بمصر منذ عصره ، فقد تبعه العلماء يعنون بالدراسات الدينية والتاريخية واللغوية مهملين للدراسات الفلسفية ، واستمر ذلك طوال العصر الأيوبى وعصر المماليك أيضاً ، يقول بهاء الدين السبكى وهو من علماء عصر المماليك : « إن أهل مصر صرفوا هممهم إلى علوم اللغة والنحو والفقه والحديث وتفسير القرآن بخلاف أهل المشرق الذين استوفوا هممهم الشامخة فى تحصيل العلوم العقلية والمنطق »(٢) . ومعنى ذلك أن مصر استمرت مطبوعة بالطابع الذى أراده لها صلاح الدين حتى عصر المماليك وبعد عصرهم أيضاً ، وكأنما إعجاب المصريين بصلاح الدين وحروبه الصليبية جعلهم يقتدون بسيرته فى حياته العقلية .

ومن يرجع إلى سيرة ملوك الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين يجدهم يهتمون اهتماماً بالغاً بالدراسات السنية وخاصة دراسة الحديث ، ومما يروى بصدد ذلك أن ابنه العزيز الذى خلفه على مصر سمع الحديث من الحافظ السلفى والفقيه أبى طاهر بن عوف الزهرى وأبى محمد بن برّى النحوى وغيرهم(٣) ، وكان عمه العادل الذى ولى مصر بعده معنيًّا بأرباب السنة ، صنف له فخر الدين الرازى كتاب تأسيس التقديس وذكر اسمه فى خطبته وسيّره إليه من بلاد خراسان(٤) . وكان الكامل ابنه يحب العلماء والأماثل ويلقى عليهم المشكلات(٥) ، وكان محبًّا للحديث وأهله، حريصاً على حفظه ونقله ، وللعلم عنده شرف ، خرّج له أبو القاسم بن الصفراوى أربعين حديثاً ، وسمعها جماعة، ويقولون : إن ابن برى وغيره أجازوا له رواية الحديث(٦) ، وقد بنى مدرسة عُرفت باسم دار الحديث الكاملية ، وهى ثانى دار عُملت للحديث ، أما أول

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/٩ .

(٢) عروس الأفراح للسبكى ١/٥ .

(٣) النجوم الزاهرة ٦/١٢٧ .

(٤) النجوم الزاهرة ٦/١٦٣ .

(٥) نفس المصدر ٦/٢٢٧ .

(٦) النجوم الزاهرة ٦/٢٢٨ .

دار فهى الدار التى أسسها نور الدين بدمشق[١] ، ونستمر حتى نلتقى بالملك الصالح نجم الدين أيوب فنراه يبنى المدرسة الصالحية ، وكانت تدرّس فيها المذاهبُ الأربعة[٢] ، وما من ريب فى أن ذلك كله يدل عن أن الأيوبيين بعثوا فى مصر اهتماماً واسعاً بالدراسات الدينية .

وإذ تركنا الدراسات الدينية إلى الكتابة الأدبية ، وجدنا الأيوبيين يجنون فى عصرهم ثمار النهضة الفنية التى رأيناها فى العصر الفاطمى ، وقد ظفروا فيما ظفروا من هذه الثمار بالقاضى الفاضل أحد كتّاب دواوين العصر الفاطمى ، وقرَّبه منه صلاح الدين واتخذه وزيره وكاتبه ، وكان أبلغ كتَّاب عصره ، فدفع العصر الأيوبى كله من ورائه فى دوائر نماذجه ، وما أتاحه لهذه النماذج من صفات أدبية ، وأعانته فى ذلك شخصية كبيرة أتت من المشرق ، هى شخصية عماد الدين الأصبهانى الذى نشأ بأصبهان ثم قدم بغداد وتخرّج فى المدرسة النظامية ، ولما تخرج فيها خدم الوزير يحيى بن هبيرة ببغداد ، ثم انتقل إلى دمشق وسلطانها يومئذ نور الدين ، فألحقه بديوان الإنشاء ، وتعرَّف أثناء ذلك بصلاح الدين وقامت بينهما مودة وثيقة ، ولما أنشأ نور الدين المدرسة النورية فى دمشق أسندها إليه ، واستمر فى هذا العمل حتى توفِّى نور الدين ، فانتقل إلى صلاح الدين وتعلق به ومدحه كثيراً كما مدح القاضى الفاضل ، رجاء أن ينظمه فى سلك سلطانه ، وعمل القاضى الفاضل على ذلك فقرَّبه من صلاح الدين ، وأصبح الكاتبَ الثانى فى الدولة الصلاحية بعد القاضى الفاضل . وكان العماد أديباً كبيراً ، له ديوان شعر ورسائل كثيرة ، كما أن له الكتاب المشهور : «الفَيْح القُسِّى فى الفَتْح القُدْسى» ، يصف فيه فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين ، وأيضاً له الخريدة . وهو ينهج فى كتاباته نهج أصحاب التصنع فى عصره ، وقد كان القاضى الفاضل يذهب غالباً هذا المذهب مستنًّا فى ذلك بكتَّاب العصر الفاطمى وعلى رأسهم ابن الشخباء ، فتآلف الكاتبان فنيًّا كما تآلفا اجتماعيًّا ، ولعل مما يثبت عناية الشيخين بالتصنع ما يروى من أن

---

(١) النجوم الزاهرة ٦/٢٢٩ .

(٢) حسن المحاضرة ٢/١٥٦ .

العماد لقى القاضى الفاضل يوماً وهو راكب على فرس فقال له : سرْ فلا كبَا بك الفرس ، فقال له القاضى الفاضل توًّا : دام علا العماد[١] وأكبر الظن أن القارئ لا يزال يذكر ما مر بنا عند الحريرىّ مما كان يسميه « ما لا يستحيل بالانعكاس » وكان الحريرى يأتى به ليدل على مقدرته البالغة ، وها نحن الآن فى مصر بعد الحريرى بنحو نصف قرن نقرأ فى آثار مشاهير الكتّاب ، فإذا هم يتجهون نفس الوجهة من الإطراف بغرائب العبارات ، وهو إطراف لا يأتى من المعنى ، وإنما يأتى من الشكل الخارجى ، إذ يستطيع الأديب أن يستخدم عُقْدة من عقد التعبير ، وهو غالباً لا يأتى بعقد جديدة ، وإنما يستخدم بعض العقد السابقة ، فإذا القاضى والعماد جميعًا يعمدان فى جملتين إلى استخدام « ما لا يستحيل بالانعكاس » فيهما حتى يدلاّ على مقدرتهما وبراعتهما وأنهما يستطيعان أن يأتيا بعبارات تُقْرَأ طَرْداً وعكساً. والغريب أن العماد مع أنه جاء من المشرق موطن التصنع لم يستطع أن يتفوق على القاضى الفاضل الذى تخرج فى ديوان الفاطميين ، وهذا نفسه دليل واضح على أن هذا الديوان ارتقت فيه الكتابة فى العصر المتأخر رقيًّا لا يقل عن رقيها فى المشرق . ومهما يكن فإن القاضى الفاضل كان أستاذ عصره غير منازع ، وشهد له ابن خلكان بذلك ، إذ وازن بين كتبه فى فتح بيت المقدس وما كتبه العماد وغيره ، فقال : « إنه رئيس هذا الفن ، وإذا شرع فى شىء من هذا الباب لا يستطيع أحد أن يُجاريه ولا يباريه »[٢] ، ومن أجل ذلك سنقف عنده لنتبين نهضة الكتابة الفنية فى العصر الأيوبى وما امتازت به من خصائص أدبية وهى خصائص استمرت تخضع لها الأجيال التالية خضوعاً شديداً .

القاضى الفاضل

هو عبد الرحيم البَيْسانى ، ولد فى عَسْقلان ، فهو عسقلانى الأصل كابن الشخباء ؛ وولى أبوه قضاه بَيْسان من قبل الفاطميين فنُسب هو إليها . ولما

---

(١) معجم الأدباء ١٩/١٨ ووفيات الأعيان ٧٥/٢ .
(٢) وفيات الأعيان ٣٩٥/٢ .

شبّ أرسل إلى ديوان الإنشاء فى القاهرة ليتخرج فيه ، فحضر إلى مصر فى عهد الحافظ[١] (٥٢٤ – ٥٤٤ هـ) وتتلمذ على أشهر الكتّاب وكان الموفق ابن الخلاّل حينئذ رئيسَ ديوان الإنشاء ، وكان معه ابن قادوس الأديب المشهور ، فلزمهما ، ويقول الرواة : إنه لما مثل بين يدى الموفق سأله : ماذا أعددتَ لفن الكتابة ؟ فأجابه : إنى أحفظ القرآن الكريم وديوان الحماسة ، فأمره أن يحلّ شعر الحماسة كله[٢] ، ثم ما زال به يدرّبه على الكتابة حتى نبغ فيها ، ولكنه لم يستمر مع الموفق ، بل ذهب إلى قاضى الإسكندرية المسمى بابن حديد فكتب عنه كتباً حبّرها تحبيراً ممتازاً ، ويقولون إن الظافر (٥٤٤ – ٥٤٩ هـ) اطلع على بعضها : فأعجب بها ، وطلبه ليسلكه فى كتّاب ديوانه ، فعاد إلى القاهرة ، ومكث فى ديوان الإنشاء حتى وفد أسد الدين شيركوه فقرّبه منه واتخذه كاتبه ، ولما توفى استخدمه صلاح الدين . ويظهر أنه أخلص لهذه الأسرة منذ قدومها ، فإننا نجد صلاح الدين يتخذه وزيره ومشيره كما يتخذه كاتبه ، وروى عنه أنه قال : « والله ما ملكت البلاد بسيوفكم ولا برماحكم ، ولكن بقلم القاضى الفاضل » ، ويقول ابن فضل الله العمرى : « كان القاضى الفاضل هو الدولة الصلاحية كان كاتبها ووزيرها ، وصاحبها ومشيرها ، والحاكم فى كلها ، والمجهّز لبعوثها ، ومع هذا كله كان لا يزال منكّداً مُبْتَلَى بضَنا قلبه وجسمه ، ومرض َهمه وسقمه . . . ولهذا كان لا يتكلف مع السلطان سفراً فى كل مرة ، وكان العماد ينوب عنه »[٣] ، وذكر القاضى نفسه علته فى أحد خطاباته فقال : « والمملوك فى حال تسطير هذه الخدمة جامع بين مرضَىْ قلبٍ وجسد ، ووجع أطرافٍ وعليل كبد »[٤] ، وكما كان القاضى عليلا كان – على ما يظهر – تزورّ عنه العين ، قال الأسعد بن

(١) تختلف الروايات فى الخليفة الذى جاء القاضى الفاضل فى عصره إلى مصر هل هو الحافظ أو هو ابنه الظافر ، ورجحنا الأولى لأنها هى التى تتلاءم مع تاريخ القاضى الفاضل ، انظر ابن خلكان ٢ / ٤٠٨ .

(٢) وفيات الأعيان ٢ / ٤٠٨ .

(٣) مسالك الأبصار : نسخة خطية بدار الكتب منقولة عن نسخة فوتوغرافية بها ، الجزء السابع ، ورقة ٦٥٦ .

(٤) النجوم الزاهرة ٦ / ١٢٨ .

مماتى : «كان القاضى الفاضل دميم الخلقة ، وكان له حَدَبَة ظاهرة خلف ظهره وكان يسترها بالطليسان، حتى لا تظهر للناس »[1].

وهذا الرجل العليل القبيح بلغ من فن الكتابة وتجويده ما لم يبلغه أحد فى عصره ، يقول العماد الأصبهانى فى حقه : « رب القلم والبيان، واللسَن واللسان ، والقريحة الوقادة والبصيرة النقادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة ، والفضل الذى ما سُمع فى الأوائل ، ممن لو عاش فى زمانه لتعلق بغُباره ، أو جرَى فى مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية التى نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع ، يخترع الأفكار ، ويفترع الأبكار ، ويُطْلع الأنوار ،ويبدع الأزهار »[2]. ويقول النويرى : «إلى القاضى الفاضل انتهت صناعة الإنشاء ووقفت ، وبفضله أقرَّت أبناء البيان واعترفت ، ومن بحر علمه رَوِيَتْ ذوو الفضائل واغترفت ، وأمام فضله ألقت البلاغةُ عصاها ، وبين يديه استقرت به نَواها ، فهو كاتب الشرق والغرب فى زمانه وعصره ، وناشر ألوية الفضل فى مصره وغير مصره ، ورافع علم البيان لا محالة ، والفاضل بغير إطالة »[3] . وقد أشاد به وبفنه كل من تعرضوا لترجمته كما أشار كثير منهم — وعلى رأسهم العماد الأصبهانى — إلى أنه صاحب طريقة ، أو كما يقول العماد شريعة جديدة ، ولكن ينبغى أن لا نظن من ذلك أن القاضى الفاضل ابتكر مذهباً جديداً فى تاريخ النثر العربى ، إنما كل ما هناك أنه قلَّد أصحاب التصنع فأحسن التقليد . ومن المهم أن نعرف أن الكتَّاب فى الأقاليم المختلفة منذ القرن السادس أخذوا يُغْمَرون بذوق التصنع فى الكثير الأكثر ، وقلما تركوا هذا الذوق إلى ذوق التصنيع ، وبدأت هذه الموجة فى مصر لا بالقاضى الفاضل ولكن بابن الشخباء الذى عرضنا له فى العصر الفاطمى ، والقاضى الفاضل نفسه حين كان يكتب فى العصر الفاطمى كان يكتب بهذا الذوق ، وانظر إليه يستهل رسالة كتب بها عن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين[4] :

---

(١) بدائع الزهور لابن إياس (طبع بولاق) ١/ ٧٥ .
(٢) وفيات الأعيان ١/ ٢٨٤ .
(٣) نهاية الأرب (طبع دار الكتب) ٨/ ١ .
(٤) صبح الأعشى (طبع دار الكتب) ٧/ ٧٩ .

« كتابُنا — أطال الله بقاء المليك — عن مودة ظاهرة الأسباب ، متظاهرة الأنساب، ضافية جِلْباب الشباب ، وعوائد عوارف لا يتنكّر معروفها، ووفود فوائد لا يتصدّع تأليفها، ومساعى مساعد لا ينقض معروفها، ولا يُنْقَضُ مَسُوفها(١) ، وسعادة بالخلافة التى عَذَقَ(٢) به أمرها، وأوضح سرها، وملأ سرائرها وسريرها ، وأطلع شمسها وقمرها » .

وهذه الصورة من التعبير وما يطوى فيها من تشخيص وجناس وإمعان فى هذا الجناس هى الصورة العامة لكتابة القاضى الفاضل ؛ ومن يرجع إلى بقية هذه الرسالة فى صبح الأعشى يجد فيها ما اشتهر به من اقتباسه لآى الذكر الحكيم ، كما يجد اهتمامه البالغ بالتنظير ، بحيث لا نغلو إذا قلنا إن فن القاضى الفاضل استوى له نهائيًّا فى العصر الفاطمى . ونحن نعرض على القارئ قطعاً من رسالة تعتبر أشهرَ ما دبّجه — وهى رسالته عن صلاح الدين إلى الخليفة ببغداد يزف إليه البشرى بفتح بيت المقدس — حتى يطلع على خصائصه الأدبية فى أروع أثر أدبى عُنى به وبتدبيجه ، وهو يستهلها على هذا النمط (٣) :

أدام اللهُ الديوان العزيز النبوىّ الناصرىّ، ولا زال مظفَّر الجدّ بكل جاحد، غنىّ التوفيق عن رأى كل رائد، موقوف المساعى على اقتناء مُطلقات المحامد ، مستيقظَ النصر والسيفُ فى جفنه راقد ، واردَ الجود والسحابُ على الأرض غير وارد ، متعدد مساعى الفضل وإن كان لا يُلْقَى إلا بشكر واحد ، ماضىَ حكم القوم بعزم لا يمضى إلا بنسل غَوِىّ وَرِيْش راشد ، ولا زالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المرابع وأنواراً إلى المساجد ، وبعوث رعبه إلى الأعداء خَيْلا إلى المراقب وخيالا إلى المراقد » .

وأنت ترى القاضى الفاضل فى هذه القطعة الصغيرة عُنى — كما عُنى فى مستهل الرسالة العاضدية — بألوان البديع وخاصة لون الجناس ، وذهب يطيل فى عباراته حتى يحقق ما يريد من جناس وتنظير وتشخيص ، وما من شك فى

---

(١) مسوفها : مؤجلها .
(٢) عذق به : اختص .
(٣) صبح الأعشى ٦/٤٩٦ وابن خلكان ٢٠/٣٩٢ .

أننا نحس فى كل ذلك ذوق أصحاب التصنع ، إذ نراه يحاول أن يمرن أسلوبه على أن يحمل أوسع ما يمكن من جناسات منقوصة وغير منقوصة واستمر فى الرسالة فنراه يقول عن صلاح الدين وفتحه لبيت المقدس إنه :

« فاز من بيت المقدس بذكر لا يزال الليل به سميراً ، والنهارُ به بصيراً ، والشرق يهتدى بأنواره ، بل إن أبدى نوراً من ذاته هتف به الغرب بأنْ واره ؛ فإنه نور لا تكنّه أغساق السُّدَف ، وذكرٌ لا تواريه أوراق الصحف . وكتابُ الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذى تشظّتْ قناته شفقاً ، وطارت فِرقه فَرَقاً . . وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغَضّت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نُطَفَ الكرى من الجفون ، وجُدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفةً بالمنون ، وأضحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث ، والرب المعبود الواحد وكان عندهم الثالث ، فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الكفر مهتومة ، وقد ضُربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبدل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أصحاب المَشْأمة إلى أصحاب الميمنة » .

وواضحٌ أن سمات القاضى الفاضل التى رأيناها منذ مطلع الرسالة لاتزال هى نفسها ، فهو يعمم فى جميع جوانبها ميله الشديد إلى التشخيص كما يعمم ميله إلى ألوان البديع وخاصة لون الجناس ، وكان ما يزال يستخدمه فى جميع أشكاله من تامة وغير تامة ، واستهدفت فى أثناء ذلك لأن يُوَرِّى بين كلمة « بأنواره » وكلمة « بأنْ واره » وقاده استهدافه لهذا النوع من الجناس إلى أن يستخدم التورية كثيراً فى نثره ، وقد نسب القدماء إليه استخدامه هذا اللون لأول مرة فى تاريخ أدب مصر الإسلامية[١] ، ولكن من يقرأ شعر الشريف العقيلى فى المغرب[٢] والخريدة[٣] يجد أن هذا اللون عُرف فى مصر منذ أوائل القرن

(١) خزانة الأدب للحموى (طبع المطبعة الخيرية) ص ٢٤١ .

(٢) المغرب لابن سعيد (طبع جامعة القاهرة) ص ٢٠٧ ، ٢٤٤ .

(٣) الخريدة : قسم شعراء مصر . (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٢/ ٦٣ .

الخامس ، وكل ما يمكن أن يضاف إلى القاضى الفاضل أنه ربما كان من أوائل من نقلوه من الشعر إلى النثر . ومهما يكن فقد كان القاضى الفاضل يُعْنى بأن تضمَّ كتبه عناصر مذهب التصنع وخاصة عنصر الجناس والتشخيص وتضمين الشعر ثم عنصر الاقتباس من آى القرآن الكريم على نحو ما نجد فى القطعة السابقة إذ نظم فى عباراته قوله تعالى : « وضُربت عليهم الذلة والمسكنة » ، وكذلك قال : « وبدَّل الله مكان السيئة الحسنة » وقال : « من أصحاب المشأمة إلى أصحاب الميمنة » وفى هاتين العبارتين ألفاظ من القرآن الكريم . ومع ذلك فعناصره الفنية التى يستخدمها لم نتبينها كلها حتى الآن ، فهناك عنصر مهم كان يستخدمه فى كتابته وهو عنصر التصنع لمصطلحات العلوم ، واستمر فى الرسالة الآنفة فستراه يقول :

« كان يبدِّل المذابح منائر والكنائس مساجد ويبوِّئ بعد أهل الصُّلْبان أهل القرآن للذب عن دين الله مَقاعد، ويُقرُّ عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصرُ منه ومن عساكره بجارٍّ ومجرور ، وأن ظفر بكل سور ما كان يُخاف زلزاله وزِياله إلى يوم النَّفْخ فى الصور » .

ولا شك أن القارئ قد لاحظ ما نريد أن نشير إليه ، وهو أن القاضى الفاضل تصنَّع هنا لذكر الجار والمجرور وراعى النظير فذكر كلمة « تعلق » وكل ذلك ليستتم ما يدل به على براعته فى فنه ، وهو حقًّا لم يكن يكثر من التصنع لمصطلحات العلوم ، ولكنه يظهر على كل حال فى رسائله ، واستمعْ إليه يقول من رسالة أخرى(١) :

« سلام الله الأطيب ، وبركاته التى يستدرّها الحُضَّر والغُيَّب ، وزكواته التى ترفع أولياءه إلى الدرَج ، ونعمه التى لم تجعل على أهل طاعته فى الدين من حَرَج ، على مولانا سيد الخلق ، وسادّ الخرْق ، ومسدّد أهل الحق ، وواحد الدهر الذى لا يُثنَّى ، وإليه القلوب تُثْنَى ، ولا يقبل الله جمعاً لا يكون لولاته

---

(١) صبح الأعشى ٦/٥١٥ .

جمع سلامة لا جمع تكسير ، ولا استقبال قبلة ممن لا تكون محبته فى قلبه تقيم ، واسمه فى عمله إلى الله يسير » .

وقد بدتْ هنا رغبة القاضى فى التصنع لمصطلحات النحو بأكثر مما بدت فى رسالة فتح القدس ، فهناك كان يتخفف ، أما هنا فإنه يطيل فى تصنعه لمصطلحات النحو إطالة تجعل الإنسان يلاحظها ، إذ نراه يذكر الواحد والمثنى ثم الجمع ، ولا يكتفى بذلك ، بل يقف ليذكر جمع السلامة وجمع التكسير ، وأكبر الظن أن فن القاضى الفاضل قد اتضح لنا الآن ، فهو لا يعدو فى عناصره الأساسية ما سبق أن رأيناه عند ابن الشخباء . وهذا نفسه هو ما يجعلنا نؤمن بأن القاضى الفاضل لم يأت بطريقة جديدة تخالف الطرق الموروثة ، بل لقد كان يعيش — كغيره من أدباء عصره — فى الإطار الفنى العام لمذاهب المشرق ، وكان يعجب خاصة بمذهب التصنع وما وصل إليه ابن الشخباء مواطنه فى استخدامه ، فذهب يتعلق بطرائفه من مصطلحات العلوم والمصطلحات الأخرى من التشخيص ومراعاة النظير وألوان البديع من طباق وغيره ، وتعلق بالجناس خاصة على سُنَّة أصحاب التصنع فاستخرج منه غرائب كثيرة كقوله فى إحدى رسائله(١) :

« الحمد لله الذى صدقه وَعْدَه ، وأورثه الأرض وحده ، وجدَّد علاه ، وأعلى جَدَّه ، وأسعد نجمه ، وأنْجم سعده ، ووعده نُجْحه ، وأنجح وعده ، وأورده وصفه ، وأصفى وِرْده » .

وفى هذه القطعة ما يدل على مدى احتفال القاضى الفاضل باستخراج كل ما يمكن من أشكال الجناس الهندسية ، ولعل القارئ يلاحظ أنه تفد عليه الآن صور الجناس المعقدة التى مرت بنا عند الحريرى والحصكفى خاصة ، إذ كان يعجب بهذا الضرب من الجناس المقلوب ، ونما هذا الذوق فى الأقاليم المختلفة ، وكان القاضى الفاضل داعيته فى مصر إذ كان ينحو بأسلوبه

---

(١) صبح الأعشى ٦/٥١١ .

جملة نحو أصحاب التصنع ، وليس معنى ذلك أن أسلوبه كان ضعيفاً أو رديئاً فقد كان لديه من البراعة الفنية ما جعله ينهض بصعوبات التصنع دون أن يستشعر الإنسان ما فيها من أثقال ، ولكننا لا نستمر بعده حتى نحس أنها أصبحت أثقالا غليظة . وقد ذكرنا أنه عُنى فى كتابته بالتورية ، وساق صاحب خزانة الأدب من أمثلتها قوله[١] :

« فى يوم شديد المطر والبرد ، والخادم فى رأس جبل يتلقى الرحمة غَضَّةً قبل أن يبتذلها الناس ، ويصافح الرياح عاصفة قبل أن تقتسمها الأنفاس ، ويتلقى الرعد بالرعدة ، وإذا السماء انشقت استصحاها المملوك بالسَّجْدة » .

فقد وَرَّى تورية واضحة فى كلمتى « وإذا السماء انشقت » و « السجدة » ولكن يظهر أن القاضى لم يكن يكثر من ذلك فى رسائله . ونحن لا نستطيع أن نزعم بأن هذا العمل مذهب جديد للقاضى الفاضل ، فهو ليس أكثر من لون من ألوان البديع وجده مستخدماً قبله عند الشعراء الفاطميين فأدخله فى نثره ، ومن يدرى ؟ ربما سُبق بمن استخدمه قبله من الكتاب فى العصر الفاطمى نفسه . ومهما يكن فإن القاضى الفاضل كان أبلغ كتَّاب العصر الأيوبى ، وقد ظلت المصطلحات التى يستخدمها فى فنه أساسية عند جميع الكتَّاب المصريين من بعده ، حتى ليقول النويرى : « إن كل فاضل بعد الفاضل فضْلة »[٢] ولم يكن هذا إحساس النويرى وحده ، بل كان إحساس جميع الكتاب بعده ، فقد اتخذوا آثاره مثلهم الأعلى الذى يحتذونه ويقلدونه ، ومن أجل ذلك كنا لا نخطئ إذا قلنا إن العصور التى تلته فى مصر كان أصحابها يصوغون دائماً على مثاله ، وينسجون على منواله .

---

(١) خزانة الأدب ص ٢٤٣ .

(٢) نهاية الأرب للنويرى ٨/٢ .

٦

المماليك وامتداد النهضة فى عهدهم

تُطلق كلمة مماليك على ضرب من الرقيق كان يؤسَر فى الحروب أو يباع فى الأسواق . وأول من استخدم هؤلاء المماليك فى شئون الحكم والسياسة المعتصم الخليفة العباسى ، فقد جلب منهم جماعة كبيرة استخدمها فى حروبه ، وكان يجلبهم من شباب أواسط آسيا الأشدّاء . ونحن نعرف قصة هؤلاء المماليك الأتراك فى الدولة العباسية ؛ إذ سرعان ما انتقل إليهم تصريف الأمور ، وأصبحوا هم الحاكمين بأمرهم ، أما الخليفة فكان يحكم حكماً اسميًّا . وكان صلاح الدين ومولاه نور الدين يستعينان فى حروبهما ضد الصليبيين بقبيل من هؤلاء الأتراك : ولما جاء الصالح أيوب جمع حوله جيشاً كبيراً منهم وبنى لهم قلعة فى جزيرة الروضة ، لذلك سُمُّوا المماليك البحرية ، وسرعان ما أصبحوا هم المتحكمين فى كل أمور الدولة كما أصبح لهم سلطان كبير ، فقتلوا «توران شاه» آخر الملوك الأيوبيين وولوا عليهم « شجرة الدرّ » زوج أبيه ، فتزوجها أيبك التركمانى وأدار هو دفّة الأمور بنفسه ، ولكنها اختلفت معه فقتلته ، فتولى ابنه ، وفى عهده قتلها المماليك انتقامًا ، ثم عُزل ، وتولى الحكم من بعده قُطُز ، وفى عهده َهزَمت جيوشُه وعلى رأسها الظاهر بيبرس جيوش هولاكو التترى ، وكان ذلك سبباً فى التماع اسم الظاهر ، فولى الحكم ، وفى عهده انتقلت الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة عام ٦٥٦ للهجرة ، وخلفه سلاطين أشهرهم قلاوون وابنه الناصر ، ويظل الحكم فى تلك الأسرة حتى يسلبه منها برقوق زعيم المماليك الجراكسة الذين جلبهم آل قلاوون وأسكنوهم بروج القلعة ، ولذلك سموا المماليك البُرْجية ، ويخلف برقوق سلاطين مختلفون ، منهم السلطان « شيخ » الملقب بالمؤيد ، وما تزال مصر فى أيدى المماليك البرجية حتى يفتحها العثمانيون فى عام ٩٢٣ للهجرة .

وكانت مصر فى عهد المماليك تعتبر زعيمة العالم الإسلامى ، إذ وقفت دون موجة التتار التى اكتسحت شرق هذا العالم حتى الشام ، كما وقفت دون موجة الصليبيين وردتهم عن بلاد الإسلام ، وقد انتقل إليها الخليفة العباسى ، وفى هذا الانتقال ما يرمز إلى أهميتها فى تلك العصور ، إذ أصبحت موئل الإسلام من طرف ، كما أصبحت موئل العلم والأدب من طرف آخر ، فقد هاجر إليها العلماء والأدباء من كل صوب حتى ينعموا بما فيها من حياة آمنة مرفهة ، ويظهر أن مصر كانت على جانب عظيم من الرخاء واليسر فى هذا العصر المملوكى ، ولذلك كثرت فيها العمارة حتى قالوا إنه « بُنِى فى أيام الملك الظاهر ما لم يُبْنَ فى أيام الخلفاء المصريين ولا ملوك بنى أيوب من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات »[١] وكذلك اشتهر عصر الناصر بن قلاوون بكثرة العمائر فى مصر والشام . وفى هذا ما يدل — من بعض الوجوه — على ثروة مصر فى هذا الحين ، ولعل مما يدل على ذلك أيضاً ما يقال من أن الناصر حَجَّ ذات مرة فكانت تُمَدُّ له مائدة فى طريقه وسط حديقة مصنوعة ، وعليها الفاكهة والزهور ، وكان هذا المنظر يبهر الناس فى صحراء بلاد العرب ، وقد قالوا إن إحدى زوجاته أنفقت فى حجها مائة ألف دينار ، كما قالوا إنه أنفق فى زواج كل بنت من بناته ثمانمائة ألف دينار[٢] ، وما من ريب فى أن ذلك يدل بعض الدلالة على ما بلغته مصر فى عصر المماليك من ترف وثراء .

ولعل من الغريب أن المماليك — على الرغم من أنهم كانوا من الرقيق — عُنُوا بالحركة العلمية على نحو ما صنع سادتهم من الأيوبيين ، فبنوا المدارس وأغدقوا عليها الأموال ، وكان أول من استنَّ هذه السنة الظاهرُ بيبرس ، فقد أنشأ مدرسة كبيرة هى المدرسة الظاهرية ، وكان لها أربعة إيوانات لتدريس الفقه الشافعى والحنفى وتدريس الحديث وقراءات القرآن ، كما كان بها مكتبة

---

(١) النجوم الزاهرة ١٩٦/٧ .

(٢) تاريخ دولة المماليك فى مصر تأليف وليم موير وترجمة محمود عابدين وسليم حسن ص ٩٠ .

تشتمل على أمهات الكتب فى سائر العلوم[١] ، وقد احتذى الظاهرَ المنصور قلاوون ، فبنى مدرسة كبيرة سميت المدرسة المنصورية ، وكان يُدرس فيها الفقه على المذاهب الأربعة ، كما كان يُدرس فيها التفسير والحديث ، وأيضاً كان يُدرس فيها الطب[٢] ، ثم جاء الناصر ابن قلاوون فأنشأ مدرسة عظيمة ورتب فيها دروساً للمذاهب الأربعة ،ويقول المقريزى إنه أدرك هذه المدرسة[٣] ، وبنى السلطان حسن من بعده مدرسة كبيرة ، يقول المقريزى عنها إنه لا يُعرف ببلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذه المدرسة فى كبر قالبها وحسن هندامها وضخامة شكلها ، ويقول إن العمارة استمرت فيها مدة ثلاث سنين لا تنقطع ، وإنه كان يُصرف على عمارتها يومياً عشرون ألف درهم ، وكان يُدرس فيها الفقه على المذاهب الأربعة[٤] . ثم جاء المماليك البرجية وعلى رأسهم برقوق الذى أنشأ مدرسة لدرس المذاهب الأربعة ودَرْس التفسير والحديث وقراءات القرآن[٥] ، وتبعه الملك المؤيد شيخ فابتنى هو الآخر مدرسة كبيرة[٦] . وكل ذلك يدل على مبلغ عناية المماليك بالحركة العلمية وتشجيع العلماء ، وقد عرف المؤيد شيخ من بينهم بأنه كان شاعراً وموسيقياً[٧] ، ويقول السيوطى نقلا عن ابن حجر إنه « كان معه إجازة بصحيح البخارى من شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى ، فكانت لا تفارقه سفراً ولا حضراً »[٨] .

وإذا كان المماليك عُنوا بالحركة العلمية فإنهم عنوا كذلك بالحركة الأدبية، وقد كان لديوان الإنشاء عندهم منزلة كبيرة ، وكان لا يوظَّف فيه إلا من اشتهر بالبلاغة ، وأوتى أسرار البيان والفصاحة ، وكثيراً ما ارتقى كاتب

---

(١) خطط المقريزى ٢/٣٧٨ وحسن المحاضرة ٢/١٦٠ والنجوم الزاهرة ٧/١٢٠ .

(٢) خطط المقريزى ٢/٣٧٩ وحسن المحاضرة ٢/١٦٠ .

(٣) خطط المقريزى ٢/٣٨٢ وحسن المحاضرة ٢/١٦٠ .

(٤) حسن المحاضرة ٢/١٦٢ .

(٥) حسن المحاضرة ٢/١٦٣ .

(٦) حسن المحاضرة ٢/١٦٣ .

(٧) تاريخ دولة المماليك لمويرص ١٣٢ .

(٨) حسن المحاضرة ٢/٨٩ .

الإنشاء عندهم إلى مرتبة الوزارة . وقد كُتبت فى هذا العصر أكبر الموسوعات الأدبية من مثل مسالك الأبصار لابن فضل الله العُمَرى، و« صبح الأعشى فى صناعة دواوين الإنشا» للقلقشندى، و«نهاية الأرب» للنُّوَيْرى ، و«الخطط» و«السلوك» للمقريزى . ولولا هذه الكتب ما استطعنا اليوم أن نؤرخ للحركات الأدبية فى مصر أثناء العصور الوسطى ، ويظهر أن القوم اتجهوا هذا الاتجاه فى التأليف مخافة ضياع العلم ، إذ فُقد كثير من الكتب حتى عصرهم ، فرأوا أن يكتبوا موسوعات تغنى عن الكتب المختصة بكل عهد وكل عصر ، ومن أهم كتب التاريخ الكبيرة فى هذه العصر كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ، وعقد الجُمان للعينى .

وأكثر كتابات هذا العصر ينتشر فيها السجع ، ومن الكتب التاريخية التى بُنيت على السجع بناء كتاب «عجائب المقدور فى نوائب تيمور» لابن عرب شاه ، واستمرت كتابات الرسائل فى هذا العصر مطبوعة بالطابع الذى رأيناه عند القاضى الفاضل من ميل إلى استخدام ألوان البديع من جناس وطباق وتصوير ثم الاقتراض من ألفاظ العلوم ومصطلحاتها . ومن أشهر كتّاب هذا العصر ابن فضل الله العمرى ، وابن نباتة ، ومحيى الدين بن عبد الظاهر ، وهو أشهر الثلاثة ، وكتاباتهم جميعاً تمتاز باستخدام فنون البديع وألفاظ العلوم ، وعُنوا عناية خاصة بلون التورية كقول ابن نباتة من توقيع لشخص بنظر مدرسة[1] :

« وكيف لا وهو نعم الناظر والإنسان ، وفى مصالح القول والعمل ذو اليدين واللسان ، وذو العزائم الذى تقيّدت فى حبه الرتب ومن وجد الإحسان » .

فقد ورّى فى الناظر والإنسان تورية واضحة ، ولم يكتف بذلك بل رأيناه يعمد إلى الاقتضاب فى آخر العبارة أو ما كانوا يسمونه حينئذ بالاكتفاء ، إذ ختم عبارته بقوله « ومن وجد الإحسان » وقطع وهو يريد الشطر المشهور « ومن وجد الإحسان قيداً تقيّدا » ، وهذا الاكتفاء إنما جاء من استخدام

---

(١) صبح الأعشى ١ / ٣٠٤ .

أساليب القرآن الكريم لأن فيها حذفاً كثيراً فذهبوا يتأثرونها فى هذا الجانب ، ولا تظن أن الاكتفاء ظهر لأول مرة فى تلك العصور فهو قديم إذ نجده فى العصر الفاطمى عند ابن قادوس [١] كما نجده من بعده فى العصر الأيوبى [٢] ، ونستمر فنجده فى هذا العصر عند ابن نباتة وغيره ، وإنه لينبغى أن نقف وقفة قصيرة عند أشهر كتّاب هذا العصر وهو محيي الدين بن عبد الظاهر حتى تتراءى لنا طبيعة الكتابة فى العصر المملوكى وما تتسم به من شارات أدبية وسمات فنية .

محيي الدين بن عبد الظاهر

عاش محيي الدين فى القرن السابع الهجرى إذ توفى عام ٦٨٢ للهجرة [٣] ، وقد ولى ديوان الإنشاء فى عهد بيبرس وقلاوون وابنه الملك الأشرف خليل [٤] ، وكان له فضل كبير فى وضع مصطلحات ديوان الإنشاء لهذه العصور ، وقد استمر الكتّاب من بعده يلتزمون هذه المصطلحات ، وإن فى هذا الالتزام ما يدل على قيمته لدى معاصريه فقد كانوا جميعاً يُشيدون به ، يقول النويرى : « كان محيي الدين أجلّ كتاب العصر وفضلاء المصر وأكابر أعيان الدول ، والذى افتخر بوجوده أبناء عصره على الأوَل ، له من النظم الفائق ما راق صناعةً وحسناً ، ومن النثر الرائق ما فاق بلاغة ومعنى ، فقصائده مدونة مشهورة ، ورسائله بأيدى الفضلاء ودفاترهم مسطورة ، وكلامه كاد يكون لأهل هذه الصناعة وعليهم حُجّة ، وطريقه فى البلاغة أسهلُ طريق وفى الفصاحة أوضح محجّة » [٥] ، وإذا رجعنا نبحث هذه الطريقة التى يشير إليها النويرى وجدناها هى الطريقة الفاضلية نفسها [٦] ، فمحيي الدين يستخدم البديع ويتصنع لاصطلاحات العلوم ويكثر من الاقتباس لآى الذكر الحكيم ،

---

(١) انظر الخريدة ١/٢٣٠ .

(٢) خزانة الأدب للحموى ص ١٢٦ .

(٣) بدائع الزهور ١/١٢٥ . وانظر فوات الوفيات ١/٢٧١ .

(٤) انظر بدائع الزهور ١/١١٠ وكذلك ١/١١٨ ، ١/١٢٥ .

(٥) نهاية الأرب ٨/٣٠١ .

(٦) فوات الوفيات ١/٢٧١ .

كما يكثر من تضمين الشعر ، ونحن نسوق قطعة من كتاب تعزية كتب به عن المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن يخبره بوفاة ابنه علاء الدين علىّ ، وكان قلاوون عهد له فى الأمر من بعده ، ثم أدركته الوفاة[1] :

« المملوك يخدم خدمة لا يذود المواصلة بها حادث ، ولا يؤخرها عن وقتها أمر كارث ، ولا تنقصها عن تحسينها وترتيبها بواعث الاختلاف ولا اختلاف البواعث ، ويطلع العلم الكريم على ورود مثال كريم ، يتضمن ما كان حدث من رُزء تلافاه الله بتناسيه ، وتوافى هو والصبر فتولّى التسليم بتبيين عاسيه[2] ، وتمرين قاسيه ، فشكرنا الله على ما أعطى وحمدناه على ما أخذ ، وما قلنا هذا جزع قد انتبه ، إلا قلنا هذا تثبت قد انتبذ ، ولا توهمنا أن فلذة كبد قد اختُطفت إلا وشاهدنا حولنا من ذريتنا والحمد لله فِلَذ ، وأحسنّا الاحتساب ، ودخلت الملائكةُ علينا من كل باب ، ووفّانا الله أجرَ الصابرين بغير حساب . . وبكتاب الله وبسنة نبيه صلى الله عليه وسلم عندنا حسن اقتداء نضرب به عن كل رثاء صفحاً ، وما كنا مع الله — والمنة لله — نُعطى لمن يؤنب ويؤبّن أذنا . ولنا بحمد الله ذرّية درّية[3] ، وعقود . . . والشكر لله كلها دُرّية :

إذا سيدٌ منهم خلا قام سيدٌ   قؤولٌ لما قال الكرام فعولُ

ما منهم إلا من نظرَ سعدَه ومن سَعْدُه يُنْتَظَرُ ، ومن يحسن أن يكون المبتدا ، وأن تَسُدَّ حاله بكفالته وكفايته مسدّ الخبر ، (والشمس طالعة إن غُيِّبَ القمر) لاسيما مَن العينُ به إذ هو صلاحُه أعرف ، ومن قيل لبناء ملك هذا عليُّه قد وهَى قيل هذا خير منه من أعلى بناء سعد أشرف . . . والرغبة إلى الله تعالى فى أن يجعل تلك المصيبة للرزايا خاتمة ، وكما لم يجعلها للظهور قاصمة ، فلا يجعلها لعُرا الشكر فاصمة ، وأن يجعلها بعد حَمْل هذا الهم

---

(١) صبح الأعشى ٧/٣٥٧ . ونهاية الأرب ٨/١٠٧ .

(٢) من عسى الليل : اشتدت ظلمته .

(٣) درية : نسبة إلى الدر وهو اللبن ، يريد أنه أشبه أباه وأمه فى الأخلاق والصفات .

وفصاله على عليِّه فاطمة ، وأن يُحَبِّبَ إلينا كل ما يُلهى عن الأموال والأولاد من غزو وجهاد ، وأن لا تقصف أرواحنا إلا فى فَوْد أو فى فؤاد ، ولا تُجَزّ غيرُ شعور ملوك التتار تُتَوَّج بها رؤوس الرماح ويُصْعَدُ بها على قمم الصِّعاد[1] ولا شغل الله لُبَّ المولى بفادحة ولا خاطرة بسانحة من الحزن ولا بارحة ، ولا أسمعه بغير المسرات من هواتف الإبهاج صادحة » .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت للقارئ طريقة محيي الدين ، وهى طريقة تقوم على التصنع وهو تصنع ينتهى به إلى أن يكثر من الجناس المعكوس ، وهو لا يكتفى بهذا الجناس وما فيه من مشقة ، بل نراه يذهب مذهباً بعيداً فى استخدام التورية ، وقد كان يستهدف لها فى جميع كتاباته إذ كانت أهم لون شُغف به الكتاب فى عصره ، وكانوا يدلُّون بها على مهارة الكاتب وبراعته ، وقد وَرَّى محيي الدين فى هذه القطعة مرتين مرة فى قوله : « ومن قيل لبناء ملك هذا عليُّه قد وَهَى قيل هذا خير منه ومن أعلى بناء سعدٍ أشرف » ، فإن كلمة أشرف هنا لا يريد بها معنى الصفة ، وإنما يريد بها الإشارة إلى ولى العهد الجديد لقلاوون بعد وفاة على الملقب بعلاء الدين ، وهو الملك الأشرف خليل ، ونستمر فنجده يورِّى مرة أخرى فى قوله : « وأن يجعلها بعد حمل هذا الهم وفصاله على عليِّه فاطمة » فقد جاء بفاطمة مع على وهو يريد هنا الصفة . وواضح أنه ذكر هنا الفصال حين ذكر الحمل كما ذكر فاطمة حين ذكر علياً ، وهو ما يسمى عند أصحاب البديع بمراعاة النظير . وليس هذا كل ما فى القطعة من تصنُّع ، ففيها اقتباس واسع من آى الذكر الحكيم ، وفيها أيضاً تضمين للشعر ، تارة يضمِّن بيتاً ، وتارة يضمن شطراً فى مثل قوله : (والشمس طالعة إن غُيِّبَ القمر) ، وأيضاً فى القطعة تصنع لذكر المبتدأ والخبر . أرأيت كيف تؤلَّف الرسائل عند أشهر كتاب العصر المملوكى ؟ إنها تؤلف من ألوان البديع واصطلاحات العلوم وتضمين الأبيات والأشعار والاقتباس من آى الذكر

---

(١) الصعاد : جمع صعدة وهى القناة التى تنبت مستوية فلا تحتاج إلى تثقيف .

الحكيم ، وقد أصبحت هذه الأشياء تلصق إلصاقاً وتلفق تلفيقاً ، فليس هناك كاتب ممتاز لهذا العصر إلا وهو يسعى إلى جلب هذه الفنون فى نثره يقتسرها اقتساراً وقد يعتسفها اعتسافاً ، وانظر كيف يجتلب محيي الدين التورية اجتلاباً فى أثناء عهد المنصور قلاوون لابنه الملك الأشرف خليل ، إذ يقول [١] : « كم جلا بهىٍّ جبينه من بَهيم ، وكم غدا الملك بحسن رُوائه ويمن آرائه يَهيم ، وكم أبرأ مورده العذب هيمَ عطاشٍ ولا يُنكر الخليل إذا قيل عنه أبراهيم » .

فقد ورَّى فى أبراهيم ، وأهَّل لتوريته بذكر الخليل وهو لا يريد أبراهيم حقًّا إنما يريد أنه « أبرأهيم » فسهل الهمزة لتتم له التورية . ومن يرجع إلى رسائله المنثورة فى صبح الأعشى يجد كثيراً من توريباته فمن ذلك قوله فى كتاب يصف به فتوح قلاوون فى الشام [٢] :

« كم شكت منه حماة تُشْنِى بنكرها عن قلة الإنصاف ، وكم خافته مَعَرَّة وما من معرَّةٍ خاف ، ما زالت أيدى الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جَوْر جِواره تلك الحصون والصياصى ، وتبكى بمَدْمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيكَ بمَدْمَع العاصى » .

فقد ورّى فى كلمة معرة كما ورى فى كلمة العاصى إذ يريد بها النهر المعروف فى الشام لا الصفة ، ومثل ذلك قوله فى كتاب لأحد ملوك الفرنج : « وكيف فارقنا بلادك وما بقيتْ فيها ماشية إلا وهى لدينا ماشية ، ولا جارية إلا وهى فى ملكنا جارية » [٣] ، فقد ورَّى تورية واضحة فى ماشية وجارية . ومن ذلك أنه استهدف للقب قلاوون وهو المنصور ولقبِ الخليفة العباسى فى عهده وهو الحاكم فقال فى كتاب له : « وكيف لا والمنصور هو الحاكم » [٤] ومن ذلك قوله فى نسخة توقيع برياسة اليهود [٥] :

---

(١) صبح الأعشى ١٠/١٦٨ .
(٢) نفس المصدر ٧/٣٥٥ .
(٣) صبح الأعشى ٨/٣٠٠ .
(٤) نفس المصدر ١٠/١١٧ .
(٥) نفس المصدر ١١/٣٨٧ .

« وليتق الله فيما يَذرُهُ ويأتيه ، ويُحسن فى اجتلاب القلوب واختلابها تأتّيه، وإياه والتّيهَ، حتى لا يقال كأنه بعدُ لم يخرج من التّيه . . . وجماعة القرّائين ، فانصب لأمرهم من لم يتوّله حين يتولّه . . والجزية فهى لدمائكم وأولادكم عطية ، وعلى دفاعها لا دافعها وَصمة . . . ومن قصد منها خلاصه ، فقل له فى الملأ ماذا َخلاصَه » .

وواضح أنه ورَّى فى التيه الثانية فلم يُرد بها الصفة وإنما أشار بها إلى التيه الذى ضَلّ فيه اليهود قديماً مع موسى ، واستمرّ فورّى فى تولّه الثانية كما ورى فى كلمة خلاصه الثانية وهى مركبة من « خلا » وكلمة « صه » بمعنى أسكت. وهذا كله كان يعتبر منتهى ما وصل إليه الفن فى عصر محيي الدين من مهارة وبراعة ، وهى براعة لفظية على نحو ما نرى فى هذه الأمثلة . وإذا تركتَ هذه التورية لم تجد إلا صوراً متكلفة وجناساً معكوساً ولن تجد وراء ذلك إلا تكلفاً لمراعاة النظير وتضميناً للشعر وآى الذكر الحكيم ، وإن سألت عن جديد فلن تجد إلا التصنع لمصطلحات العلوم وخاصة علم النحو كقوله فى رسالة لوزير بتقليد الوزارة فى أثناء كلامه عما نيط به : « وإليه أمر قوانينها ودواوينها وكُتّابها وحُسّابها ، وإليه التولية والصرف، وإلى تقدّمه البدلُ والنعت والتوكيد والعطف »[(١)] ويقول فى مطلع إحدى رسائله :

« نحمده على نعمه التى جمعت إلى الزهر الثمر ، وداركت بالبحر وباركت فى النهر ، وأجملت المبتدأ وأحسنت الخبر »[(٢)] . وهناك رسالة ذكرها له القلقشندى وقد بناها كلها على التصنع لاصطلاحات النحو، وهو يستهلها على هذا النمط[(٣)] :

« حرس الله نعمة مولاى ! ولا زال كَلِمُ السعد من اسمه وفعله وحرف قلمه يأتلف ، ومُنادَى جوده لا يُرَخّم وأحمد عيشه لا ينصرف . . ولا َعدمت نُحاةُ الجود من نواله كل موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصود وممدود ،

(١) صبح الأعشى ١١/٢٧٣ .
(٢) نفس المصدر ١٠/١٧٣ .
(٣) نفس المصدر ١/١٧٦ .

ولا خاطبت الأيام مُلْتَمِسَهُ إلا بلام التوكيد ولا عدوّه إلا بلام الجحود . هذه المفاوضة إليه –أعزه الله – تُفهمه أنا بلغنا أن فلاناً أضمر سيدنا له فعلا غدا به منتصباً للمكايد ، ومعتلا وليس موصولا كالذى بصلة وعائد ، وما ذاك إلا لأن معرفتها داخلها التنكير ، وقدّرَ لها من الاحتمالات أسوأ التقدير ، ونعوتَ صحبته تكررت فجاز قَطْعها بسبب ذلك التكرير . وكان الظن أن الأشغال التى جُمعت له لا تكون جمع تكسير بل جمعَ سلامة ، وآية لا تكلف تعليما على وصول ، لأنه فى الديوان كالحرف لا يخبر به ولا عنه ، والحرف ليست له علامة ، وحاش لله أنْ يصبح مُعْرَبُ إحسانه مَبْنياً » .

وتمضى الرسالة على هذا النمط من التصنع لمصطلحات النحو وكأن الكاتب يريد أن يسلك كل ما يعرفه من هذه المصطحات فى كتابه ، ونعجب نحن الآن من هذا التصنع الثقيل ، ولكنه كان بدعة العصور الوسطى ، وإنه ليطوى فى داخله مدى ما أصاب الكتابة من جمود وتبلور فى هذه العصور فإذا الكتّاب لا يعنون بأساليبهم إلا هذه العناية التى تجعلهم يسلكون اصطلاحات العلوم فى كتاباتهم ، فإن تركوا ذلك فإلى الاقتباس من آى الذكر الحكيم وتضمين الأشعار والأمثال ، وهم دائماً يوشّون كلامهم بفنون البديع وخاصة فن التورية . ومن العبث أن نبحث بعد ذلك عن شىء طريف يمكن أن نضيفه إلى عصر المماليك ، فقد كان كتّابُه مقلدين تقليداً شديداً لفن القاضى الفاضل وما سبق أن رأينا عنده من تصنع وتعقيد ، ولم يستطيعوا أن يستحدثوا من جديد ، سوى أن يغرقوا إلى آذانهم فى هذه الأشكال البديعية والعلمية . ومن الحق أن نلاحظ أن البديع لم يَعُدْ يؤدى عندهم معنى التحسين فى صورة طبيعية فقد خرجوا به عن طاقته التى كنا نألفها وأصبح عندهم تلفيقاً وتلزيقاً ، فالكاتب يتصيد فى رسالته تورية أو جناساً معكوساً أو اصطلاحاً علمياً ليدل على مهارته ، ومما لا ريب فيه أن ذلك كان يفتن الأدباء حينئذ ، وهى فتنة جعلت النثر العربى عملا لفظياً يعنى فيه بالزخرف والتنميق ، لا بالمعانى ولا ما يتصل بالمعانى من فكر دقيق . وهذا كل ما عند القوم : تصنع وتلفيق

وتلزيق . وما نصل إلى أواخر هذا العصر حتى نحس بأن الأساليب فى النثر قد تجمدت وتبلورت ، أو هى تريد أن تتجمد وتتبلور إلا أن تصيبها رجفة شديدة تغير أوضاعها ، ولكن مصر لم يتح لها شىء من ذلك ، إنما أتيح لها ظلام مطبق ، فقد فتحها العثمانيون واستقروا فيها بعد أن قوضوا الحكم المملوكى وأدالوا منه ، فاستولى على الكتابة الفنية جمود شديد ؛ وأصبحنا لا نكاد نجد كاتباً مهماً يمكن أن نقرنه حتى إلى كتاب المماليك .

٧

العصر العثمانى والعقم والجمود

كان من سوء حظ مصر أن اشتبك المماليك فى حروب مع الدولة العثمانية وانتهى الأمر بدخول سليم الأول مصر فاتحاً عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧ م) . وبذلك أصبحت مصر جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ولم يعد لها نفوذ فى سوريا وبلاد العرب ؛ بل أصبحت ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية ، واستمر شأنها كذلك حتى غزاها نابليون عام ١٧٩٨ للميلاد . وما من ريب فى أن هذا الطور من حياة مصر يعتبر أسوأ الأطوار التى مرت بها ، فقد عمها ظلام كئيب وانتشر فيها جوخانق ، إذ أصبحت ولاية عثمانية بسيطة ؛ بعد أن كانت دولة كبيرة . ومن شأن مصر أنها لا تستطيع أن تتنفس وتزدهر فيها الحضارة إلا إذا كانت أمة مستقلة ذات شأن فى التاريخ والسياسة ، أما إذا أصبحت مغلوبة على أمرها فإن أداة العقل والفن فيها تتعطل : وماذا تنتظر من شعب يفقد السيادة على جيرانه بل على نفسه ؟ لا شك أنه يكتئب ، وينكمش منزوياً فى جُدر وطنه باكياً نفسه وتاريخه ولعل ذلك ما جعل المصريين يرثون المماليك رثاء حاراً [١] بل لقد رثوا وطنهم رثاء مُرًّا [٢] ، وحق لهم ، فقد بطش بهم

---

(١) بدائع الزهور لابن إياس ٣/١١١ . (٢) نفس المصدر ٣/١٢٨ .

العثمانيون وأخرجوهم من عزّ إلى ذل ، لا من حيث السياسة فقط ، بل أيضاً من حيث العلم والفن ، إذ أخذ سليم الأول معه كثيراً من العلماء والأدباء والمهندسين وأصحاب الحرف وأدوات الترف [١] ، ولماذا يبقى هؤلاء فى مصر ؟ لقد انتهى عصر المماليك ولم تعد هناك حاجة لفن ولا لصناعة ، فليذهب أربابهما إلى القسطنطينية ، وليذهب معهم العلماء ورجال الفكر ، ولتذهب الكتب والمجلدات التى تعتزّ بها مصر أيضاً حتى تفقد مصر كل ما لها من سيادة عقلية وفنية بجانب ما فقدته من سيادتها السياسية .

لم تعد مصر بلداً عظيماً ، كما كان شأنها فى عصر المماليك إذ كانت بها الخلافة ، وكانت لها السيادة على جيرانها ، وكان لها فى داخلها نشاط عقلى وفنى واسع . أما فى هذا العصر فقد أصبحت ولاية عثمانية يقيم فيها والٍ تركى ، وهذا الوالى له ديوان ، ولكن اللغة الرسمية فى هذا الديوان هى التركية التى يتخاطبون بها مع الباب العالى . ومعنى ذلك أن الدواوين التى كانت تُخرج كبار الكتاب فى العصور السابقة قد أغلقت أبوابها ، فلم يعد هناك مجال لأن يظهر مثل ابن الشخباء أو القاضى الفاضل أو محيى الدين بن عبد الظاهر .

واقرأ فى الآثار الكتابية أثناء العصر العثمانى فستجد هذه الآثار أضعف وأقل من أن تُقْرَنَ إلى أى عصر من العصور السابقة ، وبون بعيد جداً بين كتاب مثل «بدائع الزهور» فى التاريخ وكتاب آخر مماثل له فى عصر المماليك ، فأنت لا تجد عند المقريزى ولا ابن تغرى بردى ركاكة ولا أخطاء نحوية ولا أخرى لغوية كما لا تجد ألفاظاً تركية ، أما عند ابن إياس فإنك تجد ضعف التأليف عامة ، فالأسلوب واهٍ ، والأخطاء النحوية كثيرة والألفاظ التركية منتشرة . وإذا تركت هذا الجانب من الكتابة التاريخية إلى الكتابة الفنية وجدتها تلفيقاً خالصاً من أساليب السابقين ، وهو تلفيق ليس فيه جديد إلا التصنع الشديد لألوان البديع ومصطلحات العلوم . وقد كانت هذه الأشياء توجد فى عصر

---

(١) ابن إياس ٣/١٤٧ .

المماليك فتُقْبل ، لأن الأسلوب كان جزلا رصيناً فيستطيع القيام بها ، أما فى هذا العصر فالأسلوب واه ضعيف لا يكاد يقوم ، ولعل ذلك ما جعل الشهاب الخفاجي يقول فى مقدمة كتابه « ريحانة الألباء » : « إن الأدب فى هذه الأعصار ، قد هبت على رياضه ريح ذات إعصار ، حتى أخلقتْ عُرَى المحامد ، واسترخى فى جَرْيه عنان القصائد ، وتقلصت أذيال الظلال ، وخطب البلاء على منابر الأطلال ، وعفا رَسْمُ الكرام ، فعليه منى السلام »[1] ، وامض فى ريحانة الألباء فستجد صاحبها يتصنع لمصطلحات النحو كما يتصنع لألوان البديع ، وما نزال فى أساليب غثة حتى نُوفى على آخر الكتاب فإذا صاحبه يؤلف مقامات كلها مأخوذة من مقامات الحريرى بألفاظها ومعانيها وأساليبها ، ونحن لا نتلومه كما تلوم هو سرىّ الدين بن الصائغ « لمكاتبات معسولة الألفاظ مدّنسة المعانى جرت بينه وبين ابن نُجَيم وأكثرها من رسالة ابن زيدون منحولة المبانى »[2] فإن هذه كانت طاقة العصر ، إذ لم يعد هناك مجال للتجديد والابتكار ، فالقوم يعيشون على التقليد واجترار أعمال السابقين ، فإن هم تركوا هذا الاجترار والتقليد لم نكد نجد لهم شيئاً فيما يمكن أن نُعنى به ، فقد جمدت الكتابة الفنية بمصر جموداً ، بل قل لقد تحجرت تحجراً ، إذ أجدبت الحياة الفنية ، وأصبحت مواتاً خالصاً أو ما يشبه الموات ولم يعد من الممكن أن تعود لها النضرة أو تدب فيها الحركة ، إلا إذا تضافرت جهود هائلة حتى تخرج من عالمها الكئيب المظلم إلى عالم جديد مشرق ، فيه نور ، وفيه حياة ، وفيه بعث وأمل وابتسام .

---

(١) ريحانة الألباء طبع الآستانة ص ٤ . (٢) ريحانة الألباء ص ٢٨١ .

خاتمة

١

الصورة العامة للبحث

رأينا النثر العربي فى العصر الجاهلى محدود الموضوعات ، فهو لا يتجاوز الخطابة والأمثال وسجع الكهان ، وقد وفر له أصحابه حينئذ ضروباً من الجهد الفنى اصطلحنا على تسميتها باسم الصنعة . ولما خرجنا من الجاهلية إلى الإسلام وجدنا سجع الكهان يختفى أو يكاد ، بينما تتسع الخطابة وتتنوّع تحت تأثير الحوادث الدينية والسياسية . وقد أخذ يظهر بجانب الخطابة نوع جديد لم يكن العرب يعهدونه فى العصر الجاهلى ، وهو الكتابة الفنية ، وتتبعنا نشأة هذا النوع ووضحنا كيف أن الحياة العربية نفسها وما أحدث الإسلام فيها من انقلاب هى التى هيأت لظهوره وتطوره ، وبيّنا كيف أن العناصر الأجنبية أخذت تؤثر فيه ، وما زال ينمو ويرقى ، حتى تمت له صورته النهائية فى دواوين هشام ابن عبد الملك ، تلك الصورة التى عبر عنها — فيما بعد — عبد الحميد الكاتب أجمل تعبير .

ولما انتقلنا إلى العصر العباسى وجدنا طائفة من الأدباء تُعْنَى بالكتابة الطويلة ، أو بعبارة أخرى بالكتب ، وبدأت هذه العناية أولا عن طريق الترجمة على نحو ما كان من ابن المقفع وترجمته لبعض الكتب الفارسية ، ثم أخذ الأدباء بعده يحدثون ما يشبه هذه الكتب ، فظهرت الرسائل الطويلة عند سهل بن هرون والجاحظ . ولاحظنا أن هؤلاء الأدباء أصحاب الكتابات الطويلة كان شأنهم شأن كتّاب الدواوين فى العصر الأموى ، فهل يخضعون فى نماذجهم لطاقة محدودة من الفن هى طاقة الصنعة والتكلف المحدود .

ونحن لا نترك هذه الطائفة فى العصر العباسى إلى كتّاب الدواوين حتى

نجدهم يعنون بحرفة الكتابة عناية بالغة ، وهي عناية كانت تقوم على الزخرف والتنميق ، حتى تتحول كتبهم السياسية إلى وشي وحَلْي خالصين . وما زالت هذه العناية تتكامل حتى كان مذهب التصنيع ، وهو مذهب كان يعتمد على السجع من جهة والبديع من جهة أخرى ، وأستاذ هذا المذهب — غير مدافَع — هو ابن العميد فهو الذى وسّع — لأول مرة — طاقة الزخرف فى تعبير النثر وتحبيره ، وخلفته جماعة أوفت بهذا المذهب إلى الغاية التى كانت تنتظره فإذا كتابتهم زركشة خالصة وما يطوى فى هذه الزركشة من تطريز بالسجع وترصيع بالبديع .

ونستمر حتى أواخر القرن الرابع فإذا الحضارة العربية تتحول إلى فنون من التعقيد فى جميع جوانبها ، ولم يشذ النثر عن هذه الحال ، فقد رأيناه يتعقد تعقداً أتاح لظهور مذهب جديد فى النثر العربى ، وهو مذهب التصنع ، وهو مذهب كان يقوم على تصعيب طرق الأداء وتعقيدها ضروباً مختلفة من التعقيد ، وحقق أبو العلاء لهذا المذهب كل ما يمكن من صور التصعيب ، وتبعه الكتّاب من أمثال الحريرى والحصكفى يحاولون — بكل ما فى وسعهم من جهد — أن يضيفوا عقداً جديدة إلى عقد أبى العلاء كأنما التعقيد غاية فى ذاته ! واستمر هذا المذهب مسيطراً فى المشرق فلم يخرج بعده مذهب جديد ، وإن الإنسان ليخيَّل إليه كأنما تعطلت الأداة العباسية التى كانت تُخرج المذاهب ، فلم يعد هناك إلا الجمود والتحجر الشديد .

وهذه هى موجات الفن أو الصناعة فى تاريخ نثرنا العربى ، وقد ذهبتُ أتتبع هذه الموجات فى أهم الأقاليم العربية وأقصد الأندلس ومصر فوجدتهما تعيشان على تقليد المشرق دون أن تحاول إحداهما أن تحدث توجهاً جديداً ، فقد كان التقليد يعم الأقاليم المختلفة ، وهو تقليد قام على محاكاة النماذج المشرقية فى صور من الاضطراب والاختلاط ، إذ نرى الكتّاب يجمعون فى نماذجهم بين صور المذاهب المختلفة ، وقلما وجدنا من يعيش فى مذهب واحد . وليس معنى ذلك أن مصر والأندلس لم تعبّرا عن شخصيتهما فى أدبهما بل لقد عبّرتا عنها من حين إلى حين ، ولكن فى شكل شاحب ضئيل .

٢

النثر المصرى الحديث

استطاعت مصر فى العصر الحديث أن تنهض نهضة واسعة فى النثر العربى ، وقد بدأت هذه النهضة فى القرن التاسع عشر منذ أرسلت البعوث إلى أوربا ، فإن هذه البعوث لما رجعت أخذت تفكر فى إدخال بعض ما تعرّفت عليه من الآداب الأوربية ، فظهرت فكرة الترجمة ، وبدأت هذه الترجمة مقيدة على نحو ما نعرف عند رفاعة الطهطاوى فى ترجمته « تليماك » ، فإن من يرجع إلى هذه الترجمة يجدها مقيدة بالسجع المتكرر القوافى ، كما يجدها مقيدة بالبديع ، وهو أسلوب لا يختلف كثيراً عما ألفناه فى العصر الأيوبى وما بعده من أساليب . ولكننا لا نتقدم إلى النصف الثانى من القرن الماضى حتى نجد تحولا واسعاً يحدث فى النثر المصرى وصياغته ، إذ ملّ الكتاب زىّ السجع والبديع ، وهو ملل يرجع فى الواقع — إلى أن الذين تعلموا فى أوربا ثم عادوا وأرادوا أن يعبروا فى لغتهم عما تعلموه وجدوا هذه اللغة لا تستطيع أن تؤدى ما فى نفوسهم وعقولهم من معان بسبب ما صارت إليه من التحجر فى أساليب السجع والبديع . حينئذ فكرت هذه الجماعة أن تهجر هذا الزىّ القديم إلى زى أكثر ملاءمة لمعانيها وما تريد التعبير عنه ، وساعدها على ذلك أن مطبعة بولاق أخذت تخرج كتباً لأعلام العباسيين الأول من مثل كتاب كليلة ودمنة ، وليس فيها سجع ولا بديع . وبالغ نفرٌ من هذه الجماعة فدعوا إلى نبْذ اللغة العربية جملة ، وأن يستخدم المصريون مكانها اللغة العامية على نحو ما نعرف عند عثمان جلال . وسرعان ما اصطدمت هذه الجماعة المجددة التى تعلمت فى أوربا بجماعة محافظة لم تذهب إلى أوربا بل اكتفت بما تعلمته فى الأزهر ، وبما عرفته من صياغة السجع والبديع الشائعة ، فنفرت من آراء الجماعة الأولى ودعوتها التى عدّتها خروجاً على التقاليد وانتهاكاً لحرماتها المقدسة .

وفى أثناء ذلك تفد على مصر جموع من الشام ، إما فراراً من الحكم العثمانى وما كان ينطوى فيه من ظلم ، وإما ابتغاء للنجاح الأدبى فى مصر ، وكانت هذه الجموع تتأثر بالآداب الأوربية أوسع مما تتأثر بها مصر ، وذهب فريق منها إلى أمريكا وأنشأوا صحفاً ومجلات هناك ، وهم جماعة أدباء المهاجَر الأمريكى الذين امتازوا بثورة واسعة على اللغة العربية وأصولها .

ونرى من ذلك أن مصر كان بها فى أواخر القرن التاسع عشر أربع طوائف ، وهى طائفة الأزهريين المحافظين ، ثم طائفة المجددين المعتدلين الذين يريدون أن يعبروا بالعربية دون استخدام سجع وبديع ، وطائفة المفرطين فى التجديد الذين يدعون إلى استخدام اللغة العامية ، ثم طائفة الشاميين ، وكانت فى صف الطائفة الثانية ، وما تزال المعارك تشتد بين الطائفة الأولى والطوائف الأخرى حتى تنتصر طائفة المجددين المعتدلين ، فيعدل المصريون فى كتاباتهم إلى التعبير بعبارة عربية صحيحة لا تعتمد على زينة من سجع وبديع ، وإنما تعتمد على المعانى ودقتها على نحو ما نرى فى ترجمات فتحى زغلول وكتب قاسم أمين . وهكذا أتيح لمصر أن تخرج من هذه المعارك التى أقامت فيها لأواخر القرن التاسع عشر حول صياغة النثر بظفر محقق ، إذ اعتمدت على اللغة العربية الصحيحة الحرة الخالية من قيود السجع والبديع واتخذتها أداة للسانها فى كتاباتها. أما العامية فسرعان ما خرجت من بيئة الأدب والأدباء إلى بيئة الفكاهة وصحافتها الهزلية ، فظلت تعيش فيها حتى عصرنا الحاضر ، وأما كتابة السجع والبديع فقد انحازت عن الكتابات الأدبية وإن ظلت تظهر — من آن إلى آخر — على نحو ما نعرف فى «حديث عيسى بن هشام» ولكن الناس ينصرفون عنها تدريجاً ليمكن أن يقال : إنه لا يوجد فى عصرنا الحاضر من يتشيع لهذه الصياغة أو يعنى بها عناية لها قيمة فى أعماله وآثاره ، وربما كانت الصحف من أهم الأسباب التى أعدت لموت البديع والسجع ، فإن كتّاب الصحف مضطرون اضطراراً إلى أن يخاطبوا أوسع مجموعة ، وهذا لا يستقيم لهم مع اللغة المقيدة لأن الذى يفهمها قليلون ، من أجل ذلك عمد أدباء الصحف إلى هجر هذه اللغة المنمقة واعتبروها لغة

بالية ، بل قل لغة ميتة ، لا تصلح لحديث ولا لكتابة ، إذا أريد بالكتابة أن يفهمها الناس . ونحن لا نبعد إذا قلنا إن هذه الجماعة من أدبائنا المحدثين هي التي قضت نهائياً على السجع وأزيائه من بديع وغير بديع ، فتحت أيديها تمّ هذا التحول نهائياً ، وأصبح الناس لا يكادون يلتفتون إلى من يفزع إلى أساليب البديع والترصيع ، إذ يعتبرونه منفصلا عنهم وقلما فكروا فيه أو شعروا به .

٣

بين القديم والجديد

من يتابع نهضة النثر المصرى بعد القرن التاسع عشر يلاحظ أن الصراع بين المحافظين والمجددين يستمر ، ولكن دائماً ترجح كفة المجددين ، وأتاحت لهم الثورة المصرية التى قامت عام ١٩١٩ م أن ينتصروا انتصاراً مؤزراً على إخوانهم من المحافظين ، فقد ثار الناس على قديمهم فى السياسة وثار الأدباء على قديمهم فى الأدب ، وأصبحت لا تجد صوتاً يرتفع بالنصرة لفكرة السجع فضلا عن فكرة البديع . واعدّت هذه الحال لنهضة واسعة فى النثر المصرى الحديث ، فإن من يرجع إلى مكتبتنا الحاضرة يُشرف على اتساع ما احتوته من ترجمات عن الآداب الأوربية ، وكذلك ما احتوته من أعمال أدبية صنعتها طائفة من كتّابنا وأدبائنا على غِرار ما يصنع الأوربيون أعمالهم الأدبية وآثارهم الفنية . ومعنى ذلك أن مصر الآن تعيش فى عصر يعتمد على النقل الواسع من أوربا كما يعتمد على إحداث نماذج أدبية ممتازة فى عالم المقالة والقصة والمسرحية . وقد أخذ الأوربيون أنفسهم يتصلون بما يصدره أدباء مصر من قَصص فترجموه إلى لغاتهم المختلفة ، وبذلك كادت الدورة بين مصر وأوربا أن تتم ، فمصر تأخذ الآن وتعطى .

وهذا المركز الممتاز للنثر المصرى الحديث جعل مصر تتزعم البلاد العربية

فى الحركات الأدبية ، فهى الآن تقوم منها مقام الدفة والمجداف فى السفينة ، فهى التى توجِّه ، وهى التى تثير وتدفع ، ولا يقتصر الأمر على النثر الأدبى الخالص من القصص وما يتصل بها ، بل إنه يتجاوز ذلك إلى البحوث الأدبية وما تخرجه مصر فى النقد الأدبى ، بل حتى ما تخرجه من مجلات وصحف فصُحفها وآثارها تُقرأ فى الشام والعراق وغيرهما من البلدان العربية . وكان يحسن — بجانب ذلك — أن تهتم مصر بما تنتجه هذه البلدان ، ولكن هذا الاهتمام الآن قاصر ، فأنت لا تكاد تجد شيئاً عندنا لمجموعة أدباء العراق والشام وهم كثيرون ، وبينهم الممتازون الذين يحسن أن تقرأ آثارهم ، ومع ذلك فقلما تجد من يعنى بهم بيننا ، وكأنما شغَل المصريين استيرادُ النماذج الأوربية وألهاهم ذلك عن الاهتمام بنماذج إخوانهم فى البلدان العربية .

ومهما يكن فإن مصر تنبعث فيها الآن نهضة أدبية واسعة ، وإنها لأوسع من أن نعرض لها فى هذه الخاتمة القصيرة بشىء من الاستيعاب والتفصيل . على أنه ينبغى أن نلاحظ أن هذه النهضة يطبعها طابع من السرعة فى الإنتاج الأدبى ، وخاصة عند كتاب الصحف المحترفين ، وقد أثرت — إلى حدما — هذه السرعة على الصياغة الفنية للنثر المصرى ، إذ باعدت بين صناعته وبين ما كنا نألفه قديماً من التحبير والتجويد . وحقًّا إن كتاب مصر وفِّقوا فى إبعاد السجع والبديع عن النثر ، ولكن بعضاً منهم تطرفوا فى عدم العناية بأساليبهم وتنقيح عباراتهم ، ولذلك كنت تعثر فى آثار هذه الطائفة على أساليب لم تصقل ولم تجوّد ، وأيضاً قد تعثر على أساليب كثيرة نقلت نقلاً من اللغات الأوربية . ومن المحقق أن هذه السرعة ترجع — فى أغلب جوانبها — إلى العامل التجارى ، فالأديب يخرج الأثر الأدبى ، ثم يرى أنه لو تأنَّى ما استطاع أن يظفر بربح آخر إلا بعد مدد طويلة ، فهو يعدل عن التأنى والتمهل ويتعجل فى إصدار آثاره ، غير مهتم بالتجويد الواسع . وقد يكون من دوافع ذلك أن الجمهور القارئ لا يعرف التجويدَ الفنى منه إلا الأقلون عدداً ، فيعتمد بعض الكتاب على ذلك ويخرجون آثارهم من قصص وغير

قصص من غير تحبير أو افتنان فى التحبير . وبون بعيد جداً بين الطبقة التى كان يُخرج لها أدباء العرب فى العصور السابقة أعمالهم وبين الطبقة الحاضرة التى تَخرُج لها الآن تلك النماذج ، فالطبقة الأولى كانت محدودة بالخليفة أو الأمير وحاشيته وما حوله من أدباء ممتازين وعلماء وفلاسفة ، من أجل ذلك كان الكاتب يجوِّد آثاره منتهى ما يمكن من تجويد . أما فى هذا العصر فالطبقة التى يوجِّه لها الكتَّاب أعمالهم طبقة واسعة من الجمهور ، وأكثر هذه الطبقة حظه من الثقافة العامة — فضلا عن الثقافة الأدبية — ضئيل ومحدود ، ولذلك كان يَقْبل كل ما يقدَّم له . وترى طائفةٌ من الكتاب فى الجمهور هذه الخاصة فلا تريَّث ، بل تتعجل ، وتدفعها هذه العجلة إلى إهمال أساليبها إهمالا من شأنه أن يسقط فى أثنائه كثير من العيوب التى ينبغى أن لا تعتور الأثر الأدبى الممتاز . وإنا لنأمل أن تكون هذه الدراسة للنثر العربى ومذاهبه فى مختلف عصوره وأقاليمه فاتحة لعناية كتابنا بأعمال أسلافهم وتراث آبائهم ، وأن يدفعهم ذلك إلى الصقل والتحبير حتى يحققوا لآثارهم ما يريدون لها من البقاء والخلود .

فهرس الموضوعات

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

* سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة .
الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

* العصر الجاهلى
الطبعة الثامنة ٤٣٦ صفحة

* العصر الإسلامى
الطبعة الثامنة ٤٦١ صفحة

* العصر العباسى الأول
الطبعة السابعة ٥٧٦ صفحة

* العصر العباسى الثانى
الطبعة الثالثة ٦٥٧ صفحة

* عصر الدول والإمارات
الجزيرة العربية – العراق – إيران
الطبعة الأولى ٦٨٨ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

* الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحة

* الفن ومذاهبه فى النثر العربى
الطبعة الثامنة ٤٠٠ صفحة

* التطور والتجديد فى الشعر الأموى
الطبعة السادسة ٣٤٠ صفحة

* دراسات فى الشعر العربى المعاصر
الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحة

* شوقى شاعر العصر الحديث
الطبعة السابعة ٢٨٦ صفحة

* الأدب العربى المعاصر فى مصر
الطبعة السابعة ٣٠٨ صفحات

* البارودى رائد الشعر الحديث
الطبعة الثالثة ٢٣٢ صفحة

* الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية .
الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة

* البحث الأدبى : طبيعته ، ومناهجه ، أصوله ، مصادره .
الطبعة الرابعة ٢٧٨ صفحة

* الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الأولى ٢٥٦ صفحة

فى الدراسات النقدية

* فى النقد الأدبى
الطبعة الخامسة ٢٥٠ صفحة

* فصول فى الشعر ونقده
الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

* البلاغة : تطور وتاريخ
الطبعة الرابعة ٣٨٠ صفحة

* المدارس النحوية

الطبعة الرابعة ٣٧٦ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

* ابن زيدون

الطبعة العاشرة ١٢٤ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

* الرثاء

الطبعة الثالثة ١٠٨ صفحات

* المقامة

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

* النقد

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

* الترجمة الشخصية

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

* الرحلات

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

* المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول – الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثانى – الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

* كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثانية ٧٨٨ صفحة

فى سلسلة اقرأ

* العقاد .

* البطولة فى الشعر العربى

رقم الإيداع	١٩٨٠ / ٣٠٨٣
الترقيم الدولى ٣ – ٢٤ – ٧٣٣٠ – ٢٤٧ – ٩٧٧	ISBN

٧٩ / ٨٠ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)